

يوسف السباعي



مفاتيح

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَقِيبِي

الْجَمْعُ الْبَنَانِيُّ

(٣٦)

مغامرة ..

وصل « على » إلى محطة سيدى جابر وصعد بحقيبتيه الصغيرة التى وضع فيها البيجامة ، وعدة الحلاقة ، وفرشة الأسنان و « الشبشب » فوق الكوبرى الموصل بن الرصيفين .. مندساً بين جمهرة الركاب ، وكان عليه أن يتجه فى أول الأمر إلى نادى الضباط بالسلسلة حيث يستقر إحدى حجراته ويزيل عنه غيار السفر ثم يحاول الاتصال ب « أنجى » تليفونياً .

ولم يكن هناك مفر من السؤال عن السلسلة وعن مكان النادى ، وأحس بمشقة فى السؤال ، والحجل من أن يبدو للناس جاهلاً بمكانه وهو يرتدى الحلة العسكرية .. ولكنه لم يكذب يجتاز باب المحطة حتى سمع صوتاً يهتف به فى دهشة وترحاب :

— على عبد الواحد .. ماذا أحضرك هنا ؟

وتلفت ليجد « عبد العال » أحد زملاء الدفعة الذى التحق بإحدى وحدات المدفعية بالإسكندرية وقد هبط من إحدى العربات « البيك » مقبلاً عليه فى شوق شديد وشدة « على » على يده محبباً وأجابه :

— حضرت لإنجاز بعض الأعمال .

— الميرى ؟

— لا .. عمل خصوصى .

وكيف الحال ؟! لقد أوحشتنا جداً .. إنها مفاجأة لطيفة .. لقد كنت أنتظر البوزباشى محمود خليل قائد ثانى البطارية ولكنه لم يأت .. إلى أين أنت ذاهب ؟

— ٣٩٢ —

— إلى النادى .. أتعرف أين هو ؟
— أعرف أين هو ؟ .. إن بطاريتنا بجواره أيها الجاهل .. هيا بنا احملك إلى هناك .

وانخذ « على » مكانه بجواره وانطلق السائق فى طريقه إلى النادى ، وتساءل
عبد العال :

— ماذا ستفعل فى النادى ؟
— أغتسل وآكل لقمة ، وأضرب تليفوناً ، وأستريح برهة ثم أخرج .
— ولم النادى ؟! كل هذه الأشياء يمكن أن تفعلها عندى فى ميس البطارية ..
سأخذك معى .. لا داعى للنادى مطلقاً .
وأحس « على » بنوع من الفرج ، فقد كان يشعر من النزول فى النادى برهبة
لكل جديد ، ولكنه خشى أن يثقل على صاحبه ، فقال :

— لا أريد أن أضايقك .
— تضايقنى ؟! أهذا كلام يقال بين الدفعة ؟! أضايقك أنا إذا نزلت عندك فى
ميس السوارى ؟

وضحك « على » وأجاب :

— بالطبع لا .
— إذأفلماذا تضايقنى أنت .. سأطعمك طعاماً لم تذق مثله فى حياتك .. إن
طبّاخ الميس قد أعد لنا أكلة سمك هائلة .. وسأجعلك تغتسل وتتكلم فى تليفون
البطارية كما تشاء .. ثم أملكك بعد ذلك بالعربة إلى حيث تريد .. ما رأيك ؟
— لا أظننى أريد أكثر من هذا .

ووصلت العربة إلى البطارية واجتازت البوابة القائمة فى سور السلك الشائك
المحيط بمجموعة الخيام والمدفع ، ووقفت أمام كوخ من الخشب والصاج قد دهن
خارجة بالجير ، ودعا عبد العال علياً للدخول .
وكان الكوخ منقسماً إلى قسمين : قسم رصت به بعض الكراسى الأسيوطى

— ٣٩٣ —

والقش وطقطوقة صغيرة . والقسم الآخر قد توسطته منضدة نظمت عليها
أدوات الطعام ، وبدا به باب صغير يفضي إلى المطبخ ودورة المياه الملحقة
بالكوخ ، وكان المكان مع رخص أثاثه نظيفاً مرتباً ، وكانت ريح البحر تنفذ من
نوافذه رطبة منعشة ، وجلس الصباحبان على الكراسي الأسيوطي ، وصاح عبد
العال منادياً :

— بللافتا .

وأجاب من المطبخ صوت يجيب صائحاً كأنه جرسون في مقهى بلدى :

— أفندم .

وتساءل « على » في دهشة :

— ماذا ناديت ؟

— بللافتا .

— ومن يكون ؟

— طباخ الميس .. اسمه محمود بللافتا .. لأنه يزعم أنه كان قبل دخوله
العسكرية طباحاً في البللافتا .. مع أنى واثق أن أقصى ما عمل فيه هو « غرزة في
عشش الترجمان » .

وأقبل الطباخ .. أسمر الوجه ، لطيف الملامح ، باسم الشجر ، خفيف الدم .
وصاح عبد العال :

— عندنا ضيف يا محمود .. حضرة الضابط « على أفندى » من السوارى ..
وهو يزعم أن أكل السوارى أفضل من أكل المدفعية .. وأريد أن أثبت له
العكس .

وانحنى العسكري على أذن عبد العال يهمس بها :

— من الخير أن يظل على زعمه .. لأنه ليس عندنا طعام ألبة .

— كيف ؟

— لقد تناول زكى أفندى طعامك بعد أن انتظر حضورك مدة ، وظنك لن

تأتى .

— ولماذا لم يتناول طعامه هو ؟

— تناوله .

— وتناول طعامى أيضاً ؟

— أجل .

— إذا أعد لنا طعام حضرة اليوزباشى . إنه لن يأتى .

— لقد تناوله أيضاً . لقد تناول كل ما عندنا .

— يا ساتر يا رب . إذا أقل لنا بيضاً وافتح علبة سردين على قطعة جبن . أعد

لنا « تحبيشة » على مزاجك .

واستدار بللافسنا بحركة مسرحية وانطلق إلى المطبخ .

وقال عبد العال :

— أظنك تستطيع أن تغتسل وتتحدث فى التليفون حتى يعد لنا الطعام .. هيا

بنا .

ونفض الاثنان وأشار عبد العال من النافذة قائلاً :

— هذا هو النادى .. وتلك هى رئاسة اللواء .

واغتسل « على » ، وأشار عبد العال إلى منضدة خشبية صغيرة وضعت عليها

آلة تليفون عتيقة ، قائلاً :

— أية نمرة تريد ؟

— لست أعرف النمرة بالضبط ، . إنى أريد فندق سان استفانو .

— سان استفانو مرة واحدة ؟ من تريد أن تكلم ؟

وبدا التردد على وجه « على » .. أيمكن أن يقول له من يريد أن يكلم ؟! بل

أمعقول أن يتكلم أمامه ؟! وبعد تردد قصير أجاب :

— سأبلغ رسالة لأحد نزلائه .

وضحك عبد العال ، وقال :

— أيها الخبيث .. لا بد أن يكون في المسألة حريم ، سأعود إليك بعد أن أعطى الأوامر للباشجاويش .

وغادر عبد العال الميس وجلس « على » برهة متردداً أمام آلة التليفون ، وبدأ له الأمر معقداً شاقاً .

وأخيراً رفع السماعة ، وبعد برهة أجابه صوت عسكرى التليفون :
— افندم .

— أعطنى لو كائدة سان استفانو .

— من حضرتك ؟

— الملازم ثانى على عبد الواحد .

— دقيقة واحدة ، ضع السماعة حتى أطلب حضرتك .

وبعد لحظة دق الجرس ورفع « على » السماعة وسمع صوت العسكرى يقول :

— مع حضرتك اللو كائدة يا فندم ،

وتسائل على :

— آلو .. سان استفانو ؟

— نعم .. من تريد ؟

وأحس « على » برهة شديدة ، وهم بأن يضع السماعة ، ولكنه ألقى رءساً كأنه يغامر باللقاء قبله ثم يقف لتنفجر فيه :

— من فضلك أعطنى جناح الأمير إسماعيل .

— انتظر على السماعة .

ومضت لحظة كان « على » يكاد يسمع خلالها دقات قلبه وهم بضغمرات أن يضع السماعة ويعدو هارباً من الميس .. كان يخشى أن يجيب عليه الأمير .. ولم يدرك أنه — حتى مع هذا الفرض — يمكنه أن يضع السماعة مكانها دون أن ينطق بكلمة فينتهى الأمر بمتهى البساطة .. بل كان يتخيل أن الأمير لا يكاد يرفع

السماعة حتى يراه ، ويمسك بخنقه .
 وطالت فترة الانتظار .. وأحس بأن يده تصلبت على السماعة .. وأن
 السماعة قد جمدت على أذنه .. وأخيراً سمع صوتاً يأتي إليه نائياً بعيداً من خلال
 التحويلتين .. وكان صوتاً نسائياً .. غير مميز .
 وأحس « على » ببعض الطمأنينة ، وزال عنه الكثير من الرهبة وهو يسمع في
 الصوت النعومة النسائية .. ولكن طمأنينته لم تكن كاملة .. فقد كان لا يستطيع
 أن يميز صاحبة الصوت .

وضغط « على » السماعة على أذنه محاولاً تمييزه وهو يقول :
 — ألومين يا فندم ؟

وزادت دقات قلبه .. حتى بدا كأنه يوشك أن ينطلق من بين الضلوع ..
 كان القلب أكثر تميزاً وأشد إدراكاً .. ومع ذلك لم يشأ المغامرة بالإفصاح ..
 ووجد من الخير أن يتخذ خطوة احتياطية أخرى .. فتساءل :
 — من أنت ؟

وأناه الصوت وقد بدت به رنة ضيق وغضب :

— أنت الذى طلبت الثمرة .. فقل من أنت ومن تريد ؟

وخشى « على » أن يدفعها الغضب إلى أن تضع السماعة وتقطع الخط .
 فأجاب متسائلاً :
 — أنجى ؟

ومضت فترة صمت لم يسمع خلالها رداً .. وخشى أن يكون قد أخطأ
 صاحبة الحديث .. ولكنه ما لبث أن سمع الرد يأتي حاراً ناعماً رقيقاً متهدجاً مليحاً
 بالشوق واللهافة والفرحة :

— على ؟

وأحس « على » من قولها بنشوة عجيبة ، وعاد يردد بلا وعى :
 — أنجى ؟

— ٣٩٧ —

وعاد الصوت يجيبه كالماً أخذ المشدوه :

— على ؟

— كيف حالك يا أنجي ؟ لقد أوحشتني جداً .

— وأنت كذلك .. إني أكاد أجن شوقاً إلى رؤيتك .. متى حضرت ؟ ..

ومن أين تتكلم ؟ .

— أتيت الآن .. وأتكلم من ميس البطارية المجاور لنادى الضباط في

السلسلة .

— وماذا ستفعل ؟

— سأتناول الغداء مع صديق لي .

— ومتى سأراك ؟

— متى شئت .

— أسمع يا على .. إننا مدعوون إلى الشاي في اسبورتنج ولن نطيل المكث هناك

إذ لا بد أن يعود إني إلى القاهرة في قطار السادسة والنصف .. وسأوصله إلى

المحطة وأعود إلى الفندق حوالى السابعة .

وأحس « على » بشيء من الضيق .. إنه يود لو استطاع أن يطير إليها ..

فكيف يستطيع الصبر حتى السابعة ؟

وأردفت « أنجي » تقول :

— ما رأيك ؟ .. أأستطيع أن أراك وقتذاك ؟

— أين ؟

— في الفندق .

— في أى مكان ؟

— سأنتظرك بجوار ملعب الاسكيتنج .

— أين يكون ؟

— أتعرف الفناء المجاور للبحر ؟

وضحك « على » وأجاب :

— إلى لا أعرف أين يكون الفندق .

— إنك لن تجد مشقة في الوصول إليه .. وستجد ملعب الاسكيتنج على يمين الساحة مواجهاً لباب السينما ويمكننا أن ندخل السينما ونجلس فيها كما نشاء .. إن العرض مستمر والدخول مباح في كل وقت ، وهى تكاد تكون خالية .. سأنتظرك في السابعة .. إياك أن تتأخر ؟

— سأتى قبل ذلك .

— سأتركك الآن لأنى أبصر علاء مقبلاً .. إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

ووضع السماعة وهو يود ألا يضعها أبداً .. ولكن كان له في اللقاء المرتقب عزاء عن الصوت الذاهب .

وقيل السابعة كان « على » يهبط من ترام الرمل في محطة « سان استفانو » ويتجه إلى الفندق في حلتة الجبردين وجسده الفارع ، وصدره البارز ، وخصره الذى شده الحزام الجلدى .. ولم يجد المشقة التى كان يتخيلها في الوصول إلى الساحة بعد أن اخترق حديقة الفندق .. وعبر الممر الموصل إلى البهو الفاخر الكبير الذى صفت فيه المناضد وسرت في أرجائه أنغام الموسيقى تعزفها الأوركسترا التى تعلو منصة في أحد أركانها .

وحاول « على » جهده أن يطرد الرهبة التى أحسها من فخامة البناء وأناقة الأثاث وأرستقراطية رواده .. وأن يستشعر بعض الثقة بقدره .. ولكنه بدا لنفسه إنساناً غريباً متضائلاً .. وكأنه وهو سائر ليس هو .

وكانت الساحة المشرفة على البحر والثى يفصلها عن الكورنيش سور حديدى أجرد من الزرع ، قد غصت بالسائرين يتمشون بغير هدف .. لا يرجون أكثر من مشاهدتهم للناس أو مشاهدة الناس لهم ، فهم ما بين عارض ومتفرج ، أو كلاهما في آن واحد .. ولمح « على » كثيراً من وجوه الساسة

وكبار القوم التي لم يرها من قبل إلا على صفحات الصحف .. وأحس من رؤيتها بازدياد رهبته للمكان .. إذ لم يكن يتخيل في يوم أن يضمه وهؤلاء المشاهير مكان واحد .. وأن يراهم رأى العين يسرون بجواره .. بلا مواكب ولا مظاهرات ، وأن يستطيع أن يتحدث إليهم ، أو على الأقل يسمع صوتهم .

واتجه إلى ملعب الانزلاق ، وكان يضج بالصراخ ويعج بالحركة . وقد اندفع الصبيان والبنات على قباقيبهن ذوات العجل صائحين مهللين وكأن بهم مساً من جنون ، ونظر حول المكان باحثاً عن « أنجى » فلم يدها أثر ، ونظر إلى الساعة فوجدتها لم تصل إلى الساعة ، فاتخذ لنفسه ركناً يستطيع أن يرقب منه المكان جيداً ، ووجه شعاع بصره إلى المدخل الذى أقبل منه حتى يصورها بمجرد أن تدخل .

وظل بصره معلقاً بالمدخل لا يكاد ينقله برهة ليفحص ملعب الانزلاق أو رواد الساحة حتى يعيده إلى المدخل ثانية . ولم تستطع الوجوه الجميلة على كثرتها وقربها منه أن تثير اهتمامه ، فقد كان يبدو في وقفته كأنه أحد القناصة يرقب بيندقيته هدفاً معيناً ، فهو لا يستطيع تحويل مراقبته إلى سواه خشية أن يفلت منه . وقبل أن يظهر الهدف سمع صوتاً ناعماً يهتف .

— هس .. ما لك سر حان هكذا .. إلى أين تنظر ؟

والتفت إلى مصدر الصوت فإذا بـ « أنجى » تقف بجانبه ، وقد ارتدت ثوبها سماوياً ، مفتوح الياقة ، قصير الأكمام ، وفي قدميها حذاء أبيض دقيق ، ذو كعب عال ، وقد جدلت ضفائرها وعقصتها في شكل هالة حول رأسها .

وبدت « أنجى » بكعبها العالى ، وثوبها الطويل وشعرها المقصوص ، وصدرها الواضح البروز ، وردفها البادى الامتلاء أسفل خصرها الضيق .. بدت في هيئتها تلك أكثر أنوثه ونضجاً من مجرد صبية مدرسة ، وإن كان وجهها ما زال كما هو ببراءته وطهارته ونبل تقاطيعه وسمو ملامحه .

وشد كل منهما على يد الآخر في شوق ولهفة .. وقد افتر ثغراهما عن ابتسامة

حملت في إشراقها أصدق آيات السعادة وأبلغ دلائل الفرحه والهناء .

وأجاب « على » بقوله :

— كنت أرقب مطلعك ، لأنى ظننتك ستأتين من هذا المدخل .

— أجعلتك تنتظر كثيراً ؟

— عشر دقائق فقط ، لقد كنت هنا من الساعة إلا ثلاثاً .

— لو عرفت هذا لعجلت بالحضور .

وألقت نظرة على مدخل السينما المواجه لهم وأردفت قائلة :

— إن السينما لم تبدأ بعد .. ما زالت الساعة السابعة إلا عشرأ ، ولا أظنها تبدأ

قبل الساعة والرّبع أو الساعة والنصف حتى تكون الظلمة قد خيمت تماماً .

وتلفت « أنجي » حولها وهزت رأسها بحبيبة على تحية فتاة قد مرّت بها ،

وبدت عليها مظاهر القلق ، وأحس « على » أن ذهنها قد شرد ، وبدا له أن

استمرار وقتها تلك قد تسبب لها بعض الحرج وأنه لا بد أن يفعل شيئاً .

وتساءل على :

— أتحبين أن نجلس في مكان ما ؟

وعادت « أنجي » تلتفت حولها في قلق ، ثم قالت وقد صوّبت نظرها إلى

ناحية معينة في الساحة :

— لم أكن أتوقع وجوداً أبناء البرنس كمال هنا . إني أُلح « سهيلة » هناك ،

ولو رأنتي لتحتّم علىّ أن أذهب للبقاء معها .

— أندخل السينما ؟

— إن السينما ما زالت مضيئة .

— ادخلي أنت ثم ألحق بك بعد فترة عندما يطفأ النور ويبدأ الفيلم .

— أخشى أن تأتى « سهيلة » إلى السينما .

ومضت برهة بدا عليها الاستغراق في التفكير .. ثم رفعت رأسها فجأة ،

وكأثما مرّ بذهنها خاطر وجدت فيه الخلاص من المأزق ، وهتفت :

— اسمع يا على .. لددى اقتراح فيه بعض المغامرة .. ولكن ليس أمامنا غيره .
— ما هو ؟

— إن العرب المرسيدس الصغيرة موجودة في الحديقة ولددى مفتاحها فقد تركه
لى السائق قبل أن يذهب . ما رأيك فى أن نأخذها وننتزه بها فى طريق أبى قير ؟
وفوجىء « على » بفكرتها وأحس بخطورة العرض ومتعته فى وقت واحد .
أية فرصة عجيبة تلك التى يمنحها له القدر ! يخرج وإياها فى عربته وحيدين
ليتنزها فى طريق خال ؟! ولكن ألا يحتمل أن يراها أحد ؟ ألا يحتمل .. ؟
ولكن ما هذا السخف ! أتغامر هى بعرض هذه الفكرة ثم يحاول هو مناقشتها
والخوف منها .. ليخرج معها .. وليحدث ما يحدث .

ولكنه لا يعرف قيادة السيارة ، وقد تكون هى معتمدة عليه فى قيادتها .. ولم
يجد بداً من سؤالها :

— أتجيدين قيادتها ؟

وضحكت قائلة :

— لا تخش شيئاً .. سأمشى بها على الرصيف .

— لم أكن أعرف أنك تعلمت القيادة .

— لقد تعلمت فى العام الماضى .. وسبق لى أن « سقتها » كثيراً . لا تخف ..
إذا متنا فسنموت سوياً .. سأسبقك لإخراجها وأرحو أن تنتظرنى قرب الباب
الخارجى .. على ناصية الشارع المؤدى إلى البحر ..

وخرجت « أنجى » وتبعها « على » بعد برهة قصيرة . ووقف ينتظر على
ناصية الفندق ، ولم يطل به الانتظار حتى لمحها مقبلة فى عربة سوداء ووقفت
بجواره حتى ركب ثم انطلقت العربىة .

ومضت فترة قبل أن ينطق أحدهما بكلمة .. كان كلاهما يحس برهبة
المغامرة ، وكانت « أنجى » تحدد أمامها من خلال الزجاج وقد أمسكت عجلة
القيادة وبدا عليها شروء شديد .. إنها لا تعرف كيف أقدمت على هذا العمل .

(٣٧)

لظمة موجة

استمرت العربية سائرة في طريق النخيل .. وكانت الظلمة قد بدأت تخيم ،
والشفق الأحمر يتوارى مخلفاً بقايا داكنة ، أشبه بالرماد .

وخيمت فترة صمت على العاشقين ، وكانت العربية قد جاوزت المنعطف
المؤدى إلى محطة سيدى بشر واستمرت في طريقها إلى أبى قير حتى بلغت تقاطع
الطريق الآتى من المنتزه ، ونظرت « أنجى » إلى ساعتها قائلة :

— لقد وصلنا سريعاً .. ما زالت الساعة السابعة وخمس دقائق .. أتحب أن
نعود من طريق المنتزه .

وأزعجت فكرة العودة « علياً » إذ لم يكن قد مضى على انطلاقهما بالعربة
أكثر من عشر دقائق ضاع نصفها في الرهبة الأولى والخوف من أعين الناس .
وأجاب على نظراتها المتسائلة وقد تمهلت بالعربة كأنما تهم بالدوران :

— ألا تتوقف قليلاً ؟

— هنا ؟

— ولم لا ؟

— إن الظلمة قد أوشكت على السقوط ، والانتظار فى مثل هذا المكان الخالى
غير مأمون العواقب .

— من أى ناحية ؟

— إلى أخاف ليل المزارع ، والطريق مظلم ، والمكان مهجور .

— اتخافين على نفسك وأنا معك ؟

— إلى أخاف على نفسى ، وعليك أكثر من نفسى .

— إذاً لنقف برهة حتى يدهم الليل .. إننا لم نتحدث بعد ، ووحشتى إليك أشد من أن تطفئها هذه الهنياه الخاطفة .

ووقفت العربية ، وبدت على « أنجى » مظاهر القلق والتفكير ولكنها ما لبثت أن التفتت إليه قائلة :

— اسمع يا على .. إن لدى فكرة أفضل كثيراً من هذه الوقفة على قارعة الطريق .

— ما هي ؟

— أن نذهب إلى كايينا في المعمورة .

— وأين هي هذه المعمورة ؟

— في الطريق إلى ألى قير .. إنها لا تبعد عن هنا أكثر من خمس دقائق ، والكايينة تقع على ربوة عالية مظلة على البحر .. ما رأيك ؟

— أهذه مسألة تحتاج إلى رأى ومشاورة ؟! كان يجب أن تتجهى إليها مباشرة .. لماذا لم تفكرى فيها من أول الأمر ؟

— خشيت التأخير ووجود الحارس ، لكنى تذكرت الآن أنه يبيت ليلة الجمعة في بيته وأن لدى مفتاحاً آخر للكايينة مع مفتاح العربية ، وأظننا لو مكثنا هناك نصف ساعة مضافاً إليها ربع ساعة مسافة الطريق لا ستطعنا العودة قبل الثامنة .. هيا بنا .

وأدارت العربية وانطلقت في طريقها إلى المعمورة ، ولم يطل بهما السير في الطريق الرئيسى بين المزارع حتى دلفا يساراً في طريق فرعى قامت عليه بضعة بيوت حمر منحدره السقف ومالبثا حتى انخرقا مرة أخرى إلى اليسار في درب رملى يصعد بين الربا العالية التى تحجب البحر عن الطريق والتى قامت فوق إحداها كايينة مستطيلة مبنية بالحجارة البيضاء ذات سقف خشبى مائل .

ووقفت العربية بجوار الكايينة وهبط منها الصاحبان ، ووقفأ برهة يرقبان البحر وقد انبسط أسفل الربوة على امتداد البصر بزرقته الداكنة في ضوء الأصيل الباهت

— ٤٠٤ —

الخليط من ذيول النهار وطلائع الليل ، وأمواجه المتلاحقة على الشاطئ ،
المنبسطة بعد طول اصطخاب ، الهادئة بعد طول هياج ، المنحسرة عن بقايا الزبد
وحشائش البحر .

واتجهت « أنجي » إلى شرفة الكابينة قائلة :

— هيا نخرج مقعدين من الداخل لنجلس في الشرفة .

وملأ « على » صدره بنسيم البحر وأحس بنشوة عجيبة تتدفق في جوانحه
وهتف « بأنجي » ضاحكاً :

— نجلس !! أيجلس أحد في هذا المراح الطلق .. قولى نعدو .. ننطلق ..

نطير .. نسبح .

وتوقفت « أنجي » ونظرت إليه وهزت رأسها باسمه وأجابت :

— ننطلق .. ونطير ؟ .. بسيطة .. انتظر لحظة .. حتى أبحث لك عن أجنحة

في الداخل .

ودفعت باب الكابينة ودلفت إلى الداخل .. وانبعث صوتها يصيح ضاحكاً :

— لا يوجد هنا أجنحة .. توجد مايوهات فقط .

وصاح « على » من الخارج مجيئاً .

— إذاً نسبح .

وأطلت « أنجي » برأسها من الباب وتساءلت باسمه :

— أتتكلم جاداً ؟! أتريد حقاً أن نسبح ؟

— إى والله .. ولم لا ؟!

وأحس بنشوة شديدة وهو يتخيل نفسه وإياها في هذا الليل الساجي ..
والفراغ الهائل .. ينطلقان فوق الرمال وينغمران بين الأمواج .. ولكنه ما لبث
أن أردف قائلاً في شيء من الخذلان :

— ولكن ليس لذى مايوه !

— لا يهم .. يمكنك أن تستعمل أحد مايوهات علاء .

وصمتت برهة وبدا عليها التردد وهي تردف قائلة :

— ولكن أخشى أن نتأخر ؟

— لن نتأخر إذا أسرعت بارتداء ما يوهك ولم تضيعي الوقت .

— سأخرج إليك حالا .

وأغلقت الباب ، وأخذت في إبدال ثيابها .

ما هذا الجنون الذى توشك أن تفعله !! بل أى شيطان دفعها إلى المغامرة بالحضور إلى هنا فى هذا الوقت ؟! .. وماذا يمكن أن يقول أبوها أو أخوها .. أو أى إنسان عاقل .. لو اكتشف ما فعلت وما توشك أن تفعل ! .. بل ماذا يقول « على » نفسه وهو يراها تخرج إليه مجردة من ثيابها لتعدو معه فى الليل على الرمال وتسبح معه بين الأمواج ؟! .. لا .. لا .. يجب أن تكون أعقل من ذلك .. يجب ألا تندفع بمثل هذا الاستسلام مع رغباتها الحمقاء .. يجب أن تتمسك بأهداب الحياء والروية .. فتلك هى طبيعتها الأصلية .. وخلقها الطبيعى القويم .. كفى ما فعلته من الحمق بالحضور بالعربة إلى هنا .. ولا ضرورة للاندفاع فى الحمق حتى النهاية .. أجل .. أجل .. يجب أن تتوقف عن هذا الجنون .

مع ذلك فقد استمرت فى إبدال ثيابها .. ووقفت ترقب نفسها فى المرآة وقد شدّ المايوه الصوفى الأزرق جسدها الذى لوّحته الشمس .. وأظهر استدارة ساقها واعتدال قدها واتساق أعضائها .. وتوقف تأنيبها لنفسها .. أمام ذلك الإحساس بالرضا عن جمالها والثقة بنفسها .. وطفعت رغبتها فى الاستحواذ على إعجاب « على » على كل رغبة أخرى .

وانطلق ذهنها يبرر كل ما سمته لنفسها جنوناً وحقاً .. أى عيب فى أن يراها بالمايوه ويسبح معها !! ألم تسبح من قبل مع أخيها وأصدقائه السخفاء التافهين ؟! .. أليس هو أقرب إليها منهم جميعاً ؟!

وأى عيب هناك فى أن تحتل من الزمن برهة ممتعة .. تروى نفسها من طول الحرمان وتزود منها لفرقة محتملة .

لا .. لا .. يجب ألا تفسد متعتها المخطوفة المختلصة .. بهذه الوسوس والخواف واللوم والتأنيب .

ليس في فعلها إثم ولا جرم .. لقد عزم كلاهما على أن يكون للآخر .. وصمما على تخطي كل عقبة وإزالة كل سد .. فليس هناك ما يمنع إذاً من أن يهنا بقاء جميل .. ويمتعا بلحظات مرحلة سعيدة .

وكان « على » يجلس في الخارج على حافة الشرفة .. وقد أخذ ينقل البصر بين النجمة الوحيدة وقوس القمر اللذين سبقا بقية النجوم إلى أديم السماء الرمادي الذي لم تنسلخ عنه حواشي النهار ، ولم تطبق عليه جمحافل الليل فتبرز بقية نجومه المتناثرة كحبات الرمل .

وطاف بذهن « على » نفس ما طاف بذهن « أنجي » .. من إحساس بالحمق والجنون .. واللوم على ما فعل وما يوشك أن يفعل .. والخجل من أن يراها مجردة إلا من المايوه وهو الذي كان لا يجسر على أن يوجه بصره إلى ذراعها أو ساقها . وانتهت موجه التأنيب لتعقبها موجه تبرير .

أى حرج عليه في أن ينعم بلقائها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟! وأى حرج في أن ينطلقا في هذا المراح الهائل بين الماء والسماء ؟! أى حرج في أن يراها بالمايوه وهو يشعر أنها قد أضحت ملكه وحده لا شريك له فيها ؟

وفتح باب الكاينة وبدأ هيكلها في الضوء الباهت ممشوقاً رائعاً وارتسمت على ثغرها ابتسامتها المشرقة يعلوها كثير من حياء .. وما لبثت أن اندفعت تعدو منحدره على الرهوة تجاه البحر وهي تصيح :

— سأنتظرك على الشاطئ .. لا تتأخر .

ووثب هو إلى الداخل وهو يهيجها :

— سألحق بك حالا .

وبعد دقائق كان ينطلق في إثرها وقد ارتدى « مايوه » من الصوف وجده ملقى على أحد المقاعد .. ولم يكده يصل إليها حتى اندفع الاثنان في جنون إلى

البحر وقد أمسك كل منهما بيد الآخر وهما يقهقهان في نشوة .
وانغمرا في الماء .. وصاحت « أنجى » فرحة :
— إن الماء لذيد دافئ .. لقد كنت أخشى أن يكون بارداً .. هذه المرة الأولى
أن أسبح ليلاً .

— احذرى الموجه .
وقفزت « أنجى » إلى أعلى قائلة :
— سأركبها قبل أن تركبني .
— هيا بنا نسبح قليلاً إلى الداخل .
— لست أريد أن يتل شعري .
— إذاً سأسبح أنا .

— لا .. لا .. لا تباعد عني .. دعني أمسك بذراعك .. إنى أخاف لون المياه
الداكن ، ويخيل إليّ أن به حيوانات مخيفة ستعضني .

ومدت يدها فتعلقت بذراعه ، وسرى بينهما ما يشبه التيار الكهربى أصاب
كل منهما برجفة ، وأقبلت عليهما موجه لطمتها بشدة ، فصرخت « أنجى »
وهي تزداد تعلقاً به ، وأحس « على » بجسدها يلتصق بجسده في المياه الصاخبة
والزبد المتطاير ، ومس وجهها صدره ، ومس أنفه شعرها ، وانحسرت الموجه
فعاد جسدهما إلى التباعد وإن استمرت أصابعهما متشابكة متعانقة .

وسألت « أنجى » ضاحكة :

— أيرضيك هذا الجنون ؟

— جداً .. نحن مجانين ، والبحر مجنون ، وكل ما حولنا جنون في جنون .
وأقبلت موجه أخرى أعلى من الأولى وأشدّ عنفاً .. وقبل أن يتنبا إليها
لطمتها لكمة ألقت بهما على الشاطئ .

وانحسرت الموجه وخلفتها على الرمال وقد علاهما الزبد وعلقت بهما
الحشائش .

ورقد « على » بجوار « أنجبى » ، وقد انبطح على وجهه يعث بسبابته فى الرمال ، واستلقت هى على ظهرها محدقة فى النجوم المتناثرة ، وقد فكت جدائلها وتهدلت على الرمال ، وبدت قطرات الماء تلمع على وجهها الدقيق التقاطيع ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط فى هدوء رتيب .
وقالت « أنجبى » فيما يشبه الهمس :

— عجيبة هذه الدنيا .. وعجيب ذلك التناقض فى الصور التى نراها بها فى كل ساعة ، بل فى كل لحظة ، وأعجب من هذا وذاك ، ذلك العجز الذى يصيبنا فيجعلنا لا نرى ما بها من جمال إلا بعين أخرى تشارك عيوننا ، وإحساس آخر يعاون إحساسنا .. هذه السماء الجميلة ، وهذا البحر الرائع ، بل كل مظاهر الطبيعة الأخرى .. لم يعد لى إحساس بما فيها من جمال إلا عن طريقك .. ليست لها قيمة إلا وهى مقرونة بك .. أو بذكراك .

وانتقلت أصابع « على » من العث فى الرمال إلى العث بجداولها .
وأخذ يلف طرفها على سبابته ، ثم يتخلل شعيراتها بأصبعه وقرب منها أنفه يشمها فى شوق وحنين وهمس بجيباً :

— أنا أيضاً لم أعد أبصر الدنيا إلا من خلالك .. من خلال صورتك فى ذهنى ، وهمساتك فى أذنى ، ومن رسائلك أمام عينى . لو قلت لك ما فعلته بى رسالتك لما صدقتنى ، لقد حببت لى ما كنت أراه ثقيلاً بغيضاً ، وجعلتنى أجلس على حوض « السقية » وكأنى على غدير فى الفردوس ، وأسمع فى سهيل الخيل أعذب الموسيقى وأجمل الأنغام .

— كان يجب على أن أكتب إليك قبل هذا . كان يجب على كليتنا ألا نقبع ننتظر منح الأقدار وكرم الصدف ، ما دمننا قد عزمنا على ألا نفترق فيجب علينا أن نقاوم كل وسائل الفرقة .

— لن يفرقنا بعد الآن شيء .

— ٤٠٩ — .

وسرى أنفه من جدائلها إلى سوائفها ومست شفتاه — على غير قصد — أذنها ، فأصابتها من المسة رجفة سرت أوصالها ، ومدت يدها لتحسس رأسه ، وأخذت أصابعها تعبت في شعره ثم مالت برأسها ناحيته ، فمست شفتاه كتفه ثم تسللتا إلى عنقه وظلتا تتحرران ببطء إلى أعلى حتى وصلتا إلى ذقنه ، ومسّ أنفها شفتيه .

ومضت فترة وشفته على أنفها ، يحركهما على طاقتيه الضيقتين وعلى أرنبته الرفيعة في أناة ورفق ، هذا الأنف الذى طالما رmqه فى وجد واستيقاق وتمنى لو استطاع أن يمسه بطرف أنامله قد بات طوع شفتيه . وأحس بالأنف ينساب إلى أعلى وبشفتيه تنزلقان إلى أسفل ثم تستقران على موضع أكثر انطباقاً وأفضل ملائمة وأشد حرارة .

وساد سكون وran صمت ، والشفاه مطبقة ، والأنفاس متوقفة ، كأن الكون كله قد كتم أنفاسه ، ووقف يرقب وينتظر خشية أن تبدو منه حركة تزعج الشفاه الملتصقة .

ورويداً رويداً زاد ضغط الشفاه المتماسّة وانفرجت حتى تماسّت الأسنان ، وامتد ذراعاً « أنجى » ليطوّق الصدر العريض ويضم الرأس المبتل المنحنى على رأسها .

وافترقت الشفاه بعد لقاء حار طويل ، وبدأت الأنفاس متلاحقة والصدور صاعدة هابطة كأن أصحابها فى سباق .

وفتحت « أنجى » عينها ورمقها « على » هامساً :

— أنجى ؟

— على ؟

— أتحيينى ؟

—

— قولى يا أنجى .. أتحيينى ؟

— ٤١٠ —

— سل عيني ، ألا تجد منهما جواباً ؟ ألا ترى فهما شيئاً ؟
 — بل أرى كل شيء .. ولكن وددت لو سمعت من شفتيك .
 — أحبك .. أحبك بكل نفس يتردد في جوانحي .. وكل عرق ينبض في قلبي .. أحبك بأكثر مما تعنيه كلمة أحبك .. أحبك .. أحبك .. ولو استطعت لما نظقت في حياتي بكلمة سواها .. أحبك .. أحب
 وقطعت الكلمة شفتاه المنطبتان على شفتيها ، الهامستين في إطباقهما للكلمة الذائبة : « أحبك .. أحبك » .
 وافترقت الشفاه ثانية تستجديان من أصحابها فترة راحة ، ونظرت « أنجي » إلى القمر المطل والنجوم الرانية وهتفت :
 — لقد تأخرنا يا على .. لا بد أن نعود الآن .
 — ما زال الوقت مبكراً .
 — بل سرقنا الوقت .. هيا بنا . إني أحس برجفة برد .
 ونهضت « أنجي » وانطلقت تعدو تصعد الرتبة ، و « على » في أعقابها ، واختفت داخل الكابينة ، وقبل أن تغلق الباب وراءها مدت يدها إليه بمنشفة قائلة :
 — جفف جسدي حتى لا تبرد .. لقد بدأت رطوبة الليل .
 وتناول « على » المنشفة وأخذ يحفف بها صدره وأطرافه ، ولم يطل غياب « أنجي » في الداخل حتى بدت على الباب وقد ربطت شعرها بإيشارب حريري دون أن تضع على وجهها أى نوع من الأصباغ وقد أمسكت بالساعة في يدها وهتفت بعلى :
 — تصوّر لقد بلغت الساعة الثامنة والنصف . هيا بنا بسرعة لقد تأخرت .
 ودلف « على » إلى الداخل قائلاً :
 — حالا .. دقيقة واحدة .
 وبعد بضع دقائق كانت العربة تتلمس طريقها بأضواء المصابيح في الظلمة

الشاملة ، وسرعان ما وصلت إلى الطريق الرئيسى واندفعت تنهب الأرض في طريقها إلى الفندق .

وخيم الصمت خلال العودة على العاشقين ... وانطلق ذهنهما في دوامة الأفكار المحتشدة التي كان ولا بد أن تعقب فترة الاندفاع الجنوني التي مرت بهما بلا تفكير .

لم يكن « على » يتصور وهو في طريقه إلى الإسكندرية أنه يمكن في هذه الفترة القصيرة أن يقطع معها كل هذه المرحلة الشاسعة ، لم يطف بذهنه قط أنه سيحتضنها وسيقبلها وهما بشباب البحر .. لم يكن يرجو هذا ولا يأمل فيه ولا حتى يحلم به ، بل لم يكن يجروء على التفكير فيه ، ولو جرؤ لتهى نفسه عنه وطرده شبحه عن ذهنه ، كما نطرد عن أذهاننا أى تفكير فى منكر أو خطيئة .

ومع ذلك فقد حدث على أبسط صورة وأيسر وجه ، حدث بلا جهد ولا مقدمات ، وكأنه شىء طبيعى كان يجب أن يحدث ، وهو لا يشعر من حدوثه بحرج ولا ندم ، بل يحس بمزيد من لهفة ومزيد من حنين وشوق .

ولم تكن هى أقل منه إحساساً ، بالنشوة والحنين ، بل كانت تشعر بفراط تقاربهما وتوثق عرى الروابط التي تصل أحدهما بالآخر .

ولم يفكر كلاهما فى قرب الفرقة ، ولم يضق بها ، فقد أضحى الإحساس بالتقارب أقوى من الإحساس بالفرقة ، بل لم يعد أحد منهما يشعر أنه يمكن أن تكون بعد ما حدث فرقة .

وافترقا قرب الفندق بعد الاتفاق على لقاء الغد ، وعاد « على » إلى صاحبه بميس البطارية ، وعادت هى إلى الفندق ، وبفسيهما نشوة الثمالي وطرب السكارى .

ووصل « على » إلى ثكنات البطارية وعبر البوابة مجيئاً على تحية جندى القره قول ، واتجه إلى كشك « الميس » فوجده خالياً إلا من أحد الجنود السفرجية ، وسأل عن « عبد العال » فعلم أنه ينتظره فى النادى .

وأصلح « على » من هندامه ، واتجه إلى النادي ، ولم يكن يعد عن البطارية إلا بضع خطوات ، وعبر الحديقة الصغيرة أمام واجهه النادي المشرفة على البحر ، وأحس بالرهبة وهو يجتاز الباب المفضي إلى البهو الرحب الذي عقلت في صدره صورة كبيرة تمثل « الملك » في طاوور التتويج وقد امتطى حصانة وسار وراءه رجال الياوران ورئيس هيئة أركان حرب بجيادهم . وكانت رهبة « على » وارتباكها ناتجة عن ازدحام البهو بخليط من كبار الضباط ومختلف الرتب الأخرى الذين لا يعرف معظمهم ، وهم بالانسحاب لولا أن رآه « عبد العال » وكان يجلس بجوار الراديو فنادى :

— على

واتجه « على » إليه وقد أحس بنوع من الطمأنينة وهو يرى بجواره بعض معارفه من ضباط الدفعة والضباط الآخرين الذين حضرهم في المدرسة . وتلقاه الزملاء في ترحاب وشوق وأفسحوا له مكاناً بجوارهم . وجرى الحديث مختلطاً متنازلاً ، أسئلة من هنا وأجوبة من هناك ، وأسئلة بلا أجوبة ، وأجوبة بلا أسئلة ، وثرثرة وإشاعات ، ومناقشات على غير موضوع ، أو على موضوع ليس عليه خلاف ، وبالتالي ليس هناك وجه للمناقشة فيه ، وأحاديث عن القشلاقات والمدافع ، وعن النوبتجية . ولم يستطع « على » أن يركز ذهنه في هذا الخلط المشوش ، وجذبه أقرب صوت محبب إلى مسامعه وهو صوت « عبد الوهاب » يترنم في الراديو بقصيدة « أعجبت بي » ولم تكد تنتهي القصيدة ، حتى جذبه « عبد العال » من يده قائلاً :

— قم نتعش .

وعلى مائدة العشاء جرى الحديث في السياسة . وأخذ « على » يتناول طعامه وهو منصت برغمه إلى المناقشات الدائرة .. مشترك من آن الآخر بكلمة أو كلمتين حتى لا يتهمة « عبد العال » كما اتهمه وهم جالسون أمام الراديو ..

— ٤١٣ —

بالعشق والسرحان .

قال عبد العال :

— إن الوزارة تلفظ آخر أنفاسها .

وأجاب اليوزباشى محفوظ أركان حرب اللواء :

— هذه نتيجة محتومة لسياسة الاستثناءات ومنظمات القمصان الزرق التي انتشرت في أنحاء البلاد .

ورد « كمال » أحد ضباط المشاة :

— على أية حال لا بد للوفد من هذه الاستثناءات لكي يسترضى أنصاره .. ولا بد له من تلك المنظمات الشعبية حتى يؤمن نفسه ضد عصف الطغيان به وبالبلد وهو خارج الحكم .

وأجاب عبد العال :

— هذه سياسة خاطئة .. إن كل موظف يرضيه من أنصاره يفضب به آلافاً من غير أنصاره .. ليس أغضب للموظفين من هذه الاستثناءات الصارخة .. ومنظمات القمصان الزرق ليست منظمات شعبية .. إن الشعب شديد السخط عليها .

— على أية حال هذه الاستثناءات طبيعية لكل الوزارات الحزبية .. وإن كانت تبدو في الوفد على نطاق واسع فلأن نفوذه أقوى وأنصاره أكثر .. ولست أظن هذا هو السبب في ذلك التداعى الذى تراه في الوزارة .

— ما السبب إذاً ؟

— إن المعول الأول الذى تسبب في صدع بنيانها هو خروج ماهر والنقراشى .

— ولكنهما خرجا بسبب هذه الاستثناءات ؟

— من يدري ؟

— ماذا تعنى بقولك « من يدري » ؟! وهو سبب جلى واضح ؟

— إن هناك أسباباً أخرى .. هناك مناورات خفية للإيقاع بالوفد تنسج

خيوطها في القصر .. فالقصر يخشى قوة الوفد ويخشى تضخم القمصان الزرق .
— القصر ليس له شأن بالوفد ولا بغيره . إن « الملك » فوق الجميع .. وهو بعيد عن المناورات السياسية .

— لست أقصد « الملك » بل أقصد رئيس الدايوان .. إن « على ماهر » ليس بالرجل السهل .. إن كل المراسيم المرسلة من الوزارة إلى القصر معطلة وسترى أن الوزارة ستسقط صريعة في القريب العاجل .. على يد رئيس الديوان ، وسيكون هو إن شاء الله ورثها الشرعى في الحكم .
— وكيف يحكم ؟ وإلى من يستند ؟

— يستند إلى الفريق الآخر .. الفريق المعارض .. يؤلف منه (تيما) يساند بعضه البعض .. ويطعمه بالفريق المنشق من الوفد .. فريق النقراشي وماهر .. أعرفت لِمَ خرجا على الوفد ؟ إنها مؤامرة ماهرة .

— كلام فارغ .. أنت حسن الظن جداً بعلى ماهر .. إن خروج أحمد ماهر والنقراشي ليس له أية صلة بعلى ماهر .. إن الوفد يقتل نفسه بنفسه .. إن سوس الفساد ينخر في عظامه ، وقد بدأ يفقد سيطرته الشعبية . ألا تسمع الهتافات في مظاهرات الجامعة ، إنها كلها مضادة للوفد هاتفة بسقوطه ، لقد كان الوفد قوياً كحزب مجاهد مناضل ، أما الآن فقد فقد سلطانه على الجماهير ، بعد أن انتقل من الأرصفة إلى الأرائك وبعد أن ترك النضال لينعم بمغامته ويتقاسم أسلابه .

وصمت عبد العال ، ثم انطلق من شفثيه السؤال الذى كان « على » يتوقعه بين آونة وأخرى وكان يجاهد في تركيز ذهنه وتتبع الحديث حتى لا يؤخذ به على غرة :

— ما رأيك أنت يا « على » ؟

— رأى أن الوفد .. ككل حاكم يفقد سلطانه الشعبى بمجرد أن يعتلى الحكم .. إن بغض الناس للحاكم أمر طبيعى . وصدق قول الشاعر :

— ٤١٥ —

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الحكم ، وهذا إن عدل
هذا هو السبب الأول في زلزلة الثقة بالوفد . فلو أن الوفد قد عدل في
حكمه ، لفقد حب نصف الناس ، وإن هو لم يعدل ، فقد أضاع الحب ب كله ..
على أية حال لا بد له أن يرمى مرة أخرى على الأرصفة ويدعو الناس معه إلى
الجهاد .. حتى يستعيد ما فقد .

(٣٨)

قلبان فى قلب !

عاد « على » إلى القاهرة بعد لقاء آخر « لأنجى » فى الفندق ما بين القاعة والساحة وملعب الانزلاق والسينما ، وكشفت اللقاء « سهيلة » وبعض صديقات « أنجى » ، وأصابها القلق فى أول الأمر ، ولكنها ما لبثت أن قذفت الأمر كله وراء كتفها عازمة على ألا تعبأ بأحد أو تخشى أحداً .

وتحقق قول سليمان الذى ودّع به « علياً » فى المحطة عند ذهابه إلى الإسكندرية ، ووجد « على » نفسه قد نقل إلى الآلاى الأول سيارات خفيفة ، كما نقل إلى الآلاى الأول دبابات خفيفة ، وهما الآلايان الميكانيكيان الجديدان اللذان أنشئا فى السوارى واللذان كانا بداية تكوين جيش جديد غير هذا الجيش الهيكلى الذى كان لا يستعمل إلا فى الموالد والجنازات .

وضاق « على » بالنقل فى أول الأمر فقد أحب الخيالة ، أحبها نجيلها واسطبلاتها وجنودها وعلائقها وسبلتها ، أحبها بكل عظمتها الظاهرة للناس فى الطوابير ، وبكل قدارتها المخفية عن أعينهم فى الاسطبلات .. أحب عملها الكثير المرهق ، وواجباتها التى لا تنتهى .. أحب صوت الحديد فى أكياس التين وهو يهز — أو على تعبیر السوارى — « بهرش » .. وأحب الجلد الغريق فى الدبن والصابون .. وأحب السروج اللامعة .. والركابات البرّاقة .. أحب طرقات المهاميز ، وانطلاق الخيول من الاسطبلات تعيث فى القشلاق فساداً .

ولكنه مع ذلك لم يملك إلا الانضواء تحت آلايه الجديد واستبدال « الأفر أول » البنّى بينطلون الركوب والحذاء الطويل والتزول أسفل العربات بالصعود على ظهور الخيل ، والبنزين والزيت والشحم بالتين والنخالة .

وأحسن في عمله الجديد روحاً جديدة .. روحاً ناهضة وثابة .. وتحقق ما قاله له سليمان من أن البعثة العسكرية البريطانية تعمل جادة في التدريب والتسليح .. فقد عقدت الفرق المختلفة للتدريب على استعمال المدافع الخفيفة ، وعلى قيادة السيارات والصيانة ، وتسلم آلاى الدبابات أول فوج من الدبابات الخفيفة التي كانت على ضالة حجمها تشيع بين جدران السوارى إحساساً بالفخر والقوة في كل غدوة لها وروحة .

وتحققت نبوءة « عبد العال » السياسية وتزلزل عرش الوفد ، وأقيل من الحكم إقالة أحاط بها نوبة رضاء شعبى لم يعهدها الوفد من قبل في حياته السياسية ، ولكن الدور لم يكن قد حل على « على ماهر » لورثة الحكم .. فاستمر في رئاسة الديوان بمسك في الخفاء بخيوط رفيعة قلقه .. وتولى الحكم « محمد محمود » رئيس الأحرار مستنداً إلى برلمان تعاونت فيه الأحزاب المعارضة للوفد .

وسمحت الفرصة لعلى بالسفر في هذا الصيف مرة أخرى ، فقد طلب « الملك » مشاهدة مدفع خفيف وصل أخيراً إلى السوارى وكلف « على » بحمله إلى الإسكندرية ليعرض على « الملك » في قصر رأس التين .

وكانت المهمة ثقيلة رهيبة .. فقد كانت المرة الأولى أن يدخل قصرأ ملكياً .. وهو يهرب كل جديد .. فما بالك إذا كان هذا الجديد قصرأ ملكياً !

ومع ذلك فقد هانت مشقتها لأنها أتاحت له فرصة السفر إلى الإسكندرية .. ولقاء « أنجى » .. ووصل إلى الإسكندرية قبيل العصر واتجه إلى القصر رأساً ومعه الجندى الذى يحمل المدفع .

وقاده الحرس إلى حجرة الباور النوبتجى فحياه في ترحيب رقيق وسأله أن ينتظر حتى يرفع الأمر للمسامع الملكية .

وبعد برهة قصيرة طلب منه ان يتبعه بالمدفع .. وسار « على » وراء الباور بخوض في ممرات طويلة وأبهاء رحبة متسعة .. ولم يحاول أن يعي الطريق .. ولم يستطع ذهنه أن يلتقط تفاصيل ما حوله .. فقد أصيب من فخامة نقوشها وأبهة (رد قلبى — ج ٢)

أثائها .. بما يشبه الذهول .

وأخيراً وصل إلى حجرة متوسطة الحجم عارية الجدران قد خلت إلا من بضعة مقاعد وأريكة ومكتب وبعض أسلحة وآلات ميكانيكية .. ووسط الحجرة وجد شخصاً عارياً إلا من البنطلون وقد بدا جسده ضخماً أبيض غزير شعر الصدر مائلاً إلى السمنة .

وذهل « على » فقد كان الواقف أمامه هو « الملك » نفسه . ولم يكن « على » يتصوّر قط أن يراه وجهاً لوجه .. فقد كان كل ما يتوقعه أن يسلم المدفع لأحد الأمناء أو التشريفاتية أو أى إنسان آخر ، ويتولى هو توصيله إلى « الملك » . ولو أنه قد تخيل لقاء « الملك » لما خطرت له مثل هذه الصورة العجيبة ، فقد كان لا يمكنه أن يتخيل « الملك » إلا مشدوداً بالكسوة المزركشة ، متمنطقاً بالسيف ، محاطاً بهالة من الفخامة والأبهة .. وحشد من رجال الياوران والأمراء والكبراء والوزراء كما تعود أن يرى موكبه في صور الاحتفالات والاستقبالات .

أما أن يقف هكذا أمامه عارياً في هذه الحجرة البسيطة المجردة فذلك ما لم يخطر له ببال .. وما لا يستطيع تصديقه رغم رؤيته رأى العين .

ورحب به « الملك » بصوت جهورى ، وأقبل على المدفع يفحصه فحصى عارف خبير ، ثم طلب منه أن يتركه ويتفضل ، وأمر الياور النوبتجى أن يعد له غداء إذ لم يكن قد تناول الغداء ، وأن يعد له مكاناً للمبيت معه إذا أراد المبيت . وغلب رضاه بتلطف « الملك » وترحيبه به وحسن لقائه له .. دهشته الأولى التى أثارها وقوف « الملك » عارياً بصدرة المكنتز وشعره الكثيف ، وبعثه الرضا عليه أن يرد عمله هذا إلى البساطة والديمقراطية بدلا من الشنود .. وكانت حصيلة مشاعره نحو « الملك » فى هذا اللقاء .. هو الإعجاب والتقدير .

وعاد « على » إلى القاهرة بعد أن اختطف لقاءين مع « أنجى » أحدهما فى سينا الفندق ليلا ، والآخر فى الكاينة نهراً .. رشف فيهما من كؤوس الحب ما أطفأ

به ظمأه ، وأشبع نهمه .

وقص « على » على سليمان مارآه من « الملك » فأدهشه ما سمع ، ولم يقر في نفسه ذلك العرى الذى ظهر به ، ولكن عين الرضا — الكليلة عن كل عيب — أرجعته — كما أرجعه على إلى البساطة والديمقراطية وإن كانت أقوال الرواة بعد ذلك قد أخذت تكرر من حوادثه ما أكد حمقه وشذوذه .

وكانت أولى الروايات هى مارواه أحد زملائهم ؛ وكان أبوه يشغل منصباً كبيراً فى وزارة المالية عن حادثة سمعها من وزير المالية وقتذاك وهو أحمد ماهر .

روى الزميل أنه حدث فى إحدى اجتماعات اللجنة المالية التى يرأسها الوزير أن دق التلفون ، ورد الوزير وتحدث برهة وقد بدت عليه أقصى مظاهر الاهتمام ، ولم يكذبته من المحادثة حتى نهض من مقعده قائلاً لأعضاء اللجنة : — عن إذنكم يا جماعة .. سأضطر إلى مغادرتكم لأن « الملك » قد استدعانى لمقابلته حالا .. لا بد أن المسألة خطيرة .. أرجوكم .. استمروا فى الاجتماع حتى أعود إليكم .

واندفعت اللجنة تتساءل عن الأمر الخطير الذى استدعى « الملك » من أجله وزير المالية ، وأخذت التكهنات تتناقل ، وجرم الكل بأن الوزارة استقالت ، وأنه سيكلف بتشكيلها من السعديين وحدهم .

وأخذ الأعضاء يتساءلون عن مصير البرلمان ، وهل سيعطى الدستوريون ثقتهم للرئيس السعدى أم أن للسعديين أغلبية تكفل لوزارتهم الاستقرار ، أم أن هناك بعض عناصر أخرى مرجحة ستنتضم للسعديين .

واستمرت التكهنات حتى أقبل وزير المالية وقد علت ثغره ابتسامة مريحة .
وتساءل الأعضاء :

— خيراً .

— لا شيء .. مسألة بسيطة .

وسأل أحد الأعضاء :

— ٤٢٠ —

— استقالت الوزارة ؟

— استقالت .. له ؟

— ظننا من هذا الطلب المفاجيء أنك قد استدعيت لتشكيل وزارة جديدة !

وقهقهه وزير المالية وأجاب :

— لا .. لا .. المسألة أبسط من هذا كثيراً .

— ماذا حدث إذا ؟

— لقد ذهبت إلى القصر ، وفي لحظة وصولي مثلت أمام « الملك » . فوجدته

واقفاً في إحدى قاعات القصر لا يرتدى سوى البنطلون وقد بدا هائجاً ثائراً ..

ولم يكذب يراني حتى اندفع ينزع الأبسطة المفروشة في الأرض ويمزقها شرمزق

صائحاً : « أهذه السجاجيد الممزقة البالية يصح أن تكون بالقصر الملكي ؟! لقد

أحضرتك حتى ترى بعينيك وحتى لا تعود بعد ذلك إلى تخفيض اعتمادات

القصر . انظر بنفسك . ألسنت وزيراً للمالية ؟ » .. ولم أملك سوى الأسف

والاعتذار والانسحاب .

وأكد لعلى وسليمان هذا الاندفاع والحمق الرواية الأخرى التى كانت

تتناقلها الألسن عن « الملك » عندما ربط محطة سكة حديد القبة في إحدى

العربات ثم ساق العربة ونزعها من مكانها .

ومع ذلك فلم تزعزع هذه الروايات من مكانة « الملك » في نفسيهما .. كانا

يريان فيها — إذا صدقت — نوعاً من اندفاع الشباب وقوته .

وانقضى الصيف . وعادت « أنجي » من الإسكندرية . وأقبل الشتاء ولم

يعدما اللقاء بين حين وآخر بفضل إصرارهما عليه ومغامرتهما به .

انهمك على وسليمان مع آلاياتهما خلال الشتاء في الاستعداد للتدريب

المشترك ، وانتهى تدريب الجماعة والبلوك والأورطة في الأراضى الواقعة حول

طريق السويس .. وأجريت عدة مشروعات تكتيكية على تحتة الرمل بواسطة

البكباشى الإنجليزى مستشار البعثة ، وكان الرجل بادى الإخلاص والاجتهاد .

وفي فبراير بدأ التدريب المشترك في وادي النطرون ، وتحركت الدبابات والسيارات إلى المعسكر الذي أعدها قرب استراحة شل ، وانتهت المناورة وعاد « على » بعرياته مرة أخرى إلى كوبرى القبة ، وما لبث قليلا حتى تحرك ببلوكه في رحلة استكشافية في الصحراء الغربية ، مصطحباً إحدى بلوكات الجيش البريطاني ليختبر مدى قدرة العربات الخفيفة والمدرعة على السير في صحارى مصر .

وحل صيف ١٩٣٨ وتخرج حسين من مدرسة البوليس وعين في الإسكندرية . واستطاع « على » الحصول على أول إجازة له وكانت « أنجى » قد رحلت إلى الإسكندرية فرحل « على » ليقضى إجازته هناك ، ونزل مع أخيه في حجرة في أحد البنسيونات .

واستمتع على و « أنجى » في ذلك الصيف بأسعد أيام حياتهما ، إذ لم يكن يمضى يوم دون أن يلتقيا فيه ، إما صباحاً في جوف البحر على متن الأمواج وعلى الصخور ، وإما ليلاً في « سان استفانو » حيث استطاع أخوه بقدرته كضابط بوليس أن يحضر له بطاقة دائمة للدخول ، وبطاقة أخرى لركوب ترام الرمل . وانقضى الصيف حاملاً أطيب ذكريات الحياة .. وأجمل أيامها .. وأقبل شتاء جديد .

وزادت رغبة اللقاء بين « أنجى » و « على » بعد أن عودهما الصيف على اللقاء اليومي ، وجعلت كليهما يحس بضياغ اليوم الذى لا يلتقيان فيه من عمرهما سدى .. وبدأ التحايل على اللقاء والمغامرة به يشغل كل تفكيرهما ويحتل كل وقتها ، واتخذوا من دور السينما والكازينوهات الخلوية في المعادى والهرم ومصر الجديدة أمكنة للقاءهما المختلس .

وأحس « سليمان » بفرط انشغال « على » أن يبدو منه ما يشعر الرؤساء بالتقصير ، وأن تسوء سمعته التى أجهده نفسه خلال العامين الماضيين فى بنائها . وفى ليلة من ليالى الشتاء جلسا فى بهو الميس أمام المدفأة عقب انتهاء « على » من

— ٤٢٢ —

حديث تليفوني طويل وكان يبدو عليه الشرود وهو يحملق في المدفأة ، فسأله سليمان قائلا :

— ماذا بك يا « على » ؟

وعاد « على » من شروده قائلا :
— لا شيء .

— مع من كنت تتكلم ؟
— مع أنجي .

— يجب أن تخفف علاقتك بها .. إنها تشغل كل وقتك . ولست أدري ما نهاية كل ذلك .. ليس هناك علاقة يمكن إخفاؤها إلى الأبد .. فماذا تتوقع أن تكون النتيجة ؟ هل تنوى أن تتزوجها ؟! وإذا نويت ، فهل تظن أن ذلك في الإمكان ؟

وخيمت سحابة همّ على وجه « على » وأغرق في الصمت ، وعاد « سليمان » يسأل :
— لماذا لا تحيب ؟

— وبماذا أجيب ؟ أنت نفسك تعرف أن هذه أسئلة لا يمكن الإجابة عليها .. هذه أشياء نغمز فيها بلا تفكير في نتيجة ولا نملك أن نتزع أنفسنا منها مهما كانت النتيجة التي يمكن أن نصل إليها .

— لا يا « على » هذه أشياء تحتاج في مقاومتها إلى إرادة قوية .
— مقاومة ماذا ؟! مقاومة حبي لها .. وحبي لي ؟! لماذا أقاوم حقي في الحياة ؟! أليس لي الحق في أن أحب وأحب .

— هذه شيء قد طال يا « على » .. منذ أن كنا في المدرسة وأنت تفرق فيه .. أنا أعرف الكثيرين قد أحبوا وسلوا ، وأحبوا وسلوا .. ولكني لم أرمثلك أبداً في التعلق بهذا الحب الذي لا يمكن أن أرى له نهاية سليمة .. هل تعتقد أن الأمير سيقبل زواجك منها ؟! أم لا تزال تنوى أن تتزوجها رغم أنفه ؟ تخطفها مثلاً !!

— ٤٢٣ —

أم تراك تنوى أن تظل هكذا طيلة حياتك عاشقاً لها .
 — أنا نفسى لا أعرف يا « سليمان » .. ولقد مللت من فرط التفكير فى هذا .. وانتهى بى الأمر إلى أن أسلم لنفسى بالعجز عن الوصول إلى نتيجة وإلى الاستسلام لحبها دون التفكير فى عواقبه أو نتائجه ...
 — إذاً على الأقل لا تدعه يفسد عليك عملك ويسىء سمعتك .
 — ولكنى لم أقصر فى أية ناحية من نواحي العمل .
 — إنك تكثر من الاستئذان من طابور بعد الظهر .. وتكثر من تبديل النوبتجية .

— لم يحدث ذلك إلا مرة أو مرتين .
 — وماذا تريد أن يحدث أكثر من ذلك .. أنا على أية حال لم أسمع من أحد شكوى منك .. ولكنى أخشى فقط أن يشتم منك التقصير ، أو الإهمال .
 — إنى أحاول جهدى ألا أدع شيئاً من الخارج يفسد على عملى .. أياً كان .
 ومضت فترة صمت تشاغل فيها سليمان بإدارة الراديو وانبعث منه أغنية الجنودول وقد أخذ عبد الوهاب يردد : « أنا من ضيع فى الأوهام عمره » !
 وضحك سليمان قائلاً :

— أسمعت القال ؟! ماذا يقول لك ؟
 وأجاب « على » ضاحكاً فى شئ من المرارة :
 — ليست الأوهام تستمر حتى آخر الحياة . ليتنى حقاً أضيع فيها عمرى .
 أهنالك أعذب وأجمل من أوهامنا يا « سليمان » ؟
 وقذف « على » بكلمة خشب فى جوف المدفأة واستغرق فى التفكير برهة ، ثم رفع رأسه فجأة كمن نوى أمراً كان يتردد فى الإقدام عليه وقال متسائلاً :
 — سليمان .. أمعلك نقود ؟

وبدت الدهشة على « سليمان » وأجاب مردداً :

— نقود !!

— أجل .

— في حدود كم ؟

— خمسة جنيهات .

وزادت دهشة « سليمان » وهتف متعجباً :

— خمسة جنيهات !! ولماذا تريدها ؟!

— أريد قرصاً سارده لك أول الشهر .

— ولكن لماذا تريده ؟

وأطرق « على » وقال في ضيق :

— أريده وكفى .

— معى الآن ثلاثة جنيهات ، وأظننى أستطيع الحصول لك على الجنيهين

الباقين فى الغد من أى جهة ، ولكن لماذا تريدها ؟

ولم يجب « على » وبدأ مستغرقاً فى صمته . وعاد « سليمان » يسأله فى لهجة

رفيق :

— لماذا لا تفصح يا « على » ؟! منذ متى تخفى علىّ أسرارك ؟ إلى أنصحك

لأنى أخشى عليك .. ولأنى أحبك كأخى .. ولكن ثق أنى لن أتاخر فى معاونتك

حتى فيما أختلف معك فيه .. صارحنى بالأمر كله .

ورفع « على » رأسه المطرق وقال :

— أريد أن أبتاع هدية « لأنجى » فى عيد ميلادها بعد غد .

— هدية لعيد ميلادها بخمسة جنيهات !! أجنون أنت ؟! أتقترض من أجل

هدية لها ؟ لماذا كل ذلك ؟

— لأنى يجب أن أرد هديتها .

— أى هدية تلك ؟

— لقد أهدتنى ساعة ذهبية .. ابتاعتها لى من مصروفها عندما رأت جلدة

ساعتي قد بليت ، وقد سألتنى ألا أبتاع جلدة سواها حتى تحضر لى أخرى ، ثم

فوجئت بها تقدم إلّى ساعة بجلدتها .. وخشيت أن أرفضها فأجرح شعورها . ولم أملك إلا أن أقبلها وأنا أحس بخليط من الحيرة والحرج والفرح ، وعزمت على أن أردّها لها في أقرب فرصة .. ولكنى كنت حائراً .. كيف أردّها لها .. وهى تبدو لى فى غير حاجة إلى شيء .. وكنت أخشى أن أردّها بلا مناسبة فأكون فى ردّها متصنعاً متكلفاً وكأني أردّ هديتها .. حتى علمت أن عيد ميلادها بعد غد ، فوجدتها خير فرصة لرد الهدية .. ما رأيك أنت ؟

وأجاب سليمان وهو يهز رأسه فى دهشة :

— معك حق .. إن هذا هو خير ما تفعل .. ولكن ماذا تنوى أن تشتري لها ؟
— لقد وجدت سلسلة ذهبية دقيقة قد علق بها قلب ومفتاح ولا يتجاوز ثمنها خمسة الجنيهات وهى تبدو لى مناسبة جداً .

— وأين الساعة التى أهدتها إليك ؟ لماذا لم ترنى إياها أيها الماكر ؟
— لقد أخفيتها فى الدولاب فى صندوق أحتفظ فيه بأول هدية أعطتها لى .
— أعطتك هدية أخرى قبل هذه ؟

— أعطتني وردة منذ بضع سنوات .. ولم أرد أن أخبرك عن الساعة فقد كنت أشعر من قبولها بحرج شديد ، فإني لم أكن أقرّ أن يقبل الرجل هدية من امرأة .

وضحك سليمان وقال :

— على أية حال ما دمت قد نويت أن تردّها فلا حرج عليك منها .
وفى اليوم التالى كان « على » يهبط من قطار المعادى ويتجه إلى الكازينو المشرف على النيل ، وكان الوقت قبيل الغروب ، والشمس قد مالت نحو الأفق وبدأت برودة الليل تطارد فلول الدفء الذى خلفته الشمس الغاربة ، وكان المكان يبدو خالياً إلا من مربية معها طفلان تتحایل على حملهما على الانصراف معها خشية البرد .. وعاشقان قد اختليا وراء أحد أسوار الفيكس العالية .
وبعد برهة أقبلت « أنجي » تستحث الخطى من الطريق القادم من بيت النبيلة .

« خديجة » إحدى أقرباء أبيها العجائز والتي كانت تتعلل بزيارتها عندما تريد لقاء « على » في المعادى ، وكانت لا تكاد تجلس عندها برهة حتى تستأذن للخروج بحجة الرغبة في التريض تاركة العربدة أمام الباب سائرة على قدميها إلى الكازينو . وأقبل العاشقان يحبب أحدهما الآخر في شوق ولهفة ، وكانت لهفتها لا تنقطع حتى ولو لم يمر بين اللقاء واللقاء سوى بضع دقائق ، كانا دائمى اللهفة والشوق والحنين .

وتساءلت « أنجي » وقد هبت عليها نسمة باردة من ناحية النيل :
— أليس هنا برد ؟

— ظننت أننا تكون هنا بمنأى عن الأعين ؟

— إن المكان خال تماماً ، ولست أرى أى أعين سوى أعيننا .

— هيا بنا إذاً إلى الداخل ما دمت تفضلين ذلك .

وغادر « على » مكانه متجهاً إلى البهو الزجاجى .. وانتقى منضدة في ركن ناء يشرف على النيل ، وجلس أحدهما مواجهاً للآخر وقد واجه « على » الباب وواجهت « أنجي » صفحة النيل .

وقالت « أنجي » ضاحكة وهي تنظر من فوق كتفيه إلى ترقق حمرة الشفق في صفحة الماء الساكنة :

— أمامى منظر بديع .

ونظر « على » في عينيها وأجاب :

— وأمامى منظر أبدع .

— إلى أبصر الشفق في النيل .

— وأنا أبصر الجنة في عينيك .

وصمت برهة وهو يرنو ببصره في عينيها ثم أردف قائلاً :

— يبدو لى أحياناً أنى أستطيع أن أمكث الشهور والأعوام مكتفياً من كل وسائل الحياة بالنظر في عينيك .

— ٤٢٧ —

- أتغنيك عيناى عن غيرها من الأعين ؟
 — إنها تغنينى عن الطعام والشراب والنوم وعن كل حاجات الحياة .
 — أنا أيضاً أحس بالغنى عن كل شىء عندما أكون معك .
 — وعندما لا تكونين معى ؟
 — أحس بالغنى عن كل شىء إلا عن العودة إليك .
 ومدّ « على » يده فأمسك بيدها المستندة إلى المتضدة وتحسس أصابعها فى
 رفق ثم جذبها إلى فمه .. ومس بشفتيه كفها من الداخل ، وسرت أصابعها
 تتحسس أنفه وعينه وشعره .
 وأقبل الساقى فرفعت كفها عن وجهه وسألها على :
 — ماذا تطلين ؟
 — نشرب سوياً فنجانين من الشاى .
 وطلب « على » من الساقى أن يحضر شاياً .. ولم يكذبصرف الساقى حتى
 قال على :
 — لقد تحدثنا كثيراً عن عينيك .. أرجو أن نغمضيهما حتى نستطيع التحدث
 فى شىء آخر .
 — سأغمضيهما عند حضور الشاى حتى تستطيع تناوله .
 — بل أغمضيهما الآن .
 — لِمَ ؟
 — قلت لك أغمضيهما .
 وأغمضت « أنجى » عينها ، ومدّ يده فى جيبه فأخرج السلسلة ثم شبكها
 حول عنقها قائلاً :
 — افتحى عينيك .
 وفتحت « أنجى » عينها وخفضت رأسها ناظرة إلى السلسلة وتساءلت فى
 دهشة :

— ٤٢٨ —

- ماهذه ؟
- بكل سنة وانت طيبة يا « أنجي » .
- وبدت على « أنجي » أقصى آيات السعادة وهتفت به :
- أكنت تذكره ؟
- إني أذكر كل شيء عنك .
- ولكن لماذا كلقت نفسك ؟ كان يكفيني جداً أن تذكره بمجرد تهينة .
- لو استطعت أن أهب لك العالم كله لما ترددت .. ولكني لم أملك سوى قلبي أهديه لك .
- وهذا المفتاح ؟
- حتى لا يفتحه سواك .
- سأفتحه لأضع قلبي فيه .. سيكون قلبين في قلب .. وأقذف بالمفتاح في النيل حتى لا يفصل القلبان .
-

(٣٩)

قطيعة

انتهى العاشقان من تناول الشاي وتبادل المناجاة . ثم نهضت « أنجي »
للانصراف يتبعها « على » ولم يكادا يعبران الباب حتى مرقت من أمامهما عربية
جعلت « أنجي » تثبت في مكانها مأخوذة فزعة ثم همست لعلی :
— لقد رأيت « علاء » في هذه العربية .. ولست أدرى أقدر أنا أم لا ؟! يجب
أن نسرع بالافتراق .. سأحدثك في أول فرصة .

واندفعت في عجلة متجهة إلى البيت ، وسار « على » تجاه المحطة وهو يحس
بقلق خفي ولا سيما بعد أن رأى العربية التي مرقت أمامهما والتي كانت تقل علاء
تغير اتجاهها وتدخل في الطريق الذي سارت فيه « أنجي » .

وعاد إلى الميس وما زال القلق يملأ نفسه ، وحاول أن يطمئن عليها تلك الليلة
في التليفون ولكنه لم يفلح في الاتصال بها .

ومرت بضعة أيام دون أن تحدثه ، وزاد به الشك واشتد القلق والضيق . وفي
كل مرة يدق لها التليفون يجيبه صوت غير صوتها ، وتجاسر مرة وسأل عنها ف قيل له
إنها غير موجودة .

وفي أحد أيام النوبتجية وقد انتهى من طابور الهاتف وتشميع السرجخانات
عاد إلى الميس يجبر ساقيه المثقلتين بالجهد ، ويجبر نفسه المرهقة بالضيق والتبرم .
وكانت ليلة جمعة والميس قد خلا إلا منه . وجلس على أحد المقاعد الكبيرة ماداً
ساقيه في استرخاء ، مطلقاً لذهنه العنان .

ترى ما سبب قطيعتها خلال تلك المدة ؟! أوشى بها « علاء » إلى أبيها فثارت
ثأثرته وضيق عليها الخناق ؟ ولكن أما كانت تستطيع أن تحدثه لحظة في التليفون ؟

أقد ضاق الخناق حتى عن بضع كلمات تطمئننه بها ؟ أم ترى قد أصابتها علة
أو وعكة ؟ إنه المقصر في حقها إذا .. لماذا لا يتحدث مرة أخرى ؟
ولكنه سبق أن تحدث ، وهو يخشى أن يسبب لها حرجاً من فرط ما يدق
التليفون ولا يجيب .

ليجرب مرة أخيرة فقد تكون الفرصة مواتية .
ونهض إلى كشك التليفون الخشبي الملاصق لجدار حجرة المائدة في الساحة
الخلفية للميس ، وجلس على المقعد وأغلق باب الكشك ، ويبد مرتجفة أدار
القرص .

ودق الجرس بضع دقائق ، وتوالت مع دقائق الجرس دقائق قلبه ، ثم كف
الدق ، ومضت لحظة كف خلالها عن التنفس ، ثم أتاه الرد خافتاً من سماعة
التليفون :

— آلو .. مين يا فندم ؟.

وأحس بقلبه ينبض في صخب وضجيج ، هاتفاً مصفقا ، وأجاب متسائلاً في
نبرات مرتجفة :

— أنجى ؟

— أية نمرة تريد ؟

ولم يكن لديه في صوتها ذرة شك فأجاب :

— أنا على يا أنجى .

ومع ذلك فقد رد عليه الصوت بطريقة آلية مقتضبة :
— النمرة خطأ .

وأغلقت السكة . وأحس بالدماء تتصاعد إلى وجهه ، ومضت فترة
والسماعة معلقة في يده وعباه تحدقان في فراغ الكشك الضيق المظلم في حيرة
ويأس ، ثم هبطت يده ببطء ووضعت السماعة مكانها ، وغادر الكشك بخطى
بطيئة متناقلة عائداً إلى بهو الميس ، وارتمى على المقعد الكبير وبه ما يشبه الانهيار .

ومضت أيام آخر والقطيعة مستمرة ، والذهن مشتب ، والأفكار والهواجس بلاطم بعضها البعض .. هذه الهاجسة تصرع تلك ، وتلك تصرع هذه ، والانتهاكات تتوالى ، والتبريرات والاعتذارات تلاحقها ، مفندة مفسرة ، وخلال كل تلك الأفكار المتصارعة والهواجس المتلاطمة ، تنتابه نوبات حنين وشوق ، تملؤه رغبة في البكاء ، لولا بقية من تماسك وتجلد .

وكان أكثر ما يدفع به الانتهاكات عن ذهنه هو الاعتذار بمرضها .. فقد كان المرض هو العامل الوحيد الذى يمكن أن يمنعها من الاتصال ، رغم أن رذها على التليفون فى تلك المرة يضعف تلك الحجة ، ولكنه كان يبررها بأن التليفون ربما كان قريباً منها فى ذلك الوقت ، ولم يكن المرض قد ألح عليها فاستطاعت الرد .. ولكن منعها من الاسترسال فى الحديث معه وجود أناس حولها .

وهكذا كان يحاول أن يدفع عنها الانتهاك لينقله إلى نفسه متهماً إياه بالتقصير فى السؤال عنها .

ولكن كيف يسأل .. والاقتراب من القصر يكاد يكون محرماً ، والكتابة إليها مستحيلة ، والحديث فى التليفون غير ذى جدوى !

ولم يكن تفكيره يعدو هذا النطاق ، حتى أقبل عليه سليمان فى حجرته وهو يرتدى ملابسه استعداداً لطاير بعد الظهر وقذف إليه بإحدى المجلات الأسبوعية المصورة وقال له فى هدوء :

— فى أخبار المجتمع ما قد يهيك قراءته .

ورفع « على » حاجبيه متسائلاً فى دهشة ، وهو يشد القايش الجلدى حول وسطه :

— يهمنى أنا ؟

ولم يكن شروء « على » وحزنه الذى منى بهما خلال بضعة الأسابيع الماضية ليخفيا على سليمان .. ولم يكن يصعب عليه أيضاً أن يدرك علتها .. ولكنه لم يجد هناك فائدة فى التدخل فى الأمر أو محاولة تقديم أى أنواع النصح ، فقد كان

أدري الناس بعدم جدواه .. وكان واثقاً أن المشكلة برمتها لا يحلها غير الزمن ،
وأنها لا بد أن تأخذ دورها كاملاً في حياة « على » .

و مع ذلك فقد خيل إليه أن مقرأه بالمجلة يمكن أن يلقي بعض الأضواء على ذهن
« على » ويريه الأمر كما يجب أن يرى لا كما يجب أن يراه .

وانتهى « على » من ارتداء ملابسه وأمسك بالمجلة .. ولم يكده يقلب الصفحة
التي قصد سليمان أن يريه إياها حتى بدت عليه دهشة شديدة .

كان أول ما استرعى انتباهه صورة لأنجي في ميدان سباق الجزيرة .. وقد بدا
بجوارها شاب أنيق وسم ، وفاتة جميلة شديدة الشبه به .

وأخذ « على » يتأمل الصورة في صمت ووجوم ، ثم أخذ يقرأ ما كتب
أسفلها .. ومرّ بعينه مروراً سريعاً على بضعة أسطر تحدثت عن السباق وعن
خسر وعمن ربح ، وعما لفت نظر المحرر من مختلف الوجوه حتى وصل إلى
الفقرة التي تعنيه من كل ما كتب :

« وبدا في أحد الألواج وجه يتألق .. هو وجه النبيلة « أنجي » كريمة الأمير
إسماعيل .. وكانت ترتدى تاييراً رمادياً مرفوع الياقة بأربعة أزرار كبيرة
زرقاء ... و « التايير » على بساطته آية في الأناقة .. وكان يجلس بجوارها النبيل
إبراهيم كمال ابن الأمير كمال الذي يشاهد دائماً في صحبتها » .

بذل « على » أقصى جهده لكي يكتب عاصفة المشاعر التي أثارها الصورة
ووقع الخبر في نفسه ، ودون أن ينبس ببنت شفة أو تبدو على وجهه اختلاجة
واحدة .. مد يده معيداً المجلة إلى سليمان وهو ينظر إلى الساعة قائلاً :

— هيا بنا .. لقد اقترب موعد الطابور .

وتحرك الصديقان في صمت ظاهر .. وصخب خبيء .. وكان سليمان يود
لوفعل « على » أي شيء غير هذا الهدوء المميت .. والصمت القاتل ، الذي كان
لا شك يمزق أحشائه .. ويحرق قلبه .

كان سليمان قد أعد عدته لكل وسائل الإقناع .. حتى يرفع « على » من هوة

أحزانه وينشله من وهدة يأسه ، ولكنه كان ينتظر أن ييدو على « على » الحزن أو الغضب ، وأن يعلق على الصورة والمقال بما يظهر مشاعره . أما أن يأخذ الأمر بمثل هذا الهدوء والسكينة وكأنه لا يعنيه ، فذلك ما بعث الحيرة والقلق في نفس سليمان .

وعبرا طريق الميس ، وبدت الدبابات الخمس مصطفة في طريق القره قول ، وقد اصطف أمامها الجنود بالأوفر أولات الحمراء ، وقبل أن يفترق الاثنان ليذهب كل منهما إلى طابوره .. تساءل سليمان :

— متى ستنتهى من طابور المدفع ؟

— فى الموعد العادى .. الرابعة والنصف .

— وإلى أين ستذهب بعد ذلك ؟

— لم أفكر بعد .

— إذا انتظرني حتى أعود .. سأقوم بطابور قيادة السيارة حول منطقة المأظلة ولن أتاخر عن الخامسة .

وهز « على » رأسه موافقاً ، ولكن سليمان عاد يؤكد :

— إياك أن تخرج قبل أن أعود .. إني أريدك فى أمر هام .

وقفز سليمان إلى الدبابة الأولى ، واستمر « على » فى طريقه إلى أرض الطابور حيث تم على فرقة المدفع ، وقاد الجنود إلى أحد عنابر النوم التى كان يجرى فيها طابور المدفع .

وكان الآلايان الميكانيكيان قد احتلا المنطقة الفراغ المنخفضة بين ثكنات الخيالة والطريق العام والتى شيدت فيها الأبنية السويسى ذات الجدران المبتئية من عروق الخشب والطوب الأحمر والسقف المنحدر المغطى بالمشمع ، وكانت المنطقة قد قسمت إلى قسمين : أحدهما — وهو الأقرب للقره قول — احتلته الدبابات الخفيفة ، والآخر — الأقرب إلى الحديقة — احتلته السيارات الخفيفة ، وقد صفت أبنية المكاتب ناحية الطريق ووضعت العنابر فى خطوط متوازية ناحية

(رد قلبى — ج ٢)

الخيالة ، وبين المكاتب والعنابر وضعت الجراجات عمودية عليها تتوسطها مساحات متسعة لا صطفاف الطوابير . أما إدارة السوارى فقد انتقلت إلى فيلا مستقلة تشرف على الطريق العام كانت تستعمل فيما مضى منزلاً لقائد السوارى ، واستعمل بناء الإدارة القديم ليكون مقراً لرياسة آلاى للخيالة .

وقف « على » فى أحد عنابر النوم بالآى السيارات وأخذ يسير جيئةً وذهاباً طارقاً أرضية العنبر المكوّنة من البلاط المعصرانى الأبيض الكبير بحديد كعب حذائه مراقباً الجماعات المصطفة فى طول العنبر وقد وقف أمام كل جماعة أحد التعليمجية على مشمع فرش على الأرض ووضع عليه مدفع « برن » .

وتعالت أصوات التعليمجية تشرح الدرس الذى كان مقراً شرحه فى طابور اليوم ، وأخذ « على » يرقب بعينه وينصت بأذنيه .. دون أن يرى أو يعى شيئاً .

كان يتحرك بين الجماعات حركة آلية .. لا يكاد يميز بين المدفع وحذاء العسكرى . كان غريقاً فى هواجسه ووساوسه .. كان صدره يغلى وذنه يفور .. كان سيل الاتهامات يتدفق بلا تبرير يحذ من اندفاعه أو اعتذار يوقف من تدفقه .

كان يشعر بهيكل أمانيه يوشك أن ينقض وينهار .. كانت الرجة التى انتابته رجة عنيفة .. مفاجئة .

أيمكن أن يكون هذا هو سبب القطيعة والفرقة ؟ .. لا مرض إذأولا وعكة .. بل ملل وهجر ونسيان .

وصدّها فى التليفون وإنكارها له .. كان صدّاً مقصوداً وإنكاراً مع سبق الإصرار .

أيمكن أن يحدث مثل هذا التبدل السريع ؟! ولم ؟! ولأى سبب ؟

وهذه الصورة الملائكية السامية التى طالما وضعها على هام سحب أوهامه وحلّق بها فى سماوات أحلامه .. كيف تهبط صاحبها لتحيل صفحات مجلة كتافهات

الأرستقراطيات اللاتي تحتل صورهن في السباق ، وفي الحفلات صفحات المجتمع والطبقة الراقية .

أيمكن أن تضحي « أنجي » .. المخلوقة السامية التي يتخيلها ملكه وحده .. ملكاً مشاعراً على صفحات المجلات يتحدثون عن جمالها وأناقته ويصفون لون ملابسها وطريقة تصفيف شعرها !!

وأكثر من ذلك يتحدثون عن ذلك الذي يصاحبها .. ويلازمها في كل الحفلات بمنتهى السهولة واليسر .. كأنما ذلك أمر طبيعي محتوم .
لا .. لا .. إن « أنجي » لا يمكن أن تكون كهذه .. لا بد أن في الأمر شيئاً .. لا بد أن هناك عذراً .. من العسير عليه أن يسلم بكل هذه الظواهر .. إن ثقته فيها .. وإيمانه بها .. الثقة المطلقة والإيمان بلا جدل ولا تفكير .. مازالا كما هما .. يقاومان كل سيول الاتهامات .. ويسندان هيكل الأمان وبقيانه من الانقراض والانهار .

أجل .. إنها

« المدفع ضرب طلقتين ووقف » .

وأعادته من عمرة أفكاره .. صيحة التعلمجي .. وضجة ارتمائيه على الأرض أمام المدفع وحركاته السريعة التي يشرح بها كيفية إصلاحه إذا ضرب طلقتين ووقف .

واستمر ذهنه حائراً بين صيحات التعلمجية .. وأفكاره الصاخبة الثائرة .. حتى انتهى الطابور .. وعاد أدراجه إلى الميس .

ولم يكده يستقر في حجرته حتى دفع الباب ودخل سليمان وقد علا شعره ووجهه وثيابه طبقة من الغبار أبدته كفأراً غارق في صفيحة دقيق .

ورسم « على » على شفثيه ابتسامة باهتة وقال محاولاً الترحيب بسليمان :

— أهلاً .. لقد عدت سريعاً .

وكان سليمان يعرف ما تحجبه تلك الابتسامة من مرارة وانهار وبأس

وحزن .. ولم يرد أن يضيع الوقت في مقدمات لا طائل تحتها ، فجر مقعداً بجوار « على » وجلس على طرفه متكأً بمرفقيه على ركبتيه ورفع بصره إلى وجه « على » البادى الهدوء قائلاً له :

— اسمع يا « على » .. دعنا نتكلم بصراحة ولتكف عن ترك الاكتراث وعن الهدوء الذى تدعيه ، فأنا أعلم ما بنفسك جيداً .. لقد أريتك الصحيفة وأنا أعرف أنها ستؤلمك وتفجعك . وأنا لم أبلغ من الحق حداً يجعلنى أقدم على إيلاملك عامداً بلا سبب .. ولست عدواً لك حتى أتسل بفجيعتك .. ولكنى أردت أن أريك حقيقة ما تحاول تجاهله .. أردت أن أبصرك بحقيقة واقعة تأبى إلا إنكارها . هذا الحب الذى تفرق فيه لا فائدة منه ولا طائل تحته .. إنك مخدوع واهم .. وأنت تحب مخلوقة من صنع أوهامك أنت .. تحاول أن تضعها فى صاحبتك هذه ، وشتان بين الاثنين .. المخلوقة التى صنعتها أنت من نسج خيالك .. المرهقة السامية المثالية الشاعرة الذائبة .. ليس بينها وبين صاحبتك الحقيقية صلة ولا شبه .. إن صاحبتك هى تلك التى رأيتها مرسومة على صفحات المجلة .. الأرستقراطية المتأنقة السطحية المشاعر التافهة التفكير .. التى لا يشغل ذهنها غير ارتداء ثوب وتصفيف شعر وحصان رابح ، وصديق تافه تتأنق به ، تلك هى حقيقتها .. لا تحاول الجدل فيها .. فهل تتشابه فى شىء مع معبودة أوهامك ؟! ولو كنت تتسلى بها كما تتسلى بك لهان الأمر .. أما أن تندفع فى حبها بمثل هذا الجنون .. وتحاول أن تعلق عليها مصيرك .. ومستقبلك .. فهذا هو الحق بعينه .. لقد مضى عليك شهر .. وأنت أشبه بمخبول شارداً للذهن .. وأنا أحاول أن أتستر عليك وأخفى أخطائك ، ولكن إلى متى ؟!

— ما هذا الذى تستتر على فيه ؟! وأى أخطاء تقصد ؟

— ليس هذا هو موضوعنا .. أنا أحاول أن أمتنّ عليك بما فعلت .. فذلك هو واجبى فحوى .. وذلك هو ما سأستمر فى فعله من أجلك ، لأننى أحبك .. وأشعر بأنك مخلوق تستحق الحب والتقدير .. وأكره أن تحطم حياتك

ومستقبلك ، من أجل وهم خاطئ في مخلوقة تافهة لا تستحق حبك .
وتجههم وجه « على » ووضحت على ملامحه دلائل الألم والمرارة التي كان
يحاول كبتها ، ورفع يده وضغط على جبينه كأنما يحاول منعه من الانفجار
والتحطيم .

ومضت فترة صمت حاول أن يتالك فيها نفسه ، ثم أطلق زفرة حارة وأجاب
في هدوء :

— إلى واثق من صدق مشاعرك وطيب نواياك ، وقد يكون في قولك الكثير من
الصحة .. ومع ذلك فليس من اليسير عليّ قبوله .. ليس من السهل على إنسان أن
يدمر بسهولة ما قضى السنين في نسجه من شغاف قلبه وخيوط أحاسيسه . إنه
شيء راسب في أعماق من العسير عليّ انتزاعه . شيء ملتصق بالروح وليست
مجرد أوهام كما تظنها .. إن في انتزاعه من القلب إدماء للقلب .. وفي فصله من
الروح قتلا للروح :

ويلاه إن نظرت ، وإن هي أعرضت وَقَعُ السهام ونزعهنّ أليم
إن من السهل عليك أن تسدى النصح .. وهو بلا شك نصح تسديد سليم ..
ولكن ما أشبهه بدرس سباحة يعطى من معلم على الشاطئ لغريق بين الأمواج .
— ولكن الغريق يقاوم في سبيل حياته .

— وأنا أيضاً أحاول المقاومة .

ونفض « على » لارتداء ستروته وسأله سليمان :

— إلى أين؟

— سأذهب إلى البيت لزيارة أبي وأمي .. فقد مضى عليّ أسبوع لم أرهما .

— ألا تنتظر حتى نخرج سوياً؟

— أريد أن ألحق قطار السادسة .

وغادر « على » الميس .. وبعد فترة كان القطار ينهب به الأرض في طريقه إلى

البلدة .

أحقاً كان يريد الذهاب إلى والديه ؟! .. أهذا هو الدافع الأصيل .. أم هناك
دافع آخر خفى لا شعورى ؟!
أتراه ما زال يأمل فى لقاءها ؟!
وهتف به هاتف فى باطنه .. ليته يستطيع !
لقاء واحد .. يجلو كل ما غمض ، ويفسر له كل ما أعياه تفسيره .
أليس من حقه عليها .. أن يسألهما تبريراً لهذه القطيعة ، وذلك التبدل والتغير ،
ورداً على كل تلك التهم ؟!
ولكن كيف اللقاء ؟!

وهبط من القطار متجهاً إلى البيت متبعاً الطريق الأطول المار بالأسوار
العالية .. وانتهى طوافه بالجدران دون أن يسمع منها سوى صفير الريح فى أطراف
الشجر .. وهم يعبور الطريق عندما أبصر بأضواء عربية تبتدئ ظلمته ، وتوقف فى
مكانه بجوار إحدى أشجار الكافور الضخمة وأحس بدقات قلبه تتوالى .. كأنها
دقات جرس تعلن اقتراب خطر .

ومرت به العربية متهادية واستطاع أن يبصر فيها وجه « أنجى » وكذلك
استطاع أن يميز بجوارها ذلك الوجه أبصر صورته بجوارها فى المجلة وبجواره وجه
أخته « سهيلة » .

واختفت العربية فى الظلمة .. مخلفة فى نفسه مزيداً من حنين ومزيداً من
مرارة ، وتابع طريقه إلى البيت مثقل النفس بالأحزان .. مكروب الصدر
بالمهوم .. واجتاز الردهة المعشوشبة أمام البيت .. وطرق الباب .. وسمع
صوت والدته من الداخل تنادى بصوتها الهادئ الرقيق .

— تعالى شوفى مين يا بهية .

وسمع وقع أقدام خفيفة آتية ، ثم فتح الباب وأطل وجه « بهية » السمع
يتساءل :

— مين ؟

— أنا على .

واجتاز « على » الباب في عاصفة من الترحيب والابتهاج ، وارتكز على ركبته بجوار أمه الجالسة على حشية في ركن القاعة وأمامها « كنكة قهوة » . على « منقد » صغير ، وضمته بين ذراعيها وقبلته في شوق .
وبحث « على » حوله فلم يجد أثراً لأبيه فتساءل :

— أين أبى ؟

— ذهب إلى الشيخ رجب .. لقد ضاق بالعدة .. إنه لا يطيقها أبداً ..
ولولا عجزه الفعلي لما استطاع أحد أن يجبره عليها .. لقد أصبح مشوار المحطة يرهقه ، هو الذي كان لا يكف عن السير والعمل طيلة النهار .
— على أية حال ، ليست هناك ضرورة لأن يرهق نفسه في أى شيء .. يجب أن يستريح .

— الراحة متعبة يا على لأمثال أبليك .. لقد أخذ على العمل .. أخذ على أن يكسب رزقه بعرق جبينه .

— لقد كسب من عرق جبينه ما فيه الكفاية ، وقد أضحي واجبنا أن نرد بعض عرق جبينه . إنى مازلت أذكر ما قاله لى في طفولتى . عن ماء وجهه ..
الذى أراقه في سبيل وفي سبيل حسين .

— لقد أرسل حسين خطاباً اليوم . أين هو يا بهية ؟!
وأقبلت « بهية » تحمل صندوقاً صغيراً أخرجت منه رسالة أعطتها لعلى .
وقالت الأم :

— اقرأها .

وأخذ « على » في قراءتها ، ولكن الأم صاحت به :
— اقرأها بصوت عال .

وضحك « على » قائلاً :

— ألم تقرأها لك « بهية » ؟

وأجاب « بهية » ضاحكة :

— قرأتها عشر مرات .

وقالت الأم في إلحاح :

— أريد أن أسمعها عشرين مرة .. لشد ما أو حشنى حسين ؟! ترى من الذى يطعمه ، ومن الذى يغطيه ؟! لقد كان دائماً يعرّى نفسه ليلاً .

وضحك « على » قائلاً :

— إنه لم يعد طفلاً .. لقد أضحى ضابطاً محترماً .

— إنى لا أراك إلا طفلين ، ولن تتم فرحتى بكما إلا إذا أتممت زواجكما .

وبدا الشرود على وجه « على » وأجاب محاولاً الابتسام :

— ما زال الوقت مبكراً يا أماء .. وعلام العجلة ؟!

— أريد أن أتمتع بأولادك قبل أن أموت .

— متعك الله بطول العمر .. ستعيشين حتى أولاد أو لادنا .

— يكفينى أن أرى أولادك .. لقد أضحت « بهية » عروساً .. ولن أسترخ

حتى أحقق أمنيتى بزواجها لأحدك .

واندفعت الدماء حارة إلى وجه بهية .. وأطرفت مستحبة .

ورفع « على » عينه إلى « بهية » وقد بدت أمامه لأول مرة فتاة مكتملة ،

ناعمة القسمات ، حلوة الملامح .. وطاف بذهنه حبها المنطوى بين جوانحها ..

وأبصرها تتحسس بيدها الصندوق الصغير الذى أخرجت منه رسالة أحبه ..

وتذكر رسائل أخيه إليه ، المليئة بالمغامرات والعردة ، وتذكر ما حدث به عن

علاقته الأخيرة بإحدى وصيفات القصر .. وكيف تعرّف بها فى المونسنيير ..

ودعته إلى الرقص ، ثم دعته إلى العشاء بعد ذلك فى نادى اليخت الملكى .

وأحس بعطف شديد على « بهية » .. وعلى آمالها المعلقة فى الهواء .. وباهوة

السحيفة التى تفصلها عن أمنيتها المنشودة .

وقالت أمه تستدعيه من شروده :

— ٤٤١ —

— ما رأيك يا على ؟

وأجاب « على » وهو ينظر إلى « بهية » في عطف شديد :

— إن بهية أختي يا أماه .

ولم يعجب هذا القول أمه ، وتمتعت في لهجة غير راضية لها خبيعتها ومعناها :

— لعلها ليست قدر المقام !!

(٤٠)

وأكثر .. !

ولى الشتاء وما زالت القطيعة مخيمة سحبها على نفس « على » ، وثلوج اليأس ، والضيق والخذلان ، متراكمة فى فؤاده ، وأقبل صيف ١٩٣٩ حاملا معه نذر الحرب مؤذناً بقرب اندلاع شرورها ، ولم تفلح محاولات تشمبرلين بمظلتها فى سبيل السلام المحتضر إلا فى منحه بضعة أنفاس صناعية أجلت منيته إلى حين .

وبدت فى السوارى حركة نشاط غير عادية فى التدريب ، واستكمال التسليح وإعداد العربات ، وأضحت ربح الاستعداد للحرب تشتم فى كل نواحي النشاط فى الآلايين الميكانيكيين .

وبدأت حركات الاستكشاف والاستطلاع فى الصحراء الغربية حيث كانت تعتبر المنطقة المعرضة للهجوم من جانب إحدى دولتى المحور المرابطة فى ليبيا على حدود مصر الغربية .

ويبدو أن الحلفاء كانوا قد وضعوا خططهم الأولى للدفاع عن مصر على أساس احتمال هجوم قوات المحور فى اتجاهين : الاتجاه الأول عبر الطريق الساحلى .. طريق مطروح / الإسكندرية ، والثانى جنوب الشرق عبر الصحراء من ناحية سيوة إلى الواحات البحرية إلى القاهرة .. أو إلى الفيوم ثم القاهرة .

ويبدو أيضاً أنهم قد قرروا الاستعانة بالقوات الميكانيكية المصرية استعانة عملية إيجابية فى العمل ضد هذا الهجوم الأخير .. وهو الأكثر مشقة والأبعد احتمالاً بالنسبة لقوات المحور .. على أن تركز قوات الحلفاء وقد كانت فى ذلك الحين قلة ضئيلة من آليات السوارى (الهوزارس) التى تحولت إلى قوات

ميكانيكية للعمل ضد أى هجوم على الطريق الشمالى .
 وذهب « على » للقيام بتلك الرحلات الاستكشافية فى صحبة مسشار البعثة
 وقائد الآلاى .. وقاموا باستطلاع الطريق الموصل بين الواحات البحرية
 والقاهرة ، ومدى قدرته على تحمل العربات ، ثم قاموا باستكشاف مداخل
 الواحات ومخارجها ، وأرسل « على » وحده لاستكشاف الطريق الموصل إلى
 سيوة والطريق المتفرع منه شمالا إلى المغرة والمستمر شمالا حتى يقاطع الطريق
 الساحلى قرب العلمين .

وشغلت تلك الرحلات الاستكشافية « على » إلى حين ، وأسدت بعض
 الستر على أحزانه وأشجانه ، حتى انتهت الرحلات وعاد إلى القاهرة .
 وفى أول رحيل إلى داره لم يملك إلا أن يطوف بكعبته ويحج حج اليائس
 المهموم إلى ديار ليلى .. ويشتم ريحها .. ويتنسم عبقها .
 وأخذت نذر الحرب تتوالى وريحها تقترب .. وبدأ الاستعداد لرحيل آلاى
 السيارات إلى الواحات البحرية ليتخذ مواقعه خارج الواحة على الجرف المشرف
 على الطريق القادم من سيوة إلى البحرية عبر النقب رقم ١٣ .
 وفى ذلك الحين سافرت « أنجى » إلى الإسكندرية وصدرت الأوامر للآلاى
 بالتحرك بعد أسبوع ، وأحس « على » بحنين مفرط إليها ، وودّ لو براها مرة
 واحدة قبل أن يرحل .

وسافر إلى الإسكندرية فى إجازة بضعة أيام متعللا برغبته فى زيارة أخيه .
 وكانت الإسكندرية تذكره بأمتع أيامه وأجمل ذكرياته . كانت تذكره بأول
 لقاء فى المعصورة .. وكان يحس من ربح البحر نشوة .. ومن صوت الموج متعة .
 ورحب به حسين أشد الترحيب .. وأنبأه بأنه سيضع له برنامجا من المتع
 سيظل يذكره طوال مدة غيبته فى الواحات البحرية .

وظل « حسين » يسرد له البرنامج .. ويعدّد له الوجوه الجميلة التى
 سيصحبها فى السهرات ، والشخصيات التى سيلقيانها من نجوم المجتمع .

— ٤٤٦ —

الأيام وأوشكت الإجازة أن تنفذ بلا طائل ، ولم تجد محاولات أخيه في تسليته والترفيه عنه نفعاً ، فقد كان يصحبه واجماً شارد الذهن .

كان يجلس وإياه في المونسيير والأكلسيسور وغيرهما ، تفرع أذنيه الموسيقى الصاخبة .. وتتوالى على ناظره الأكتاف العارية والصدور المكشوفة والأجساد المترنحة ثم تبخر كلها كالمدخان تاركة في ذهنه صورة واحدة تلح عليه ولا تفارق رأسه .

وفي اليوم الأخير لإجازته جلس يتناول الغداء مع أخيه في أحد المحلات العامة ، وقال « على » في يأس وهو يضع الفوط جانباً :
— سأرحل في قطار العصر .. إنه يقوم في الثالثة .

— ولماذا هذه العجلة ؟! أمامك قطار المساء ، يقوم في السادسة ويصل في التاسعة .

— لا داعي للتأخير .

— كل تأخيرة وفيها خيرة .. كما يقول المثل .

— إذا كانت الخيرة لم تأت في أربعة أيام ، فلن تأت في أربع ساعات ، وليس هناك أى موجب للتأخير .

— انتظر حتى تشاهد السباق .

— السباق ؟

— أجل .. إنه سيبدأ بعد نصف ساعة ، وهناك احتمال كبير في رؤيتها .

وطافت بذهن « على » صورتها التي رآها في المجلة ممسكة بمنظارها وقد جلس بجوارها إبراهيم ، وغامت على وجهه سحابة ضيق .

وراح « حسين » يؤكد قوله :

— إني واثق أننا سنراها .

وأجاب « على » كمن يتحدث نفسه :

— وما الفائدة ؟

— فائدة ماذا ؟

— فائدة أن نراها معلقة في مقصورتها كأنها الفاكهة المحرمة أو محاطة بحشد من الرفاق الأرستقراطيين .

— وماذا في ذلك ؟! تقدم إليها وحدثها .

— لا .. لا .

— يا أخى لا تعقدها .. لنرها أولاً ثم يجلها ربنا .

وفرغاً من الطعام ، واتجهوا إلى نادى السباق ، وأبرز « حسين » في البوابة بطاقة دخول لاثنتين ، ودخلا وهو يقول لأخيه ضاحكاً :

— إني أحيا هنا مجاناً .. أكاد لا أدفع إلا ثمن السكن ، ولو أردت أن أبيت في كل بيت ليلة لا استطعت ، ولكن لا بد أن يكون لى مقر .

وكان الشوط الأول قد بدأ ، وتبع « على » أنحاه إلى حيث اندس بين جموع المشاهدين ، وسرعان ما انهمك حسين في مراقبة السباق ، وأخذ « على » يسترق البصر بمنة ويسرة ، ويتلفت خلفه محاولاً فحص المقصورات عله يجدها في إحداها .

وانتهى الشوط ، والتفت حسين إلى « على » قائلاً في حماسة وقد أمسك بيده برنامج السباق :

— سألعب هذا الدور .. إني أقسم أن الجواد الأول « هب الريح » لا بد أن يكسب .. سألعب واحداً وثلاثة ، ما رأيك ؟! أتشاركنى في تذكرة ؟

— لا داعى للعب يا حسين .

— سألعب بريال واحد وسأشركك فيه . انتظرنى حتى أعود .

واختفى حسين وسط الجماهير المتجهة إلى نوافذ التذاكر ووقف « على » يرقب الزرافات الصاخبة التى احتشدت بها ساحة السباق ومدرجاته .

ولم يكن البحث يسيراً وسط تلك الوجوه المتكاثمة ، ومع ذلك فقد أخذ « على » يرقب فى تودة وصبر ، حتى تبين فجأة أحد دلائل وجودها ، وأمسك

بحيـط قد يقود إليها ، وهو وجه أخيها علاء .

كان « علاء » يسير متجهاً إلى الساحة « البادوك » التي يعرضون فيها الخيول التي توشك أن تجرى ، وظل « على » يرقبه حتى وصل أمام الساحة بين الجماهير المحتشدة ، وأذن الشوط الثاني بالبـداء وخرجت الخيول متجهة إلى ميدان السباق ، الواحد بعد الآخر ، واستمرت عيناه ترقبان الدليل وتمسكان بالخيـط .. وتحرك « علاء » عائداً إلى المدرج ، ثم تمهل لحظة محيياً عجوزاً ذا طربوش أحمر طويل يبدو له أهمية في ساحة السباق ، ثم صعد سلم المدرج وهبط ثانية ثم دخل في ممر واختفى .

وهكذا فقد « على » الدليل .. وأحس بضيق شديد .. وود لو استطاع أن يتجه إلى « علاء » ليسأله أين « أنجى » ، ولكنه لم يملك سوى أن يستمر مراقباً الممر الذي اختفى فيه علّه يظهر ثانية .

وقبل أن يظهر « علاء » أقبل حسين مندفعاً كالصاروخ وجذبه من ذراعه قائلاً :

— أسرع . لقد وجدتها .

وتساءل « على » في ذهول :

— مَنْ ؟

— أنجى .. أسرع .. إنها تنتظرك .

واندفع « على » وراءه بلا وعى ولا إدراك .. حتى وجد نفسه يقف فجأة أمام « أنجى » وقد انتحت ركناً هادئاً بجوار أحد أحواض الجارونيا وأخذت تتشاغل بفحص برنامج السباق وقد بدا على سيماها القلق والاضطراب .

ورفعت وجهها عن البرنامج والتقت عيناها بعينيـه ، وجرت بينهما نظرة حارة ذائبة ملوها الحنين والشوق ، وأحس كلاهما برغبة جنونية في الاندفاع في أحضان الآخر ، وتبدد من ذهن « على » كل ما كان يحتشد فيه من اتهامات واستفسارات وشكوك وريب . لقد أذابت نظراتها اللهفي كل ما تكتل في نفسه

من جلاميد اليأس والضيق .. وذرت ابتسامتها الرقيقة الحنون كل ما رسب في قلبه من شوائب الكدر والحزن . وفي غمضة عين لم يعد يبصر أمامه سوى « أنجي » ربة أحلامه .. ومنتهى أمانيه .. وعادت إلى نفسه ثقته بها ، وإيمانه بحبها .. كأقوى ما تكون الثقة ، وأشد ما يكون الإيمان .

حدث كل هذا من نظرة سرت بين العيون ، والشفاه لم تنبس بكلمة بعد ، ومدت « أنجي » يدها مصافحة وهي تقول في شيء من الاضطراب :

— كيف حالك يا علي ؟! لم أكن أعلم أنك هنا ؟

— لقد أتيت منذ بضعة أيام .

ودق الجرس معلناً بدء الشوط الثاني ، وهتف حسين وهو يتركهما عائداً إلى ساحة السباق :

— عن إذنكما .. سأنتظرك أمام المدرج يا علي !

وزادت مظاهر الاضطراب على وجه « أنجي » .. وتلفتت حولها في قلق وخشية . وأحس « علي » من قلقها قلقاً أشد ، ومن خشيتها خشية أكبر ، ومضت لحظة اضطراب تعذر على كليهما الحديث فيها وأخيراً قال علي :

— أود أن أحدثك كثيراً يا أنجي .

— لا أظن الفرصة سانحة الآن .

— متى تسنح الفرصة إذا ؟! لا بد أن أحدثك وأسمع منك .. لقد أوشك اليأس أن يدك صرح أمانتي ، ويدمر حصن آمالي .. ولولا ثقة راسخة بك ، وإيمان عميق بحبك .. لا نطفأت من نفسي كل بارقة ، وضاع كل أمل .

— دع الثقة راسخة كما هي ، ودع الإيمان عميقاً كما هو .

— إلى متى ؟! إلى أوشك أن أجن .. ما سبب كل هذه القطيعة والتباعد ؟!

وبدا من بعيد شبح « علاء » وقد أقبل مع « سهيلة » ، وزادت مظاهر الاضطراب بأنجي وهتفت في عجل :

— لن نستطيع أن نكمل حديثنا الآن .

— ٤٥٠ —

— ولكن لا بد أن أسمع منك شيئاً .. لقد مضى على أربعة أيام وأنا أبحث
عنه .

— إذا تلتقي غداً في سيدى بشر .. لو أتيت إلى هناك فساء حاول أن ألقاك في
ميامي .

— إنى لا أستطيع أن أمكث إلى غد .. لا بد أن أرحل هذا المساء .

— ولِمَ ؟

— لأننا سنسافر في الغد إلى الواحات البحرية .. سيتحرك الآلاى بأكمله إلى
هناك .

وبدت علامات الضيق والحزن على وجه « أنجى » .

وأردف « على » يقول يائساً :

— إن هذه آخر فرصة أراك فيها .

— لا تقل هذا .. سترانى عندما تعود .

— وكيف أراك ، وأنت قد أبيت على حتى الرد في التليفون ؟

وهزت « أنجى » رأسها في قنوط وقالت في مرارة :

— كنت مكرهة .. لم يكن هناك من سبيل إلا أن أفعل ما فعلت .

— ولماذا لم تحاولي أن تقولى لى حتى أتمس لك عذراً ، وحتى أنزع من نفسى

تلك الوسوس القاتلة ؟ لماذا لم تكتبى إلى ! وقد سبق أن كتبت من قبل ؟

— لقد حاولت الكتابة .. ولكننى طويت ما كتبت .. لم يكن هناك فائدة من

الكتابة .. بل ربما كان هناك ضرر .

وتلفت « أنجى » حولها ثم همست به في اضطراب وحزن :

— سأتركك الآن .

— أهكذا سريعاً ؟

— لا بد أن أعود إلى المقصورة .

وأحس « على » بالحزن يفعم نفسه وهمس بها :

— ألا تقولين شيئاً ؟

وبدا على « أنجى » أنها تقاوم نوبة بكاء وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى وقالت فى يأس :

— وماذا بوسعى أن أقول ؟

— أما زال حبك كما هو ؟

وهمست « أنجى » فى صوت لا يكاد يسمع :
— وأكثر .

ثم اندفعت من مكانها تجاه المدرج ، ووقف « على » يرقبها فى ذهول .. وهى تتباعد بسرعة حتى اختفى شبحها ثم سار بخطى متثاقلة متجهاً إلى أخيه .

ووقف « على » بين الجموع المحتشدة الضاحكة الصاخبة ، وأخذ يخلق فى ممر السباق الأخضر الطويل الذى أقبلت الخيل تعدو به من بعيد .. وقد تصاعدت حوله الصيحات وتعالى الهتاف والتصفيق والتشجيع والاستحاث ، وبين هذا كله لا يترك ذهنه سوى لفظ واحد يسرى فى همس ، يتضاءل أمامه أشد الصياح .. لفظ واحد قد تملك مشاعره وأخذ بلبه .. ونفذ إلى مسامعه كالنغم العذب واللحن الجميل قائلاً : « وأكثر » .

وأكثر .. وأكثر .. وأكثر .. ولاشئ غير ذلك .. حتى انتهى السباق ، وغادر « على » الإسكندرية ، عائداً إلى القاهرة ، وب نفسه شعور عميق بالراحة والسكينة .

لقد استطاعت نظرتها الرقيقة ، وكلمتها الحنون ، أن تمحو فى لحظة كل ما رسب فى أعماقه من وساوس وريب خلال الشهور الماضية ، وانسدل ستار كثيف على الصورة المزعجة التى طالما جسدت أوهام الفرقة والقطيعة ، ولم يعد فى ذهنه سوى صورة واحدة هى « أنجى » الأولى ، حبيبة الروح السامية الرقيقة المرفهة .

لقد رفض ذهنه التفكير فى سابق وساوسه .. وضرب صفحاً عما كان يطلبه

من تبريرات وتفسيرات واعتذارات ، واكتفى من كل ذلك بالنظرة والكلمة .

وفي الصباح بدأت عربات الآلاى فى التحرك بعد أن انتهى التفتيش عليها ، وسارت تخرق طرق القاهرة وقد شدت بالمدافع وحملت فى عرباتها الذخائر . وأحس الجنود والضباط لأول مرة أنهم يتحركون لعمل جدى ، وأنهم سيقومون بنصيبهم فى الدفاع عن مصر .

وألقى « على » نظرة على بناء حبيب إلى نفسه ، كان يحس بقلبه يدق له كلما مر به . وتخیل « أنجى » بين جدرانہ تجلس بين زميلاتها على أحد المكاتب أو تتريض فى الفناء أو تستريح تحت النخلة .

وغمره إحساس بحزن هادئ غير ثقيل ، حزن غير ذلك الحزن المقعم بالسواوس ، الملىء بالريب ، المثقل بالقلق .. كان حزناً لذيذاً .. إن صح أن للحزن لذة .. كان حزناً مليحاً بالطمأنينة والثقة والإيمان ، حزناً مشبعاً .. يحمد الله أن أتاح له فرصة لقاء فى اللحظة الأخيرة ، غسل بها شوائب الكسدر والشجن ، وهياً له زاداً — على قلة محصوله — قميناً بأن يقيم أوده فى فرقته ، ومنحه ذكرى — على ضآلتها — جديرة بأن تؤنس وحشته وتجمل غربته .

واجتازت العربات طرق القاهرة وانتهت إلى بداية طريق الإسكندرية قرب الهرم . ثم دلفت فى طريق الفيوم وسارت برهة انحرفت بعدها إلى المدق المؤدى إلى الواحات البحرية .

وكان الطريق طويلاً يبلغ الثلاثمائة والسبعين كيلو متراً ، لم تمتد إليه يد بالدك أو الإصلاح ، وليس به من معالم الطرق سوى آثار العربات السائرة فى الرمال ، وعلامات إرشاد حديدية دقت فى الأرض يثبت عليها طول الطريق كل خمسة كيلو مترات .

وتعاون ملل الطريق والهجير والتراب .. على تقديم رحلة ، لا يتمنى الراحل فيها إلا أن ينتهى منها ، وهو يجد نفسه منطلقاً فى فراغ لا حد له ولا نهاية ولا هيئة

مميزة تكسر من حد ذلك الأفق الفارغ المنبسط ، بل رمال ، ورمال ، تتشابه في كل بقعة ، وفي كل منطقة ، حتى المرتفعات التي تبدو على الخريطة وكأنها جبال واضحة مميزة يمر عليها الراحل دون أن يحس بها .

هيئة واحدة هي التي يستطيع الإنسان أن يميزها .. وهي بحر الرمل ، الذي بدا فعلا كأنه بحر من الرمال تعاقبت فيه سلسلة من كتبان الرمال المسماة بالغرود كأنها أمواج متلاطمة ، وينقطع فيه أثر الطريق بين الرمال المتهايلة .

وبدا المرور في بحر الرمال ، وتحمل العابرون من مشقة العبور ما هان إلى جواره كل ما لا قوه من مشقة الطريق ، وغرزت العربات في الرمال الخفيفة وكأنها تسير في الماء .

وأضحى على « على » أن يقاوم الحر والرمال المتهايلة تحت العربات الثقيلة حتى عبر بلوكة الغرود الملينة .

وأخيراً أטרقت العربات على منخفض الواحة ، وبدت قراها كأنها بقع خضر .. تتناثر حولها جبال هرمية كأنها الأقماع المقلوبة .

واستمرت العربات سائرة في طريقها على حافة الهضبة دون أن تهبط من النقب إلى الواحة حتى وصلت إلى المواقع التي اختيرت لكي تحتلها القوات المدافعة .

(٤١)

رحيل وعودة

احتل الآلاى مواقعه على المرتفعات المشرفة على الواحة من الناحية الشمالية الغربية .. المقاطعة للطريق القادم من سيوة إلى النقب رقم ١٣ .
وكان رأى قد استقر على احتلالها بعد عمليات الاستكشاف الأولى التي قام بها قائد الآلاى ومستشار البعثة وفي صحبتهم « على » إذ كانت أصلح المواقع للدفاع عن الواحة .. وكان اتساع المنطقة وصلابة أرضها يمنحان القوات الميكانيكية حرية المناورة والقيام بأى هجوم على القوات المعادية المحتمل تقدمها من ناحية سيوة .. كما كانت المواقع لاتبعد كثيراً عن قواعد تموينها التي أنشأها سلاح خدمة الجيش داخل الواحة عند الباويطى .. وكانت خطوط المواصلات بينهما سهلة ولا سيما بعد أن نسف المهندسون جزءاً من الجرف المشرف على النقب ١٣ ، والذي كان يعوق المرور عليه ويزيد في اخنائه .. كما قاموا بدكه ورصفه حتى تستطيع عربات المياه ولوريات التعيين والبترول أن تعبره دون أن تغوص عجلائها في رماله المتهايلة .

ووزعت القوات بحيث وضعت الأورطة الثانية التي تضم بلوك « على » في المقدمة .. ووضعت الأورطة الثانية في الاحتياط مع رئاسة الآلاى .
واحتل « على » بيلوكه يمين الطريق .. واحتل البوكان الآخرا يساره ، ووضعت رئاسة الأورطة في موقع متوسط في الخلف .

ولم تكن طبيعة العمليات التي يتأهب لها الآلاى لتسمح بالقيام بمعسكر ثابت فقد كان مفروضاً فيها الخفة والسرعة . وكان على الجنود والضباط أن يناموا في العراء بجوار عرباتهم المحملة بالذخائر ، والأسلحة وتعيينات الطوارئ. ولم تسمح

حملة الآلاى الخفيفة بأن تحمل في ذلك الطريق الطويل إلا بعدد محدود جداً من الخيام .. وزع على رياسة الآلاى والكتيبتين واستعمل معظمه للمطابخ والميسات .

وكان نصيب البوكات الثلاثة الأمامية خيمة من طراز مستشفى وتزلك مربع صغير لا تزيد مساحته على متر في متر ، وكان على الضباط الثلاثة أن يتقاسموها سوياً .

وقع « على » بالتزلك رغم انعدام فائدته .. رغبة منه في الخلوة والاستقلال بنفسه ، واقتسم الضابطان الآخران الخيمة بعد أن نصبها في مكان متوسط بين بلوكيهما .

واستقر « على » أخيراً في مكانه .. وأحس لأول مرة بنوع من السكينة النسبية بعد بضعة أيام من العمل الشاق والجهد المتواصل في الرحيل واحتلال المواقع وتنظيم القوات ، وتلقى الأوامر من الرؤساء وإعطاء التعليمات للصف ضباط والجنود .

ورقد على فراشه السفرى الذى وضع نصفه في التزلك وبرز نصفه الآخر في العراء .. ولم تكن للتزلك في الواقع أية فائدة عملية .. إذ كان لا يزيد على أربعة جدران من القماش بلا سقف .. ولا يكاد يتسع إلا لواقف أو جالس .. ومع ذلك فقد أحس به « على » نوعاً من الحجاب والستر يلّمه في هذا الفراغ اللانهائى .. وتشعر بوحدة محبيه إلى نفسه .

رقد « على » على الفراش المشمع ذى السيقان الخشبية الخفيفة المتقاطعة ، وقد ضم نصفه الأعلى الجدران الثلاثة الضيقة وبدت بينها رقعة السماء داكنة تتلألأ بها حبات النجوم .. كأنها حبات « الترت » في ثوب أسود .. وكانت بالجو نوبة ركود وزمته مما تبدأ بها ليالى الصيف .. وأحس « على » بعض الانقباض والحر بين الجدران الضيقة فأبدل وضعه في الفراش ووضع رأسه في الهواء الطلق وساقيه بين التزلك فبدت له رقعة السماء أكثر رحابة وأفسح صدرأ .. ووصل إلى أذنيه

لغط الجنود فى مواقعهم وقد جعله سكون الليل وفراغ المكان واضحاً مسموعاً .
وانطلق ذهنه يستدعى ربة الأحلام ، ولم يكن استدعاؤها — على بعد
الشقة — بالأمر العسير .

وسرعان ما أقبلت عليه .. تؤنس وحشته .. وتشاركه رقده العجيبة فى
الفلاة الموحشة .. والرمال القفرة .

وأغمض عينيه .. والطف الجميل منه غير بعيد ، يشاركه أحلام الغفوة ..
كما يشاركه أحلام اليقظة .

ومرت الأيام بعد ذلك والقوات الأمامية تقوم بواجبها فى المراقبة .. والقوات
الاحتياطية تقوم بالتدريب اليومى العادى .

وكانت ساعات النهار تمر بطيئة مثاقلة ، والحرارة خانقة ، والملل شديداً
والسكون شاملاً .. لا يقطعه إلا صوت دبابة تطن فى الهواء الساخن ، أو صوت
عربة يحاول سائقها أن يدير المحرك المستعصى .

وذات مساء وقد تجمع الضباط للسممر فى رياسة الآلاى والتف البعض حول
جهاز للإذاعة يعمل بالبطارية ، بلغ مسامعهم نبأ إعلان الحرب .

ولم يكن وقع النبأ مفاجئاً إذ كانت حالة التوتر الدولى قد بلغت حداً جعل
نشوب الحرب متوقعاً بين لحظة وأخرى ، وكان مفهوماً أن نقل الآلاى من
ثكناته بكوبرى القبة وتشريده فى تلك الفلوات المقفرة لم يكن من باب العبث أو
التسلية .. وإنما هو استعداد لنشوب الحرب ، ولصد أية هجمات متوقعة على
ذلك الطريق من جانب الإيطاليين .

ومع كل ذلك — ومع توقع النبأ بين آونة وأخرى — أحس « على » بأسى
عميق يفعم قلبه على فشل الإنسان فى أن يصون إنسانيته ، وعلى تردى البشر فى
هاوية حرب لا يستطيع « على » أن يفهم لها سبباً سوى تطاحن المطامع وتضارب
الأهواء .

وتلقى الضباط النبأ بشيء من الوجوم ما لبث أن تغلبت عليه طبيعتهم المرحية

الضاحكة ، وأنبأهم قائد الآلاى أد المسألة دخلت في دور الجدد ، وأن الحرب قد وقعت . وأن دورهم فيها ليس بالهين ، فهجوم الإيطاليين محتمل بين آونة وأخرى ولا بد لكل منهم أن يفتح عييه جديداً .

ولكن الأيام مضت بعد ذلك دون أن تعلن إيطاليا الحرب ، وبدأت الأعصاب المتوترة تهدأ وتسترخى .. فقد كان الجميع يحسون أن موقفهم بات معلقاً بموقف إيطاليا ، وأن حالة السلام في ناحيتهم مضمونة ما دامت إيطاليا تتخذ موقف الحياد ، إذ لم يكن هناك ما يهدد حدود مصر الغربية سوى القوات الإيطالية المربطة في ليبيا .

ورغم تعاود شبح الحرب مؤقتاً .. وإحساسهم بنوع من الطمأنينة .. فقد بدأ الملل يأخذ بخناقهم والسامة تنطق على أنفاسهم .. ووقوع البلاء — كما يقول المثل — ولا انتظاره ، وليس أسوء من الحرب إلا المربطة في المواقع انتظاراً لحدوثها .

وزاد من مشقة العيش .. ضعف وسائل التموين وامتداد فترة احتلال المواقع الأمامية ، وتفرق الخنود والعربات في الفلاة دون أن تتوافر لديهم وسائل الراحة أو الترفيه .

كانت المياه تنقل من الواحات في عربات بكميات محدودة ، وكان الاستحمام متعذراً .. فإن وجدت مياهه لم يوجد مكانه ، وإن وجد مكانه عصفت به الأعاصير الرملية فوضعت على الأجساد من الرمال والأتربة أكثر مما أزالته عنها المياه .. ومرت فترة تعذر فيها الحصول على السجائر .. وأصيب الجنود بما يشبه الجنون ، وأدهش « على » ذلك التأثير العجيب للسجائر .. كان كل شيء محتملاً ، حتى الجوع والعطش .. ولكن الحرمان من السجائر كان يحدث بين الجنود شبه قمرّد ، وأضحت السجاجة تهرب بينهم بما يزيد على الريال .

وانتشر البعوض والذباب ، كل يتولى الأذى والمضايقة في نوبته : البعوض

ليلاً ، والذباب نهراً .. هذه الأفواج تسلم تلك كأنها نوبات الدوريات .. وازدادت إصابات الملاريا رغم الكميات الهائلة التي ابتلعها القوات من أقراص الكينين .

وبدأت التدابير تتخذ لتهيئة وسائل الراحة للقوات بعد أن طال بها التشريد والتفرق بين التباب ، وطالت فترة البقاء في المواقع الأمامية دون أن تبدو من إيطاليا أية بادرة للاشتراك في الحرب .

وزيدت الخيام .. وأنشئت معسكرات ثابتة للأورطة وسحبت البلوكات من مواقعها الأمامية ، وأنشئت اللترينات والحمامات وغيرها من المرافق وأجريت الاستعدادات لإقامة أطول دواماً وأكثر راحة ، واستدعيت من القاهرة بقية الأسلحة المعاونة ، وأنشئت ورشة لإصلاح العربات والأسلحة ، وزاد عدد القوات في باطن الواحة ، وبقي آلاى السيارات معسكراً وحده خارجها بعد أن ارتدت قواته من الخطوط الأمامية إلى المعسكر القريب من جرف الواحة .

وكان « على ماهر » قد تسلم مقاليد الحكم بعد أن ضج منه « محمد محمود » وأعياء الاستمرار فيه وأعجزته كثرة العراقيل والعقبات ، وأحدث « على ماهر » عندما تولى الوزارة رجة في دوائرها بعد أن أخرج عدداً كبيراً من وكلاء الوزارات وكبار الموظفين من كل لون ونوع ، وكان بين هؤلاء رئيس هيئة أركان حرب الجيش فوضع مكان الرجل الطيب محمود شكرى .. عزيز المصرى .. الذى بدا نقيضاً لسلفه في كل شيء .

وبمر الأيام واستمرار تخلف إيطاليا عن الحرب زاد الهدوء في جبهة البحرية واشتد الملل ، وأخذ « على » يحس بالوقت يمر به ثقيلًا بطيئاً .. حتى ليكاد يمشى القهقرى ، وأخذ الحنين في نفسه يشتد والشوق يزداد .. ولم تعد تجدى معه الذكرى المجتررة التي كان يحيا عليها في لياليه الموحشة وأيامه الطويلة التي لا يملاً فراغها سوى الانتظار والتفكير .

وامتلأت نوتة الميدان بالرسائل الطويلة يسطرها للغائب النأى بلا أمل في

إرسالها له ولا رجاء في إبلاغها إياه .. وكأنها نفثة مصدر يطلقها كلما ملأت الكروب صدره وأفعمت جوانحه ، واختلطت في النوتة مشروعات التكنيك بأحاديث الهوى .. وحرس الجنب بالمناجاة الحارة .

وأقبل الشتاء وزادت الحياة مشقة وعسراً ، وكان البريد لا يصل إلا متقطعاً والرسائل عزيزة نادرة ، ولم يكن « على » قد تلقى خلال بضعة الأشهر التي أقامها سوى رسالتين من أخيه تحملان تحياته وأشواقه وبعض مغامراته ، ورسالة من « بهية » استطاعت أن تكتبها بأسلوبها البدائي وخطها الركيك تحملها أشواق أمه وأبيه ، وبعض الأنباء التافهة .

وفي الرسائل الثلاثة لم تخط كلمة واحدة ، عما كان يهفو إليه قلبه وتوق إليه روحه .. لقد كتبوا إليه عن كل تافهة لا يعنيه أمرها .. أما عن « أنجبى » فلا حرفاً واحداً .

وأخيراً وصلت إليه رسالة من حسين ، وكان الوقت ضحاً ، وقد انتهى من التفتيش على صيانة عرباته ومدافعه ، وأقبل على خيمته ليخلع الأوفرول الأحمر ويرتدى الشورت والقميص .. وفي طريقه إلى الخيمة مرّ بخيمة المطبخ وقد وقعت أمامها عربة التعيين تفرع حمولتها من الخضر واللحوم ، ولم يكد البلوكامين يلمحه حتى أقبل عليه محيياً ، وبين يديه مجموعة رسائل وقال :

— لحضرتك رسالة في بريد اليوم .

وبحث عن الرسالة ثم مدّ بها يده فتناولها « على » شاكراً ، ومضى إلى خيمته كانت الرسالة من حسين ، فقد ميز خطه بسهولة على مظهر وفها ، ورغم يقينه عندما أنبأه البلوكامين بها ، وأنها لا بد وأن تكون من أخيه .. فقد أحس بشيء من الخذلان عندما تبين أنها فعلاً منه .. إذ لم يستطع يأسه المطبق أن يطفىء ذبالة أمل كانت ما تفتأ تنوّهج كلما أبصر بريداً مقبلاً .

كان يعلق نفسه بخيط رفيع من الأمل .. قد تخفيه أحياناً ظلمات اليأس والملل والضيق .. ولكنها مع ذلك لا تمحو وجوده .. فمنه كان يستمد الصبر والجلد

والقدرة على مباشرة مظاهر الحياة كغيره من الأحياء .
ألم يسبق أن كتبت له من قبل ؟ ألم تطلب منه أن يستمر على الثقة فيها والإيمان
بحبها ؟!

ألم تجبه عندما سألتها : « أما زال حبك كما هو ؟ » بقولها : « وأكثر » ؟
ما الذى يمنعها إذاً من الكتابة إليه ؟
ومع ذلك فهى لا تكتب .

وجلس على المقعد السفرى القماش فى داخل الخيمة .. وفض الرسالة محاولاً
تبييد ما أصابه من خذلان وضيق .. ولم يصعب عليه ذلك . فقد كان مجرد
وصول رسالة أمراً يبعث على الطرب ، وهى رسالة من أخيه الحبيب لا بد أن
يكون قد حملها الكثير من فكاهته ومرحه ومغامراته .

ثم .. من يدرى .. ربما يكون قد استحي وضمها بعض أنبائها .
ألم يلح له هو فى رسالته الأخيرة برغبته فى أن يذكر له شيئاً عنها ؟
وبدأ فى قراءة الرسالة .. واثر ثغره عن ابتسامة واسعة وهو يمر ببصره بين
السطور المرحية الماجنة .. ثم أحس بالبصر يتجاوز السطور سريعاً ليثبت على
كلمة كانت تستطيع دائماً أن تجذب بصره بين مئات الكلمات .. وهفا قلبه
وتوالت دقاته ، وتوقف برهة عن القراءة حتى يتألك أنفاسه ، وحتى يتأكد أن
الكلمة هى « أنجى » حقاً .. وأنه لم يكن واحماً ولا متخيلاً .. ثم استرسل فى
القراءة :

« وقد رأيت صاحبك » أنجى « مرتين .. وتمنيت فى كل مرة لو كان فى يدي
خاتم سليمان لكى آمر مارده أن يمد يده لإحضارك من خيمتك على حافة الواحة
البحرية .. حتى تمتع بصرك بها .. لقد كانت حقاً رائعة .. ويبدو لى أنها تغيرت
كثيراً عما كنا نبصرها فى حديقة أبيها ونحن طلبة .. لقد رأيتها فى المرة الأولى
ترقص فى الموكسليصور مع قريبها النبيل إبراهيم كأل .. كانت ثابتة الخطى ..
مرفوعة الهامة .. وقد لمحتنى وهى توشك على الانصراف ، وأشارت لى بهزة من
رأسها ، وقد توقفت قليلاً وبدأ على ملاحمها كأنما تود أن تحدثنى عن شىء ،

ولكنها ما لبثت حتى انصرفت مع رفاقها .

« ورأيته في المرة الثانية في إحدى الحفلات الخاصة .. في قصر الأميرة نعمات .. وقد دعنتني إليها « درية » وكانت حفلة هائلة .. وقد حضرها « مولانا » وكان تبدو عليه أقصى أمارات الغبطة .. والطرب .. وكانت قهقهته تتجاوب في أنحائها .

« لقد سنحت لي فرصة الحديث مع « أنجي » للحظة خاطفة ، وسألتني عنك .. فقلت لها إنك ما زلت في الواحات البحرية ، وأنتك تسأل عن أنباتها ، ولم أتبين من حديثها ذلك المرح الذي قد يبدو في ظاهر حركاتها ، وخيل إلي أنها مهمومة .. أو على الأقل .. هذا ما توهمت .

وكان في صحبتها نفس « الشلة » التي رأيته معها من قبل .. ماذا أعرف أيضاً عن أنجي ؟ .. لست أذكر الآن أكثر من هذا .. لا .. لا .. بقي شيء واحد .. لقد قالت لي إنها تود أن تحدثني في أمر هام .. ولكن (درية) أقبنت وانتزعتني لكي أرقص معها .. وعندما عدت إليها كانت منهكة وسط (شلتها) ثم اختفت عن ناظري بعد ذلك .. دون أن تسرّ إلي بحديثها الهام .. وماذا أيضاً ؟ .. أظن هذا كل شيء .
(أما عن ..)

— ولم يتمم « على » الرسالة .. وتركها تسقط من يمينه فوق المنضدة .. ورفع يسراه يضغط بها على جبينه كأنه يعتصره .. ثم غطى وجهه بكفه مغمضاً عينيه وقد أحس كأن أكداً من الحزن ترسب في جوفه .. وتشل حركته وتنهك قواه .

وبعد .. !!

ماذا بعد كل هذا ؟!

أهذا هو حبها الأكثر ؟ .. أتلك هي ربة أحلامه .. وإلهة أوهامه ؟! أم تراه — كما قال سليمان — قد رسم لها في ذهنه صورة ليس بها من حقيقتها صلة

ولا شبهه !؟

أحقا .. ترقص مع ذلك المخلوق .. الذى يأبى إلا أن يبدو معها فى كل مكان ؟

لا .. لا .. لا يمكن أن تفعل « أتجنى » هذا .. إنه ما زال يذكر آخر لقاء لهما .. يذكر نظرتها الحارة وحديثها العذب .. يذكرها كما أحبا دائماً طاهرة نقية مرهفة نبيلة سامية .. لا صلة بينها وبين تلك الصورة الشوهاء التى يحاولون أن يبدوها بها .

ولكن من الذى يحاول أن يبدوها بها ؟ أخوه ؟ وما فائدته من هذا ؟ أى شيء يدعوه لأن يفترى عليها كذباً ؟! .. ثم إن « حسين » يسرد حديثه عنها ببساطة من لا يجد فيه عيباً .. إنه يذكره بلا نفور ولا إحساس بالحرج .. إن كل ما فعل هو أن لبي طلبه وروى له أخبارها .. وإذا كانت تلك هى أخبارها ، وذلك هو كل ما استطاع معرفته عنها .. فما ذنبه ؟

وأخذت الأفكار تضطرم فى رأسه .. والظنون تنهش صدره .. وكان البعد وطول الفرقة قد أوهت مقاومته .. فأحس أنه يتهاوى أمام ضربات الوسوس .. ولطومات الشكوك .. وامتلات نفسه بياس شديد .. وهو ملقى فى وحدته النائية بلا أمل فى شيء .. مستسلماً لهجمات الظنون .. بلا سلاح يقاوم به .. لا لقاء ولا كلمة ولا نظرة .

وعندما حان وقت الغداء لم يغادر خيمته واعتذر عنه بوعكة طارئة .. وفى العصر بدا فى المحاضرة التى ألقاها قائد الآلاى على تحتة الرمل ، واجماً شارد الذهن .. وعندما اجتمع الضباط للسمر فى المساء افتقدوه بينهم ، وتلفت القائد حوله متسائلاً :

— أين على ؟

وتطوّع أحد زملائه بالإجابة قائلاً :

— أظنه بالخيمة .

— ماذا به ؟

— لقد كان متعباً من الظهر .

ووجه القائد سؤاله إلى اليوزباشى الطبيب

— ألم تره يا دكتور إبراهيم ؟

— لقد رأيته بعد الغداء .. لم يكن به شىء .. الحرارة طبيعية . والنفض

عادى .. أظن أنه مجرد إنهاك .. أو قد يكون هناك ما يضايقه نفسياً .

— لقد بدا عليه الشرود والوجوم خلال المحاضرة .. كان يبدو وكأنه فى عالم

آخر .. ولا أظنه فهم كلمة واحدة مما قلت .. ألا يعرف أحد ماذا به ؟

وأجاب أحد الضباط :

— لقد وصلته اليوم رسالة .. ربما كان بها ما يحزنه .. أنا أعرف أن أنه كان

مريضاً بالضغط .

وبدت علامات التفكير على وجه القائد .. وبعد فترة صمت ، وجه الحديث

إلى اليوزباشى أركان حرب الآلاى متسائلاً :

— اسمع يا عبد العزيز .

— أفندم سعادة البيه ؟

— متى ستنزل الدفعة القادمة من إجازات الضباط ؟

— ستنزل يوم السبت .. فالمفروض أن تحضر الدفعة الأولى يوم الجمعة .

— دفعة أنور وكال ؟

— أجل .. لقد قاما يوم السبت ، وسنحسب الأجازة خمسة أيام عدا يومى

سفر فيكون موعد قدومهما يوم الجمعة .

— ومن سينزل فى الدفعة التالية ؟

— أظن حسين وزكى .

ورد حسين مصدقاً على قوله :

— أجل .. إن الدور علينا .

وصمت القائد مرة أخرى ثم تساءل :

— ومتى سيحل الدور على « على » ؟

— أظن ما زال الوقت مبكراً عليه .. لن يحل دوره قبل بضعة أسابيع .

— إذاً دعه ينزل في هذه الدفعة .

— بدل من ؟

وبدا الوجوم على حسين وزكى ، ولكن القائد ما لبث أن أزال وجومهما

بقوله :

— لينزل معهما .

وبدا التردد على وجه الأركان حرب وأجاب قائلاً :

— ولكن دوره لم يحل .. أعني أن بعض الضباط قد ...

— لن يعترض الضباط على شيء .. إلى أعرف أن حالته المعنوية سيئة .. منذ

مدة وأنا ألاحظ ذلك .. وليس هناك فائدة من استمراره على حالته تلك .. لن

تحصل منه على نصف مجهوده .. دعه ينزل هذا الأسبوع ليطمئن على أبيه ..

وسيعود إليك كالخصان .. إنه ضابط كفء وممتاز ، ويجب أن نعاونه على

استرداد قدرته على العمل ، وعلى رفع روحه المعنوية .

وقال « حسين » وقد تأثر بقول القائد :

— إني على استعداد للتنازل له عن دورى .

— لا ضرورة لذلك . يمكنكم أن تسافروا أنتم الثلاثة . يستطيع الآلاى أن

يسير بدونكم أسبوعاً .. ولست أظن أن إيطاليا تنوى الهجوم هذا الأسبوع .

وكان « على » قد استلقى على فراشه السفرى .. وأخذ يحرق في ذبالة

« الفانوس الهاريكين » المعلق في عمود الخيمة وشرده ذهنه بعيداً .. بعيداً .

لو أتاحت له الفرصة أن يراها .. ويتحدث إليها .. لزال هذا اليأس الجائم

على صدره .. إنه ما زال واثقاً بها مؤمناً بحبها .. إنه لن يخذلها قط .
فقط لو استطاع أن يراها لتمنحه من نظراتها قوة على الصبر والتجملد .. هذه المرة .. عندما يعود إلى القاهرة لن تمنعه قوة من رؤيتها والحديث إليها .. إن لها حقاً عليه .. حق الصلة الروحية .. والارتباط الأبدى .. لن يتركها هذه المرة إلا وقد ارتبط برباط أوثق .. أجل يجب أن يوضح لها همومه ووساوسه ، ويطلب منها أن تكف عن هذه المظاهر التي تبدو بها ويتفق معها على خطوة إيجابية في سبيل ارتباطهما .. إلى متى سيظل على موقفه السلبي المتردد !! ألم يصبح كفتاً لها ؟!
إنه وشيك الحصول على الترقية خلال بضعة الأيام القادمة .. وسيصبح « ملازم أول » وهو يستطيع أن يتقدم لخطبتها .

يتقدم لمن ؟ .. لأبيها ؟ . لأفندينا ؟ . وأفرعه الخاطر ، وأحس بعجز عن الإقدام عليه حتى في مجرد التفكير .
ولكن ماذا يخشى ؟! ماذا يفزعه من أفندينا ؟ مادامت هي تحبه . وما دامت قد صممت على أن تربط حياتها به .. وطلبت منه الثقة فيها والإيمان بحبها ؟
كيف يستطيع أفندينا أن يقف في وجه الطبيعة ؟! كيف يمكن أن يقاوم وثاق الأرواح ورباط القلوب ؟!
لا .. لا .. إنه يجب أن يخضع .. وعندما يذهب إلى القاهرة هذه المرة لا بد أن يحسم الأمر .

ولكن متى سيذهب إلى القاهرة ؟! ينخل إليه .. أنه لن يعود إلى القاهرة قط .. وأنه سيفنى بقية عمره بين هذه التباب المقفرة الرملية ، وسط الخيام والعربات ، والبعوض والذباب .
ما زال أمامه وقت طويل حتى يحل عليه الدور .. فإن أقدميته لن تمكنه من النزول إلا في آخر دفعة ، وسيكون اليأس والوساوس قد قضت عليه قضاء تاماً .. قبل أن يحل موعد نزوله .
(رد قلبي — ج ٢)

وأحس بوقع أقدام تقترب من الخيمة ، ثم أبصر شعباً يقترب منها ويخطو إلى داخلها وسمع صوت « حسين » يهتف به :

— ستنزل معنا يا « علي » بعد غد ، أو على الأصح في الغد . فقد عز منا على أن نتحرك من هنا في منتصف الليل .. فالقمر سيكون مشرقاً ، والطريق واضحاً ، وسنستفيد بيضع ساعات الليل حتى نصل إلى القاهرة ظهر السبت ونستفيد باليوم كله بدل أن نضيعه في السفر .

(٤٢)

مجرد هذيان

انساب موكب العربات الثلاث على ضوء القمر في منتصف الليل .. وكانت
معالم الطريق تبدو باهتة في الضوء الشاحب ، وأشباح التلال الهرمية في باطن
الواحة تلقى ظلالها مترامية بجوارها ، والسكون قد ساد إلا من صوت محركات
العربات .

وخلف الموكب الواحة ورائه ، وانحدر في التلال المؤدية إلى بحر الرمل ،
وأحس « على » بجسده المنهك قد أخذ في الاسترخاء على حركة اهتزاز العربة ،
وبدأ النوم يتسرب إليه طاوياً في برديه حشد الأفكار الذي يدور برأسه
كالدوامة .

واستغرق « على » في غفوات متقطعة لا يكاد يستسلم إليها حتى توقظه رجة
أحد المطبات .. ثم استقام الطريق بعد ذلك فمنحه غفوة طويلة .. لم يحس هو
مداها إلا بعد أن وقفت العربات وفتح عينيه فإذا بخيوط الضوء تتسلل من الأفق
الشرقي طاوية ضوء القمر كاسفة وجهه .

ووقف العربات برهة للراحة وهبط الضباط الثلاثة يركون سيقانهم ، ونظر
« زكى » إلى ساعته وبدت على وجهه سيماء الفرح وهو يقول .

— قطعنا مرحلة طيبة في وقت قصير ؟!

وأجابه زميله « حسين » :

— لقد عاوننا على ذلك أننا أجتزنا بحر الرمل دون أن نتوقف إحدى العربات .

— لقد كنت تمشى بسرعة مخيفة .. ولم أملك أنا إلا أن أتبعك .

— ولولا هذا لما اجتزناه بهذه السهولة .

— على أية حال يجب أن نحفف السرعة .
— ما زال أمامنا ما يربو على مائتى كيلو .. والطريق فى المرحلة القادمة أكثر تمهيداً .

— إننا نستطيع أن نقطع المسافة الباقية بسهولة فى خمس ساعات .
— سنضرب بذلك رقماً قياسيًّا .. سنكون فى القاهرة الساعة العاشرة .
— كأننا استيقظنا فى بيوتنا .. لن يضيع علينا يوم السفر .. سنكسبه كاملاً .
— لشد ما أنا مشتاق إلى القاهرة وشوارعها وحواريها ونسائها .. لقد كرهت عيناى اللون الكاكى .. إنى أتوق إلى رؤية اللون الأحمر .. فى الثياب أو الحدود أو الشفاه .. لقد أقسمت ألا أضيع دقيقة واحدة فى النوم ، سأمضى الأسبوع كله مستيقظاً وسأؤجل النوم حتى نعود إلى الواحة البحرية .
— أنا أيضاً سأفعل مثلك .. إن لدى من الأعمال التى أريد إنجازها ما يشغل شهراً بأكمله ولست أدري كيف سأقسم وقتى فى هذا الأسبوع .
ولم يكن « على » قد نبس بينت شفة ، بل كان يقف صامتاً شاردًا وقد وصع يديه فى جيبي بنطلونه وأطرق إلى الأرض وأخذ يحفر بكعبه حفرة فى الرمال كأنه حصان قلق .

ونظر إليه « حسين » وحاول إخراجه عن صمته متسائلاً :
— وأنت يا على .. ماذا تنوى أن تفعل ؟! وكيف ستقضى أجازتك ؟
ولم يعرف « على » كيف يجيب .
ماذا ينوى أن يفعل ؟ .. أيستطيع هو أن يدرى ؟! وإذا درى ما ينوى أن يفعل .. أيستطيع فعله ؟!
أيستطيع أن يقضى فيه إجازته ؟
إنه ينوى لقاءها ، وعنايتها ، ومناجاتها ، والاتفاق معها على ربط علاقتهما بميثاق إيجابى معترف به . ثم التقدم إلى أبيها .
ولكن .. هل سيتاح له لقاءها ؟! وإذا منحه الحظ السخى فرصة اللقاء ..

فكيف ستلقاه؟! بصورتها في ذهنه .. أم بصورتها البادية أمام الناس؟ وإذا عاتبها فكيف ستتلقى عتابه؟! ألّه عليها حق العتاب؟

وإذا قبلت عتابه .. وأوضحت له موقفها بما يقنعه .. أستقبل ما يعرضه من ارتباط إيجابى؟! أستوافقّه على ذلك ، وتمنحه من إيمانها به مزيداً من الثقة والإيمان والقوة التى تمكنه من التقدم إلى أبيها .. أم ستفزع من مجرد عرضه عليها؟

وإذا وافقت ، ومنحته الثقة والإيمان والقوة .. أسيجد في نفسه من الجرأة ما يجعله يتقدم إلى أفندينا .. بجاهه .. وعظمته ، وعجرفته وكبريائه؟

وإذا وجد الجرأة وتقدم .. فكيف سليقاه أفندينا؟

أفّ له .. ولهذا العالم البغيض الممقوت .. أبعد كل ما فعل ووصل إليه في الحياة .. ما زال يجد نفسه صغيراً متضائلاً .. إزاء ذلك العملاق الأرسطراطي المتعالى؟!!

ورمق صاحبيه في شرود .

هذا هو ما ينوى أن يفعل ، أيستطيع أن يقوله لهما؟! وببساطة أجاب على سؤالهما الذى ما زال معلقاً :

— سأرى أى وأمى .

وضحك « حسين » قائلاً :

— أباك وأملك؟!!

وشاركه « زكى » في ضحكته وعقب عليه بقوله ما زحاً :

— لعن الله أباك وأملك .. أستقضى في رؤيتهما كل الأجازة؟

ولم يملك « على » إلا مشاركتهم في الضحك قائلاً :

— وزيارات الأقارب والنزهات ، والسينما ، إلى آخره .

— تعنى ستضيعها سدى .. خسارة فيك الأجازة .. هيا بنا ..

— هيا .. ليأخذ كل منا دوره في قيادة السيارة حتى نريح السائقين .. إذ أخشى أن يناموا في الطريق .

ومرة أخرى انطلقت العربات تطوى الحصى والرمال والأرض الواسعة الفارغة .. ورويداً رويداً .. أخذ الضوء ينتشر وتساعد قرص الشمس من وراء الأفق بضوئه الأحمر اللين شاقاً طريقه إلى كبد السماء .. وزادت سرعة العربات وتغافل الضباط الثلاثة عن عداد السرعة كأنهم لا يرونه .

واستمر السير طويلاً مملاً حتى لاح في أقصى الأفق الخاوى المنبسط الذى تنطبق سماؤه على أرضه .. شبح باهت ضئيل يلفه الضباب حتى لا يكاد يبين . وأخذت تعرجات الأرض وثنياتها التى تصعد فيها العربات وتنحدر .. تبدى الشبح مرة وتحفيه أخرى .. حتى لكأنه السراب لا يكاد يلمع حتى يختفى .. وأخذت الأعين تحرق في الشبح متلهفة مشتاقة ، والقلوب تدق فرحة مصفقة . وأخيراً بدت معالمه جلية واضحة ، واستقام في الأفق شكله الهرمى الواضح المحدود ، وتوالت بعد ذلك المعالم .. وبدا السهل الأخضر منبسطاً تعلوه طبقة من الضباب وتغناثر فيه أشباح دور وأشجار مختلطة متشابكة تكاد تضيع معالمها في الخضرة المنبسطة والضباب المنتشر .

وأصاب الركب نشوة ، واندفعت العربات في جنون كأنها تود أن تلقى بنفسها في أحضان العمار والحياة بعد أن ملت طول السير في القفر اليباب . وكانت عربة « على » في مؤخرة الركب تلاحق العربتين الطائرتين وقد ضغط « على » بقدمه دواسة البنزين وتثبت بعجلة القيادة وتحلل بصره زجاج العربة محملاً في الطريق الرملى المطوى تحت العربة وكأنه يعدو في سباق .

وفجأة أحس برعدة تسرى في بدنه وبغياض خلط المريثات أمام عينيه وضربات متلاحقة تثقل رأسه وغثيان ودوخة جعلت الأرض ترجح أمام ناظره .

وحاول جهده أن يقاوم ، ورفع يسراه يضغط جبينه ويمسح عينيه .. وكانت نوبة خفيفة مشابهة قد أصابته عشية أمس جعلته ينتفض ويرتجف ، ولكنها لم تلبث أن زالت ، وانتظر أن تزول النوبة كما زالت سابقتها ، ولكنه أحس بها تتضاعف وتزايد ، وشعر بجسده ينتفض كأن ريحاً باردة تعصف به ، وازداد

تثاقل الضربات على رأسه ، وبدت له المقاومة مستحيلة وهو لا يكاد يتأسك على مقعده ولا تكاد يده تطبقان على عجلة القيادة .

ورفع قدمه عن دواسة البنزين ، ووضعها في إعياء على الفرملة .. وأخذ يضغط في جهد ومشقة .. وتمهلت العربية رويداً رويداً .. حتى توقفت تماماً .
ودهش السائق من توقف العربية .. وظن أن بها في أول الأمر خللاً ، ولكنه وجد « علياً » قد مال إلى الأمام واتكأ بساعده على عجلة القيادة وألقى برأسه في إعياء شديد على ساعده ، ثم استغرق في شبه غيبوبة .

وتساءل الجندى السائق في جزع :

— حضرة الضابط .. حضرة الضابط .. ماذا بك ؟

وأجاب « علي » في صوت خافت ملؤه الإعياء :

— لإشياء .. إني متعب قليلاً .. ولأظنني أستطيع مواصلة السواعة .. تعال مكاني لتسوق .

ولكنه لم يتحرك من مكانه .. لقد كان يحس بانتيار تام يجعله لا يستطيع حراكاً .

وصاح السائق بالجندى الجالس في الخلف :

— أعطني بعض الماء من زميتك يا مهدي .. حضرة الضابط مغمى عليه .
وقفز الجندى من بين شلالات البرتقال وصفائح العجوة التي كانت العربية محملة بها ، والتي كان « علي » يحملها هدايا لأهله ولأهل بعض زملائه وهبط إلى الأرض وأخذ يفك الزمزية القماش المعلقة في العربية .

وقبل أن يبدأ السائق علاجه بزمزية المياه استطاع « علي » أن يتحامل على نفسه ويسحب جسده من عجلة القيادة إلى المقعد المجاور .

وفي خلال ذلك كانت العربتان المتسابتان قد اكتشفتا توقف عربية « علي » وتمهلتا برهة .. وما لبثتا أن أدارتا وجهيهما وانطلقتا عائدتين لتقديم المساعدة .

وأحس « حسين » و « زكي » بالضيق والحنق ، وهما يعودان القهقري بعد

أن بانث القاهرة ملء ناظريهما ، لا يفصلهما عن الحياة والخضرة .. والوجه الحسن .. إلا بضعة كيلو مترات .

وتوقفت العربتان بجوار عربة « على » وهبط الضابطان يتساءلان في حلق عن سبب العطل .. وقبل أن يتلقيا الإجابة لحا « علياً » وقد تراخى جسده على المقعد في إعياء تام وقد بدا وجهه منهكاً شاحباً .

وأقبلا عليه في جزع ، وسأله زكى :

— ماذا أصابك يا على ؟

وأجابه « على » في صوت خافت مجهود :

— إني متعب بعض الشيء ، لقد أصابتنى دوخة ورعدة ، ولكننا نستطيع أن نواصل السير .

ووضع كفه على جبينه فراحه هيب يتصاعد منه ، وأحس بأن جسده يرتجف ، وأسنانه تصطك .

وكانت الشمس قد تعالت في كبد السماء ، وملأت الجو دفئاً . يكاد يكون حاراً ، ومع ذلك فقد همس « على » في صوته المرتعد :

— إني بردان ، أشعر ببرد شديد ، أريد شيئاً أتدثر به .

وصاح حسين بالسائق :

— هات معطفى من العربة .

وأحضر السائق المعطف ، فوضعه حسين على كتفيه ولفه به .

وقال زكى :

— لا شك أنها ملاريا .. منذ متى شعرت بالتعب ؟

— أصابتنى نوبة خفيفة عشية أمس .

— كان يجب أن تستريح .. لو أخبرتنى لما تركتك تغامر بالسفر .. وأنت

مريض .

— لم يخطر ببالي أنها ملاريا .. كانت نوبة خفيفة جداً .

وتدخل «حسين» قائلاً :

— على أية حال لقد سافرنا وانتهى الأمر .. المهم هو ماذا يمكن أن نفعله الآن ؟

وأجاب «على» في صوته المجهد الخافت :

— نواصل السير .

— وأنت محموم ؟ وأنت بهذه الحالة ؟

— ليس لى شىء .. إني تعب فقط ، وأستطيع أن أجلس هكذا فى مقعدى حتى أصل إلى البيت .

— إن أمامنا ما يقرب من عشرة كيلو مترات على أول طريق الهرم ، ومن أول طريق الهرم إلى بيتكم ما لا يقل عن ثلاثين كيلو متراً .

— إنها مسافة قصيرة .

— ألا تنتظر حتى تستريح قليلاً ؟

— لا .. لا .. هيا بنا .

— إذاً دعنى أجلس بجوارك .. سأسوق لك .. تقدم أنت يا زكى بعربتك وسر على مهل ، لا تزد عن ثلاثين كيلو ، ولتبعنا العربى الثالثة .

وعاود الركب مسيره ويبدأ متمهلاً ، و«على» مستلق على مقعدة خائر القوى ، محموم الرأس ، مقرور الجسد .. تصطك أسنانه وترتعد أطرافه ، لا يكاد يرفع أجبفانه أو يقيم عنقه أو يصلب ظهره .

وعلى هذه الحال وصل «على» إلى بيته وهبط صاحبه يأخذان بساعديه ليعاونه على السير للدخول إلى البيت ، وكان أكثر ما يشغل رأسه المحموم ، هو جزعه على أمه عند الدخول عليها بعد طول غيبة فى حالته تلك من الإعياء والمرض .. وهو الذى كان يصور لنفسه فرحتها بعودته المفاجئة .

وسحب ساعديه من ساعدى صاحبيه قائلاً وهو يحاول جهده التماسك والتجلد :

— ٤٧٤ —

— إلى أستطيع السير .. إلى أحسن حالا .
وقبل أن يصل إلى الباب كانت « بهية » قد فتحت على صوت ضجيج العربات .. ولم تكذب وتلو وجهها سيماء الفرحة بوصول « على » حتى غلبها جزعها من إعياثه البادى وخطواته المتثاقلة ، ولم يمنحها حياؤها من صاحبيه من الاندفاع إليه ، وسؤاله في لهفة وجزع :

— ماذا بك يا على ؟

وارتسمت على شفثيه ابتسامة باهتة وهو يجيب :

— لا شيء .. متعب قليلا .. أين أمى ؟

— إنها فى الداخل .

وأحست « بهية » حرارة جسده وهى تصافحه فقالت فى أسى وخوف :

— إنك مغموم !

وقال زكى مطمئناً :

— إنها حمى بسيطة .. لقد أخذناها كلنا .. إنها ضريبة الواحات لا بد لنا من

تأديتها .

واجتاز « على » الباب تتقدمه « بهية » وتلفت إلى صاحبيه قائلاً :

— إلى عاجز عن شكركما . وددت أن أدعوكما للغداء . ولكنى أعرف قيمة

وقتكما .. إلى آسف على هذا التأخير الذى تسببت لكما فيه .

وشد زكى على يده قائلاً :

— ليس هناك أى تأخير . كان لا بد لنا من الاطمئنان على وصولك .

وقال حسين :

— سأبلغ المستشفى العسكرى حتى يرسلوا لك طبيباً .

وانصرف الصاحبان . وتقدم « على » بخطواته المتثاقلة وهو يكاد يتهاوى .

وانبعث من المطبخ صوت الأم مختلطاً بصوت « موقد الجاز » مستفسراً :

— من يابيهية ؟

وصاحت « بهية » بحجية :

— إنه على .

وأضاعت ضجة « الوابور » صوت « بهية » فلم تميز الأم قولها . ونطخت
بضع خطوات إلى الباب الفاصل بين المطبخ والقاعة لتستطلع بعينها ما عجزت
أذناها عن تبينه ، فإذا بها تفاجأ بعلى .

ووقفت لحظة مبهوتة ثم اندفعت إليه صائحة :

— على !!

وسبقت دموعها إلى خديها ، ومدت ذراعيها تحتضنه وقد خيمت على عينيها
سحب الدموع فلم تبصر منه إلا صورة مهزوزة مطموسة .

ومضت فترة وهي تضمه إليها ، ودموعها تختلط بوجهه وهو يربت ظهرها في
رفق ، وذهب عنها انفعال المفاجأة الذي جعلها لا تكاد تشعر إلا بولدها الغائب
بين ذراعيها . وبدأت تحس بأنفاسه الملتببة .. ورأسه المحموم .. وجسده المرتجف
المقروور ، وسرت الرجفة من جسده إلى جسدها وهتفت مرتاعة :

— ما بك يا على ؟ ما بك يا حبيبي ؟ إن رأسك ملتهب !

وأحس الأب القابح في حجرته بالضجة وبلغ مسامعه اسم « على » يتردد
فاندفع بذراعه المشلولة ، وحسده الهزيل الخائر يستطلع جلية الأمر صائحاً :

— على .. ماله على ؟

وأجاب « على » وقد رسم على وجهه ابتسامة حاول جهده أن يرفع بها
مظاهر الإعياء والمرض الذي يكاد يلقي به أرضاً :

— لا شيء يا أبى .. لقد استطعت الحصول على أجازة ورغبت أن أفاجئكم
بالحضور .

وهتفت الأم وهي تمسك به مشفقة وتقوده إلى حجرته :

— إن جسديك يرتجف .. تعال إلى الفراش .

واقترب منه أبوه وضمه إليه قائلاً :

— ماذا بك يا « على » ماذا حدث ؟

— لا شيء أبداً .. المسألة لا تستدعى كل هذا الخوف .. إنها حمى بسيطة مرّت علينا جميعاً . الحمد لله أن أصابتنى وأنا معكم .

واستلقي « على » في فراشه يرزح تحت سطوة الحمى وأحس أنه كان مغالطاً عندما وصفها بالبساطة .. فقد أمسكت بخناقها وألحت عليه حتى تركته خائراً مكدوداً .. لا تكاد نوبتها تحل حتى تلقيه جسداً بلا وعى ولا حراك .

ومرّت الليالي طويلة مضنية والأم ساهرة لا يغمض لها جفن ، والأب يرقب في جزع وإشفاق ، و« بهية » دائبة لا تكف عن الحركة .

ووصل « حسين » بعد أن كتبت إليه « بهية » تنبيه بوصول أخيه ومريضه .. واتخذ دوره في السهر والخدمة والترفيه عن أخيه في الساعات التي يفيق فيها من سطوة الداء .

وبلغت العلة بعلى أشدها .. وألقته في فراشه يتململ ويتأوه ويهذى . وجلست الأم في سكون الليل وبهيمته هامية المقلّة تنصت إلى هذيان ابنها الحبيب مختلطاً بنقيق ضفدع أو نقيق بوم .

وكان الهذيان في أول الأمر خليطاً غير مفهوم أشبه بتأوهات شك أو نفثات مصدور ، ولكنها ما لبثت حتى ميزت فيه اسم « أنجي » .

وتكرر الهمس بالاسم كأنه يناديها أو يناحها .. وتحدث عن أشياء لم تستن معناها .. عن صورة في ذهنه ، وصورة في مجلة ، وعن ثقته وإيمانه ، وعن ربح الرجاء .. وعن « قلبان في قلب » .. وعن ميثاق إيجابى .. واستمر الهذيان عن أشياء كثيرة قصر ذهنها عن إدراكها .. كل ما عرفته أنها أشياء تتعلق « بأنجي » .. فقد كان اسمها لا يفتأ يتردد بين آونة وأخرى .

شيء واحد هو الذى استطاعت أن تفهمه في نهاية الهذيان ، وهو التقدم للخطوبة « أجل سأقدم إليه .. إنه أمير ، ولكنى أيضاً ضابط في الفرسان .. لقد جاهدت لكى أكون أهلاً لك .. وأنت نفسك لا تعترفين بالقبوارق

الطبقية .. فلماذا يحول بيننا ؟! سأقدم إليه وإن لم يقبل فسنفر سويًا .. أليس كذلك ؟! ألم تقولى أنت نفسك إنه لن يفرق بيننا ولا الموت .. أجل ، ولا الموت .. إني لى أموت .. لن أذعن للموت .. أريد الحياة من أجلك .. سأحيا .. سأحيا ..

ولم تستطع الأم أن تحتمل فاندفعت فى نوبة حارة من البكاء وهى تهتف بابنها :

— ستحيا يا بنى .. سيحيا من أجلها ، ومن أجل شبابك ، ومن أجلنا جميعاً .. سيحقق الله آمالك .. فالله كريم رحيم .

ورفعت يديها إلى السماء تدعو : « يارب !

وأقبل « حسين » و « بهية » على صوت نحيبها ودعائها يستفسران فى جزع عن جليلة الأمر .. وقصت الأم حديث الهذيان أو ما فهمته من رغبته فى خطبتها .

وبدت الدهشة على وجهيهما وهتفت « بهية » :

— يخطبها ؟ يخطب ابنة أفندينا !! غير معقول !

وبدا التفكير والحزن على وجه « حسين » وتمتم قائلا :

— إنه يهذى .. مجرد هذيان .

وانطلقت تنهيدة طويلة حارة من صدر قابع فى ركن مظلم ، وقد بدا صاحبه مغمض العين كأنه فى إغفاءة .. لا يسمع ولا يعى ، ومع ذلك فقد سمع ووعى كل ما قيل .

واستقرت فى رأس الأب الكلمة الأخيرة التى ختم بها الحديث وأخذت تلف فى ذهنه وتدور .

« مجرد هذيان » .

أجل .. إنه فعلا لا يعدو أن يكون فى مظهره .. مجرد هذيان محموم .

ولكن .. فى واقعه .. فى حقيقة .. فى باطن هذا المحموم الذى يهذى .. أهو حقاً مجرد هذيان . ! أم تراه الحق النابع من روحه المتدفق من قلبه ووجدانه ؟

— ٤٧٨ —

أيضحي التطلع إلى الهدف الذي كرس الإنسان له نفسه ، والأمنية التي ركز
فيها جهده .. مجرد هذيان ؟ !
أبعد كل ما أراق من ماء وجهه ، وبعد كل ما تعب وشقى ليوفر له المركز
اللائق والمستقبل المرموق !
أبعد كل ما جاهد هو نفسه .. حتى أضحي ذلك المخلوق المثالي الكامل ، يجد
مطالبته بما هو حق له ، مجرد هذيان ؟
لماذا ؟ . إنه ضابط محترم .. قويم الخلق ، جميل الخلق ، لا عيب فيه ولا
هنة .. وهو يحب الفتاة .. والفتاة — فيما يعتقد — تحبه .
فأى هذيان في أن يرجوها لنفسه ؟ !
وماذا يرجو الأمير لا بنته خيراً من هذا !
لا .. لا .. إن ما يرجو ابنه الحبيب ليس من الهذيان في شيء كفاء له .. وأهل
لتحقيقه .
وأطلق الرجل تنهيدة أخرى وراح في إعفاءه .

(٤٣)

مجنون خطر

وأخيراً انقشعت حدة المرض ، وخفت وطأة الداء ، وزالت الحمى عن « على » مخلفة منه جسداً واهناً ونفساً مكدودة مرهقة .

وانتهت فترة النقاهة ، واسترد « على » الكثير مما أضاعه المرض من قواه ، وما فت في عضده .. وعاد إلى قاعدة الآلاى فى الثكنات بعد انتهاء إجازته المرضية ، ليقدم نفسه إلى قائدها ، وليلتقى منه الأوامر بالرحيل .

وكانت جيوش ألمانيا وقتذاك تكتسح الحلفاء .. وإيطاليا قابضة تترقب وتنتظر دون أن تبدو منها أية نية لدخول الحرب ، مما ترك القوات المدافعة عن حدود مصر الغربية والمواجهة للقوات الإيطالية فى ليبيا فى حالة طمأنينة واسترخاء ، ومما جعل إنجلترا تخفف من قواتها إلى الحد الأقصى حتى تستطيع الانتفاع بها فى الجبهات الأخرى .

وخففت تبعاً لذلك القوات المصرية الموجودة فى الواحات البحرية وتطلب عودة بعض قوات الآلاى إلى القاهرة وزيادة عدد الضباط الموجودين فى القاعدة .. فلم يكد « على » يصل إلى الثكنات ليدبر أمر رحيله حتى أمرة قائد القاعدة بالبقاء .

ولقى أمر البقاء فى نفس « على » غبطة وترخياً ، فقد وهبه فرصة أخرى لمحاولة لقاء « أنجى » .

ومرت الايام وهو يترقب الظروف ويتحين الفرص ، حتى أخذ اليأس يدب فى نفسه ، وعزم على أن يئد مشاعره ، ويعصب قلبه ، وصمم على أن يسأل قائد القاعدة أن يعيده إلى الواحة البحرية .. علَّ البعد يعينه على السلوان .

وكان الأب الصامت يرقب أثر الصراع العنيف في نفس ولده . يرقب وجومه وشروده وصمته المطبق الحزين ، ويحس بكل ما يقلقه ويضنيه . ويقض مضجعه .. بعد أن سمع ذلك الهذيان ، الذى انطلق منه على غير إرادة ، وقد صرخته الحمى .

وخيل إلى الأب في جلسته الصامتة ، أنه قد يستطيع أن يمد إلى ولده يد العون .

إنه مقتنع كل الاقتناع بعدالة أمانيه ، وأحقية مطالبه .. مقتنع بأنه أهل لتحقيق ذلك الرجاء المطوى في صدره ، والذى لا يحسر على أن يفضى به لأحد .

فلماذا إذا .. لا يمد له يده ؟! لماذا لا يتقدم هو .. ليعرض مطالبه ويحقق أمانيه ، ويتحمل عنه عبء الصدمة ، ويتلقى عواقبها .. إن كانت لها عواقب ؟ لماذا لا يتقدم بنفسه ، ليحطب ابنة الأمير لولده ؟

ورنت الجملة في حناياه .. رنيناً خفيفاً .. وترددت ، كما يتردد الصدى في فراغ ساكن .

هو يتقدم إلى الأمير .. كى يخطب ابنته لا بنه ؟! .. أى مجنون أحق مخرف .. هو ؟

وماذا يقول عنه الناس لو علموا بأمره ؟! بل ماذا يقول الأمير نفسه حيناً يسمع منه هذيانه ؟!

لا شك أنه سيطنه قد جن ؟!

أياً كان الابن ، ومهما بلغ .. هل يغير ذلك من حقيقة أيه ؟! أيمكن أن يبدل دخوله المدرسة الحربية ، وتخرجه منها إلى سلاح الفرسان .. أن أباه هو الرئيس عبد الواحد رئيس بستانى الأمير .

وانهالت مطارق اليأس على ذهن الرجل ، وأفرغت المقارنة كل ما في جعبتها من وسائل الشيط والتئيس .

ومع ذلك فقد أحس الرجل ببقية إيمان ، تصمد أمام كل عوامل اليأس ..

إيمان بالله وبنفسه وبابنه ، ويقين راسخ في أعماقه .. بأنه بشر والأمير بشر ، وأن
أكرم البشر عند الله أتقاهم ، وأنه خير له أن يتلقى الصدمة بنفسه ، من أن يتلقاها
ابنه ، ومن أن يتركه هكذا غارقاً في يأسه وقنوطه .

وفي فجر يوم جمعة ، وصوت المؤذن يطلق من المئذنة مؤذناً بالصلاة تسلك
الرجل من الدار يتوكأ على عصاه وقد شددت يده المشلولة إلى عنقه ، وجلس في
ركن الجامع يتمتم ويدعو ، وطالت صلاته حتى أرسلت الشمس سهامها الدامية
تتسلل من نوافذ المسجد هابطة إلى أرضه .

وأحس الرجل بسكينة تملأ نفسه وإيمان يفعم جوانحه ، ونهض يتوكأ على
عصاه .. قاصداً القصر .

وكان يعرف عادة الأمير في تجواله الصباحي بين المشتل ، وبين أحواض
الزهور .. وخيل إليه أن تلك هي خير فرصة يلقاه فيها على حدة ، ويسر إليه بما
أضمر .

ودلف من الباب الخلفي في خطواته البطيئة المتثاقلة ، واقترب من المشتل وقد
شرد ذهنه ، وأخذ يستعيد لنفسه ما سيقوله للأمير .

وأحس من سيره وسط الأوص و الزهور ، بحنين زائد . وكأنه ردّ إلى أهله
وعشيرته بعد طول غيبة ، وأخذ يرمقها في عطف ، ومدّ يده بغير إرادة ينزع عن
إحداها بعض الحشائش العالقة بها .

ورفع رأسه فإذا بالأمير يقف قبالة وقد حذق فيه بنظرة ملؤها الدهشة ..
وسأله قائلاً :

— الرئيس عبد الواحد .. ماذا أتى بك إلى هنا ؟

وبهت الرجل ، وأرتج عليه ، فلم ينبس ببنت شفة .

ولا حظ الأمير يده المشدودة إلى عنقه .. فسأله متلفظاً :

— ما الذي أصاب يدك ؟

— أصابها شلل .

— منذ متى ؟!

— منذ مدة .. عقب أن غادرت حدائق أفندينا .

— لا بأس عليك .. لم أكن أعلم بما أصابك .. وكيف حالك الآن ؟

— الحمد لله .

ودفع الأمير يده إلى جيبه بحكم العادة وأخرج منها ورقة مالية دفعها إلى الرجل

قائلاً :

— خذ هذه .. وإذا احتجت إلى شيء .. أخبرني .

وأخذ « عبد الواحد » الورقة وتمم بوضع كلمات شكر .. وانتظر الأمير منه

أن ينصرف ، إذ لم يخطر بباله أنه قد أتى لغير طلب إحسان ، ولكن الرجل استمر واقفاً ينظر إليه في تردد ووجل وكأنما يود أن يقول شيئاً .

وقال الأمير في شيء من الدهشة :

— أتريد شيئاً آخر ؟!

واستجمع الرجل أطراف شجاعته ، واستعاد إيمانه بالله .. الإيمان الذي

بددته هيبة الأمير ، وانبعث منه صوت بدا له كأنه إنسان آخر يتحدث بلسانه :

— أجل .. إني في الواقع لم آت لأفندينا .. لأجل أن آخذ منه إحساناً .

وقاطعه الأمير في حدة :

— لماذا أتيت إذا ؟

— لقد أتيت طامعاً في أكثر من إحسان .

— لعلك تريد العودة إلى العمل .. ولكن حالك هذه لا تسمح لك بمباشرة

أي عمل .

— إني لا أطلب عملاً .

وعاد الأمير يقاطعه في دهشة وحدة أشد :

— ما الذي أتى بك إذا ؟! أفصح !

— إن ابني « على » قد أضحي ضابطاً في الفرسان ، وقد ترقى إلى رتبة الملازم أول .

— مبروك .. وماذا تريد أن أصنع له ؟

— إنه يطمع في رضا أفندينا وعطفه .

— وماذا يمكنه أن يفعل برضاى وعطفى .. أفصح عما تريد ؟! وكفى إضاعة وقت ؟!

وخيل إلى الرجل أن الجو قد أضحي مهيباً .. وبمتهى البساطة .. ألقى قبلته قائلاً :

— إنه يريد أن يخاطب ابنة أفندينا .

ولا جدال هنالك في أن طلب الرجل كان آخر ما يمكن أن يخطر ببال أفندينا ، حتى لقد توهم أنه أخطأ السمع ، وعاد يسأل الرجل مستفسراً :

— يخاطب من ؟

— أنجى هاتم .

ونظر إليه الأمير يفحصه في ذهول ، واندفعت المشاعر الصاخبة تتصارع في نفسه .. حنق .. غضب .. دهشة .. مفاجأة .. ثورة .. ولكنها ما لبثت كلها أن انحسرت عن نفسه .. وطواها اعتقاد جازم منه بلوثة الرجل .. وأخذ ينظر إليه في حذر وإشفاق وقلق .

ووقف الرجل ينتظر .. مطرق الرأس ، كريحة تنتظر اقتراب العاصفة ، وطال صمت الأمير ، فرجع عبد الواحد رأسه في بطء يرقب وجهه .. لعله يرى من معالنه ما لم يفصح عنه بشفته .

ولم يجد بوادى الثورة .. ولم يلمح مظاهر الغضب .. فأحس بأن المسألة أهون مما كان يتوقع .. وبدا له أن قبول الأمير ليس بمستبعد .

وأخيراً تحدث الأمير قائلاً .. محاولاً أن يكسو صوته مظاهر الهدوء والحلم :
— اسمع يا ريس عبد الواحد .. عد إلى بيتك واسترح ولا تقلق نفسك بأمر

ابنك .. إنه يستطيع أن يتزوج من يشاء .
 — إنه لا يريد غير الأميرة .. إني أعرف أنه يحبها .. وأعتقد أنها أيضاً تحبه .
 وإلى هذا الحد .. لم يستطيع الأمير أن يكظم ثورته .. فاندفع بهدر كالبركان :
 — اذهب من أمامي قبل أن أحطم رأسك أيها الغبي .. اذهب .. من الذى
 سمح لك بالدخول فى الحديقة .. أيها المخبول .. انصرف .
 واندفع من فمه سيل من السباب ، والصياح المتشابك المتداخل الذى لا تميز
 تفاصيله .

وفوجئ عبد الواحد بالعاصفة العاتية تعصف به بعد ما خدعته بمظاهر الهدوء
 الأولى .. وبدت له استحالة الصمود أمامها . فاندفع يتعثّر فى خطاه مولياً الأدبار
 إلى الطريق .. والأمير يلاحقه بصيحاته المتفجرة التى بدأ يستبين منها قوله إلى
 إدريس ، الذى أقبل مهرولاً من ناحية للقصر :
 — مجنون .. اذهبوا به إلى مستشفى المجاذيب .. أو أبعده من هنا .. لا أريد
 مجانين فى أرضى .

ووصل عبد الواحد إلى بيته وتسلل إليه ، وكأنه ارتكب جريمة يخشى من أهل
 الدار فضح أمرها . وأوى إلى فراشه وهو يرتجف هلعاً ، وما زالت صيحات
 الأمير تطن فى أذنيه .

ومضت فترة والدار مغلدة إلى الصمت لا يكاد يحس أحد من أهلها بما وقع ،
 حتى سمعت طرقات على الباب ، وكان « على » قد استيقظ من نومه فأسرع
 يفتح الباب فإذا بإدريس — تابع الأمير — ومعه بعض الحراس .
 ودهش « على » وقال مرحباً :

— أهلاً إدريس افندى .. صباح الخير !

— صباح الخير يا بنى .

— أى خدمة ؟

ونظر الرجل إلى الحرّاس ويدت عليه الحيرة والتردد ثم قال لهم :
 — انصرفوا أنتم .. انتظروني عند باب القصر .
 ثم وجه القول إلى « على » :
 — أظن أننا نستطيع أن ننهي الموضوع سوياً في هدوء دون حاجة إلى فضيحة
 وضجة .

وبهت « على » وتساءل :
 — أى موضوع ؟ ماذا حدث ؟
 — أين أبوك ؟
 — أبى ؟ .. أظنه راقداً فى الداخل .. ماذا حدث ؟
 وكان بعض الجيران قد اقتربوا يستطلعون الأمر ، فأردف الرجل قائلاً :
 — دعنا نتحدث فى الداخل .
 وأفسح « على » الطريق قائلاً :
 — تفضل . لقد أذهلتنى المفاجأة عن دعوتك للدخول .
 واستقر الاثنان على مقعدين فى مدخل الدار ، وقال « على » متسائلاً :
 — ماذا حدث ؟
 — إن الأمير ثائر على أبيك .
 — أبى أنا ؟ لماذا ؟! ماذا فعل ؟
 — لقد زاره اليوم .
 — ولكنه لم يغادر الدار . إنه متعب وذراعه مشلولة ولا يكاد يغادر البيت إلا
 إلى المسجد .
 — الذى حدث أنه حضر إلى المشتل فى الصباح المبكر ولقيه الأمير هناك .
 — أهذا هو الذى أهاج الأمير ؟
 — بالطبع لا . لقد عطف عليه الأمير وأعطاه إحساناً ، ولكنه أنباه بأنه لم
 يحضر للإحسان .. وإنما جاء ليخطب ابنته لك .
 (رد قلبى — ج ٢)

— ٤٨٦ —

وبهت « على » وهتف بالرجل مشدوهاً :

— يخطب ابنته لى ؟ يخطب « أنجى » لى ؟

— أجل ! أجل هذا هو ما قاله .. ولم يتك أفندينا فى أنه قد أصابته لوثة .

وأمر بوضعه فى مستشفى المجاذيب .

وأحس « على » كأن حملاً ثقيلاً قد أطبق على أنفاسه . وخيل إليه أن الأرض قد تهاوت من أسفله .. ومضت برهة ، قبل أن يتمالك نفسه ، ويجيب فى يأس مميت :

— أريد أن يضع أبى فى مستشفى المجاذيب لأنه طلب بذا ابنته لى ؟!

— معه حق .. لست أدري كيف فعل الرئيس عبد الواحد هذا .. كيف جرؤ على قوله .. لا شك أن به شيئاً .. إن الشلل لا بد قد أثر على عقله .. ألا تعتقد هذا ؟

ولم يجب « على » .. كان من وقع المفاجأة ومن فرط اليأس أشبه بالغريق . وأردف الرجل يقول فى لهجة يشوبها العطف :

— إنى أحب الرئيس « عبد الواحد » .. إنه رجل طيب ، لم يسيء فى حياته إلى أحد .. وإنى أكره أن أتسبب له فى أذى .. ولكن ما فعل كثير .. أنت لا تتصور هياج الأمير وغضبه .. إنه لا يريد أن يبقى فى أرضه دقيقة واحدة .. لقد أمرنى أن أحمله قسراً إلى مستشفى المجاذيب ولكن

ورفع « على » رأسه المطرق الحزين ، وقال وقد تمالك نفسه وتجلد :

— لا داعى لكل هذا يا إدريس أفندى .. دع الأمر ، سأديره بما يرضى الأمير .. سأرحل بأبى عن الدار .. سنرحل جميعاً ، ولن تروا وجهنا بعد اليوم . — ولكن إلى أين ؟

— سأستأجر بيتاً قريباً من الشكنات .. لقد كنت فى الواقع أطلب هذا من أبى منذ مدة طويلة .. ولكنه يأبى أن يترك هذا البيت الذى يعتبر نفسه قطعة منه ،

وكانت أمى تؤيده فى رغبته .. ولكنى أعتقد أنى أستطيع إقناعهما بالرحيل .
 — أظن ذلك هو خير ما تفعل .. بدل الطرد والفضيحة .. إنى سأهدى
 الأمير .. وأقنعه أن ما حدث لأبيك ليس إلا نوبة طارئة .. وأنك قد رحلت به إلى
 القاهرة لعلاج .

— أشكرك يا إدريس أفندى .. وأرجوك رجاء خاصاً أن تكتم الواقعة بقدر
 استطاعتك .

وانصرف إدريس أفندى .. ودخل « على » إلى القاعة فوجد أمه قد وقفت
 تنتظره فى لفحة وفزع ، وتسأله عما حدث ، وماذا يريد إدريس أفندى .

وأجاب « على » فى اقتضاب :

— يريد منا أن نرحل عن البلدة .

وصاحت الأم مشدوهة :

— نرحل ! من الذى يستطيع طردنا من أرضنا وبيتنا ؟

— اخفضى صوتك .. إن الأمير يريدنا أن نرحل !

— وماذا فعلنا ؟!

— لقد ذهب أبى إليه ليخطب ابنته .. فاعتبره بفعلته تلك مجنوناً خطراً ..

ولذلك يجب ألا يبقى فى أرضيه .

وهتف الأم فى صوت مرتجف :

— أفعل أبوك هذا ؟! متى ؟

— هذا الصباح .

— ولكنه لم يغادر البيت !

— لقد خرج فى الفجر ثم عاد قبل أن نستيقظ .

— وماذا دعاه إلى ذلك ؟! أين هو ؟

— لا تقولى له شيئاً .. دعى الأمر لى .. وأعدى نفسك للرحيل .

— إنى لن أترك دارى أبداً .

— يا أمى ؛ من أجلى أنا لا بد أن نرحل .. كان يجب أن نترك الدار منذ زمن .. نحن فى مركز يهيب لنا أن نسكن فى دار أحسن من دارنا .. ولست أجد هناك ما يربطنا بها إلى الأبد .

— يربطنا بها تراب الأرض .. تربطنا بها الجدر التى بنيناها حجراً فوق حجر .. تربطنا بها السنون الطويلة .

وانسابت الدموع من عيني الأم .. وأقبلت « بهية » تربت على ظهرها وتهدئها قائلة :

— لا داعى للبكاء يا خالتى .. ما دمنا كلنا بخير .. فأى مكان يضمنا جميل .. ثم إنه لم تعد لنا خيرة فى البقاء أو الرحيل .

وترك « على » « بهية » تهديء أمه ، ثم دلف فى سكون إلى حجرة أبيه .
وكان الرجل قد تمدد فى مقعده .. وبدأ فى استرخائه ورأسه المتدلى على صدره ، كالمستغرق فى سبات عميق ، ولكن لم تكد قدما « على » تطرقان أرض الحجر حتى رفع رأسه فى فى إعياء ، وفتح جفنيه المسبلين فى ثاقل ، ونظر إلى « على » نظرة اعتذار واستغفار ، وكأنه يقول له :

— ساعنى يا بنى .

ولم يشعر « على » بأن هناك ما يستدعى اعتذار أبيه .. ولم يحسّ بأنه قد ارتكب أمراً إذاً ، ولا فعلاً نكراً .. ولا خانة الذكاء ، ولا أضله عتة ولا خبل ، كما ظن الأمير وتابعه .

بل إنه لم ينحرف قيد أنملة عن طريقته التى كان يصرف بها أموره . وهو فى أوج صحته ، وفى كل قواه ..

لقد كانت حياته سلسلة توضحيات من أجل ولديه ، ولم يحاول قط أن يجعل توضحياته تتخذ مظهر التوضحيات .. فقد كان يعتبرها من صميم واجبه فى الحياة .. كان يعتبر نفسه الجذع الموصل لعصارة الحياة إلى ثمرتين .. وكأن حياة الثمرتين ، ونضجهما ، هو مظهر حياته هو .

لقد أراق ماء وجهه فيما مضى ، ليحفظ لهما ماء وجهيهما .

وعمله اليوم لا يزيد عن استمرار لوسيلته القديعة .. قطرات أخرى من ماء الوجه .. سكبها ليحفظ ماء وجه « على » .. لقد جعل من نفسه درعاً يقى بها ولده .. صدمة الحية ، ولطمة الخذلان .

كان يعرف ما بنفس « على » ، ويعرف اللهب الذى يضطرم فى قواده ، فلم يجد بداً من أن يتقدم للعداء ، فإما أن يمنح ابنه ثمرة الرجاء ، أو يوفر له راحة اليأس .

ولم يعرف « على » كيف يعبر لأبيه عن شكره ، ولا كيف يوضح له مشاعره .

واقرب منه ، والرجل ينظر إليه نظر الأسف المعتز ، وانحنى على يده المسندة على حافة المقعد ، ورفعها إلى شفثيه ، فقبلها بحنان واحترام ، كأنما يقبل يد قديس أو نبي ، وبدا كأنما يعوضه بها عما لاقاه فى سبيله من مذلة ومهانة . وسحب الأب يده برفق وربت على ظهره ، ثم ضمه إليه ، وقد ذهب من عينيه نظرة الأسف .

وتحدث « على » قائلاً:

— آسف يا أبى لما سببته لك .. إني لم أرد أن أشركك فى أزمى ، ولكنك أبيت إلا أن تزج بنفسك فيها .. إني ما أحسست أنى أكره نفسى ، أو أكره حبي .. إلا هذه الساعة التى دفعتك فيها إلى المذلة .. كان يجب على أن أكون أكثر حكمة .. فأوفر عليك البقية الباقية من ماء وجهك .. ولقد حاولت أن أكبت مشاعرى .. ولكن ماذا أفعل ، إذا كنت قد أبيت إلا أن تنفذ إلى جوانحى ، وتكشف عن خبايا صدرى .. وتعرف علتى .. وتسكب فى سبيل برئها البقية الباقية من قطرات ماء وجهك .

واختلجت شفتا الأب .. وحاول أن يبييه .. ولكن لسانه لم يسعفه .. فقد أصابه الشلل ، وأفقدته الصدمة القدرة على النطق .

وانزلقت العبرات حارة من عيني « على » وهو يضم إليه أباه « المحزون الخطر » .

(٤٤)

أكثر من عطف

انتقل « على » بأسرته إلى كوبرى القبة فى بيت منزى قريى من السكة الحديدية الذاهبة إلى المطرية وعزبة النخل ، وكان البيت لا يكاد يختلف كثيراً عن بيتهم ، فى تواضعه وقدمه ، والحديقة التى دقت بها طلمبة المياه ، وزرعت أحواضها جرجيراً ، وتناثرت فيها عيدان الذرة ، وتسلىق اللوف على جذرها ، حتى امتد إلى السطح .

وكان البيت لأسرة رقيقة الحال ، بناه ربها من مذكراته ، فلما أحيل إلى المعاش ، أصبحت فى حاجة إلى جنيتها الإيجار ، فأخلته قاعة من البيت الملك بحجرتين على السطح .

ووجدت الأم فى الدار الجديدة شيئاً من العزاء عن الوطن القديم .. لا سيما فى « الفرن » المبنى فى الحديقة ، وفى برج الحمام ، وعشة الطيور ، والخلاء الفسيح الذى تشرف عليه الدار .

واستقر الأب فى صمته الأبدى ، على مقعد فى شرفة تطل على السكة الحديدية ، يسبح ببصره فى الفضاء ، الذى تكاثفت فيه أشجار الموالح ، المحيطة بقصر القبة ، وبين آونة وأخرى تهب عليه لفحة من دخان القطارات الرائحة الغادية .

ومرت بضعة أيام يعلنى وهو كالمأخوذ المشدود ، جمى الحزن إحساسه وبلد اليأس مشاعره ، وأصبح يتحرك ويعمل ويأكل ويشرب ويتحدث ، بلا وعى ولا حساسية ، ولا تفكير . وحضر « حسين » فى إجازة قصيرة لرؤية أبيه ، بعد أن كتبت إليه « بهية » عن إصابته ، وعن انتقالهم من الدار .

— ٤٩١ —

وفي حجرة « على » اختلى الأخوان ، وكان « حسين » البادى بالحديث ..
قال مستفسراً :

— ماذا حدث يا على ؟

— حدث ما تراه .

— أريد بعض التفاصيل .

— ليست هناك تفاصيل كثيرة .. لقد فوجئت بإدريس أفندى يطرق الباب ذات صباح ، وينبئني بأن الأمير تاجر وهو يريد إرسال أبى إلى مستشفى المجاذيب .

— هكذا .. مرة واحدة ؟!

— هذا ما قاله لى .

— ولأى سبب ؟

— لأن أبى طلب منه يد ابنته لى .

— وماذا دعاه إلى أن يفعل .. أقلت له أنت شيئاً ؟

— أبداً .

— ربما سمع من أمى ؟

— لم تذكر أمنا شيئاً !! ومن أين تعرف أمى ؟

— من هديانك الذى هذيت به .

— هذيت بماذا ؟

— بأنجى وبرغبتك فى التقدم لخطبتها وإصرارك على أن تحيا من أجلها .

— أنا قلت هذا ؟

— وأكثر من هذا .. إنى لأعجب يا « على » من إصرارك على السير فى هذا الطريق اليائس المظلم .. إنى لم أر أكثر منك حكمة ولا أوفر عقلاً ، إلا فى هذه الناحية ، فإن تصرفك فيها جنون مطبق .. كف عن هذا التشبث والعناد ، ولا تمنع فى تعذيب نفسك كفقراء الهنود .. ألم يصبك كل ما صادفت باليأس

منها ؟! ماذا يمكن أن تنتظر بعد أن اعتبر أبوها مجرد التفكير في خطبتها .. محض جنون .. يستحق صاحبه الوضع في مستشفى المجاذيب ! أما زلت تبصر بعد هذا ومضة أمل ؟

وشعر « على » بالألم يخزه ، وهو يرى نفسه موضع لوم وتأنيب .. واندفع الدم إلى وجهه .. فقد أحس أن أخاه على حق .. أخاه الطائش النزق .. يرى خطأه ، ويدهش من إصراره على الاندفاع فيه ، ويسأله .. أما زال يصبر بعدما حدث ومضة أمل ؟

تلك هي العلة ، وذلك هو الداء الذي حرمه راحة اليأس .. إن مصابه هو أنه ما زالت في نفسه تلك الومضة من الأمل .. لقد كان إيمانه بها أقوى من كل ما حدث .

ورفع رأسه في هدوء وقال في ما يشبه الهمس :

— أجل .. إن الأمل في نفسي لم تنطفئ .. جذوته بعد .

ورفع حسين حاجبيه في دهشة شديدة ، ونظر إليه نظره إلى مجنون ، وهتف :

— أمل ؟! أمل في ماذا ؟

— فيها ، هي .

— كيف ؟

— إنها هي التي غرست الأمل في نفسي ، وهي وحدها التي تستطيع اقتلاعه .. إنها هي التي دفعت الإيمان في قلبي ، وهي وحدها القادرة على انتزاعه .

— ألم تبتزعه من نفسك بعد كل ما حدث ؟

— لا .. إني ما زلت أو من بها .. قد تصيني في بعض الأحيان نوبات من اليأس ، تعصف بنفسي ، ولكن لا تكاد تهدأ العاصفة حتى أحس بها قد عادت تسترّب إلى قلبي أقوى مما كانت .. كلما ذكرت قولها « إنه لن ينتزع أحدنا من

الآخر .. حتى الموت نفسه « . أحسست أن يأسى منها خيانة للعهد ، وأنى قد خذلتها ، واندحرت أمام هجمات من القدر لم تصل بعد إلى حد الموت .

وأطلق « حسين » تنهيدة يأس وقال في غيظ :

— كان يجب أن يأمر الأمير بوضعك أنت في مستشفى المجاذيب بدلا من

أبى .. إنك تهذى بخرافات عن الحب والموت .. وإذا كنت تعتبر يأسك منها .. بعد كل هذا .. خذلاناً .. فمتى تئس منها إذا ؟

ومر بذهن « على » آخر لقاء لهما في المعادى .. وأبصر بعين الوهم « أنجى »

تجلس قبائلته وقد أمسكت بالقلب الذى أهدها إليها يوم عيد ميلادها ، وخيل إليه أنه يسمع همسها « سأفتحه لأضع فيه قلبي .. وأقذف بالمفتاح إلى النيل حتى لا ينفصل القلبان ، ويبقى دائماً .. قلبين في قلب » .

ثم طاف برأسه شبها يوم أبصرها آخر مرة في السباق ، وهي تهتف به .

« دع الثقة راسخة كما هي ، ودع الإيمان عميقاً كما هو » . فإذا ما سأها « أما زال

حبك كما كان ؟ » همت قائلة : « وأكثر » .

ووجد نفسه يجيب أخاه في حدة وضيق :

— كيف أئس منها ، وقد غرست في نفسى ذلك الإيمان العميق بها ؟! كيف

أخذها ، وقد أكدت لي هذا الحب في آخر لقاء لنا في السباق ؟!

وأحس « حسين » بعطف شديد على أخيه ، وكره من نفسه لومه له .. ومدة

يده فربت ظهره برفق وحنان ، وقال في لهجة رقيقة حانية :

— وما آخر هذا الحب يا « على » ؟! ما نهايته ؟! إلام يمكن أن يؤدى بكما ..

أمام كل هذه السدود والحوائل والعقبات !! ماذا تستطيع أن تفعل أنت ؟

— أستطيع أن أفعل كل شيء .. لو لقيتها .. وعرفت رأيها ، وفهمت

ظروفها ، ووضحت لى أعذارها .. ووثقت منها أنها باقية على العهد .

ووجد « حسين » نفسه يتساءل ببساطة :

— وإذا لم تكن ؟

— ٤٩٤ —

وأطرق « على » وأجاب في صوت خافت ، كأنما يحدث نفسه :
— إذا لم تكن ؟

— أجل ! إذا لم تكن ؟

— إذا لم تكن .. أطفأت ومضة الأمل .. وغرقت في راحة اليأس .
وتنفس « حسين » تنفس المستريح ، وقال كأن المشكلة قد حلت :
— إذا ، القها يا أخى ، وأرح نفسك .

— وكيف ألقاها ؟! لقد مضى عام ، وأنا أحاول لقاءها فلم أنجح إلا في ذلك
اللقاء الخاطف ، الذى كان في السياق .

— يا أخى لا تكن قليل الحيلة .. لو أدّى بك الأمر إلى أن ترابط على باب
قصرها ، حتى تلقاها ، فافعل .. البس ثياب خفير .. تنكر في زى فلاح .. افعل
أى شئ ؟

— تكلم كلاماً معقولا .. هذا مجنون وعبث !!
— دعك من هذا ! أتريد أن تفهمنى .. إننى أستطيع لقاء أى مخلوق ، أياً
كان ، إذا أردت ذلك .

وقال « على » متعلماً :

— الذى حدث أنى حاولت أن ألقاها ، ولكن لم أستطع .

— أترأى أنى أستطيع أن أجعلك تلقاها اليوم ؟

— لا داعى للرهان ، لأنها سافرت إلى الإسكندرية .

— وكيف عرفت ؟

— من إدريس افندى .. لقد لقيته أول أمس ، وأنبأنى بأسفه على كل
ما حدث .. وقال لى إن الأمير قد سافر إلى قصر الإسكندرية ، وإنه لو بكر فى
السفر بضعة أيام لما حدث ما حدث .

— إذا ، تعال معى إلى الإسكندرية .

— لا أستطيع الحصول على إجازة بعد الإجازة المرضية الطويلة التى أخذتها .

— إذا سافر معى يوم الخميس والجمعة القادمين .

— إنى نوبتجى يوم الجمعة .

— ما بالك تسدّها هكذا .. ابدل نوبتجيتك .

— سأحاول .

— لا تقل ستحاول .. بل قل سأفعل .. ستحضر معى إلى الإسكندرية ،
وسأجعلك تلقاها .. ولو بالبوليس .. ماذا تظننى ؟ هقيّة مثلك ! . إن مركزى
فى الإسكندرية أهم من الحكمدار والمحافظ .. قم وفرّج عن نفسك ..
واضحك .. وفرقش .. سيحلها ربنا إن شاء الله .

وضحك « على » ضحكة خفيفة مغتصبة ، واستمر مطرقاً فى مكانه ،
ولكن « حسين » جذبه من يده قائلاً :

— قم بنا .

— إلى أين ؟

— ستسهر معى الليلة .

— أنا لأحب السهر .

— بل سأجعلك تسهر رغم أنفك .. انهض .. وكفى جلوساً كاملاًك
الحزين .. إن أسوأ ما تفعله فى حالتك تلك هو الجلوس والتفكير ، قم بنا
سأجعلك تسهر سهرة ، تظل تقسم بها طول حياتك .. سنذهب أولاً إلى
« كريمة » أتذكرها !؟

— كريمة من ؟

— كريمة الولد .. البنت التى جلست معك يوم ذهبنا إلى صالة نعيمة ونحن

طلبة .. ألا تذكر !؟

— أجل ! أذكرها .. الفتاة النحيلة السمراء .

— إنها لم تصبح نحيلة ، ولا سمراء .. لقد امتلأت وتحسنت جداً ..
وأصبحت صاحبة الصالة التى كانت تعمل بها . إنها الآن أشهر راقصات

مصر .. ألا تسمع عن كريمة ماهر ؟

— أظننى قرأت الاسم فى بعض المجلات .

— إنها هى نفسها .. وهى تسألنى عنك فى كل مرة تقابلنى .. لا شك أنها ستسر جداً عندما تراك .. إن الليلة ليلة افتتاح صالتها .. هيا بنا .. قم أبداً ملايسك .

— أرجوك يا حسين .. أنت تعرف رأى فى هذه الأماكن ، وتعرف ضجرى

منها .

— أنت لا تعرفها حتى تكون رأياً فيها ، ولا يمكن أن تضجر منها ، لأنك لم تجرب السهر فيها ، والإنسان دائماً يكره ما يجهل .. فجرب يا أخى مرة واحدة من باب العلم بالشئ .

— لقد جربت ولم يطربنى شئ فيها .

— متى ؟ ونحن طلبة ؟ .. هذه الهنيات التى جلستها .. وكأنك تلميذ فى محاضرة أو متعبداً أمام واعظ ؟ لقد كبرت الآن ، ولا بد أن تعرف كيف ترفه عن نفسك ، وتخلصها من ذلك الكبت الذى يجعلك تحصر كل اهتمامك فى شخص بذاته ، فإما هو ، أو لا شئ .

— تلك هى طبيعتى ، وأنا لا أستطيع تغييرها .. إن طبيعة خلقى لا تلائم تلك الأجواء التى تصطنع فيها المتعة .

— لا تكن فيلسوفاً .. وقم وارثد ملايسك .. ودع الباقي على .. سأتكفل أنا بامتناعك ، مهما كانت طبيعتك .

— أنا واثق أنى لن أستمع بشئ .

— لا ضرورة لأن تستمتع .. تعال من أجلي .. اعتبر أنها مجرد صحبة لى .. ألم أوحشك يا أخى ؟! على أية حال .. إذا لم تذهب الليلة ، فلن أَدْخُل لك فى شئ .. ولن أعينك على اللقاء .. ما رأيك ؟

وضحك « على » وأجاب :

— لست أدرى .. ماذا يهملك .. من أن أذهب .. أو لا أذهب ؟

— يا أختى .. نريد أن نلهو ، وأن نستمتع سوياً .. قم .. قم .

وارتدى « على » ملابس .. وقبيل التاسعة مساءً كان الأخوان يجتازان باب صالة كريمة .. وقد دخل حسين كعادته مرحاً ، باسم الثغر ، ويلقى التحيات يمينه ويسرة ، ويتلقى الترحيب والتكريم من هنا وهناك .. بينما تبعه « على » مشدود القامة ، بارز الصدر ، مرفوع الرأس ، مقطب الوجه كأنما يسير في طابور .

ولم يبد على الصالة تغير يذكر ؛ اللهم إلا تجديد المقاعد والستائر وطلاء الجدران ، وكان المكان مغرقاً بطبيعته في ضجيجهِ وصخبهِ ، ولم يستطع « على » بمشيته العسكرية المستقيمة وذهنه المرتبك الوجل ، أن يميز الكثير مما حوله . كل ما يميزه أصوات تتعالى وأشباح تغدو وتروح ، تلوح بينها أكتاف عارية ووجوه منقوشة مصبوغة .

ووقف حسين برهة ودار ببصره في الصالة كأنما يبحث عن شيء . ووقف بالتبعية « على » ولكنه لم يجسر أن بدور ببصره ، بل ظل محققاً بعينه في رأس أخيه ، وهو يحس بالخجل من وقفته .. ويتخيل الأبصار كلها معلقة به ، فاحصة إياه .

وبدا كأن حسين قد وجد ضالته عندما وقع بصره على « كريمة » وقد أقبلت من الباب الصغير المؤدى إلى غرف الراقصات ، ولم تكد « كريمة » يقع بصرها عليه حتى تهلل وجهها وصاحت مرحبة :

— أهلاً .. أهلاً ..

ثم أقبلت إليه تشق طريقها بين الأجساد المحتشدة .. والخناجر الصاخبة ، وهى تتلقى التحيات ، وصيحات الإعجاب ، ولم يكن بصرها قد وقع على « على » ، حتى مدت يدها مصافحة حسين ، فاستدار مقدماً إليها « على » .

وبدت كأنما أخذت من مرآه .. وتلاحقت أنفاسها .. وكسا وجهها شيء

من وجل العذارى لا يكاد يتناسب قط مع مظهرها المستتر ، ولا مع الجو العريـد المحيط بها .

وأحست وهى تضع كفها فى كفه الكبيرة ، وهو يشد عليها ويهزها بأن تياراً دافئاً سرى فى جسدها .. تياراً لذيذاً لم يتدفق فى باطنها الراكد البارد منذ أمد طويل ..

وقفز فى ذهنها أول لقاء .. وما أثاره فى نفسها من إحساس باللهفة والشوق كأنه خلّ غائب أو أليف ضائع .. واليلة .. وبعد هذه الغيبة الطويلة .. وبعد أن يمست حتى من استرجاع طيفه فى أحلام الكرى .. وبعد أن طمست معالمه الأحداث التى تزخر بها حياتها .. يقف أمامها مرفوع الهامة ، مشدود القامة ، ليصيب جسدها بنفس الهزة الأولى . ويدفع فى رأسها نشوة لقاء الغائب الميثوس من لقاءه .

وهتفت مرحبة ، وهى تحاول استعادة سيطرتها على نفسها :

— أهلاً .. أهلاً .. ما هذه الغيبة الطويلة . عاش من رآك .

وأحس « على » بشئ من الارتباك وهو يجدها قد استبقت كفها فى كفه أكثر مما يستدعى السلام العادى .

واستمرت « كريمة » فى ترحيبها .. وهى ما زالت مطبقة على يده :

— ثلاث سنوات طوال .. لا تفكر فى زيارتنا مرة واحدة .. إني لم أرك أندأ

فى حلة الضابط .

وجهد « على » أن يوقف الدماء المتصاعدة إلى وجهه ، وهو يحس كأن كل الأنظار قد وجهت إليه ، وأنهم يفحصونه ليروا كيف يبدو فى حلة الضابط .

وأحست « كريمة » بلمحة الاضطراب والخلجل التى طالت بوجهه ، والتى سببها اندفاعها الصبيانى نحوه ، فأسرعت تجذبه من يده متجهة إلى الباب الذى أقبلت منه ، وقد أمسكت حسين بيدها الأخرى قائلة :

— تعال يا معى .. نشرب فنجاناً من القهوة .. قبل أن يبدأ العمل .

ونظرت إلى ساعتها .. وأردفت قائلة :
— مازال على موعد البدء ربع ساعة .. أستطيع أن أتحدث فيه معكما .. لشد ما أو حشتاني .

ودلفا من الباب إلى دهليز ضيق رطب تكاثف فيه الدخان .. وقامت على أحد جوانبه بضع حجرات ضيقة استطاع « على » أن يلمح بها بعض الراقصات والممثلين ، وهم يضعون الأصباغ على وجوههم ، ويبدلون ملابسهم .
وأفضى بهم الدهليز إلى رجة متسعة تدلت من سقفها ستائر مرسومة ، وتناثرت في جنباتها أرائك ومقاعد وقطع أثاث ألقبت في إهمال ، وأدرك « على » أنه يسير فيما يسمونه بالكواليس ، وأحس بنوع من خيبة الأمل التي تصيب كل ناظر إلى الكواليس لأول مرة .. وقد بدا أمامه المسرح قديماً بالياً ، والمناظر باهتة مشققة ، أبعدما تكون عن الروعة التي تبدو بها عندما تنحسر عنها الستائر الحمر التي تحميها من أعين النظارة .

ودخل الثلاثة الحجرة الأخيرة في نهاية الدهليز ، وبدت الحجرة ضيقة بالنسبة للمسرح الرحب المواجه لها ، ولم يزد ما بها من أثاث على أريكة من القטיפه الحمراء ، نخل وبرها عند متكآت الأيدي ومساند الرعوس ، ومقعدين « فوتيل » من نوع الأريكة ، وتسريحة عالية من الطراز القديم قد تناثرت عليها الأصباغ والعطور ، وفنجان قهوة أطفئ في قاعه عقب سيجارة ، وكوب عكر مأوّه بغسيل الأصباغ ، وفي جانب الحجرة قام دولاب ضخمة ، فتحت ضلفته نصف فتحة وبدا من خلالها خليط من ملابس الرقص والملابس العادية ، ووقفت أمامه عجوز موشومة الذقن وظاهر اليد ، قد اتشحت بالسواد وانهمكت في ترتيب الملابس في الدولاب ، ولم تكده العجوز تراهم حتى تركت ما في يدها ، واتجهت صوب الباب مغادرة الحجرة في صمت ، وقبل أن تختفي العجوز صاحت بها كريمة .

— اطلبي لنا ثلاثة فناجين من القهوة أحدها سادة .

— ٥٠٠ —

وأردف حسين :

— اثنين سادة .

ورفعت العجوز رأسها فميزت حسين ، وانفجرت شفتها عن ابتسامة واسعة ، وقالت :

— مساء الخير يا سى حسين ؟

— وانت من أهله يا حاجة .. ألم تعرفيني ؟

— كيف لا أعرفك .. ! العتب على النظر !

وقبل أن تنصرف عادت تسأل :

— اثنين سادة .. والثالث ؟

وأجاب على :

— لاضرورة للتالث .

وسألت كريمة :

— وله ؟!

وأجاب حسين نيابة عن على :

— على لا يشرب القهوة ولا الشاي ولا السجائر .. إنه لا يملأ جوفه إلا بما

يفيد .

وأردفت العجوز :

— معه حق .. ربنا يهديه أكثر وأكثر .

وقبل أن تنصرف العجوز صاحت بها كريمة :

— إذا ، هاتى له زجاجة سباتس مثلجة .. أم حتى هذه ممنوعة ؟

وضحك « على » :

— لا .. لا .. لا مانع أبداً .

وانصرفت العجوز وقالت كريمة تدعوها إلى الجلوس :

— تفضلا .. الحجرة ليست قدر المقام .. ولكنها تبعدنا عن ضجيج الصلاة .

وحاولت أن تخفى ما أحست به من ارتباك واضطراب ، لمواجهة « على »
بالثرثرة :

— لماذا لا تزورنا يا على .. إن حسين عذره معه ، فهو في الإسكندرية .. ومع
ذلك لا يأتي القاهرة من غير أن يمر علينا .. أما أنت فما عذرك ؟!
وتتم « على » معذراً كأنما هو قد قصر فعلاً في أداء واجبه نحو زيارتها :
— لقد كنت في الواحات البحرية .. لمدة طويلة .. ثم مرضت بعد ذلك
بالمalaria .

وبدا على وجه « كريمة » الانزعاج .. انزعاج حقيقى ، ضاعفه قدرتها
الطبيعية على المبالغة في إبداء مشاعرها .
وصاح حسين ضاحكاً :
— لا تنزعجى هكذا . إنه أمانك كالحصان .

وجرى الحديث بعد ذلك يتجاذب الثلاثة أطرافه ، كلمة من هنا ، وكلمة
من هناك ، وفي خلال ذلك كان « على » يسترق إلى « كريمة » النظرات ،
يفحصها المرة بعد المرة .

هذه المرة كانت أكثر امتلاء ، ولم يكن امتلاء عن سمنة أو ترهل .. بل امتلاء
متناسباً في مواضع الردين والصدر والذراعين والساقين ، أما الخصر فقد بقى
على ضيقه والتفافه ، وبدا وجهها ، وفي ملامحه نفس العذوبة التي تفيض منها
كمجموعة واحدة ، تفقد أجزاؤها عذوبتها ، إذا أخذت كل على حدة .

وأحضر الجرسون القهوة والغازوزة ، وصبت « كريمة » القهوة في
الفنجانين ، والغازوزة في الكوب الكبير الملىء بالثلج .
وأخذ « على » يرقب برغمة « كريمة » .

إنه يذكر في المرة السابقة رغبته في تغطية جسدها العارى ، أما في هذه المرة
فقد أحس الرضا عما ظهر منه . رضاء كرهه من نفسه ، ومع ذلك لم يملك إلا أن
يشعر به .. كما لم يملك إلا أن يختلس النظرة تلو الأخرى إلى إبطيها الناعمين

الأجردين ، وإلى مفرق صدرها الذى تكشف عنه كل لفطة أو انحناء .
وكانت تنفذ منها إلى أنفه رائحة عطر لطيف ، كاد يدفعه — لولا الحياء
والتحفظ — إلى أن يقترب منها ليشتّم المزيد منه .

ومع كل ما جال بذهنه من أفكار ، أنكرها هو من نفسه ، فقد ظل محافظاً على
مظهره الجاد وجلسه العسكرية ، وردوده المقتضية الخجلة المتحفظة .
وبلغت آذانهم دقائق المسرح التقليدية الثلاث المؤذنة بالبدء ، ونظر حسين إلى
« كريمة » وهى ترشف الرشفة الأخيرة من فنجانها .. وقال متسائلاً :

— متى دورك ؟

— بعد هذه .

— إذا ، نتركك لكى تتأهبى للعمل ؟

ونهض الثلاثة .. وقبل أن تغادر كريمة الغرفة أقبل أحد الخدم وهمس فى أذنها
ببضع كلمات فأجابته :

— قل له إني مشغولة الليلة .. وقل هذا لكل من يسأل على .

ثم أردفت موجهة القول إلى حسين وعلى :

— سأتى إليكما بعد انتهاء دورى مباشرة .. لقد أمرتهم أن يحجزوا لكما

اللوج رقم ١ .

وسار الأخوان فى الممر ، متجهين إلى الصالة ، ولكنهما لم يكادا يخطوان
بضع خطوات ، حتى استرجعتهما كريمة قائلة :

— حسين .. ستعشى الليلة سوياً .. أتتما ضيفائى .. فاعملا حسابكما على

هذا .

وأجاب حسين :

— لا داعى للكلفة يا كريمة .

— لا تكن بخيلاً .. أنت تعلم أنه ليس بيننا كلفة .

وأمم الأخوان سيرهما .. وتتم حسين ضاحكاً :

— ٥٠٣ —

— ما هذا الكرم الحاتمي الذي هبط عليها .. يبدو أن الشوق قد برّح بها ..
حلال عليك .

— عليّ أنا ؟ ولماذا أنا بالذات .. ولست أنت مثلاً ؟

— لقد أتيت إليها عشرات المرات ، فلم تدعني للعشاء ، بل لم تلح عليّ بهذا
الشكل ، ثم إنها لم تكف عن السؤال عنك في كل مرة آتت إليها .. وأنت تراها قد
اعتذرت عن كل لقاء هذه الليلة من أجلك .. ماذا تريد أكثر من هذا ؟

— أنا لا أريد هذا ، ولا أكثر من هذا .. ليس لي من حاجة إليها . فلتوفر على
نفسها كل هذا .. إني لن أتناول معها العشاء ، ولن أجلس معها .. بل سأعود
الآن إلى البيت .

ونظر إليه حسين في دهشة شديدة :

— ماذا تقول ؟! أجننت ؟

— لم أجنّ .. إن ما أفعله هو عين العقل .. فلا داعي للتورط في علاقة
معه .. لأنني لست على استعداد لهذه العلاقة .

— أيّ استعداد هذا الذي تعني ؟!

— إذا كانت قد دعيتني إلى العشاء اليوم ، فلا بد من أن أردّه لها غداً . وأنا ليس
لديّ من مالي أو وقتي ، أو شعوري ، ما يمكنني من مجاراتها أو سدّ حاجاتها . إنها
ليست كفتأ لي ولست كفتأ لها .

— ما هذه السخافات التي تهذي بها .. كأني بك قد دعيت إلى زواجها !
يا أخي هذه ليلة سنقضّ فيها مسرورين .. فلماذا كل هذا التفكير والتدقيق ؟! هيا
بنا .

— لا بد أن أعود .. إني أشعر بحاجة إلى النوم .

— النوم ؟! الساعة الآن العاشرة .. وتحدث عن النوم ؟! هيا .

— قلت لك إني لا بد لي من أن أعود .. أتمم أنت السهرة ، وسأعود أنا .

— لن أتركك تعود أبداً .. ماذا تقول عنا المرأة ؟! اجلس على الأقل حتى

تشاهد دورها ثم تعتذر إليها .

وجلس الاثنان في اللوج ، وبدأ حسين يتلقى التحيات ، واندمج في المجال . وجلس « على » ساهماً واجماً ، وانتهى الدور الأول ، وبدأ دور « كريمة » ، وظهر في أول الأمر حشد من الراقصات يقدم لرقصتها .. ثم بدت هي ملفوفة في وشاح أسود شفاف .. وجعلت تتمايل وتدور في رشاقة وخفة وهي عارية القدمين .. ثم ما لبثت أن ألقت بالوشاح .. واندفعت ترقص شبه عارية .. رقصة أبدت سيطرتها على كل عضو .. وعلى كل عضلة في جسدها .. كانت ترقص في شبه جنون .. ونظرها محدد في ناحية واحدة ، وعيناها معلقتان بعينين مخصوصتين كأنها لا ترى سواهما ولا ترقص إلا من أجلهما .

وتذكر « على » هيكلها النحيل عندما شاهدها أول مرة ، ونظرتها إليه نظرة المعرض الصاد ، وتذكر ما أحسّه نحوها من ميل مبعثه العطف الشديد . وعندما التقى بصره ببصرها .. وهي تدور على المسرح في حماس جنوني ، تملكه نفس الميل أو أشد .. ولكن مبعثه كان أكثر من عطف .. كان شوقاً ورغبة .. ملأه منها خشية ، وعندما أسدل الستار ، نهض في إصرار ، واتجه نحو الباب ، مصمماً على العودة إلى الدار .. والهروب من التجربة الأولى ، يدفعه إلى الهروب وجه أشفر ملائكي قام فجأة كأنه سد منيع يحول بينه وبين الجسد العارى الملتوى .

(٤٥)

يأس متبادل

سافر « على » مع أخيه إلى الإسكندرية ، بعد أن تمكن من جادلة نوبتجية يوم الجمعة .. وهبط الاثنان من القطار في محطة سيدى جابر ، وأحس « على » بنسمات الإسكندرية الرطبة تلفح وجهه وتحمل إليه أعذب ذكرياته-وجلس بجوار أخيه فى التاكسى ، وقد تتابعت على ذهنه صور اللقاء الأول فى سان استفانو .. ولطمة الموجة فى المعمورة ، وندت عنه زفرة حارة حملها حرارة جوفه ، وعب بدلها من الريح الرطبة ، مارّوح عن قلبه ، وأثلج صدره .

ونظر إليه حسين ، ثم قال ضاحكا :

— ما بالك تنهد كأثم ثكلى .. لقد كنت أظن أنك ألقيت همومك فى

القاهرة ، وأتيت إلى الإسكندرية بغير هموم .. ألم أعدك بما طلبت ؟!

وأجاب « على » بضحكة مقتضبة ، ثم عادوده الشرود .

ولم يطل السير بالعربة ، حتى توقفت فى شارع كليوباتره الرئيسى العمودى على البحر ، وهبط حسين ووراءه « على » ودلفا فى عمارة لا تبعد كثيراً عن البحر ، وفى الطابق الثانى دقّ حسين جرس أحد الأبواب ، وبعد لحظة فتح الباب وأطلت منه امرأة فى منتصف العمر ، ممتلئة الجسد متوردة الخدين ، قالت بلهجة عربية ركيكة ، وقد بدا على وجهها سيماء البشر والابتهاج :

— أهلا حسين .. حمد الله على السلامة .

وأجاب حسين تحيتها بقوله :

— أهلا أم ريتا .. أوحشتى كثيراً ، هذا أخنى على ، وهذه أم ريتا التى

لولاها .. لضعت فى الإسكندرية .. ولما كنت أساوى « بصلة » .

— ٥٠٦ —

وربت على ظهرها البدين ، محدثاً بكفه طرقات عالية .. وأردف ضاحكاً :
— أم ريتا أعذب امرأة عرفت حتى الآن .. صدق من قال .. الدهن في
العناق .

وأجابت أم ريتا ناهرة في دلال :

— اختشى عيب .

ثم وجهت القول إلى علي :

— أخوك هذا شقى جداً .. لا يكف عن المزاح أبداً .

وأفسحت المرأة الطريق لهما فدخلتا قاعة بها منضدة عتيقة ، ودولاب فضية
مرتفع على ظهره مرآة كبيرة تكدر صفاؤها ، وصفت على رفوفه البلورية بضعة
تحف من الصيني وطقم من الأكواب الكريستال .

ونفذت إلى أنف « علي » رائحة الرطوبة العفنة التي تشتم في يسوت
الإسكندرية .. ممزوجة برائحة « زفارة » اختصت بها يسوت الأروام
والإغريق ، وقبل أن يدخل الأخوان إلى حجرة حسين تساءلت المرأة :
— أتريدان طعاماً ؟!

وكانت الساعة الثالثة والنصف ولم يكونا قد تناولوا من الطعام سوى قطعة
شطير هدأت جوعهما إلى حين .

وأجاب حسين متسائلاً :

— أعندك شيء ؟

— عندى صينية مكرونة بالفرن ، وفاصوليا بيضاء . وإذا أردتما قليلت لكما
بيضاً ، وفتحت لكما علبة سردين .. أو شويت لكما رنجة .

— سلمت يدك يا أم ريتا .. لقد ظننت أني لن أجد عندك غداء ، وكنت أفكر
أين نأكل .. جهّزى لنا الطعام حتى نأخذ دشاً بارداً .. أين ريتا .. إني لا أجد لها
أثراً ؟

— لقد ذهبت إلى السينما .

ودخل الأخوان حجرة النوم .. حجرة عادية ، لا تزيد عن أية حجرة نوم فى أى بنسيون ، فراش وتسريحة ودولاب وكومودينو بجوار الفراش ، ومشجب ومقعدان ، ومنضدة صغيرة ، وضع عليها أبا جور ، ورصت عليها بضعة كتب ومجلات .

وخلع حسين ملابسه ، واتجه إلى الحمام .. عارياً عن الملابس ، وصاح به « على » ناهراً :

— ما هذا ؟! ضع عليك شيئاً يسترِكَ !! إن المرأة قد تراك ؟

— لا تحمل همها .. إنها منّا وعلينا .. لقد عودتها على ذلك .

ووقف حسين تحت الدش رافعاً عقيرته بالغناء ، رغم صوته النشاز ، ولم يملك « على » إلا يدندن نفس الأغنية بنغمتها الصحيحة .. كما كانا يفعلان دائماً . حيث يشعر حسين أنه يغنى جيداً ، ما دام « على » يغنى معه ، فإذا توقف « على » اكتشف حسين نشاز نغمته .

وانتهى حسين من الحمام ، وتبعه على .. مستورا بالطبع ، وأحس من الحمام ، ومن تهريج حسين بشيء من الانتعاش أضاع الكثير من شروده ، وخفف من تفكيره القلق المهموم ، وجلس حسين يمشط رأسه ويفرقها بالبريل كريم ، وهو يثرثر قائلاً :

— أم ريتا هذه لقطة .. لست أدرى ماذا كنت أفعل فى الإسكندرية لولاها .. تصوّر .. هذه الحجرة بالأكل والشرب والغسيل والمكوى ، بأربعة جنينيات وليلة .

— ليلة ؟

— أجل .. ليلة أنامها معها فى الأسبوع محل زوجها المرحوم « بترو » الذى كان يعمل بحاراً .. إنها سمينة بعض الشيء ، ولكنها فى الفراش معقولة ، وابنتها « ريتا » لا بأس بها أيضاً ، إنها تبدو صغيرة ولكنها ممتعة .
ونظر إليه « على » وهز رأسه فى عجب ، وقال :

— أنت حيوان ؟

وأجاب حسين وهو يعصب رأسه بالفوطة :

— وأنت أغبي من أى حيوان .. ستضيع عمرك وراء سراب .

وأقى صوت « أم ريتا » منادياً إياهما للغداء :

— الغداء جاهز .. تفضلاً .

وعقب الغداء سألت المرأة حسين :

— أأعد لأخيك حجرة ريتا ؟

— لا.. لا.. لا تتعبى نفسك فى شىء. سينام معى.. لقد تعودنا منذ الصغر

أن ننام معاً فى فراش واحد .

واستلقى حسين فى الفراش ، واسترخى « على » على المقعد الفوتيل ،

متشاعلاً بتصفح إحدى المجلات منتظراً أن يبدأ أخوه بالحديث .. شارحاً ما

ينوى عمله فى تنفيذ خطة اللقاء .

وأغمض حسين عينيه ، وبدأ كأنما ينوى أن يروح فى سبات ، ولكن « على »

مالبت أن أيقظه بسؤاله :

— لم تقل لى ماذا تنوى أن تفعل .. ليست أمامنا فرصة سوى الليلة ، لأنى لا

بد أن أسافر غداً إلى مصر .

— ولماذا لا تسافر بعد غد فى قطار الصباح ؟

— يجب أن أكون فى الشكنات قبل الساعة ، لأن الطابور يبدأ فى الساعة

تماماً .

— لا ضرورة لهذا الطابور .

— لا يمكن .. وإلا اعتبرونى غائباً .

— قدّم عيادة .

— لم أتعود هذه الصبيانيات .

— على أية حال .. أعتقد أنى سأدير لك الأمر الليلة ، حتى لا تحتاج إلى هذه

— ٥٠٩ —

الصبيانيات .

— كيف ؟

— سأتصل بقدرية محمود ، وأطلب منها أن تعرف أين سيذهبون الليلة .

— وأنتى لها أن تعرف ؟

— إن علاقتها معهم جميعاً طيبة ، لأن أسهمها عند الرجل الكبير مرتفعة هذه الأيام .. إنها قد أصبحت أكثر من وصيفة للملكة .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن الملك يحبها .

— الملك يحب وصيفة ؟! أهى قالت لك ذلك ؟

— أجل .

— لا بد أن تكون كاذبة ... وما علاقتها بك أنت ؟

— تزعم أنها تحبنى .

— أهذا معقول ؟! الملك يحبها ، وهى تحبك أنت ؟!

— ولم لا ؟! ألا تعتقد أنت نفسك أن الحب لا يعرف القيم المادية .

— أجل .. الحب الروحى لا يعرف القيم المادية .. ولكن الحب المادى ..

يجب أن يعرف .

— أنا على أية حال لا أعرف أن هناك فرقاً بين حب وحب .. كله حب .

— وأنت ما موقفك منها ؟

— أحبها .

— متأكد ؟

— أعتقد هذا .. إنها أحبّ من عرفت .

— لأنها أقوى من عرفت نفوذاً ، وأكثرهنّ قائدة .

— محتمل ، وإن كنت لم أفكر فى هذا بعد .. إنى أفكر فيها كامرأة .. إنى

أريدها وهى تريدنى .. وأنا أمتعها وهى تمتعنى ، وعندما تقدمت إليها فى أول

مرة في إحدى « السلال » في المونسير انتقتني من بين الجميع ، وأنا لا في العير ولا في النفير ، وراقصتني طول الليل ، ولم يكن ما بيننا رقص بقدر ما هو عناق وضم .. ومنذ تلك الليلة ، وقد أصبحت حبيبها المقرب .

— بعد الملك طبعاً ؟

— الملك فوق الجميع .. ألا تعرف هذا ؟

— أعرف أنك تزج بنفسك فيما لا قبل لك به .

— وأنت ؟ ألك قبل بما زججت بنفسك فيه .. منذ عشرات السنين !؟

ومضت فترة صمت خيم الوجوم خلالها على وجه « على » وأحس حسين كأنما قد خدش أخاه فقال معتذراً :

— دعنا من هذا .. المهم هو أن نستعين بصاحبتنا على قضاء حاجتك ، سأطلب منها أن تعرف أين سذهب « أنجي » ورفقتها الليلة ، وتحجز لنا مكاناً بجوارهم .

— أتظن أنها ستفعل ؟

— طبعاً تفعل ، أنت لا تدري قيمتي عندها .. دعنا الآن نغفو قليلاً ، لأنني لم أتم ليلة أمس إلا لماماً ، ولا بد لنا أن نسهو .. إرقد بجواري وخذ لك غفوة .

— إني أفضّل أن أغفو ، وأنا في مقعدى .

وفي المساء كان الأخوان يحْتَازان باب المونسير ، واتجه حسين يتبعه « على » إلى منضدة في أحد الأركان .. وكانت الموسيقى قد بدأت العزف ، وزنّجى أسود يتوسط الأوركسترا ، مرتدياً الأسموكن الأبيض ، وقد أخذ في الغناء بصوت خافت به بحجة ، والطرب قد بدا على بعض الجالسين ، وادعاء الطرب قد ارتسم على وجوه البعض الآخر ، وبضعة أزواج تتمايل متخاصرة ، متأرجحة في حلبة الرقص التي توسطت المكان .

وجلس « على » على مقعده وقد توترت أعصابه توتراً شديداً ، ولم يكد يستقر به المقام ، حتى أجال عينيه في أرجاء المكان بنظرة سريعة فاحصة ، ثم

ارتد بعينه إلى أخيه الذى كان يشير برأسه محيياً امرأة فى دور الكهولة تم بالخروج .. وقد أحاط بها بضعة شبان .. وهمس حسين لأخيه :

— هذه مدام اسكنرى .. إن هوايتها المحببة هى جمع الشبان .. إنها صديقة حميمة لقدرية ، وهى خدومة جدا .

ولم يع « على » من جملة أخيه الطويلة إلا اسم قدرية .. وكان يختطف نظرات سريعة إلى الباب ، وسأل أخاه فى قلق :

— إنها لم تأت بعد ؟

— لا تقلق . لا بد أنها آتية ، لقد أنبأتنى أنهم سيحضرون جميعاً إلى هنا .. أنجبى ، وعلاء ، وسامح ، وسهيله ، وإبراهيم ، وبقية الرفقة .. وطلبت منى أن تنتظرها .. وأعتقد أنها لا بد وأن ستأتى معهم .

وعاد « على » يرمق الباب .. ثم تجهم وجهه ، وتساءل متردداً :

— ولكن .. أظن أننى .. أعنى .. أن الفرصة .. ستكون سانحة للحديث معها ؟

— ولم لا ؟! لقد اتفقت مع قدرية عندما ترانا أن تدعونا إلى منضدتهم ، وتقديمنا إليهم ، وأظن أن عليك بعد هذا أن تتولى أمرك .. إن الحديث معها لن يكون مسألة شاقة .

— أظن ذلك ؟ هل يمكن أن أقول لها كل ما أود ، وسط هذه الرفقة التى تتحدث عنها ؟

— طبعاً .. ماذا تظنهم فاعلين ؟ .. سيكون كل منهم مشغولاً بنفسه ، أو بكاسه أو بغيره ، وتستطيع أن تنتحى بها أحد الأركان البعيدة المطلة على البحر .. لا تكن هكذا قليل الحيلة ، ولا تعقد أساريك ، ابتسم واجلس على راحتك ، نحن لسنا فى طابور .. إننا

وقيل أن يتم حديثه لمح قدرية تحتاز الباب ، فأردف هامساً :

— لقد أقبلوا .. ها هى قدرية .

والتفت « على » فرأى قدرية تقبل بخطواتها الرشيقه ، ولفتاتها الحلوة ،

وقوامها المعتدل .. ووجهها الذى يفيض أنوثته وأرستقراطية ، وتبعثها بقية الرفاق تتسرب من الباب واحداً بعد الآخر عدا « أنجى » ، وكان « على » قد ثبت بصره فى الباب كأنما يرقب فيه مصيره .. ولما انتهى دخول الجماعة دون أن يبدو لأنجى أثر ، بدا اليأس على ملامحه ، وهمس لأخيه :

— إنها لم تأت ؟

— غير معقول . لقد أكدت لى قدرية أنها قادمة .. اصبر قليلا .

ولم يطل صبر « على » فبعد بضع ثوان دخلت « أنجى » يتبعها علاء . وأحس « على » بدقات قلبه تتتابع ، كأنها دقات ناقوس مجنون ، أو كان بصدره طيراً حبيساً يود الانطلاق ، وبداله أن يقفز إليها ليضمها مرحباً ، ولكنه لم يملك إلا أن يرقبها فى صمت ، وهى تسير فى خطواتها الهادئة ، ومشيتها الرزينة متجهة إلى المنضدة المحجوزة التى أحاطت بها بقية الصحبة .

وخيل لعلى وهو يرقب وجهها أن بملاحمها الدقيقة الجميلة سمات حزن ، ولم تكن تبدو بوجهها أصباغ صارخة ، كبقية من معها ، كانت تبدو نقية طاهرة ، كما تعود أن يراها فى حديقة القصر .. وكانت تعقص شعرها الذهنى ، فى موخرة رأسها .

وقال حسين وهو يرشف من كوب بيرة أمامه :

— دعك منهم الآن .. لا تلق إليهم بالا .. كأنك لم ترهم .

وحول « على » بصره فى شئ من الخجل ، وتشاغل برشف ما تبقى من كوب الغازوزة الباقى أمامه ، وأردف حسين قائلاً :

— لا تقلق .. فبعد برهة ستظاهر قدرية بأنها فوجئت برؤيتى ، ثم تدعونى وإياك إلى مائدتهم .. أرجوك أن تكف عن حياتك هذا .. إنهم قوم لا يعرفون الحياء .. قل لها ما تريد دون أن تعبا بأحد .. فلن أستطيع أن أتيح لك هذه الفرصة مرة أخرى .. فقد استطعت هذه المرة أن أقنع قدرية بأن المسألة لا تخصنى .. وأنتى لا يهمنى أن أرى « أنجى » أو غيرها ، إنما أريد أن أتيح لك أنت لقاءها ..

ولست أظننى أستطيع إقناعها بهذا مرة أخرى .

ولم يكن « على » فى حالة تساعد على تقبل ما يقال له أو فهمه ، فقد بدأت الأفكار تحتشد فى ذهنه .. كيف سيلقاها ؟ وكيف ستلقاه ؟ أيلقاها بما يحسه من شوق نحوها ، أم يتصنع الصد والسلوان ؟ وماذا يقول لها ؟ لقد سبق أن ردّد حديثه معها مئات المرات ، ومع ذلك فهو الآن لا يكاد يعى كلمة واحدة مما سيقوله لها .

وكيف ستجيبه هى ؟! إنه يذكر آخر كلمة قالتها له فى الإسكندرية ، عندما لقيها فى ميدان السباق ، وسألها عما إذا كانت باقية على حبه ، فأجابته هامسة : « وأكثر » .

لقد كانت تلك الكلمة هى السند الذى وقى صرح حبه من انهيار . كانت القطرة التى بلّ بها صداه فى صحراء من الحجر والقطيعة . كانت البارقة التى بددت ظلمات يأسه ، وحفظت ثقته من التزعزع ، وإيمانه من الضياع . والليلة .. بم تراها مجيبة .. لو أعاد عليها السؤال ؟! أتراها تمنحه قطرة أخرى تبّل صداه ؟! ولكنه لا يقنع بقطرة تعاونه على الحياة .. بل هو يريد منها أن تمنحه الحياة نفسها .. يريد أن يحدثها كثيراً .. يريد أن يضع حداً لتلك الظلمات التى تحيط به .. يريد أن يعرف رأيها فى كل ما حدث ! أما زال إيمانها بحبهما قوياً كما هو ؟! أما زال قادراً على تخطى العقبات والسدود ؟! أما زال ساخراً بالتقاليد ، هازئاً بالفوارق ؟! أما زالت مصرة على أن تكون له حتى الموت ، وحتى ما بعد الموت ؟!

بل .. أما زالت تذكر أقوالها هذه ؟

وإذا كانت تذكر .. وإذا كان إيمانها وحبها كما هو .. فكيف يمكنها تخطى تلك الهوة الشاسعة ، من التقاليد الصارمة ، والفوارق الصلبة ؟! وأتى لهما هذا التخطى ، وأبوها يتهم أباه بالجنون لمجرد محاولة هذا التخطى ؟! وكيف يستطيع هو أن يحاوله .. وهى تقف منه هذا الموقف السلبي وتمنع فى النأى والتباعد ؟

وكيف يمكنه أن

ولكنه لم يتم تساؤله لنفسه .. فقد انتشله من أفكاره نهوض أخيه من مقعده فجأة ، وقوله له :

— انتظري لحظة .

وكان بصره قد التقى ببصر قدرية ، فهزّت رأسها بالتحية ، ثم أشارت إليه ، فنهض متجهاً إلى المنضدة التي أحاطت بها رفقتها ، وصافح قدرية ولثم يدها ، وأشار برأسه إلى بقية الجالسين ، وقد انهمكوا في الشراب والضحك ، وقالت قدرية مرحبة :

— أهلاً « حسين » .. كيف حالك؟! اجلس .

ونظر « حسين » حيث يجلس أخوه ، ثم قال معتذراً :

— إني أجلس مع أخي .

— ادعه يجلس معنا هو الآخر .. بدل أن تجلسا وحيدين هناك .. اذهب

وناده .

وتحرك « حسين » متجهاً نحو أخيه .. وكانت « أنجي » و « سهيلة » تتبادلان الحديث ، ولم يبد عليها الكثير من الدهشة عندما رأت « حسين » وردت تحيته بإشارة من رأسها ، ولكن دهشتها الكبرى بدت عندما نظر حسين تجاه أخيه واعتذر عن الجلوس لوجوده .

— لم يكن بصرها قد وقع على « على » حتى تلك اللحظة .. إذ لم يكن يبدو عليها كثير اهتمام بما حولها .. ولم تكن تتوقع قط أن تراه في هذا الوقت ، ولا في هذا المكان .. ولذلك كانت مفاجأتها أكبر ، واضطرابها أشد ، فقد أفقدها ذلك القدرة على السيطرة على مظهرها وتمالك أعصابها ، فتلاحقت أنفاسها لاهثة مكروبة كأنها تعدو في سباق . وجعلت عضلات أنفها الدقيق ترتجف .. مع الأنفاس المتلاحقة . وأخذ الصدر يعلو ويهبط .

ولا حظت « قدرية » اضطرابها ، ونظرت « سهيلة » إليها في دهشة قائلة :

— ما بالك قد شردت هكذا ؟ ما بالك لا تردّين ؟ أبلك شيء ؟

وأجابت « أنجى » فى صوت خافت :

— أبداً .. مجرد ضيق يصيبنى من آن لآخر .

وأقبل حسين يتبعه « على » بسيمائه الجادة .. ومشيته العسكرية ، محاولاً أن يكسو وجهه مظهر الهدوء ، وجوفه يغلى بالأحاسيس .

وشد « على » على يد قدرية التى قامت بواجب تقديم الأخوين إلى رفقاتها مرددة الأسماء فى لهجة رقيقة باسمه .

وانحنت الرعوس فى رقة حتى جاء دور علاء ، وبدأت آثار الشراب ، تبدو فى حركاته ونبراته ، ولم تكد « قدرية » تنطق باسمه ، حتى هتف ضاحكا :

— نحن معرفة قديمة .. كيف حالكما ؟ وكيف حال الرئيس عبد الواحد ؟!

ورشف من كأسه رشفة ، ثم أردف موجهها القول إلى الجالسين حوله :

— كان أباهما خير جنائنى شهدته حدائقنا .

وتصاعدت الدماء حارة إلى وجهين : وجه « على » ووجه « أنجى » ، وكان كل منهما يرمق صاحبه بنظرات قلقة ملؤها اللفهة والحب والحذر والخوف ، وأحست « أنجى » بعد أن ألقى أخوها بقوله الأحق ، بما يمكن أن يتورط فيه من سخافات قد تزيد الموقف حرجاً

ونظر سامح — الذى كان دائم الملازمة لأنجى — إلى « على » نظرة فاحصة ، ثم تسأل علاء بقوله

— إذاً .. فهذا هو ؟!

ولم يدعه « علاء » يتم حديثه ، بل قاطعه قائلاً بلهجته المستهترة الساخرة :

— أجل .. إنه هو بعينه الذى تقدم يخطب أنجى ، تصوّر الجراة والواقحة !

ثم اندفع يقهقه .

وخيم الصمت على الجميع ، وبرق الشرر فى عيني حسين ، وأحس « على » بموجة غضب تجتاحه ، وتدفعه إلى أن يقلب المنضدة على رؤوسهم جميعاً ، ولكنه تماسك وتجلد دون أن يرد بكلمة واحدة ، وسحب أخاه من يده .. وغادرا

المكان في صمت .

واستمر علاء يشيعهما بقهقهته قائلاً :

— لقد كاد أرى يضعه في مستشفى المجاذيب .. ولكنه اكتفى بطرده من العربة .

ونظرت إليه « أنجي » في حلق شديد ، وقالت والبكاء يكاد يخنقها :

— مستشفى المجاذيب ، يجب أن يملك أنت .. إنه خير منكم جميعاً .

ورفع سامح حاجبيه ، وتساءل في دهشة ساخرة :

— وما لك مثائرة هكذا ؟! لماذا كل هذا الاهتمام والعطف ؟!

ولم تجب « أنجي » وبدأ عليها كأنما أغرقت في لجة من الهموم والأحزان ، وما

لبثت حتى وضعت يدها على جبهتها ، ثم نهضت متقاتلة ، وهي تقول :

— إني أشعر بصدا ع شديد .. سأعود إلى البيت .

وتساءلت « سهيلة » في دهشة :

— أهكذا سريعاً ؟! إننا لم نبدأ السهرة بعد ؟!

— إني أشعر أن رأسي يكاد ينفجر .

وقال سامح راجياً :

— اجلسي قليلاً ، وأؤكد لك أنه سيزول بعد برهة .

وأجابت « أنجي » في إصرار :

— لا أستطيع أن أمكث أكثر من هذا .. لا بد أن أعود الآن .

ورد سامح وهو ينهض :

— إذاً .. أقوم معك ، لأوصلك بعربتي .

— أشكرك .. سأخذ عربتنا ثم أعيدها إلى علاء بعد أن توصلني .

ونفضت قدرية قائلة :

— لا داعي لذلك .. إني أستطيع أن أوصلك لأنني ذاهبة الآن .

وتصاح الجميع :

— إلى أين ؟!

— تذكرت شيئاً هاماً ؛ كنت أوشك أن أنساه .. هيا بنا يا أنجى .
وسارت « أنجى » إلى الخارج تتبعها قدرية ، وعندما تحركت بهما العربية
كانت « أنجى » مغرقة في الصمت ، وقد شردت ببصرها إلى الطريق الممتد التي
تتابعت فيه الأنوار الخافتة ، وبدا البحر يجيش من ورائها في هدير متلاحق .

وقالت قدرية في صوت خافت :

— إني آسفة لما أكون قد سببته من حرج ! ولكن لم يخطر لي ببال أن يتطور
الموقف إلى مثل هذا . إني لم أتوقع أن يتهور « علاء » بمثل ما قال .

ولم تجب « أنجى » ، ولكنها زفرت زفرة طويلة ، وعادت « قدرية » تقول :
— أتجبن أن نلتقى بهما ، لعنذر لهما عما حدث ؟!

وساد الصمت فترة ، وبدت « أنجى » وكأنها لم تسمع ، فقالت
« قدرية » :

— ما رأيك ؟

وهمست « أنجى » في يأس :

— لا فائدة ..

— لا فائدة من ماذا؟

ولم تجب « أنجى » ورنت في شروود بعينها إلى الظلمات المتكاثفة ، المتراكمة
وراء الأمواج .

وفي تلك اللحظة كان « حسين » قد تأبط ذراع أخيه وأخذ يسير بخطوات
متثاقلة ، تلفهما الظلمة ، وتلفح وجهيهما ريح البحر .

وقال « حسين » مفرجاً عن كربه وضيقة :

— كان بودى لو حطمت رأسه ، ولكن خشيت الفضيحة ، وكرهت أن
أزيد موقفك تعقيداً ...

واستمر « على » في صمته ، وكره « حسين » منه هذا الصمت . كان يعرف
(رد قلبى — ج ٢)

— ٥١٨ —

ما يضطرب في جوفه .. وود لو فرج عنه بالحديث .. فعاد يستدرجه إليه :

— على أية حال سأردّها إليه في فرصة قريبة .. المهم الآن .. هو أن نحاول تدبير لقاء آخر .. سأطلب من « قدرية » أن تدبر لنا لقاء لا يكون به ذلك الحيوان الوقح .. وعسى أن تستطيع ذلك الليلة القادمة .

ورفع « على » رأسه المطرق ، وأجاب في صوت خافت :

— إني سأسافر غداً .

— لا تكن عنيداً .. أرسل في طلب أجازة محلية .

— لا أظن هناك ما يدعو للبقاء .

— اترك الأمر لي .. سأحاول أن أفعل لك شيئاً خلال النهار .. ويمكنك أن تسافر في المساء .

وهز « على » رأسه في يأس ، وأجاب :

— لا فائدة .

— لا فائدة من ماذا ؟

— من كل شيء .

وانطلقت الإجابة اليائسة .. وكأنها ترد على السؤال الحائر الذي لم تجب عليه « أنجي » بغير نظرة صامته تفيض بالأسى واليأس .

(٤٦)

مزيد من أمل

رقد « على » فى فراشه مسهد الجفن ، عاصف الذهن .. تتلاطم أفكاره
تلاطم موج استبدت به رياح هوج .. فلم يعد يستبين منها أمره .. ولا يميزه ،
وظل فى خضم من الحيرة واليأس والضلالة .. وأحس رأسه يكاد ينفجر ..
فتسلل من الفراش الذى شارك فيه أخاه وكان « حسين » قد تكوّر وانبعج ،
واحتل ثلاثة أرباع الفراش تاركاً له حافته ، كما تعود أن يفعل فى صغره ، ومشى
« على » نحو الباب المؤدى إلى الشرفة ، المطل أحد جوانبها على البحر ، واتكأ على
حافتها ، محملاً فى الفضاء الداكن بين الماء والسماء ، تبرق فيه النجوم والمصابيح
خافتة باهتة ، ومضت برهة وهو فى وقفته تلك صامت إلا من أنفاس تتردد ،
وفؤاد يصطخب ، ورأس يضج ، حتى أحس بالريح الباردة تنفذ إلى عظامه ،
فعاد إلى الحجرة ، وأغلق الباب وراءه فى سكون .

ولم يعد إلى الفراش ، ولكنه اتجه إلى المنضدة التى فى ركن الحجرة وأضاء
الأباجورة الصغيرة ، وجلس على مقعد بجوارها ، وأخرج بضع أوراق أعدها
أخوه لكتابة الرسائل ، وأمسك بالقلم واتكأ بمرفقيه على حافة المنضدة ، مسنداً
جبينه بكفه الأيسر ، ضاعطاً عليه بأصابعه ، كأنه يعتصره ، أو يسكت
ضجته .

واستقر طرف القلم على الورق برهة وهو حائر لا يدرى كيف يتحرك ،
وأخيراً أنساب على الورق انسياً أفرغ به كل ما احتشد فى الذهن الصاحب .

عزيزتى :

ألجأ إلى الكتابة إليك ، بعد أن استنفدت كل الوسائل للقائك .. ولست

أكتب لأبتك حياً ، أو أسطر شوقاً ، أو أؤكد عهداً وميثاقاً ، فتلك كلها حقائق واضحة ، مؤكدة ، من العيث ترديدها ، ولن يؤثر فيها أن أذكرها لك أو لا أذكرها ، فأنت أدرى الناس بها .. بمداهها .. بعمقها .. وبدوامها .. ولكنى أكتب إليك لأستمد منك مزيداً من الأمل ، وأبدد به ذلك اليأس الذى يحيط بى ويطبق على أنفاسى .

وعندما أقول اليأس .. لا أعنى اليأس منك .. فإن إيمانى بك فوق كل يأس ، ولو كنت يئست منك لو فرت على نفسى مشقة إزعاجك بالكتابة إليك .. ولكنه يأس من الظروف الخرقاء المحيطة بنا ، والأوضاع الجامدة الصارمة ، المفروضة علينا ، والقيود الثقيلة المغلة لنا ، والسدود المنيعه القائمة بيننا .. النائية بأحدنا عن الآخر .

ذلك — وليس أنت — هو ما يملؤنى يأساً .. ولو كنت سبب اليأس لهان الأمر .. ولا استطعت أن أئدك فى قلبى كما تعودت أن أفعل فى صباى .. واحتفظت بك موعودة فيه ، أحبك حب الموعودة فى مرقدها ، الميئوس من بعثها .

ولكنى لم أياس منك ، فمشاعرك كانت أحر من أن يجمدها كل نأى .. وأسطق من أن يطفئها كل بعد ، ويقينى من حبك ، كان أقوى من الظروف والأوضاع والقيود والسدود التى حاولت هدم صرحه ودك بنيانه .

وأنا أكتب إليك لأنى كما قلت — أريد مزيداً من أمل — فليس أقدر منك على منحى إياه .. وأنت ولا شك تذكرين « وأكثر » التى منحتها إياى فى آخر لقاء لنا فى ميدان السباق ، لقد كانت رعم قصر اللقاء واقتضاب الحديث خير عون لى على الحياة ، لقد بددت بها كل سحب اليأس الجاثمة على .

والليلة .. رغم كل ما حدث من سوء .. مازلت أذكر نظرتك الحزينة اللهفى . وما زلت أحس منها — وهى لا تزيد عن نظرة — هداية وعزاء وأملا . ولكنى مع ذلك أكتب إليك لأنى أريد المزيد من الأمل ، والفهم .. أريد أن

أفهم أشياء كثيرة لا أفهمها .. وليس أقدر ولا أشد إقناعاً في إفهامي إياها .. منك .

أسئلة كثيرة جداً تصطبغ في ذهني ، وتضج في خاطري .. ولكني لا أريد أن أحدها لك ، فأنا لا أقف منك موقف المحاسب المستجوب ، ولكن موقف الراجي السائل .. الراجي عزاء .. السائل أملاً .

حدثيني أنت عما شئت ، وشرحي لي ما شئت .. وانتقي ما يحلو لك مما يدور في خاطري ، وأجيبني على ما شئت منه ، ودعي ما تشائين .

أنا لا أعاتبك ولا أحاسك ، فأنت أسمى في نفسي من العتاب والحساب . ولكن اكتبني إليّ لتمنحيني أملاً .. إذا رأيته أستحقه .. أما إذا رأيته أحق باليأس فلا تجبني .

وسواء أجبته أم لم تجبني ، فإن حبك باق .. لأنه أسبق إلى نفسي من كل ما فعلت وما تفعلين .

والفارق بين أن تحكمني على باليأس أو أن تمنحيني أملاً . هو الفارق بين حب الموعودة .. وحب الحببية الباقية التي لا تقف في سبيل حبا سدود ولا صعاب ، ولا فوارق ولا تقاليد . هو الفارق بين أن أطوى عليك جوانحي .. وأن أطوى السدود ، والصعاب .. حتى يكون كل منا لصاحبه .

هو الفارق بين الواد والحياة .. وأدك في قلبي .. أو حياقي من أجلك .

المخلص

وانتهى « علي » من الرسالة ، قرأها وأعاد قراءتها مرة ثانية وثالثة ، وهو يحس أنها لم تعبر كثيراً عن ذلك السيل المتدفق في ذهنه ، إنه يود أن يناجيها ويعاتبها ، ويعتذر إليها عما فعل أبوه بحسن نيته .. يريد أن يعرف مشاعرها ونواياها ، وخطتها المستقبلية ، ولكنه مع ذلك يشعر أنه لا يستطيع أن يكتب أكثر مما

— ٥٢٢ —

كتب .. وهم بضع مرات بأن يمزق الرسالة أو يعيد كتابتها ، ولكنه ما لبث أن طواها ، وأغلق عليها أحد الظروف الموضوعه على المنضدة ، ثم نهض عائداً إلى فراشه .

وفي الصباح فتح « حسين » عينيه ليجد « علي » قد ارتدى ملابسه ، فسأله في دهشة :

— إلى أين ؟

— أريد أن ألحق قطار الصباح .

— يا أخى اعقل .. لماذا كل هذه العجلة ؟! انتظر حتى المساء فقد يحلها ربنا ، وتستطيع أن تفعل شيئاً خلال النهار .

— لا أظن .. لا داعي لإضاعة الوقت عبثاً .

— وماذا لديك فى القاهرة .. ألم تبدل نوبتجيتك ؟

— عندنا تفتيش قائد الآلاى على العربات فى الغد .. ومن الواجب أن أمرّ اليوم عليها .

— يا أخى لعنة الله عليك ، وعلى العربات ، وعلى قائد الآلاى .. انتظر حتى

تتغدى معى ثم سافر بعد الظهر . فقد تسنح لنا الفرصة صباحاً .. من يدرى ؟

— أية فرصة هذه التى ستسنع ؟ إنى واثق أنها إذا سنحت ، فلن تسنع بطريقة

أفضل مما سنحت بها أمس .. إن كل ما أريده منك .. هو أن توصل لها هذه

الرسالة .. وأظنك تستطيع .

وأمسك « حسين » بالرسالة بين يديه ، وتسأل :

— ماذا كتبت بها ؟

— لا يهمك ما كتبت .. أتستطيع أيضاها .. أم لا تستطيع ؟

— بالطبع أستطيع .

ثم صمت برهة ، وأردف فى استسلام :

— اللهم إلا إذا كانت .. لا تريد هى أخذها .

وفوجيء « على » بقول أخيه ، ومد يده فاستعاد الرسالة قائلاً في وجوم :
— أتعقد ذلك ؟

وبدا على « حسين » الندم على ما قال .. واختطف الرسالة قائلاً :
— أنا لا أعتقد شيئاً .. إنه مجرد كلام ، ماذا يدعوها إلى رفضها .. لتقرأها
على الأقل .. من باب العلم بالشيء ، وحب الاستطلاع .

— وكيف ستسلمها لها ؟

— سأعطيها إلى قدرية لتوصلها إليها .. إذا لم أستطع أنا أن أسلمها لها .

— أتعقد أن « قدرية » مأمونة ؟

— مأمونة ؟! أظن رسالتك ثمينة إلى حد أن تفكر « قدرية » في سرقتها ؟
— لست أقصد ذلك .. بل أعنى أنها ربما تعطيها لأحد .

— اطمئن .. سأضمن لك تسليمها يدأ بيد .. أتريد شيئاً أكثر من ذلك ؟

— إذا كانت تنوى أن تكتب رداً ؟!

— سأحضره لك .

— بمجرد أن تتسلمه ؟

— سأخذ أول قطار وأحضره لك بنفسى .. أظنك لا تريد بعد هذا شيئاً ؟

— لا .

— ولكن كل هذا بشرط .

— ما هو ؟

— أن تتغدى معى .. سأطعمك « فته بالكوارع » .. لم تذق لها مثيلاً في
حياتك .. اجلس الآن حتى أحضر لك « ريتا » .. إنك لم ترها بعد .. إن دمها
خفيف جداً .

ثم وضع « حسين » سباتيه في فمه .. وأطلق صفارتين طويلتين ، وقال :

— ستحضر حالا .. صفارتان لها .. وصفارة واحدة لأمها .

ولم يكذب ينتهى من قوله حتى اندفع الباب ودخلت « ريتا » ولم تكن تتجاوز

— ٥٢٤ —

السابعة عشرة .. وقد تلوى شعرها الأسود القصير ، فى حلقات صغيرة فوق رأسها .. وبدت عيناها الخضراوان كعيني هرر .. وافتر ثغرها عن ابتسامة عريضة ، ظهر من خلالها كوبرى سلك تأبى أمها إلا حشوه فى فمها ، لكى يعدل من بروز إحدى أسنانها .. وقد لفت حول جسدها رداءً حريراً رحيص الثمن بدت قيمته فيما حوى من صدر رجراج ، وردفين مكتنزين ، يديان من أنوثة الفتاة ما لم يبد وجهها .

وألقت الفتاة تحية الصباح ، ثم تساءلت :

— أحضر لكما الشاى ؟

وأجاب حسين :

— قبل الشاى تعالى أولاً ، حتى آخذ حضن الصباح .

وبدا الخجل على وجه الفتاة ، وقالت زاجرة :

— عيب يا حسين .

وأجاب حسين متصنعاً الدهشة :

بـ عيب !! .. إنه أخى .. وأنت أختى .. تعالى ..

ونفض من فراشه وقفز محاولاً اللحاق بها ، ولكنها اندفعت تعدو هاربة

ضاحكة .

وهز « على » رأسه فى عجب من انحلال أخيه ، وردعه قائلاً :

— يا أخى اختشى .. ماذا تقول أمها ؟

— ماذا تقول ؟! أتظن أن كليهما لا تعرف ما أفعله بالأخرى .

وتناول الأخوان الفطور مع « ريتا وأمها » .. وأحس « على » بنظرات

« ريتا » ترمقه فى شبه إعجاب ، وأحب نظراتها وبراعتها ، وكره من أخيه عيشه

بها ، وعندما لامه بعد الإفطار على هذا العبث ، أجابه « حسين » ضاحكاً :

— ماذا تريدنى أن أفعل بها .. أحبها .. كما تفعل أنت بغياوتك ؟! أنا

لا أحب .. ولكنى أشتى فقط .. لا أفكر إلا فى الجسد الذى بين يدي ، فدعنى

أعبت كما أريد لأنى إذا لم أعبت بهن عشن بى .

وفى الساعة الخامسة والنصف وقف حسين على رصيف محطة سيدى جابر مودعاً ، وضم إليه « علياً » ضمة تقبلها بكثير من الخجل والحرص لارتدائه ثيابه الرسمية ، ولنفوره الطبعى من مظاهر المشاعر ، ولكن حسين لم يأبه لخلجه أو حرجه ، فقد كان يحبه ويعرف قدره ، ويحس بما يعتمل فى جوفه من أسى مكبوت ، ولم يفه « على » بشىء عن الرسالة قبل أن يرحل ، ولكن حسين وفر عليه الحديث عنها بقوله مؤكداً :

— فى خلال هذا الأسبوع سأحضر لك الرد .. إن شاء الله .

— ولكن كيف يمكنك الحضور ؟

— إنى أعمل يوماً بعد يوم .. وسأنتهز فرصة خلوى من العمل ، وأحضر ليلاً وأسافر فى اليوم التالى .. سلامى إلى والدينا .
— فقط ؟

وضحك حسين قائلاً :

— وإلى بهية .

— أيها الضال .. إنها ملجؤك الأخير .

— الملجأ للعجزة .. وأنا لست عاجزاً .

— أنت ضال !

— أحب الضلالة .

— حتى تعجز عنها .. فتحب الملجأ .

— وقانى الله شره .

— شر لا بد منه .

— للعجزة فقط .

وضحك « حسين » . وأطلق القطار صفارته مؤذناً بالرحيل فرفع يده بالتحية ملوحاً .

وفي المساء كان « حسين » يتحدث في التليفون مع قدرية قائلاً :
— أريد أن أراك الليلة .

— آسفة .. إن موعدنا في الغد عند « مدام اسكبرى » .

— ألا يمكن أن نجعله الليلة ؟

— مستحيل .. إني قد ارتبطت بموعد هام ، ولكن لماذا هذه العجلة ؟

— كنت أريد أن أسلمك رسالة تعطينها لأنجي .

— يا أخى أجلها إلى الغد .

— اسمعى .. ألا يمكن أن تعرفى منها إلى أين ستذهب الليلة ؟

— أعتقد أنها لن تغادر « سان استفانو » .

— إذا سأحاول أن أسلمها لها أنا .. وإذا فشلت فسأعطيها لك غداً .

وقبيل التاسعة دخل « حسين » « سان استفانو » وألقى نظرة فاحصة على القاعة الرحبة ، التي تناثرت بها المناضد ، ولم يطل به الوقوف حتى وجد « أنجي » تجلس مع أبيها ، وبجوارهما رجل وامرأة لا يعرفهما .

وأخذ بوجود أبيها .. وأحس بخيبة أمل شديدة .. فقد كان لمرأى الرجل وقع رهيب في نفسه ، لم يستطع أن يتخلص منه منذ صغره عندما كان يسعى مع أبيه ليقبل يده ، ويتلقى منه المنح والعطايا .

وأخذ يدور من بعيد حولهم ، وقد أصابته الحيرة ، وداخله اليأس ، إذ كان من العبث أن يلجأ إلى أية محاولة ، للاتصال بها مع وجود أبيها ، ولم يجد بداً من أن يقبع في أحد الأركان لمراقبتها .. علّ الفرصة تسنح بمخاطبتها وتسليمها الرسالة . ولم يكد يستقر على المقعد ، حتى برق في ذهنه خاطر جعله ينهض من مقعده ، ويتجه مسرعاً إلى إحدى كابينات التليفون ، ورفع السماعة فأجابته العاملة فزد عليها قائلاً :

— أنا الملازم أول « حسين عبد الواحد » أعطيتني السكة من فضلك .

وأدار القرص طالباً أحد أرقام الفندق ، فردّت العاملة نفسها مرة أخرى

معتقدة أن المتحدث من الخارج ، دون أن يخطر لها ببال أن المتحدث هو نفسه الذى طلب تحويل السكة ، وأجاب « حسين » وكأنه يتحدث من خارج الفندق :

— من فضلك أريد أن أتحدث إلى « أنجى هانم » .
— انتظر على السماعه .

وقف « حسين » ينتظر ، وقد وضع يده فى جيبه ممسكا الرسالة ، وأحس بكثير من الاضطراب ، وبداله أن الوقت يمر ثقيلًا بطيئًا .
وخيل إليه أن « أنجى » ربما تكون قد رآته ، وأنها أدركت أنه هو الذى يطلبها ، وأنها سترفض الحضور ، وأخذت الوسوس تتوالى على ذهنه .. حتى سمع العاملة تقول له :

— معاك يا أفندم .

وسمع صوت « أنجى » يليه مباشرة هاتفة :
— آلو ..

— مساء الخير يا أفندم .

— مساء الخير .. مَنْ ؟

— أنا حسين .

— حسين من ؟

— حسين أخو على .

— أخو على ..

ومضت برهة صمت لم يدر ما إذا كانت تحاول تذكره ، أم تحاول تمالك نفسها من الدهشة والارتباك ، وبعد لحظة أردفت قائلة فى تساؤل :
— أفندم .

— أسمحين لى ببيضع كلمات .. إنى آسف على إزعاجك . ولكنى مكلف بتسليمك رسالة .

— ٥٢٨ —

— ممن ؟

— من على .

— مستحيل !

— وما وجه استحالته ؟

— كيف يمكن أن أقابلك ، وأخذها منك ؟

— ليس هناك أسهل من ذلك .. إني أحدثك من اللوكاندة .. من إحدى
كباتن التليفون .. لا يفصلني عنك سوى جدار وأستطيع أن أسلمها لك
ببساطة ، عندما تغادرين حجرة التليفون ، دون أن يلحظ أحد .

— ولكن ..

— ليس هناك لكن .. إذا كنت لا تريدين الرسالة خشية العواقب ..
فسأتكفل أنا بتسليمها لك ، دون أى حرج عليك . وإذا كنت لا تريدينها ،
لأنك لا ترغبينها فأنبئيني حتى أمزقها أو أعيدها إليه .. فليس هناك بالطبع ما يمكن
أن يكرهك على أخذها .

ومضت فترة صمت خيل إلى « حسين » أنه يسمع في السماعه تردّد
أنفاسها ، وبعد لحظة أتى إليه صوتها خافتاً مستسلماً :

— سأخذها .

— والرّد ؟

— أى ردّ .

— والرّد عليها ؟ إنه يريد ردّاً .. أأستطيع الحصول عليه غداً في مثل هذا

الوقت ؟

— كيف ؟

— بنفس الطريقة التي سأسلمك بها الرسالة .. سأطلبك غداً كما طلبتك

الليلة ، ويكون الرد جاهزاً معك .

وبعد فترة تردّد أجابت قائلة :

— سأحاول .

— إلى اللقاء في الغد .. سأسلمك الرسالة بمجرد أن تغادرى الكاينة . مساء

الخير .

— مساء الخير .

ووضع السماعه ثم غادر الحجرة الصغيرة ، فرأى « أنجى » تخرج من الحجرة المجاورة ، وقد توترت أعصابها ، وبدا عليها ارتباك شديد .. فتقدم وكأنه يسير في طريقه ، دون أن ينظر إليها ، وقد أطبق على الرسالة يده ، وكان الممر خالياً إلا من أحد صبية التليفون ، وعندما اقترب منها مس يدها تاركا الرسالة ببساطة بين أصابعها .. مستمراً على السير في طريقه كأنه لم يفعل شيئاً .

— وضغطت أصابع « أنجى » على الرسالة بعصبيه شديدة جعلتها تتكور مخفية في كفها المطبقة .. وخيلَ إليها أن الأنظار كلها مصوّبة إلى الرسالة المخفية ، وأنها تكاد تقرأ ما فيها وتفصح أمرها .. وتباطأت خطواتها ، وتعجلت حركة ذهنها .. ماذا تفعل بالرسالة الآن ؟ .. إن عليها أن تدسها في الحقيبة حتى تخلو إلى نفسها ثم تقرأها .

ووصلت إلى المنضدة .. وجلست على مقعدها قائلة في هدوء ، دون أن يسألها أحد :

— إنها « سهيلة » تسأل عما إذا كنت سأذهب إليها غداً .

ومدت يدها ففتحت الحقيبة وأخرجت المنديل ، فمسحت به أنفها ثم أعادت المنديل إلى الحقيبة مع الرسالة .

ولم يطل بها الجلوس حتى أبدت رغبتها في العودة .

وفي حجرتها .. جلست وحيدة في سكون الليل إلا من هدير الموج ، يأتي خافتاً من وراء النافذة العريضة ، وفتحت الحقيبة ، وفضت الرسالة المجددة المكورة ، وبدأت في قراءتها .

وعندما انتهت من القراءة أطبقت عليها ثانية .. وأمعن ذهنها في شروء بعيد ،

مقلباً صفحات الماضي جائلاً بين أربعه .

تذكرت إلقاءه بجسده أمام الترولى ، لإنقاذ حياتها .. وخجله من النهوض حتى لا ترى رقعة بنطلونه .. تذكرت ترفعه وإبائه وتباعده عنها ، ثم لقاءهما أول مرة ، وهو عائد من كشف الكلية الحربية ، وكيف أوى على نفسه الرجاء . وتذكرت لقاءهما على شاطئ التربة وفي الحديقة وفي السينما ، وتذكرت رقده في المستشفى وزيارتها له ، ثم تخرجه ورؤيتها إياه يوم التتويج ، ورسالتها إليه ، ثم لقاءهما في الإسكندرية بين الأمواج والحدائق .. وتذكرت لقاءهما الأخير يوم ميلادها وهديته إليها .. القلب الذهبي ومفتاحه ، وتذكرت نفسها المليئة بالأمل ، المفعمة بالرجاء .

كان أملها فيه وقتذاك أقوى من كل الفوارق ، وإيمانها بحبه أشد من كل العقبات .. كانت تراه خير الرجال .. وتعتبر أن حقها في الارتباط به لا يمكن أن يسلبه منها أى مخلوق ، وأنها هى وحدها التى تستطيع تقرير مصيره معها . لقد غرست فى نفسها هذا اليقين .. وكان كل لقاء لها معه يزيد ثقتها عمقاً ، وإيمانها شدة .. حتى كانت ليلة المعادى عندما افترقا ، وقد تعاهد كل منهما على أن يكون للآخر حتى الموت ، وحتى ما بعد الموت . وفى لحظة الافتراق لمحها أخوها عندما مرّ بعربته .

وتذكرت ما أوجسته من خيفة ، وما أحست به من ضيق . ولكن خيفتها وضيقها .. كانا تفاؤلاً بالقياس إلى ما حدث بعد ذلك .

لقد ثار أخوها ثورة حقد وحنق .. وأشعل الثورة فى نفس أبيها .. ولم تكن الثورة مبعثها لقاءها مع رجل ، بقدر ما كانت على طبيعة الرجل نفسه ، وعلى الهوة السحيقة التى بينهما ، وعلى جدية علاقتها به .. وشعورها نحوه .

لقد اعتبرها أبوها كارثة .. وعزم على أن يكون إزاءها حازماً وعنيفاً .. فأمرها بصرامة أن تقطع كل صلاتها به وأن تكف عن لقاءه . وكان عليها أن تطيع الأمر .. لا خوفاً على نفسها ، بل عليه هو .. فلقد أصر أخوها بكل ما فيه من

حقد ونزق وجنون ، على أن يقتله إن رآها معه أو عرف أنه ما زال على صلة بها ، وأصر أبوها بكل ما فيه من قسوة وصلف وجبروت وسلطان وعناد وإصرار ، على أن يضيع مستقبله إن لم ينته كل ما بينهما .
وكان عليها أن تختار بين علاقة يائسة ، وصلة ممتنعة لا فائدة منها ولا طائل تحتها .. وبين حياته ومستقبله .

فاختارت حياته ومستقبله ، وعزمت على أن تطوى حبه ، وأن تنده — كما فعل هو — في قلبها .

ومرت بها ليال سود وأيام مريرة ، وكم من ليلة خلت إلى القلب الصغير تغرقه بدموع تنساب في صمت .. وأنفاس تلتهب كالشواظ .. وكم من مرة همت بالكتابة إليه لتنفث ما في فؤادها ، ولكنها عادت فمزقت ما كتبت .. كانت تجدد في الكتابة إليه إشعاعاً لئيران الأمل .. وهى التى كانت تستجدى الزمن مزيداً من اليأس ، وكانت تحشى أن تدفعه رسالتها إلى أى فعل إيجابى قد يودى به .

وبدأ أبوها يدفع في طريقها بقربها « ساح » .. محاولاً أن يهيئ لها فيه ما يشغلها به .. معتقداً أنه خير من يمكن أن يكون لها زوجاً .
وقد عزمت في نفسها على ألا تكون لأحد ، وأصبحت في حياتها أشبه بدمية صامته يضعونها أين شاءوا ويحركونها كيفما شاءوا .

ولقد شفى الزمن صدع قلبها .. وأغلقه على الموعود فيه .. وأهال البعد الكثير من أتربة النسيان .. أو هكذا خيل إليها حتى أبصرته في السباق فجأة .. فإذا بما سبق أن حدثها به عن الموعودة في قلبه قد حدث لها ... وإذا بالموعود في قلبها قد استيقظ ، ونفض عنه الأتربة ، وحطم الحدث .. وإذا بالقلب المغرق في سكون الموت قد رقص وغنى وصفق وهفا .. وإذا بسيول الحب تتدفق .. كما تتدفق المياه المحتجزة وراء سد إلى أرض مجدبة قفراء .. وإذا بها لا تملك إلا أن تجيبه عندما سألها ، أما زالت تحبه بقولها : « وأكثر » وبودها لو تجد هناك كلمة خيراً من

تلك للتعبير عما بنفسها .

ولكن .. الواقع المرير .. الذى انتزعها منه لقاءها المفاجئ .. عاد ليقم من نفسه سداً آخر يحجز وراءه ما تدفق منه من مشاعر .. وليقبض على الموعد الهارب ، وليغلق عليه الحدث مرة أخرى .

وعادت أثربة اليأس تنهال من معاول الواقع .. صمت القلب المصفق .. وعاد غناؤه نواحاً ، وترنيمه أنيناً .

كان لقاءه خطيراً .. إذ كان يضعف من قدرتها على المقاومة .. وهى فى أشد الحاجة إلى المقاومة .. من أجل حياته ومستقبله .. فى حاجة إلى الكثير من النسيان واليأس .. وليحكم الإغلاق على الموعد فى القلب ، ويقطع عليه السبيل إلى البقاء والعيش .

وكانت تظن أنها قد مهدت له الطريق إلى اليأس ، وأنها منحتة من النأى والهجر ما أعانته هو الآخر على عملية الواد .

كانت تعتقد ذلك حتى رآته بالأمس .. وقرأت فى رسالته الليلة :

« .. لا أعنى اليأس منك ، فإن إيماني بك فوق كل يأس » « إن مشاعرك أحر من أن يخمدنا نأى .. وأسطع من أن يطفئها بعد .. ويقينى من حبك أقوى من كل الظروف والأوضاع والقيود والسدود » .

بعد كل ما فعلت ، وما قطعت ، وما هجرت .. يقول هذا !

إنه يطلب منها مزيداً من أمل .. بعد كل ما جرفته عليه من يأس . إنه يقول :

« أكتبى إليّ تمنحني أملاً .. إذا رأيتنى أستحقه » .

بستحقة !! .. إنه يستحق أن تمنحه حياتها .. ولكنها لا تريد أن تمنحه

الأمل .. لأنها تخشى على حياته هو ، وليس على حياتها هى .

ولكن أليس من حقها أن توضح له كل شيء ؟ . أليس من حقها أن تبين

وتشرح ؟ . أليس من حقها أن تقول لماذا لا تريد أن تمنحه أملاً ؟

إنه يريد حبها .. لماذا لا تكتب إليه لتقول له : إن حبها له باق — كحبه — رغم كل شيء ؟

لماذا لا تكتب إليه لتقول إن حبهما قد تسامى إلى الحد الذى لا تبلغه سدود أو قيود ، فهو باق على النأى والهجر والبعد ، واصل مهما أبت الأوضاع والفوارق ، والواقع .

وأمسكت بالقلم وبدأت الكتابة .

وجرى قلمها على الورق فى عدو لا يتوقف .. فسرد كل ما أحاط بها من ظروف ، وما أكرهت عليه من أوضاع ، وشرحت مبررات نأياها ، وكل ما قاسته من أشجان وأحزان .
وختمت رسالتها بقولها :

« لقد وضحت لك كل ما بنفسى ، ولست أدرى أأجبت به عن كل ما يصطخب فى ذهنك من أسئلة ، أم ما زال هناك مالا أستطيع تخمينه ؟! لقد سبق أن حاولت أن أكتب عنك ما بى ، لكى أقضى على كل أمل لك فى ، ولكى يصيبك منى يأس مرج .. يخلصك تماماً من الحبيبة الموعودة فى قلبك ..

ولكن حبك — كحبي — كان أقوى من كل يأس ، والوآد فى قلبي لم يكن وأداً بل كان تمكيناً وثبتيّاً . ولم يكن أمامى من سبيل سوى أن أكتب لأقول لك كل شيء .. لعلى أمنحك — كما قلت — مزيداً من أمل .

وقد أكون بذلك أنانية .. وقد تكون ثورة مشاعرى التى أشعلتها رسالتك أضاعت قدرتى على الصمت ، والتضحية التى أقدمت عليها من أجل مستقبلك وحياتك ، ولكن عزائى فى ذلك هو اقتناعى الآن بأننا نستطيع أن نسمو بمشاعرنا ومطالبنا عن الواقع الملموس ، وأن يظل ما بيننا متصلاً ، رغم تلك الموانع والسدود ، لا تقلل منه قطيعة ولا بعد ، ولا يعتريه أى تغيير مادى يمكن أن يقوم بيننا .. وأن نستمد سعادتنا من إيمان كل منا بالآخر إيماناً لا يتزعزع ولا يهين ..

— ٥٣٤ —

وأن يبقى كل منا للآخر حتى الموت .
إذا اقتنعنا بهذا ، هانت علينا العقبات .. وهان علينا كل ما يمكن أن يضعوه في
سبيل حبنا مما يملكونه كبشر .. ولم أعد أخشى عليك بعد ذلك ، من أن أمنحك
مزيداً من الأمل بل كل الأمل .. وأقول لك :
أحبك .. أحبك .. أحبك بكل ما في من أنفاس تتردد ..
المحلصة ..

(٤٧)

رماد ..

حمل قطار المساء « حسين » وفي جيبه رسالة « إنجي » إلى « على » ومدّ ساقيه فأسندهما على المقعد الخالى أمامه ، ملقياً ببصره فى ظلمات النافذة يرقب أشباح الأعمدة يتلو بعضها بعضاً .

ونقل بصره من النافذة إلى الساعة فى معصمه ، فألفاها قد شارفت الحادية عشرة ، وكان القطار قد غادر طنطا ، ولم يبق سوى ساعة حتى يصل القاهرة . وشرّد بذهنه ، وهو يتحسس الرسالة فى جيبه .

هذه الوريقات التافهة يعلّق عليها أخوه سعادته ومصيره ! أخوه العاقل الرزين .. يتضاعل عقله ، وتزوى رزائته أمام هبة مشاعر هوج تستبد به ! ماذا يمكن أن تحوى هذه الوريقات أكثر من ألفاظ ؟ ما قيمة الألفاظ فى تغيير الواقع الذى تفرضه الحياة علينا .. الواقع الأصم الأعمى الذى لا يسمع ولا يقرأ .. أهى مجرد تخدير يفقدنا إحساسنا به إلى حين ؟

ألم يكن خيراً له لو جابه الواقع الأصم بنفس صماء ؟ ولكنه لا يريد ذلك .. إنه يأبى إلا الهيمنان فى أودية من الأوهام عريضة مديدة .. وفى هذه الوريقات مزيد من ضباب الأوهام ، يخفى عنه سدود الواقع .

إنه يعلّق مصيره على هذه الوريقات .. وهى لا تزيد عن مجرد كلام فى كلام .. أفصى ما فيه .. « أحبك » .. يطبق عليها .. ويتعلّق بها تعلق الغريق فى كسر من حطام سفين .. لا يكاد يمنحه إلا مزيداً من لطم الموج ، وعصف الريح .

وهو يقطع هذه المسافة فى آناء الليل ، ليحملها إليه .. ليحمل إليه الوهم .. ويشاركه فى حماقته .. وفى عدوه وراء الأوهام . أما كان خيراً له لو أطبق عليها وألقى بها من النافذة ، ومنحه بذلك

راحة اليأس ، وأنفذ مصيره من أن تتحكم فيه تجرّد تفاهات ؟
 بل أما كان خيراً من هذا لو مَزَّق رسالته هو ، وأراح نفسه من العدو
 وراءها .. وأراحها من القراءة والرد ؟
 أجل . كل هذا كان خيراً مما فعل .
 ولكنه مع ذلك لا يملك إلا أن يفعل .. ويستمر في فعله .. لأنه يحب أخاه ..
 ويكره آلامه وأحزانه .

ثم .. من يدريه ؟! ألا يحتمل أن تكون الرسالة نفسها تحمل راحة اليأس !
 لا يظن .. فلو كانت تقصد هذا .. لوفرت على نفسها مشقة الكتابة ..
 وأبت الرد .

إنها لا تهديه إلا أملاً ، فهي رقيقة طيبة ... وهي تحبه .
 وهذا شر ما في الأمر .
 وأغمض عينيه فلم يفتحهما إلا في محطة مصر .
 وهبط من القطار ، وعبر فناء المحطة إلى الميدان الفسيح الخالي ، الذي خفت
 ضجته وسكنت حركته .
 ولفحته نسمة من نسيمات الليل الرطبة ، فبددت من عينيه بقايا نعاس ما
 زالت عالقة بهما من نومة القطار .
 وأحس بالنشاط يدب في مفاصله .. وقبل أن يبلغ محطة الأوتوبس .. برقت
 في خاطره فكرة زادت من انتعاشه .

إن الساعة لم تزل الثانية عشرة ، وصالة « كريمة » في أوج طربها ومجونها ،
 وأهل الدار في أوج غطيظهم ، وطرقاته في هذه الساعة لا شك ستفزعهم ،
 فماذا عليه لو ذهب لقضاء الليلة عند « كريمة » .. على أن يعود إلى الدار في
 الصباح المبكر ، فيعطى الرسالة لعل ، ويقضى بعض الوقت مع أبويه ثم يعود إلى
 الإسكندرية في قطار الضحا ، إنه بذلك يصيب عصفورين بحجر .. ولن يشعر

في قرارة نفسه بأنه أضاع السفر في حماقة نقل رسالة من بلهاء إلى أبله .. بل قضاها فيما يستحق ، من شرب وطرب .

وعندما استقر به العزم على هذا ، غيّر إتجاه سيره نحو شارع عماد الدين واستحث الخطا متجهاً إلى صالة « كريمة » .

كان الطريق خالياً ، والضجة المعتادة أمام باب الصالة قد سكنت و« البلطجية » قد أووا إلى الداخل ، ولم يبق في المدخل إلا جسد لإحدى جامعات الأعقاب قد تكور بجوار الحائط ملتفاً بخرقه البالية ، وقد أطبقت أصابعها على كوز من الصفيح حوى محصول اليوم .. وتناثر حولها خليط من قصاصات الإعلانات وقشر اللب .

دفع « حسين » الباب فلطمته هبة ساخنة فاسدة من خليط الأنفاس ، والدخان والعرق والكحول ، أحس من نفاذها إلى خياشيمه وحلولها محل هواء الطريق النقي ، بكثير من الاشمئزاز .. ولكنه مالبت حتى تعودها .. وأخذ يشق طريقه إلى الداخل بين الأجساد المترنحة ، الغارقة في ضجيج من الضحك والتصفيق والصراخ .

ولم يطل به البحث .. حتى عثر على « كريمة » .. وقد جلست على منصدة في أحد الأركان .. بجوار رجل بطين أصلع .. لا ينفك يندفع في الضحك بين لحظة وأخرى ، فيترنخ جسده ، ويهتز كرشه ، في ذبذبات سريعة كأنه « زنبرك » دائم الاهتزاز .

ولم تكد « كريمة » تلمح « حسين » حتى بدت عليها دهشة فرحة ، وتهللت أساريرها ثم لوححت له بيدها .

وأقبل عليها « حسين » مصافحاً .. فقامت بواجب التعريف بينه وبين جليساها :

— إسماعيل بك .. حسين بك .

ثم التفتت إلى حسين مرحبة :

— ٥٣٨ —

- أهلاً .. أهلاً .. ما هذه الزيارة المفاجئة ؟ ولماذا لم تأت مبكراً ؟
 — لقد حضرت الآن من الإسكندرية .
 — الآن فقط ؟
 — أجل .. وكان أول ما فعلت هو أن أتيت إليك .
 — فيك الخير .
 — لعلك تدرकिन معزتك عندي ؟!
 — وأنت .. ألا تعرف معزتك عندي ؟!
 وصفق إسماعيل بك منادياً الجرسون ، صائحاً بأعلى صوته :
 — واحد شمبانيا .. لحسين بك .. لمعزته عند « كيكي » .
 ثم صاح منشداً وهو يترنخ من فرط الشراب :
 — أنا أحبك .. وأحب أبو اللى يحبك .
 ثم التفت إلى المسرح ، واندفع مقهقهقاً مهتراً مترجراً .
 ورفعت « كريمة » الكأس إلى شفثيه ، وقالت متسائلة :
 — كيف حال أخيك على ؟! أما زال مصرأً على الترفع عنا ؟! ألم نصبح قدر
 مقامه .. بعد ؟
 — من قال إنه يترفع عنك ؟
 — إذاً لماذا لا يزورنا ؟!
 — لأنه لا يحب السهر .
 وعلق إسماعيل بك مقهقهقاً :
 — افتحى له .. ماتينيه .
 وأجاب حسين :
 — أنت تعرفين أنه ليس له في هذا المجال .. لقد حاولت مراراً أن أعوده عليه
 فلم أفلح .
 — أنا أستطيع أن أعوده عليه .

— مستحيل .

— لماذا ؟

— لأنه عاشق .. عشق قيس لليلي .

وازدردت « كريمة » بقية الكأس ، وهي تطلق ضحكة قصيرة ساخرة
وتقول متسائلة :

— ومن تكون ليلي ؟

— ككل ليلي مستعصية .. متعذرة .. بعيدة المنال .

وأقبل الساقى بزجاجة الشمبانيا .. وملاً الكئوس الثلاث .. ورفع إسماعيل
بك كأسه صائحاً :

— فى صحتك يا حسين بك .. فى صحتك يا كيكى .. فى صحة ليل
وقيس .. ومجانين العالم كلهم .

ورشفت « كريمة » رشقة ، ثم عادت تتسائل :

— لم تقل لى من هى ليلي على ؟

— دعينا منها .. لقد ضقت بها وبه .. إني جائع .. أعندكم شئ يؤكل ؟!

— إنتظر حتى نتعشى سوياً .

وقال إسماعيل بك متدخلًا :

— سأدعوكم للعشاء معي .

ولم يبد على « حسين » الترحيب بالدعوة ، ومال إلى « كريمة » هامساً :

— سأبيت الليلة عندك .. متى سينصرف صاحبنا ؟

وأجابت كريمة :

— لا تأبه له .. إنه لا يفعل أكثر من أن يوصلني بعربته إلى باب البيت .. لا

همّ له إلا فى الضحك والشراب .. إنه رجل طيب .

وكان الرجل طيباً لا مطلب له أكثر مما قالت كريمة .

وعندما حملها بعربته آخر الليل إلى دار « كريمة » فى شارع الساحة .. كانت

تبدو عليه — وقد اضطجع بجسده السمين البطين مخموراً على مقعد العربة —
أقصى آيات السعادة والرضاء .

وكان البيت أحد بيوت شارع الساحة الفسيحة العتيقة السميكة الجدران
الحديدية النواخذ .

وصعد حسين وكريمة متشابكى الأذرع ، قد تساند جسدهما المترنخان
وتأرجحا يميناً ويسرة على الدرج الحجري المتآكل بين الدرايزين الحديدى ،
المترب ، والجدار المشقق المرطوب .

وعندما وصلا إلى باب الشقة طرق « حسين » الباب بسبابته . ولكن
« كريمة » قالت ساخرة :

— اضرب بقبضة يدك .. فأتم « زنوبة » لا توقظها إلا طلقات المدافع .

— أليس معك مفتاح ؟

— كان معى .. ولكنى لا يمكن أن أتذكر الآن أين وضعته .

واستمر « حسين » فى الطرق ، حتى انبعث من وراء الباب صوت خافت ،
يتساءل :

— مَنْ ؟

وصاح « حسين » .. وقد استند بجسده المترنخ على ضلفة الباب :

— افتحى يا أم زنوبة .

وعاد الصوت يتساءل فى لهجته النائمة :

— من ؟

— افتحى .. الله يخرب بيتك .. وبيت بنتك زنوبة .

ورفعت كريمة سبابتها وقالت مهددة :

— لا .. إلا ابتها زنوبة .. أتعرف من تكون زنوبة هذه التى تريد أن تخرب

بيتها ؟

وهز حسين رأسه بالنفى ، فأجابته « كريمة » وهى تشير بسبابتها إلى

صدرها :

— هذه هي زنوبة .. أنا زنوبة بنت أم زنوبة .

— وكريمة ؟

— إنه الاسم الفني .

وفتحت « أم زنوبة » الباب في حذر ، وبدت على ضوء القاعة هيكلاً أشمط معصوب الرأس بمنديل أسود .

ودخلت « كريمة » يتبعها « حسين » قائلاً :

— متى سيتوب عليك ربنا من هذا البيت ؟

— قريباً جداً .. في أول الشهر .. سأنتقل إلى الشقة الجديدة في الدقي ، رغم أنه يعز عليّ أن أترك هذه الشقة .. لكن ماذا أفعل وهي لم تعد تليق براقصة مصر الأولى !

ثم وجهت القول إلى « أم زنوبة » متسائلة :

— أنام الخدم جميعاً ؟

— أجل أتريدين شيئاً ؟

— لا .. اذهبي أنت إلى فراشك .

وغابت العجوز في ممر جانبي .

وألقي « حسين » بجسده في إعياء على أقرب مقعد في القاعة ، ومدّد ساقيه ، و طرح رأسه إلى الخلف على حافة المقعد .

وقالت « كريمة » ضاحكة ، وهي تحاول أن توازن جسدها متكئة على حافة

المنضدة :

— مالك تجلس هكذا ؟

— إني أشعر كأن الشمبانزا قد نزلت إلى قدمي .

— لقد أفرطت في الشراب .

— وأنت ؟

— ٥٤٢ —

- ما زال فى جوفى فراغ لزجاجة أخرى .
— وأنا ما زال فيه فراغ لزججتين . أتراهنين ؟
— أراهن .
— هات الزجاجات .. ماذا عندك ؟
— عندى واحدة شمبانيا .
— فقط ؟
— وواحدة ويسكى .
— فقط ؟
— وواحدة زيب .
— لا بأس .. هاتها كلها .. وهات الرهان .
— قم أولاً إلى الحجرة واخلع ملابسك ، ولا تجلس هكذا كالقتيل .
ومدّت يدها إليه فتشبث بها ونهض ، فتعلق بعنقها وضمها إليه قائلاً فى لهجته المخمورة :
- أحبك يا كريمة .
وأجابته بنفس لهجته :
— وأنا أحبك .
— كثيراً ؟
— أجل .
— أنا أكثر .. أم « على » ؟
— على .
— معك حق .. وأنا أيضاً أحبه أكثر منك .. رغم أنه مغفل كبير .
واجتاز الاثنان باب الحجرة وهو متعلق بها .. ودفعها إلى الفراش متهاكاً فوقها ، فقالت وهى تحاول إزاحته :
- انتظر حتى أبدل ثيابى .

وهبت بالنهوض ، ولكنه دفعها برفق إلى الفراش قائلاً :
 — تبدلين ثيابك بيديك ؟! حاشا لله .. وأين أذهب أنا ! استلقى على
 راحتك ، ودعى المهمة لى .. إني أحب أن أرى الثياب تتساقط كأوراق
 الخريف .

ثم قرن القول بالفعل ، وبدأ ينزع عنها ثيابها قطعة قطعة ، حتى وصل إلى
 الصديرى ، فتعذر عليه فك أزراره .. فقالت وهى تنهض من الفراش :
 — عنك أنت .. دعى أتمم بقية المهمة ، وأبدل أنت ثيابك .

— أين الزجاجات ؟

— سأحضرها لك .

وضمهما الفراش بعد أن ملأ من الزجاجات كل فراغ جوفيهما .
 وبعد فترة استنفد فيها « حسين » كل ما تبقى فى جسده من جهد ، استلقى
 على الفراش فى استرخاء تام ، ومدت « كريمة » يدها فوق الكوموديو الصغير
 بجوار الفراش .. وأخذت تتحسس علبة سجائرها حول الأماجورة ،
 حتى أمسكت بها وفتحتها ، لتتناول سيجارة تجلب لعينها النعاس ، وتطرّد ذلك
 القلق والأرق الذى تسببه لها دائماً أعصابها المرهقة ، ولكنها وجدت العلبة
 فارغة .

والتفتت إلى « حسين » متسائلة :

— أين سجائرك ؟

وأجاب « حسين » وهو فى نصف إغفاءة :

— فى جيب الجاكطة .

ونفضت « كريمة » فى تناقل وترنح ، متجهة إلى المقعد الذى ألقيت عليه
 الجاكطة ، وتحسست الجيوب حتى وجدت العلبة فى إحداها فدفعت يدها فى
 فتحته وأخرجت العلبة ، ولكنها لم تخرجها وحدها . بل أخرجت مظروفاً كان
 ملاصقاً لها ، أطبقت عليه يدها مع العلبة .

وأمسكت « كريمة » بالمظروف الأزرق تقلبه بين أصابعها وقد اضطجعت في الفراش تنفث من شفيتها دخان السيجارة ، فيتصاعد في حلقات لا تكاد تتجاوز دائرة ضوء الأباجورة ، حتى تختفى في ظلمات الحجر .. وقربت المظروف من أنفها تشمه ، ثم قالت ساخرة :

— خطاب غرام .. من أين لك هذا يا أستاذ ؟

ولم يجب « حسين » .. فقد أفقده الإعياء والشرب والنوم قدرته على الفهم والنطق .. وعادت « كريمة » تسأل في صوت أعلى ، وهى نصف مخمورة ونصف واعية :

— ما هذه الرسالة ؟

وتمكن « حسين » من النطق ، فأجاب محاولاً إسكاتها :

— لست أدرى .. أطفئى النور ونامى .

— أأستطيع قراءتها ؟

— افعلى ما تشائين .. ولكن كفى عن الكلام .. ودعيني أنام .

وأسندت « كريمة » السيجارة على حافة الطقطوقة المجاورة للأباجورة ، وفضت الظرف ، وأخرجت الرسالة ، وبدأت في قراءة الأسطر الأولى على ضوء الأباجورة .

ولم يكن الدافع لها على فض الرسالة في أول الأمر .. سوى حب الاستطلاع ، ورغبة في تسليية تستجلب بها الكرى إلى إجفافها المسهدة ، ولكنها لم تكد تقرأ بضعة الأسطر الأولى ، حتى استغرقت في القراءة مأخوذة دهشى . وعندما انتهت من القراءة ألفت بالرسالة على الكومودينو بجوار الأباجورة .. وشرد ذهنها محدقة في فراغ السقف المظلم ، الذى لم تفلح دائرة ضوء الأباجورة في الوصول إليه .

إذاً فهذه قصة المجنون بليلاه .. كما تسردها رسالتها التى منحته بها مزيداً من أمل ! ..

وأى أمل ! أمل وهمى سرائى .. تعلقه به فى فراغ عريض من الحرمان
والياس .. وتحرمه به من كل متعات الحياة .
لَمَه ؟! ألأنها تحبه ؟

هى أيضاً تحبه .. لقد أحبته من اللقاء الأول .. من النظرة الأولى . هى المادية
الواقعية التى لا تعترف إلا بكل ما هو محسّ ملموس .. وكان ممكن أن يحبها ..
لولا أن الأخرى كانت أسبق منها إليه .. فشدهته بخطها الوهمى .. الذى تسميه
أَمْلاً .

كان ممكناً أن يحبها ، كما أحبته ، وأن يقبل منها كل ما هى على استعداد لمنحه
إياه ، من حب ومتعة ووفاء وإخلاص ، ولكنه أعرض عنها .. إعراض
المزدرى .. وأنكر إقبالها ، إنكار المترفع الأبنى .

وأعجب ما فى القلب .. أنه لا يتشبث إلا بكل معرض منكر .. فهو يأبى إلا
التشبث به على ندرة ما يراه .. وهى لم تتعوّد من قلبها أن يجدّ فى أمره إلا أمره
هو .. على فرط نأيه وإعراضه ويأسه منه .. حتى أصبحت تجد إحدى وسائل
التعزى أن تحبه فى أخيه .. وتمنح أخاه ما لم تستطع أن تمنحه إياه .. وتأخذ من
أخيه ما لم تستطع أن تأخذه منه .

وهى تعجب لفرط عناده وصلابته .

كل الناس يشتهونها .. ويتلهفون على ليلة معها .. إلا هو .. إنه يأبى حتى
مجرد اشتهاى بلا ثمن .. ورغبة بلا مقابل ، حتى ليلة واحدة ، يمكن أن يمنحها أى
رجل لأية امرأة قد أبأها عليها .. ورفض دعوتها على العشاء ، وتركها تلك الليلة
دون استئذان .. أو تحية وداع .. لقد فر منها .. فرار سليم من أجرب .. أو مدين
من دائن .. كأنما كانت ستسلبه بعض حبه .. أو ستختلس بعض مشاعره .
وماذا أجدها حبه ؟! وماذا أجدهته مشاعره ؟! سوى الضلالة والهيام فى بيداء
من اليأس والحرمان .

وهو بعد هذا يمد يده .. ويمدّ قلبه .. ليستجدى أملاً .

وفي ألفاظ ضائعة .. وأوراق زائلة .. بلا حرارة جسد ، ولا لهيب شفاه ،
ولا دفء صدر ، تمنحه ما تسميه مزيداً من أمل ، أو مزيداً من سراب .
وألقت بصرها على الرسالة بجوارها .. فإذا بحافتها قد لامست « عقب
السيجارة » الموضوع على حافة المنفضة .. وإذا بالنيران تطوى الورقة ..
وتسرى بين السطور بطيئة هادئة .. ولكنها آكلة مستشرية .
وهمت « كريمة » بأن تمد يدها لتتقذ ما تبقى من الرسالة ولكن يدها ظلت
مثاقلة على الفراش .
وبعد لحظة .. أتت النيران على بقية الرسالة .. أو على بقية الأمل .. ولم يبق
من هيكلها سوى رماد تذروه الرياح .
وتنفس « كريمة » الصعداء ، ومدت يدها فأطفأت الأباجورة ..
وأغمضت عينيها شاعرة بالكثير من الهدوء .

(٤٨)

انطلاق

استيقظ « حسين » ليجد الرسالة الخطيرة التى يعلق عليها أخوه مصيره ،
والتي تعجل من أجلها الرحيل إلى القاهرة في جوف الليل .. قد أضحت هشيما
أسود بارداً ، لا أمل فيه ولا رجاء منه .

ولم يكن هناك معنى للوم « كريمة » وهو أحق باللوم ، وتملكته الحيرة ..
كيف يواجه أخاه ؟ أينبئه صراحة بكل ما حدث ويسأله مهلة للحصول على ردّ
آخر ؟ .. وقد لا تساعد الظروف على الحصول عليه مما يشعل في نفسه نيران
القلق والشك .. أم يكتم عنه المسألة حتى يحصل على الردّ فعلا .. ثم يقصها عليه
نادرة مضحكة ؟

أم .. يقبل حكم القدر .. الذى أبى إلا أن يقطع هذا الخيط من الأمل .. وأن
يفرض القطيعة ، ويضيع الرجاء ؟!

ألم يكن يود هو نفسه ، لو أنه لم يحمل إليها الرسالة ، أو أنه مزق الرد وألقى به
من نافذة القطار !! ولكنه لم يجسر على ذلك ، رغم يقينه أن هذا هو خير ما يؤديه
لأخيه ، وأن الاستقرار في هوة اليأس خير من التأرجح في فراغ الأمل . وأن
لأحزان اليأس نهاية .. يعتاد الإنسان بعدها أحزانه ويكف عن الإحساس بها ..
أما هموم الشك فلا نهاية لها فهي حياة متجددة ، تتجدد في كل هزة شك ، بين
- الخيبة والرجاء .

إنه لم يقو على أن يمنح أخاء راحة اليأس .. ولكن القدر قد أبى إلا أن يمنحه
إياها .. لقد أبى إلا أن يدفعه إلى « كريمة » .. ولو أراد لدفعه إلى البيت .. وأبى
إلا أن تفتقد « كريمة » سيجارتها .. ولو أراد لأبقى لها في علبتها واحدة .. وأبى

إلا أن تسحب أصابعها الرسالة من جيبه مع علبة سجائره .. ولو أراد لأخرج العلبة وحدها وأفلت الرسالة .

وأنى القدر كذلك .. إلا أن تقذف الرسالة بجوار « العقب » ولو أراد لنحائها بعيداً ، وأسقطها على الأرض .

كل ذلك قد أباه القدر .. وأصرّ على أن يحرق الرسالة ، ويقطع خيط الأمل ، وأن يضع حداً لكل متاعب « على » وأحزانه وهمومه .. فلماذا لا يرضخ هو لحكم القدر ، ويشد رحاله عائداً إلى الإسكندرية .. وكأن الرسالة لم تكن .. وكأنه لم يسافر إلى القاهرة؟! أو كأنه قد سافر من أجل ليلة مع « كريمة » .. وهو على أية حال قد استمتع بالليلة وبكريمة ، ولقد كانت رغم حرقها الرسالة .. كريمة إلى أقصى حدود الكرم .

ثم .. ماذا يملك هو أن يفعل غير ذلك!؟

وهكذا أقنع « حسين » نفسه بالعودة إلى الإسكندرية في أول قطار ، ولم يكن أسهل عليه من إقناع نفسه بما يريد .. وإرضاء ضميره بما يشتهي .
ومرت بضعة أيام ، ثم وصلته رسالة قلقه من « على » يسأله فيها عما فعل ، فأجابه في اقتضاب بأنه بذل أقصى جهده حتى سلم إليها الرسالة ، وأنها أنبأته بأنه ليس لديها رد عليها ، وأنه يرى أن من الخير له أن يكف عن محاولة الاتصال بها أو التفكير فيها .

ووصل الرد إلى « على » في الثكنات .. حمله إليه جندي البريد ، وهو يوشك أن يغادر المكاتب بعد انتهاء العمل .. وميز بالظرف خط أخيه ، فاخطف الرسالة ، وعاد أدراجه إلى مكتب الأورطة ليخلو بنفسه لقراءتها .

ولم يكن يحس وهو يقرؤها بساقيه على الأرض .. ولا بشيء من الكائنات الموجودة حوله .. لا من جنود .. ولا من عربات .. ولا من جدران .. لا يحس شيئاً سوى أكداً من المارة ترسب في أعماقه .. وأثقال من الحزن واليأس تجثم عليه وتزهق أنفاسه .

أهذا هو نصيبه منها ، بعد كل ما منحها من حب وعبادة ؟
 ألم تجد في رسالته ، وفي مشاعره المتدفقة ما يستحق كلمة رد ؟!
 وعزت عليه نفسه التي أوردتها موارد الهوان والمذلة ، وهي العزيزة الأبية .
 عزت عليه نفسه أن يعرضها للسؤال .. فلا يكون نصيبها سوى إغراض
 المردى .

« اكتبى إلّى .. فأنا لا أقف ملك موقف الخاسب المستجوب .. ولكن
 موقف الراحى السائل .. الراجى عزاء .. السائل أملاً » .
 « اكتبى إلّى لتمحبنى أملاً .. إذا رأيتنى أستحقه .. أما إذا رأيتنى أحق باليأس
 فلا تحببى » .

ولقد رأته أحق باليأس فلم تجب !!
 لم تجب حتى بكلمة أسف أو اعتذار .. حتى لكأنها خشيت أن يمنحه أسفها
 نوعاً من الأمل .. لا يستحقه .
 وطافت بذهنه صورة أبيه .. طريداً ذليلاً .. متهماً بالجنون ، لمجرد تفكيره في
 طلب يدها .

لقد صدّته كما صدّ أبواها .. ومن يدري ، ربما اتهمته — عندما قرأت
 رسالته — بأنه مجنون حطر .
 لقد ضلّته وغرّرت به .. لوحت له بالأمل .. فلما مد يده ليأخذه لطمته
 بالصمت والإغراض .

لقد استجدها كلمة .. فأبتها عليه .
 ويح نفسه !! لشد ما هابت عليها وعليه .
 وأحس بخليط من المرارة واليأس والمذلة ، يغلى في أعماقه ، ويتفجر في ثورة
 عاصفة حاحجة ، وتملكه لأول مرة شعور بالكره والبغضاء .. لكل شيء .. لنفسه
 ولها .. ولأبيها وأبيه .. وأخيها وأخيه .. والعالم كله .
 وأطبقت أصابعه في عصبية محنقة على الرسالة فمقتها إرباً

واندفع من الحجرة .. يدق الأرض بقدميه متجهاً إلى الميس .
ولم يتناول الغداء ، بل ارتقى على أحد المقاعد في جمود وصمت .. وعندما
حل موعد « طابور » العصر .. ذهب إلى « الطابور » بذهنه الشارد ، ووجهه
المتجهم .. ولم يكذب ينهى « الطابور » حتى عاد إلى جلسته الصامتة في « الميس »
كأنه صنم أو تمثال .

ولقيه « سليمان » في جلسته تلك وهو يمر « بالميس » حيث كان يعمل
مساعداً لأركان حرب السوارى .. ولم يخف على سليمان ما ينم عن مظهره من
ضيق مكبوت ، وكان أعرف الناس به منذ أن كانا سوياً في المدرسة .

وربت سليمان كتفه وقال متسائلاً :

— ما بالك يا على ؟! أنوبتجى أنت اليوم ؟

وأجاب « على » في اقتضاب .. وقد ألقى برأسه على حافة المقعد :
— لا .

— إذن ما لك تجلس هكذا ؟! لماذا لم تبدل ملابسك ؟

— سأبدلها بعد هنيهة .

— ولماذا تبدو مغرماً في الحزن ؟! أحدث شيء ؟
— لا

— كيف حال أبيك ؟

— كما هو .

— ووالدتك ؟

— بخير .

— والمسألة الأخرى .. هل جدّ بها جديد ؟
— لا .

وقال سليمان في حدة :

— إذن ما بالك .. كأنك شيعت ميتاً ؟!

— مجرد صدا ع .
 — بل بك أكثر من صدا ع .
 وجذب « سليمان » مقعداً ، وجلس بجواره ، وقال متلطفاً :
 — قل لى ما الأمر ؟! ماذا حدث ؟! أما زلت تحزن نفسك بتلك السخافات
 القديمة .. ألم تئس منها بعد ؟
 وأطلق « على » زفرة حارة ، وقال فى ضحكة مريرة ساخرة :
 — الحمد لله .. لقد منحنا الله نعمة اليأس .
 — إذن ما بالك تجلس هكذا ؟
 — وماذا تريدنى أن أفعل ؟ أرقص ؟!
 وأجاب « سليمان » وهو يمسك بيده محاولاً أن ينهض به :
 — بل تنهض وتغير ملابسك ، وتخرج كبقية عباد الله . قم معى نذهب إلى
 السينما سوياً . إن فى سينما فؤاد رواية ...
 وجذب « على » يده .. وقال مقاطعاً :
 — أرجوك .. دعنى .. أنا مستريح هكذا .
 ودخل أحد الجنود فحيا سليمان قائلاً :
 — سعادة البية المدير موجود فوق فى الإدارة ، وهو يسأل عليك .
 وتركه « سليمان » وغادر « الميس » .. واستمر هو مغرقاً فى صمته
 وجموده .
 وزحفت من حوله الظلمة .. ومر به الضباط واحداً بعد واحد ، وقد أبدل
 كل منهم ملابسه .. وغادر « الميس » وملء نفسه المرح والأمل ، وهو فى
 موضعه يضحك ذهنه بالأفكار ، وتصطبغ نفسه بالانفعالات ، حتى أحس من
 فرط التفكير أن رأسه يوشك أن ينفجر ، وأن جدران « الميس » وسقفه باتت
 أشباحاً مخيفة ، توشك أن تنقض عليه .
 ونهض من مكانه فجأة .. كأنما يريد الهرب من نفسه ومن أفكاره .

ولم يكذب يجتاز الباب حتى بدا « سليمان » مقبلاً عليه قائلاً في حزم وإصرار :
— هيا بنا .

— إلى أين ؟

— تبدّل ملابسك ، وتذهب معي إلى السينما .

— دعني أرجوك .. إني في حاجة إلى الراحة .

— لن أتركك لهذا اليأس الميت ، والوحدة الموحشة القاتلة .. كفي انفراداً
بنفسك .. لست ادري ماذا يعجبك فيها ؟! هيا بنا .

وجذبه « سليمان » من يده إلى حجرتة .. وبعد لحظات كان الاثنان في
طريقهما إلى سينما فؤاد .

ومرت ساعات السينما و « علي » يحلق شاردًا دون أن تلتقط عيناه سوى
بضعة مناظر متلاحقة لا معنى لها ، وحمد للسينما ظلمتها التي منحتة ثلاث ساعات
أخرى من الصمت والتفكير .

وانتهت السينما .. وأكرهه سليمان على أن يتناول معه بضع قطع من
الشطائر .. ثم افرق الاثنان بعد أن ركب سليمان أو توبيس (٨) الذهاب إلى
شبرا اليعود به إلى البيت ، على أن يأخذ « علي » أو توبيس (١٠) الذهاب إلى مصر
الجديدة .

وأحس « علي » بالرغبة في السير ، وفي الانطلاق والفرار .. الانطلاق من
قبضة الأفكار القاتمة التي تمسك بخناقها ، والفرار من سجن اليأس الذي يكتم
أنفاسه .

وتذكر قول أخيه في إحدى ساعات يأسه قبيل تخرجه في الكلية عندما كان
يقبع حزناً يائساً بين جدران الكلية :

«دع الأمور تجري بأيسر من هذا .. لا تغلق نفسك في هذا القالب
الحديدي .. وتفرض عليها أحساساً معيناً تأبى الفكاك منه .. لا تشيد حياتك
على أمنية .. بغيرها تصبح في عداد العدم ، إنك تسجن نفسك يائساً حزناً

مهموماً لأنك حصرت كل تفكيرك في مخلوقة واحدة ، متعذرة المنال ، لا يمكن بحال أن تكون لك ، وبت تحس أن الحياة بغيرها قفر يباب .. حطم أسوار سجنك ، وانطلق خارجه تجدد الحياة ما زالت بخير ، وتجدها من النعم المتعددة ما يغنى كل منها عن الأخرى .. إذا استعصت هذه .. أغنت عنها تلك .. إن الحياة التي أظلمت من حولك .. ما زالت تضيء حول الناس .

أحقاً .. ما زالت الحياة تضيء ؟

وتطلع ببصره إلى الطريق .. فوجد أنواراً تتأجج ، ومصاييح تتألق ، وكان أول ما صادف عينيه .. لافقة كبيرة بالأنوار الكهربائية كتب عليها « صالة كريمة » .

واندفعت إلى ذهنه صورتان : صورة السمرات الراجية يوجهها الأسمر ، الخالي من الأصباغ .. وشعرها الأسود المعقوص على قمة رأسها .. وجسدها النحيل الرقيق ، وعينها المتوسلتين الراجيتين .. وثيابها البسيطة التي جعلتها تبدو في صالة الرقص ، كأنها ناسك بين فجار .. وعابد بين كفار .
وتبعتها صورة أخرى .. لنفس المخلوقة .. وقد بات الوجه أكثر فتنة .. والجلسد أشد إغراء .. وإن كانت النظرة قد بقيت كما هي .. متوسلة راجية لهفى .

وتذكر شوقها وصده ، وحنينها وإعراضه ، ودعوتها وفراره .
وأحس ، وهو يقرأ اسمها يتلأأ في اللافتة كأنها دعوة جديدة .. وكأنه يبصر في الأنوار عينها المتوسلتين الراجيتين .. وتملكه إحساس ببعض الراحة .. وبداله أن صاحبه الداعية الراجية .. قد تحمل إليه الكثير من العزاء .. أو تبدد عنه ظلمات اليأس المحيطة به .. وتوهن ضجيج الأفكار التي تعصف بذهنه .
وفي شيء من التردد .. وجد قدميه تسوقانه إلى الباب المتلألئ الصاخب .. وبعد لحظة كان يجلس في ركن ناء من أركان الصالة يحلق في صمت ووجوم .
ولم يستطع ذهنه الشارد أن يعي شيئاً مما أخذت تلقية « المونولوجست » التي أخذت تتوثب ، وتهتز ، مطلقة من شفيتها سيلاً من الألفاظ المنغمة السريعة

المتلاحقة ، وأحس بضجيج الصالة يزيد أفكاره عصفاً .. وجوّها الخائق يزيد
سجنه إطباقاً وضيقاً .. ووجد نفسه ، على حدّ قول الشاعر : « كالمستجير من
الرمضاء بالنار » .

وأخذ يرقب خليط الأجساد البشرية الضاحجة الصاخبة ، الضاحكة
الماجنة .. وبدأ له كأن بهم عتياً أو جُنّة ، وتلفت حوله كالأسير يتلمس سبل
النجاة .

وفجأة وقعت عيناه على عينيّن سوداوين واسعتين ، ترقبانه في ذهول ودهشة
وتساؤل .. وقد بدت صاحبتهما كالأخوذة المشدوّهة .

واندفعت « كريمة » تجاهه .. لاهثة الأنفاس ، مكروبة الصدر ، كأنما لا
تصدق عينها ، أو كأنما تود أن تطبق بكليتها عليه قبل أن يفلت منها ثانية .

ووقفت أمامها تحاول أن تتمالك أنفاسها كأنها طفلة مذنبه أمام مرييتها القاسية ،
وقد فقدت كل سيطرة على نفسها ، وأضاعته كل قدرتها ومهارتها كغانية مخنكة
مجرّبة ، تعرف كيف تعامل الرجال .. وتساءلت في صوت هامس ، كعذارى
المدارس .. وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط :

— « على » ؟! غير معقول ! إني لا أصدق !

ونفض « على » قائلاً وهو يمدّ إليها يده ، وقد أصابه الكثير من الارتباك :

— أهلاً « كريمة » .. مساء الخير .

— مساء الخير .. اتفضل .. تعال هناك في البنوار .

ودون أن تدع كفه تفلت من كفها جذبته نحو البنوار .. وأردفت متسائلة :

— أين « حسين » ؟

— حسين ؟! إنه لم يأت .

وتوقفت كريمة فاغرة فاها .. وتساءلت في دهشة :

— لم يأت ؟! أعني أنك أتيت وحدك ؟

واندفعت إلى ذهنها صورة الرسالة المحترقة .. وخيل إليها أن « حسين » قد

أنبأه بما فعلت ، وأنه أتى لمناقشتها الحساب وهمت أن تعتذر مستغفرة عندما أجابها
قائلاً :

— أجل .. لقد أتيت وحدى .. أغريب هذا ؟

وأجابته في صوت خافت :

— أعتقد أنه غريب منك ، لأنك لم تتعود الحضور إلا برفقة « حسين » .

— لقد أحسست الليلة بالضيق واليأس ، وتذكرتك وأنا أمر بيباك ، وخيل

إلى قد تستطيعين إزالته .. فلجأت إليك .. فلعل لا أضايقك ؟

— أبداً .. أبداً .. إني سعيدة جداً .. جداً .

وهكذا بدد بقوله مخاوفها .. ولم تجد مبرراً لفضح نفسها بالاعتذار ، وبدأ لها

أن القدر قد أتاح لها فرصة ، طالما تآقت إليها .

لقد شعر باليأس والضيق .. وهى أدركت الناس بسبب ضيقة ويأسه . بل لقد

كانت تتمناه وتتوقعه .. وهى تترك ألسنة النيران تأتى على الرسالة ، وتقضى معها

على خيط الأمل الذى كان يتعلق به .. وكانت تحس الراحة وهى تقطع ما بينه

وبين الأخرى دون أن يخطر لها ببال أن القدر سيكون سخيماً معها إلى هذا الحد ..

فيلقى به إليها .. دون بقية خلق الله .. لتمسح ضيقه وتزيل يأسه .

وأحسست « كريمة » بنشوة غامرة .. وهى تراه يذكرها ويشعر بها .. ويلجأ

إليها لتزيل أحزانه .

لقد أحبته حباً يائساً .. وكان أقصى ما تطمح إليه هو أن يمنحها الفرصة لكى

تبه كل ما تملك .. من حب ، ومتعة ، ووفاء ، وإخلاص ، وكل شيء ..

ولكنه كان دائماً يعرض عنها وينكرها .

والليلة وقد أقبل عليها .. أو كما يقول : لجأ إليها ، مانحاً إياها الفرصة التى

كانت تتوق إليها .. وتأمل فيها .. فعليها ألا تتركها تفلت من يدها .. إنها فرصتها

الأولى والأخيرة .

وجلست « كريمة » بجواره فى البنوار .. وأحس هو بالكثير من الحياء

والحرج والضيق .. وخيل إليه أن الأنظار قد باتت تتطلع إليه أكثر مما تتطلع إلى المسرح .

ولم يصعب على « كريمة » أن تدرك مدى حرجه .. ولم تجد معنى لخلوسهما هكذا في البنوار أمام الناس .. وهو لا يستمتع بمشاهدة ولا شراب ، بل يحيط نفسه بنحو من الوجل والتكلف والتزمت ، الذى يزيد فى ضيقه .

وهمست « كريمة » وهى ترفقه فى شوق :

— أنا أعرف أنك تضيق بهذه الجلسة .. ولن أطيلها عليك .. سأتركك الآن لأنهى دورى ، ثم نرحل بعد ذلك للعشاء سوياً فى البيت .. أظنك لن ترفض دعوتى هذه المرة ؟! ما رأيك ؟

ونظر « على » إلى عينيها المتوسلتين وهز رأسه قائلاً :

— متشكر .

— متشكر .. أجل ؟ أم متشكر لا ؟!

— متشكر .. أجل .

وغادرت « كريمة » البنوار لتؤدى دورها فى الرقص ، وجلس « على » يرقبها بذهى شارد ، وكأنما رآه ما فعله ، وما يبرشك أن يقدم عليه ، ولا يكاد يلم به طيف « أنحى » حتى يبعده فى عداد وإصرار وتورة وحق .. إذا كانت قد أبت عليه مجرد كلمة عزاء ، تجمل بها اليأس وتهون القطيعة .. فليكن يأسه قاطعاً ، وقطيعة بائنة لا رجعة فيها ، وليكن وأدها أبدياً ، لا بعث فيه ، ولا صحوة مه .

وهذا التفكير .. قطع على نفسه كل سبيل للندم أو التراجع .. ولم تكدر تسل إليه « كريمة » حتى نهض إليها .. واتبع الجرسون فى طريقه إلى حجرتها رافعاً رأسه ، مبرزاً صدره فى مشيته العسكرية غير متلفت يمة ولا يسرة ، كأنه فى طاوور عرض .

وقبل أن تغادر « كريمة » الصالة من الباب الخلفى ، همست فى أذن

الجرسون :

— إذا سألت عني أحد فقل إنى متعبة ، وأريد أن أستريح .
وأوصلهما « التاكسى » إلى البيت ، وقد أغرق كل منهما فى أفكاره .. فلم يتبادلا فى الطريق سوى بضع كلمات عابرة .

ووصلا إلى البيت ، وصعدا الدرج ، وفتح باب الشقة ، وتبادلت « كريمة » بضع كلمات مع الخادمة .. اختفت الخادمة على أثرها .. وأخيراً ضمتهما الغرفة وحيدتين لا ثالث لهما .

كانت المغامرة الأولى لعلى .. وكان يحس بمشاعر متضاربة متنافرة ، سرعان ما تركزت فى اضطراب لذيذ ونشوة خفية بعثت الحرارة فى جسده وجرفت أمامها كل مشاعر الندم والضيق ، والحزن واليأس ، والتردد والقلق .. إلى آخر هذا الخليط الذى كان يرزح تحته .

لقد تبدد كل ما بنفسه فى تلك اللحظة .. عدا إحساس جنسى فائر .. وهو يشعر بخلوته مع أنثى ، ويفكر فيما هو مقدم على فعله معها .. ولم يكن يعرف كيف يبدأ ولا ماذا يقول .. ووقف يتشاغل بالنظر إلى لوحة معلقة فى الحائط وهو مغرق فى اضطرابه اللذيذ وقلقه الممتع .. وبفسه خشية من أن تدفعه قلة التجربة والاضطراب إلى أن يقصر فى أداء واجبه كرجل .

وأحس فى وقفته المضطربة بعطرها يقترب منه .. ثم بصدرها يلامس ظهره ، وبذراعيها العاريتين تحيطان بصدره وتضمانه برفق .. واستدار إليها فإذا بها تقف عارية إلا من قميص شفاف ، لا يكاد يخفى شيئاً من تفاصيلها ، وتساعد الدم إلى وجهه ، وبلا وعى ولا إرادة ضمها إليه بعنف .. ودفعه الانفعال انشديد إلى أن ينتهى من واجبه فى لحظات خاطفة .

وهست وهى ترقد بجواره وتضغط شفثيه بشفتيها بعنف :
— كنت أريدك دائماً .. إنى لا أصدق أنى بت أملكك ، وأنك بون أحضانى .

واستسلم « على » للهفتها الجارفة وشوقها الشديد .. وقد تملكه شىء من

الضيق لعجلته وإحساسه بالتقصير في إرضاء أنوثتها .. رغم مظاهر الرضاء المفرطة ، التي أحاطت بها وأبدتها له .

ونهض الاثنان لتناول العشاء وأفلحت بمرحها وخفتها ومهارتها في ازالة جو التوتر والخشية ، والقلق الذي كان يرهف أعصابه .. وعندما انتهى العشاء ، وجلسا سوياً في الشرفة ، كان يحس بالراحة وزوال الكلفة .. وعندما احتواهما الفراش مرة أخرى وضم جسدها للذن جسده .. كان يملؤه شعور بالألفة والهدوء والطمأنينة كأنه يرقد في فراشه .. وفي آخر الليلة كان يرقد قريباً راضياً ، وقد أفعم نفسه الشعور بالثقة والسعادة ، والسيطرة .. بعد أن أشبع الجسد المسترخى بجواره إشباعاً كاملاً .. وأرضاه إرضاء تاماً .

(٤٩)

وعيد ..

عادت « أنجي » إلى البيت .. بعد أن سلمت الرد إلى حسين ، وجلست على الفراش تعيد قراءة رسالة « على » وقد وضعتها بين صفحات كتاب كانت تقرأ فيه .. وحاولت أن تستعيد ردّها إلى ذهنها . وتخيّل كيف سيكون وقعه عليه .. وتسائل نفسها : أأصاب بهذا الردّ . أم أخطأت ؟ أكان خيراً لها أن تقطع خيط الأمل .. أم تمّد في حباله ؟ لماذا اندفعت في الردّ .. متناسية كل ما يمكن أن يترتب على ردّها من عواقب ، متجاهلة تهديد أخيها وأبيها لحياتها ومستقبله ؟ وهل سيقنع « على » بهذه البارقة من الأمل ، ويكتفى بما أسمته صلة روحية دائمة ، تسمو على كل السدود والعقبات ، أم سيدفعه الأمل إلى مغامرة جديدة قد تودى به وبها ؟! إن بنفسها شوقاً إليه ولهفة على رؤياه ، وبودها ألا يقنع بما عرضته من صلة روحية وهمية ، وهى تسائل نفسها : أيجد أخوها وأبوها في تهديدها حقاً ؟! أيمكن لعلاء أن يهدد حياته حقاً .. أو أن يقدم أبوها على القضاء على مستقبله ؟!

ولم لا ؟!

إن مدى خبرتها بأخلاقهما .. وما يضمّرانه في قلوبهما من حقد وصلابة وعناد ، يجعلها لا تستبعد منهما أى شر .

ولكن ما النهاية إذن ؟ ما آخرة كل هذا ؟ لماذا وهنت عزيمتها ونفدت صبرها ، فلم تستمر في قطيعتها لتضع النهاية بما فرضت على نفسها وعليه من يأس وقنوط ؟

لماذا مدّت في حبال الأمل ، بعد أن أوشكت على التقطع ؟!

لماذا ؟! لماذا ؟!

واستمرت الأفكار تدافع في ذهنها مختلطة متشابكة ، حتى تسلل النعاس إلى

جفنيها ، فأغلقت الكتاب على الرسالة ووضعته على « الكومودينو » بجوار الفراش .. وأطفأت الأباجورة واستغرقت في النوم .

واستيقظت في الصباح فغادرت فراشها إلى الحمام ، وفي تلك الآونة كان « علاء » يبحث عن صحف الصباح ، ودخل حجرتها عله يجدها هناك ، ووقف يقلب البصر في الحجرة باحثاً هنا وهناك .. وقبل أن يغادر الحجرة استرعى التفاته عنوان الكتاب الموضوع بجوار الفراش وكان قصة إنجليزية فأمسك به يقلب صفحاته ، وأخذت عيناه تمران بالصفحات المتتالية مروراً عابراً .. حتى توقف فجأة أمام الرسالة .

ولم تثر الورقة اهتمامه في أول الأمر وهمم بإغلاق الكتاب عليها .. لولا أن قفز بصره إلى نهايتها فقرأ إمضاء « على » .

وأحس من الإمضاء لسع الجمر .. وتصاعدت دماء الغضب إلى رأسه ، وجذب الرسالة من بين الصفحات .. وأغلق الكتاب وأعاد مكانه ، ثم غادر الحجرة .

وعادت « أنجي » إلى الحجرة .. وعندما انتهت من إبدال ثيابها وهمت بالنزول لتناول الإفطار ، سمعت صوت أبيها يناديها من حجرتها .

وذهبت إليه .. وقد خلا ذهنها مما حدث .. أو مما يوشك أن يحدث ، وأدهشها تجهمه البادى ووقفة أخيها بجواره في تحد وتحفز .. ولكنها لم تكذب تلقى نظرة على ما في يده حتى وضع الأمر كله .

ولم تنبس ببنت شفة ، ووقفت تنتظر هبوب العاصفة .

ومد أبوها يده بالرسالة ، وتساءل وهو يزأر :

— ما هذه ؟

ونظرت « أنجي » إلى أخيها في غيظ مكبوت ، وقالت وهي تغالب دمعها :

— كيف يبيع لنفسه أن يدخل حجرتي ويعبث بكتبي ؟

وقاطعها أبوها في عنف صائحاً :

— يبيح أو لا يبيح .. ليس هذا موضوع مناقشة الآن .. المهم هو كيف أبحت أنت لنفسك استمرار هذه الصلة ، بعد أن حرّمتها عليك ؟! وأطرقت « أنجي » ، وأردف يقول متوعداً :
— ولكن الذنب ذنبى .. والغلطة غلطتى .. كان يجب أن أردعه ردعاً شديداً .. حتى لا يستمر في غيه هذا .

ثم نهض من مكانه .. بحركة عصبية .. وأخذ يسير في الحجرة جيئة وذهاباً ، وهو يقول كأنما يحدث نفسه :

— هؤلاء الناس .. لاشك في أنهم قد جنوا .. الأب يتقدم لخطبتك .. والابن يكتب إليك رسائل غرام .. كأنما نسي أنه ابن جنائيسى ، وكأن « الدبورة » التي قد وضعها على كتفيه قد محت ضعة أصله ، وأزالت غضاضته ، ولكنك أنت المسئولة عن ذلك .. أنت التي شجعت على هذا التناول ، ولكن سأعرف كيف أوقفه عند حده .. سأعرف كيف « أخرج بيته » وأضيع مستقبله .

وصمت لحظة ثم صاح بها متنهراً :

— اذهبي .. لا تريني وجهك .

ولكن « أنجي » لم تذهب ، واستمرت في وقفها مطأطئة الرأس ، وقد عضت بأسنانها على شفتها السفلى حتى كادت تدميها .. وانحدر الدمع صامتاً على وجنتيها .. وقالت في لهجة متوسلة :

— إنها غلطتى أنا فعلاً .. أنا التي شجعت ، وأعدك من الآن أنى سأقطع كل صلة بيننا ، وكل ما أرجو ألا تسيء إليه ، وألا تمس مستقبله .
وقال « علاء » ساخراً .

— أيهمك مستقبله إلى هذا الحد ؟

وصاح الأب نائراً :

— ألم تعدى بهذا من قبل ؟

— أقسم لك بكل الأيمان و ...

وقاطعها « علاء » قائلاً :

— لا تصدّقها .

ونظر إليها الأب وقال ساخطاً :

— اذهبي الآن من أمامي . وسأعرف كيف أقطع ما بينكما .

وبعد بضعة أيام دق جرس التليفون في مكتب قائد السوارى ، وجرت مكالمة قصيرة وضع القائد بعدها السماعه ، تم دق جرساً على مكتبه ، وبعد لحظة دخل سليمان مساعد الأركان حرب ، ووقف أمامه محيياً وتساءل القائد :

— أين الأركان حرب ؟

— لقد ذهب إلى قسم القاهرة .

— أجل .. تذكرت .

وصمت برهة ثم أردف متسائلاً :

— ماذا تعرف عن علي عبد الواحد ؟

ودهش سليمان من السؤال المفاجئ ، وأجاب بلا تفكير :

— إنه من أكفأ الضباط .

— أنا أعلم أنه ضابط ممتاز في عمله ، ولكن خصوصياته . ماذا تعرف عنها ؟

وداخل سليمان الخوف من هذا السؤال .. وتوجس منه شراً .. وتذكر حالة

« على » في الأيام الأخيرة .. والتغير العجيب الطارىء على سلوكه ، وإفراطه في

السهر ، واندفاعه في طريق لم يكن يخطر ببال أحد أن يندفع فيه .. والشائعات

التي سمعها عن علاقته بالراقصة « كريمة » .

ومع ذلك فقد طوى سليمان ظنونه في ذهنه ، وردّ على سؤال القائد بقوله

مؤكدّاً :

— إنه ممتاز في كل شيء .. في عمله وفي خلقه .. وحياته الخاصة لا تشوبها

شائبة .

وهزّ القائد رأسه في دهشة وحيرة وقال متسائلاً :

— ما السبب إذن ؟

— السبب في ماذا يا افندم ؟

— في نقله المفاجيء بهذه الطريقة العجيبة ؟ لقد حدثنى كاتم أسرار .. وقال .. إلى إن المطلوب إبعاد الملازم أول « على عبد الواحد » عن القاهرة .. وأنه لذلك قد تقرر نقله إلى الحدود .. وعليه أن يقدم نفسه إلى رئاسة الحدود حالا ، وقال إنه سيؤيد حديثه بجواب لحين ظهور النقل في النشرة العسكرية .

وبدت الدهشة والوجوم على سليمان وتساءل متمتا :

— ولكنه لم يفعل ما يوجب هذا ؟! .. وهو من أكفأ ضباط السوارى .

— لقد قلت هذا .. فقل لي إنها أوامر عليا .. لا وجه للمناقشة فيها ..

ولا يسعنا غير تنفيذها .. فعليك أن تستدعيه لتلقى هذه الأوامر .

وقبل أن يغادر سليمان الحجرة .. دخل الصاغ « أحمد فهمى » أركان حرب السوارى .. وقبل أن يحدث القائد بما فعل في قسم القاهرة .. أعاد إليه القائد الأوامر الخاصة بنقل « على » .. فبهت الصاغ ، وقال محتجاً :

— ولكن هذا اعتداء على سلطة قائد السوارى ؟! لا يمكن أن يرغمونا على نقل ضباطنا .. إذا كانوا يريدون ضباطاً للحدود فليكتبوا إلينا ، ونحن ننتقى لهم من نستطيع الاستغناء عنه .. إن هذا الضابط حاصل على فرقة مدفع ٢ رطل .. وعلى فرقة دبابات كروزر .. ولا يمكن الاستغناء عنه .

وقال القائد مهذئاً :

— صبرك يا فهمى ، ليست المسألة مجرد حاجة الحدود إلى ضابط .. إن المطلوب هو إبعاد هذا الضابط بالذات عن القاهرة .

— ولماذا ؟! .. لينبعثوا على الأقل عن السبب !! إذا كان قد أخطأ فلنجازره . وبدأ القائد يضيق وقال محتدأ :

— يجب تنفيذ الأمر يا فهمى .. هذه أوامر عليا .

وأطرق الصاغ .. وقد بدا على وجهه الضيق .. وساد الصمت برهة ..

وما لبث أن قطعه سليمان بقوله :

— إذا كان المطلوب هو مجرد إبعاده عن القاهرة .. فإن ذلك متيسر دون حاجة إلى نقله من السلاح .. فقد سق أن طلب منا إرسال ضابط ليتولى قيادة الدبابات التي سيرسلها الجيش الإنجليزي ، لتعزيز حامية سيوة .. ونستطيع أن نضرب عصفورين بحجر ، فنرسل « على » إلى هناك .. فننفذ أوامر نقله مع احتفاظ السلاح به .. ونكون قد حللنا مشكلة الضابط المطلوب إرساله .. وأعتقد أن « على » خير من يصلح لهذه المهمة .

وبدا الارتياح والهدوء على وجه الصاغ ، وأردف مؤيداً :

— هذه فكرة طيبة جداً .. ونحن نستطيع أن نعيده بعد ذلك بمجرد أن تخف حدة المسألة .. فحرام أن يفقد السلاح مثل هذا الضابط .

وبدا التفكير على وجه القائد ، وأردف فهمي متسائلاً :

— ما رأى سعادتك ؟

— فكرة وجيدة .. انتظر لحظة .. حتى أعرضها على كاتم الأسرار .. فلعلها ترضيه ويستغنى بها عن نقله من السلاح .

ورفع السماعة وأدار قرص التليفون ، وبعد مكالمة قصيرة وضع السماعة .. وقال وقد علت وجهه علامات الرضاء :

— لقد وافق .. على أن يظل في « سيوة » حتى تصدر أوامر أخرى .

وغادر « سليمان » مكتب القائد وهو في دهشة من هذا النقل الإجباري .. ولقد ظن في بادئ الأمر أن سلوك « على » في الأيام الأخيرة هو السبب في نقله .. ولكنه رجع — بعد أن عرف أنه مفروض بأوامر عليا — أن يكون بإيحاء من الأمير إسماعيل .. لأنه لا يمكن أن تكون هناك جهات عليا يهملها إبعاد « على » سواه .. ولأن مسألة سلوكه أيضاً لا يمكن أن تهم أى جهة من الجهات العليا .

ولقد رحب « سليمان » في نفسه بالحل الذي استطاع الوصول إليه .. بل لقد وجد فيه خير منقذ « لعل » من ذلك الطريق الشائك الذي يوشك أن يندفع

فيه .. والذى لم تكن تجدى لإنقاذه منه نصائح ولا عظات .. ولا سيما أنه وجد فيه عزاء عن الصدمة التى يبدو أنه تلقاها من الناحية الأخرى .. التى ركز فيها كل أمله .

وأبلغه الأمر .. ليس على أنه أمر بإبعاده عن القاهرة .. بل على أنه ثقة فى قدرته على قيادة هذه الدبابات .. وكان هذا هو ما يعتقد « سليمان » فعلاً فى قرارة نفسه .

ودهش « على » من القرار فى مبدأ الأمر ، ولكنه ما لبث بعد أن قلبه على وجوهه أن أحس منه براحة كبرى .. وبدا له كأنه منحة من السماء وهبتها له ليغير بها ذلك الوضع الذى فرضته عليه الظروف ، ووجد نفسه ينزلق إليه دون أن يحس .

كان يعرف أن المغامرة التى اندفع إليها فى ساعة يأس وقنوط قد سدت له إلى « كريمة » بوثاق يشدد يوماً بعد يوم ، ودفعته بالتدرج إلى وضع كان يعتقد أنه مبرراً عنه ، منزله عن الاندفاع فيه .

ولم يكن يضيق بما يفعل ، بقدر ما يضيق بالتفكير فيه ، وفى عواقبه ، وفيما يمكن أن يتمخض عنه أو يؤدى إليه ، وكان من العسير أن ينهيه بمحض إرادته .. فليس أصعب علينا من التخلص من مسببات المتع ، لمجرد الخوف من عواقبها المستورة فى علم الغيب .. وكان يشده إلى « كريمة » حبها المفرط ، وخضوعها التام .. وقدرتها على إشباع غريزة الرجل فيه إشباعاً عجيباً ناتجاً عن مهارتها كامرأة مجربة ، واندفاعها وحساسيتها كامرأة عاشقة .. حتى أضحي لا يصد رغباتها فيه — إذا ما ثارت فى نفسه — مقاومة من إرادة ، ولا مانع من خشية أو تفكير .

ومن وراء كل هذا .. كان يلزم به طيف « أنجي » من بعيد وهو يصده .. صد الغاضب المشوق .. اليأس المتمنى ، والطيف يهتف به فى عتاب همس حزين « إذا كانت قد صدتك .. فما ذنب طيفها تصده .. طيفها الذى لم يفارقك فى أشد

أوقاتك يأساً . ما بالك تبعده ، وهو مؤنس وحشتك ، ومبدد ظلمتك ؟! ألم تقل لها في رسالتك : « أجيبى أو لا تجيبى فإن حبك باق ؟! ألم تندها في قلبك ؟! لماذا تأبى الوأد عليها ، وترك قلبك فراغاً صافصفاً ؟ » .

ولكنه لا يلبث أن يتفض ثائراً .. وكأنه يأبى على نفسه مجرد التفكير فيها . وهكذا رَّحِب « على » بالسفر كفرصة للفرار .. الفرار من كل شيء . من اليأس والزلل .. والوحشة الروحية .. والعصيان الجسدى .. والحيرة والمقاومة .. والضيق والقلق ، والخوف والرهبه . لقد بدا له في السفر منجاة من كل هذا .. وكأنه سيلقى بكل أحماله .. ويهرب نظيفاً مجرداً .

ووصل إلى سيوة .. وقد ألقى فعلاً بكل أحماله وأثقاله .. عدا شيئين : صندوق صغير كان يضع به آثاراً عزيزة .. لم يجسر أن يفتحه ، ولم يقدر أن يتركه ، وطيف يلم به من بعيد معاتباً في همس .. وهو يصده صدّ المشوق ، ويدفعه مدافعة المتمنى .

وبدأ « على » مهمته في سيوة .. مهمة شاقة استغرقت منه كل جهده ووقته .. فقد كان عليه أن يتسلم بعض دبابات متوسطة من الجيش الإنجليزي .. ليتولى بواسطتها الدفاع عن سيوة .. بعد أن ثبت وجود دبابات إيطالية في جغبوب ، تهدد قوات سيوة التي لا يحتلها سوى آلاى مصرى من الحدود ، لا يملك سوى عربات خفيفة ، لا يمكن أن تقاوم الدبابات الإيطالية .

ولم تكن الدبابات الخفيفة التي تكوّن منها آلاى الدبابات الخفيفة المصرى ، الذى أنشئ في السوارى بالشئ الذى يمكن الاعتماد عليه في قتال .. لقدمها وضآلتها .. ولذلك لم يجد الإنجليز بداً من وضع بضع دبابات متوسطة تصلح لمقاومة الدبابات الإيطالية ، تحت تصرف الجيش المصرى .. ليقوم بواجب الدفاع عن سيوة .. حيث كانت القوات البريطانية المرابطة على الحدود الغربية في

ذلك الحين أوهى من أن تمتد يدها إلى الحدود بدفاع .

وكان على « على » أن يتسلم الدبابات خالية من السائقين والمدفعجية ، وأن يدرّب عدداً من الجنود المتتخين من الحدود على استعمال الدبابات والمدافع ، بواسطة بعض ضباط الصف الإنجليز الذين أحضروا الدبابات . وكان عليه أن يتم التدريب في بضعة أيام .. إذ كان الموقف يزداد حرجاً . فقد كانت فرنسا موشكة على الانهيار .. وكان انهيارها يهدد حدود مصر الغربية بطريق غير مباشر ، إذ كانت قواتها القوية الموجودة في شمال أفريقيا تهدد حدود طرابلس من جهة الغرب ، مما يضطر إيطاليا إلى توزيع قواتها المربطة في شمال إفريقيا بين الغرب والشرق .. ومما يخفف ضغط قواتها على حدود مصر الغربية .

وأتى « على » تدريب جنوده ، وأضحت دباباته قادرة على القتال ، وأحسن الكثير من الراحة والاستقرار .

ولكن راحته لم تطل .. فقد انهارت فرنسا بعد بضعة أيام ، وقلب انهيارها الموقف رأساً على عقب .. فقد أخرج إيطاليا من موقفها المتردد كدولة غير محاربة تميل لألمانيا ، ودفعها إلى إعلان الحرب على الحلفاء في ١٠ يونية ١٩٤٠ .. ووقف موسوليني على مدفعه يزار بالجنود الإيطاليين :

« أيها الجنود المكبلون .. انطلقوا » .

وطلب بيتان (رئيس الجمهورية الفرنسية) الهدنة في ١٧ يونية .. ومع ذلك لم تكن الحالة على حدود مصر تبعث المدافعين على الجزع ، فقد كانت القيادة الإنجليزية في الشرق الأوسط تعتمد على استمرار مقاومة المستعمرات الفرنسية ، وبذلك يمكن استمرار تهديد الإيطاليين في غرب طرابلس وحجزهم بذلك عن تهديد مصر .. ولكن سرعان ما سلم الفرنسيون في كل مستعمراتهم .. « ميتلهوز » في سوريا و « نوجيس » في شمال أفريقيا .. وبذلك أمن الإيطاليون ظهورهم في طرابلس .. بعد أن زال كل تهديد لهم من الفرنسيين الموجودين في

تونس .. وأضحى الطريق إلى مصر أمامهم سهلاً معبداً .. لا تقف في طريقه إلا قوات ضعيلة واهنة ، بعد أن استنفد انسحاب البريطانيين من « دنكرك » كل ما لدى إنجلترا من معدات وعتاد ، وبات وصول الإمدادات ، للشرق الأوسط متعذراً ، بعد أن أصبحت الملاحة في البحر الأبيض غير مأمونة .. لوجود إيطاليا المعادية ، وتحول الطريق إلى رأس الرجاء الصالح .

وزاد من ضعف القوات المدافعة .. اضطراب الجنرال « ويفل » بعد ذلك إلى إرسال جزء من قواته لمساعدة اليونان في قتالها مع إيطاليا .

وهكذا استقر « على » في سيوة ببضع دبابات خلفها له الإنجليز ، ليصد هجوم الإيطاليين على الحدود المصرية بعد أن أمنت ظهورهم ، ووهى خط المدافعين أمامهم .

وفي اليوم التالي لإعلان إيطاليا الحرب .. استدعاه الضابطان الإنجليزيان اللذان كانا يشرفان على سلاح الحدود وهما « باذر » و « هاتون » .. وكانا يعملان ضابطين عاملين في الحدود ، ثم تحولوا بعد المعاهدة إلى مستشارين في البعثة العسكرية .

ودهب « على » إلى مقرهما في الاستراحة البيضاء المستقرة على الرتبة العالية التي تشرف على الواحة .. وهناك أطلعاه على الخطة السرية المعدة للدفاع عن سيوة ، وكانت تتلخص في أن يخرج آلاى سيارات الحدود لمقابلة القوات المهاجمة عبر الحدود .. فإذا ما اضطرت إلى التقهقر ، تراجع خارج الواحة .. على أن يقوم « على » بدباباته بالدفاع عن الواحة نفسها .

وفهم « على » من الخطة .. أنه وحده المسئول عن الدفاع عن سيوة .. وأن كل ما على آلاى الحدود هو أن يقوم ببعض عمليات العرقلة .. ثم التقهقر بانتظام وترك الواحة له .

وأحس بعظم المسؤولية الواقعة على عاتقه .. وملأه إحساس بالفخر يخالطه

بعض الوجع والتهيب .

وكان أهل الواحة قد هجروا دورهم .. وانطلقوا في الحدائق الواسعة المحيطة بالواحة ، المليئة بالنخيل وأشجار الزيتون .. وبقي « على » مع دباباته ومدافعه وجنوده .. وشغله فرط العمل في إعداد دباباته وأسلحته ، وتدريب جنوده ، عن كل شعور بالوحدة أو الملل .. وأضاع الإحساس بالمسؤولية كل ما قاساه من يأس وهبوط في أيامه الأخيرة في القاهرة .

وبدأت الغارة الأولى بالطائرات الإيطالية .. ولم يكن بالواحة أى نوع من الدفاع الجوي ، سوى بضعة مدافع « برن » لم تحاول أن تفتح نيرانها .. وكانت الغارة استكشافية .. والفروض بعد ذلك أن تتبعها غارات هجومية يمكن أن تودي بدباباته وجنوده وبالبلدة كلها .

ولم يجد « على » بداً من أن يتكرر سلاحاً مضاداً للطائرات ، وكانت دباباته مزودة بالمدافع ٢ رطل المثبتة في أبراجها .. فوزع الدبابات على الثباب ، بحيث أضحت وقفتها مائلة ، وبحيث أضحت فوهات مدافعها مصوّبة إلى أعلا ، وهياً بذلك شبكة من النيران المضادة للطائرات .

وعندما أقبلت الطائرات الإيطالية في الغارة الثانية .. فوجئت بوابل من النيران القوية ، سببت لها ذعراً شديداً ، وجعلتها توقن من وجود شبكة قوية متصلة من المدافع المضادة للطائرات ولم تحاول بعدها أن تشن على الواحة غارة واحدة .

وأحسن « على » بالكثير من الغبطة والسعادة ، وهو يتلقى التهنية من الضابطین الإنجليزيین ، ومن ضباط الحدود ، وزادت روحه المعنوية ارتفاعاً .. وزاد إيمانه بواجبه وعنايته بوحدة الحديدية التي أنشأها من الدبابات الإنجليزية ، والجنود السود .. وأخذ يعد نفسه لخوض معركة يصد بها هجوم الإيطاليين ، ويشنت عليهم .

— ٥٧٠ —

وعندما كان يأوى إلى فراشه السفرى المنخفض فى حجرته المنعزلة فى بيوت الضباط .. كان يطوف بذهنه شبهان : شبخ فى طوافه عنف وحرارة ورغبة ، وشبخ يلم به من بعيد .. يهمس فى عتاب رقيق .. وكأنه يخشى أن يراه أو يسمعه .. ولا يلت الشبهان أن يطويهما سيل من الدبابات والمدافع ، والجنود السود ، والطائرات الإيطالية .

(٥٠)

منفى .!

استمر « على » في وحدته يتحفز للقتال ، ويتأهب للمعركة ، ولكن الأيام أخذت تمر .. والقتال لا يبدأ .. والمعركة لا تحل .. والإيطاليون مشغولون عنه بالقضاء على فلول فرنسا التي صرعاها الألمان .. ثم في اجتياح اليونان كجزء من خطة المحور العامة .. لبسط سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط ، واحتلال البلقان ، وبمجر إيجيه ، توطئة لغزو الشرق الأوسط ، وقد منيت قواتهم بهزائم عدّة بعد اجتيازها ألبانيا ، واصطدامها بجيش اليونان .. واضطرت إلى الارتداد حتى فالونا على بحر الأدرياتيك .

فلما بدعوا يوجهون هجومهم بعد ذلك على حدود مصر الغربية ، بعد أن وثقوا من ضعف القوات البريطانية المدافعة ، كانت خططهم الرئيسية تنصب على الطريق الساحلي وظلت نسوة بمنأى عن هجومهم .

ورويداً رويداً .. بدأت حدة « على » تحف واهتمامه بما حوله يتضاءل .. وبدأ فراغه يزداد وملله يشتد ، وزاد الطيفان إطباقاً عليه .. وأخذوا بخناقه .. أحدهما يلهب جسده ، والآخر يرهف حسه ، ويؤجج روحه .

ومرت الشهور تلو الشهور .. والركود نجيم ، والكآبة سائدة .. والدبابات رابضة في خمول .. والمدافع رافعة أفواهاها في تناؤب بليد .. ولا شيء يقطع به « على » وقته أو يملأ فراغه ، أو يذهب سآمته .. سوى التفكير والصمت والانتظار .

وتوالى الضباط الآخرون على الواحة ، كل يقضى مدته محاولاً جهده قتل الملل باللعب والشراب .. و « على » قابع في وحشته البغيضة . وسآمته

القاتلة .. لا يكاد يربطه بالحياة غير بضغ خطابات قصيرة متباعدة .. تصله من أخيه أو من « بهية » ، وفيما عدا ذلك بدا له كأنه قد قطع كل صلة له بالعمران .. ولم يكن بطبعه قلقاً شكاً ، بل كان الصبر وقوة التحمل من أميز صفاته .. ولكنه مع ذلك بدأ يضيق بوحدته .. وآله أن يلقي به رؤساءه بمثل هذا الإهمال ، دون أن يفكر فيه أحد .. أو يحاول أحد إبداله .. وعندما حاول الحصول على إجازة قصيرة للعودة إلى القاهرة ، رفض قائد الحامية منحها له ، بحجة أنه ليس هناك من محل محله في قيادة الدبابات .. وأنه لا يمكنه النزول إلى القاهرة إلا إذا أرسل سلاحه بديلاً له .. أو على الأقل ، يتحمل سلاحه مسئولية بقاء الدبابات في الميدان بلا ضابط .

وبدال « على » أنه قد أضحى طريداً منفيّاً ، وعزّت عليه نفسه ، وهو ملقى في منفا .. لا يذكره أحد .. وجلس على المقعد السفري ، يرقب غروب الشمس في الحديقة الضيقة المحيطة بالدار المنخفضة ، التي يحتل إحدي حجراتها ، وبدأت أشباح النخيل وأشجار الزيتون ، داكنة في الأفق الأحمر ، وفي غمرة يأسه أحس بخنين لا يقاوم إلى الطيف النائي ، الذي لم ينفك يطوف به من بعيد في عتابه الهامس ، وكأنه يراوده على الدنو .. وأحس بنفسه تهفو إليه .. وكره أن يحرمها في وحدتها ويأسها من عزاء طيف ، لم يبق لها من عزاء في وحدتها .

وأدنى منه الطيف حتى كاد يشم عيره .. ويمس شعره الذهبي .. وهتف به الطيف معاتباً .. وقد عزّ عليه أن يأخذه بجزيرة صاحبه .. وهو لم ينأ عنه لحظة واحدة .. وردّ عليه هو بأن القطيعة كانت أحد من أن تترك وصلاً لطيف أو عوداً لذكرى .. وجرى العتاب بينهما رقيقاً ليناً ، كالغدير المترقق من عيون الواحة .. وترك « على » العنان لنفسه تنهل حنيناً وذكرى .. دون أن توقفها خشية من كبرياء أو يصدها خوف من ملام .

ومضت به فترة ، وهو مغرق في حنينه ، وقد شغله الطيف الداني عن كل ما

حواله .. حتى أفاق فجأة على صوت عربة تقترب .. ولم يسمح له الغبار المثار ، والظلمة الهابطة من تمييز هيكلها من بعد ، وإن كان قد رجع من الشخصخة والضحيح الذى صحب اقترابها أن تكون إحدى عربات « الحاج على » متعهد تموين الواحة .. وتأكد ظنه عندما وقفت بالباب وانقشع من حونها الغبار ، وتوقع أن يكون « الحاج » قد بعث إليه بإحدى الرسائل أو ببعض الأطعمة .. ولكن تمنكته الدهشة عندما فتح باب العربة المجاور للسائق وهبط منها شيخ امرأة .

ومضت برهة ، و « على » يحملق فى ذهول ، ولا يكاد يصدق عينيه .. وهو يتبين فى الشبح الهابط من العربة سمات « كريمة » .
ونفض كالمأخوذ ، واندفعت « كريمة » إليه مائة ذراعيها متأهبة للعناق ، ولكنه صدها بيده الممدودة للمصافحة .. وتلفت إلى السائق فى سئى من الخجل وهو يجذب حقائبها من داخل « البوكس » ، ويقف متسائلا : أين يضعها ؟

ولم يجب « على » فقد عجز ذهنه عن الاقتناع بوجودها فى منفاه ، والتسليم بكل ما يتبع ذلك من نتائج وتفاصيل . ولم ينتظر السائق جوابه . بل واصل سيره عابراً ممر الحديقة إلى حجرتة حيث وضع الحقائب ، وعاد إلى عربته ، وهو يقول .

— الحاج يهديك السلام ، وسيمر عليك غداً بعد أن يقابل الأمور .
وعادت العربة حاملة معها ضجتها وغبارها .. ووجد « على » نفسه يقف وحيداً مع « كريمة » فأمسكها من يدها وسار إلى الحجرة ، والدهشة ما زالت تعقد لسانه .

ووقفت أمامه كطفلة مذنب ، وقد ربطت رأسها بإشارب أزرق عقدته أسفل ذقنها ، وبدا وجهها بلا طلاء ، وقد تطلعت إليه عيناها السوداوان فى رجاء وتوسل .

وهتف بها « على » هتاف المشدوه :

— كيف حضرت ؟! وماذا أحضرك ؟!

ولم تجب « كريمة » وخيمت على عينيها سحابة دمع لم تلبث حتى همت في صمت .. ومن خلال دموعها رمقته في نظرة مستغفرة وقالت :

— أنا أعرف أنك لا تحبني .. ولكنني أعرف أنك قد أحبيت ، وتعرف ما هو الحب .. وتعرف تماماً آلام الحب عندما يجد نفسه شيئاً مهماً منسياً . أنا لا أطلب منك أن تحبني .. ولكنني أطلب منك أن تعتبرني .. وأن تمنحني بعض الاهتمام .. لقد سافرت دون أن تخبرني أنك ستسافر .. وكنت معي في الليلة السابقة .. وقضينا الليلة كأحسن ما يكون الصحاب .. ومع ذلك فقد تركتني إلى الآن بلا كلمة .. ولا وداع .. ولم تحاول أن ترسل إلى بيضة أسطر في رسالة .. لم كل هذا ؟! أنا لم أفعل إلا كل ما يرضيك فعله .. لأنني أحب فعله بلا تكلف ولا مشقة ، ولا توقع لمقابل .. لا أطلب منك شيئاً أبداً .. إلا بعض الاهتمام .. مجرد أن أشعر أنك تحسّ بي .. أهذا شيء كثير ؟

وأحس « على » أن عتابها حق .. وأنه كان معها أنانياً إلى أبعد حدود الأنانية .. وأنه عندما يحاول أن يضع حداً لعلاقته بها وإنقاذ نفسه من تورطه معها .. قد قسا عليها .. ونسى أنه محب ، جرب مرارة القطيعة .. وقسوة الهجر .. وبرر تصرفه معها ، بأنها امرأة ذات تجارب .. وأن مثلها لا يمكن أن يخضع لحب أو يفجع بقطيعة .. وأن حياتها أزعج من أن يخلف إنسان بذاته فراغاً فيها .. وأن في صحبتها ما يعين على كل وحشة ويملاً كل فراغ .

لم يخطر له ببال قط أن يكون قد سبب لها بقطيعته مثل هذه الوجيعة ، وأحس ، وهو يرمق نظراتها المتوسلة ، ودمعها المنساب ، بغطف شديد .. وتقدم منها فضمها إلى صدره في رفق .. وقال في لهجة رقيقة معذرة :

— لقد سافرت فجأة ، وكانت مشاغلي هنا كثيرة .. ولم أتوقع أني سأسبب لك كل هذا الألم .. ولا خطر بذهني أني سأكلفك مشقة المجيء إلي .. إن ما

فعلته هو جنون مطبق .

— إنك لم تخلف لى عقلا أتصرف به .

— ولكن كيف استطعت المجيء ؟

— عرفت من « حسين » أنك هنا .. واستطعت التوصل إلى « الحاج على »

عن طريق صديق له من زبائنى .. وكان الرجل كريماً فحملنى إلى هنا .. كان لا بد لى من لقاءك .. وإلا جنت .

— ولكن بقاءك مستحيل .

— لماذا ؟!

— لأنك لا تحتملين البقاء .

— إذا كنت احتملت مشقة السفر .. ألا أستطيع احتمال نعمة الاستقرار ؟!

إنى أستطيع أن أحتمل كل شىء ما دمت معك .

— ولكنى لا أستطيع إبقاءك .. ماذا أقول عنك ؟!

— خادمة .

— غير معقول .. من يصدق هذا ؟! إنك لست نكرة . وكل إنسان

سيعرفك .. ثم ماذا يدعونى إلى إحضار خادمة ولدى « مراسلة » .. أوكد لك أن المسألة لا يمكن أن تمرّ بخير .. لا بد أن تعودى فى أول عربة ، وأنت نفسك ستطلبين ذلك بعد أن

وقاطعته « كريمة » قائلة ، وهى ترفع وجهها إليه ، وتحيط عنقه بذراعيها ،

وتبتسم من خلال دموعها :

— دعنا من كل هذا الآن .. إنك أوحشتنى جداً .. ألم أوحشك ؟

و لم يملك « على » سوى الابتسام ، فجذبت عنقه إليها ، ثم رفعت رأسها ،

وهى تشب على أطراف أصابعها ، وألصقت شفيتها بشفتيه ، فسرت أنفاسها

الحارة فى خياشيمه ، ولفحت وجهه .. وأحس بدمائه تغور فى عروقه ..

وضمها إليه ضمة عنيقة ، رفعتها من الأرض بين ذراعيه .. وألصقها ب صدره ..

وتوقف ذهنه عن التفكير .. وتأجج كيانه بالرغبة الجنونية الحبيسة .. وبدا ، وهو يضغط أضلعها ، كأن سجين الرغبة ، يحطم قضبان سجنه .
ومرت الليلة .. والحجرة الساكنة مغلقة عليهما ، لا يكاد يشعر أحد بطاريء
على ساكنها .. ولا يكاد يشعر ساكنها إلا بالجدس الشسهى اللين الفائر بين
أحضانه .. ولا يكاد الجسد الممتلىء ، يحس بغير نشوة جارفة تغمره من قمة رأسه
إلى أخمص قدميه .

واستيقظ « على » فى الصبح ، وبدا له ، وهو يفتح عينيه ، أن كل ما مرّ به
أضغاث أحلام .. لولا ذلك الجسد الراقد بجواره ، المغفى فى هدوء واستسلام .
وأبدل ملابسه ، وخرج للمرور على قواته ، و « كريمة » ما زالت راقدة ..
وأخذ يجوب بعربته الصغيرة بين مواقع الدبابات ، وهو شارد الذهن مشتب
الفكر ، أشبه بالصاحى من سكرة .. لم تبق له من نشوتها .. سوى روااسب الهـم
والضيق والمرارة .
ولم يعرف كيف يتصرف مع « كريمة » .. وهو الحىّ الوجـل ، القليل الخبرة
بهذه الأمور .

أيكم أمرها ويخفيها داخل حجـرته .. حتى لا يفتضح أمرها وأمره ؟
ولكن .. أيعقل هذا ؟! أيمكن إخفاؤها فى مثل هذا البلد الضيق الحدود ،
وهى تكاد تكون المرأة الوحيدة فى النطاق الذى يعيش فيه .
وهل يضمن ألا يذيع « الحاج على » أمرها .. إن لم يكن أذاعه حتى الآن ؟!
وهل له الحق .. فى أن يحيا بين الجنود والضباط مع امرأة عامة لا تربطه بها ..
صلة ولا قرابة ؟

وانتهى اليوم والأفكار تثقل رأسه دون أن ينتهى إلى حل .. وأقبل الليل فيدد
الجسد الدافئ همومه .
ومضت أيام آخر ، وهو مستسلم للأمر الواقع .. و « كريمة » سعيدة
راضية ، كأنها عروس فى « شهر العسل » .

وبداله أن الأمور يمكن أن تسير في هدوء ، مادام لا يضايق أحداً أو يسئ إلى أحد .. حتى بدأ يسمع من زملائه عبارات التهكم والسخرية .. وكأنما قد ساءهم وأوغر صدورهم أن يستمتع بها دونهم ، أو كأنما كان لزاماً عليه أن يجعلها بينهم متاعاً مشتركاً .

ولم يكن « على » يشاركهم جلستهم للعب والشراب ، في المنتدى الذي أنشأه بضعة الموظفين الذين يعملون في الواحة ، ولم يكونوا هم يعلقون على هذا ، حتى شاع بينهم خبر « كريمة » . فقال له أحدهم :

— لماذا لا تؤنسنا في المنتدى ؟

وأجاب « على » في اقتضاب :

— لأنى أفضل النوم مبكراً

— معك حق .. لو كان لددى مثل ما لديك لما فارقت البيت .

وقال آخر معترضاً :

— يا أخنى أحضرها تسهر معنا . أعطنا بما أعطاك الله .

وبدأ « على » يحس بجوّ من القلق يحيطه ، حتى فوجئ ذات يوم بقائد الحامية يطلبه في المكتب .. وعرض عليه تقريراً خلواً من الإمضاء خلاصة ما فيه : « إن الملازم على عبد الواحد قد قلب الواحة إلى ماخورة .. وأنه يحضر الراقصات من القاهرة ، ليقضى الليالى بين أحضانهن .. وأن هذا استهتار بالشرف والفضيلة ، وعبث بالوظيفة ، وحض على الفجور » .. وفي نهاية التقرير كتب « صورة إلى قائد سلاح الفرسان » ، وعندما أتم « على » قراءة التقرير أعاده إلى مكتب القائد في صمت :

وسأله القائد بقوله :

— ما رأيك ؟

— إن جوهره صحيح .. وإن كانت الحواشى والتعليقات غير صحيحة .. إن الراقصة « كريمة » تعيش فعلاً في حجرى ، وإن كنت أعتقد أنى لا أنشر بها

الدعارة بين الموظفين .. هذه مسألة شخصية بحته .
وأطرق القائد برهة أخذ ينقر خلالها بقلم في يده على مكتبه ، ثم رفع رأسه إلى
« على » قائلاً ، وهو يشير إلى مقعد خال :
— اجلس يا « على » .. دعك من هذا التقرير .. إني لن ألقى إليه بالا ..
وأستطيع أن أمزقه أمامك إذا أردت .. ولكنى أريد أن أسوق إليك نصيحة
شخصية .. إني أحدثك كأخ أكبر .. أفاهم أنت ؟
— أجل .

— لقد عرفت بوصول « كريمة » ساعة أن وصلت .. فالمفروض أنى أحاط
علماً بكل ما يحدث فى المنطقة .. وقد أبلغنى « الحاج على » نبأ وصولها قبل أن
تعرفه أنت .. وأقول الحق أنى ذهلت .. فأنا أعتقد أنك مخلوق مستقيم .. منزلة
عن الشبهات .. وأنا أعرف أنك لم تحاول اللعب أو الشراب مرة واحدة .. فما
بالك بإحضار راقصة معروفة تعيش معك تحت سقف واحد فى مثل هذه
المنطقة ، وكرهت أن أفاتحك ، واعتبرت المسألة كما تقول أنت مسألة
شخصية .. وقد كان يمكن أن أصمت عنها .. لولا أن الألسنة لا تصمت ..
ولولا أن مسألة « كريمة » قد أضحت شغل المنطقة الشاغل .. فلا حديث للأهالى
أو الجنود أو الضباط أو الموظفين سوى « كريمة » .. حتى بت أنت وإياها — كما
يقولون — مضغة فى الأفواه ، وتحتم عليك أن تنهى المسألة .
— كيف ؟

— أعدّها إلى القاهرة فى أقرب فرصة .. وإذا أردت سأرجو لك « الحاج
على » أن يقوم بعربة مخصوصة لإعادتها ، وتعتبر المسألة بعد ذلك كأنها ما
كانت .

— أشكرك جداً .. وأؤكد لك أن الوضع قد فرض على فرضاً ، وإنى لم
أعرف كيف أواجهه بغير الاستسلام .. ولقد كنت أوشك أن أُلجأ إليك لولا
الحياء .

- كلنا قد مررنا بهذه الأشياء .. المهم هو أن نخلص منها .. دون أن يعلق بنا شيء .. وأرجو ألا يكون التقرير قد ترك أثراً في السلاح .
- وأجاب « على » في مرارة :
- ترك أو لم يترك .. ماذا يمكن أن يفعلوا بي شراً من هذا ؟
- وعاد « على » إلى « كريمة » مطرقاً متجهماً ، وأنبأها الخبر في كلمات قصار ، وختم حديثه قائلاً :
- ستقوم بك عرية في الصباح المبكر .. فعليك أن تعدى حقائبك من الآن .
- وأجابت « كريمة » نائرة :
- لن يستطيع إعادتي أحد .. أنا لا يهمني ما يقولون .
- وأجابها « على » في هدوء :
- ولكنه يهمني .. وأظن أن ما يهمني يجب أن يهلك ؟
- وأحست « كريمة » أن البكاء يوشك أن ينفقها ، فأطرقت تغالب دمعها .
- واقترب منها « على » ورفع وجهها إليه ، وأخذ يتحسس برفق قائلاً :
- إن حماقتنا هذه لا يمكن أن تستمر .
- وهتفت « كريمة » وهي تحديق في عينيه :
- إلى أحبك .
- حتى هذا لا يسوغ لنا الاستمرار في هذه الحماقة .
- قل إنك تحبني .. قلبها رغم أنك لا تعنيها .. فإني أحس من سماعها عزاء كبيراً .
- وصمت « على » برهة .. فقالت « كريمة » في لهجة ملؤها الأسى :
- حتى مجرد كلمة تبخل عليّ بها . قلها وأقسم لك أني لن أحاسبك عليها .
- وأحس « على » من دموعها المناسبة برغبة في البكاء .. مالبت أن دفعها عن نفسه ، وهتف بها :
- إلى أحبك .

ولم يحسّ « على » أنه يكذب .. فلقد كان يشعر نحوها بنوع من . الحب ..
خليط من الاشتاء والشفقة .

ورحلت « كريمة » .. ومرة أخرى جلس « على » في وحدته ، وهو يرقب
الفراش الخالي .. والحجرة الساكنة .. ويستعيد لنفسه ذكرى المرأة العجيبة التي
قطعت من أجله مئات الأميال .. لترجوه أن يقول لها : « أحبك » رغم يقينها أنه
لا يحبها .

وأحس بأنه يكره نفسه .. لأنه لم يستطع أن يعبرها على حبها .. الحب الذي
تستحقه وتتوق إليه .. الحب الذي تمنحه هي له .. ويمنحه هو .. للمهاجرة
المعرضة .. النائية بلا كلمة فرقة .. أو تحية وداع .

وبدا له أن يقارن بين الاثنين ، وبين مشاعره لكليهما .. بين الواصلة
والقاطعة .. بين من أبت عليه بارقة أمل وبين التي تصر على حبه بلا أمل .. ولا
مجرد رغبة في أمل .

وقارن بين مكان كل منهما في قلبه .. فإذا بالقلب الأحق .. يأبى المقارنة ..
ويرفض أن يعترف إلا بمكان الموعودة .

وإذا بالطيف النائي يدنو هامساً عى عتاب : أقد هان عليه حتى يضعه مع الغير
موضع المقارنة ؟

وتطائرت « كريمة » وتطائرت معها الليالى الصاخبة الملتبهة ، وأحس كأنه
يهيم مع الطيف الحبيب ، هياماً ناعماً رقيقاً .. ويكاد يمس شعره الذهبى ويتلمس
أنامله الرقيقة .

وغادر « على » حجرته ، وقد أحسّ بخنين شديد إلى الليل الساكن الفسيح
بنجومه الرانية ، وأشجاره الهامسة .. وسار في الحدائق المتكاثفة وسط النخيل ،
وأشجار الزيتون ، وأحس بمشاعره ترهف ، وأحاسيسه ترق .. حتى كاد
الطيف الحبيب يتجسد .. وخيل إليه أن الطريق بين الحدائق .. سينتهى به إلى
السوبة ، وشريط الترولى ، والترعة ، والغاب المتكاثف على حافتها .. وأحس أنه

يوشك أن يسمع طرقات الحصان الرتيبة المنتظمة .
وانتهى به السير إلى العين .. وقد أحاط بها الحوض المستدير .. واجتمع على
مقربة منها بعض الأهالي .
وجلس على حافتها .. ينصت إلى « ناي » انبعث في سكون الليل هادئاً
عميقاً .
وأحس من الصوت المنبعث .. والنسمة السارية .. والخير الجارى .. كأن
روحه قد غمرت في ماء طهور .. أزال عنها كل أدرانها .
وفي طريقه إلى العودة .. أحس بأن جلاميد اليأس المتكدسة في قلبه قد
ذابت ، وغيوم الشك والقلق والضيق المخيمة على روحه قد تبددت .. وملأ قلبه
إيمان عميق بقوة قادرة ، رحيمة ، ورب غفور .
ورقد تلك الليلة .. وملء نفسه طمأنينة عجيبة .. وسكية تامة .

(٥١)

فى الأعماق

وقف « سليمان » أمام الصاغ أركان الحرب يقرأ التقرير الذى أرسل فى « على » ، وعندما انتهى من قراءته وضعه على المكتب ، وبدأ عليه وجوم شديد . لم يكن يتوقع من « على » أن يصل به حد الاستهتار إلى أن يصطحب إلى « سيوة » امرأة عامة ، تشين سمعته ، وتلوث اسمه ، وتجعله مضغة فى الأفواه . وأيقظه من شروده قول الصاغ متسائلا فى دهشة :

— ما رأيك ؟

ولم يعرف « سليمان » كيف يجيب .. إنه يحب « على » ويثق به .. ويكره أن يخذله .

وما لبث أن أجاب بعد فترة تفكير :

— قد يكون التقرير كيدياً .

— وقد يكون غير كيدى .

— على أية حال أعتقد أن خير ما يمكن عمله هو أن يعود « على » إلى آلايه فى القصابة ، وسنقطع عليه مثل هذا العبث إن صح التقرير ، لأنه ليس فى خنادق القصابة وخيامها مجال لكريمة ولا لغيرها .

— معك حق .. وأظن أن آلايه فى أشد الحاجة إليه من بضع الدبابات الراقدة

فى سيوة ، والتى يمكن لأى ضابط آخر أن يشرف عليها لا سيما وأن نشاط الإيطاليين قد وقف هناك بتاتا ، بعد أن تحوّل اهتمامهم إلى الجهة الشمالية .

وهكذا نقل « على » من سيوة إلى القصابة .. شرق مرسى مطروح . والتى احتلتها القوة الخفيفة المشكّلة من وحدات السوارى الميكانيكية ، التى ألحقت بها

وحدات أخرى معاونة من بقية الأسلحة .

ورغم أن القصابة لم ترد « لعل » غربته عن القاهرة .. ورغم أن الحياة كانت أشق كثيراً من الحياة في سيوة .. إذ كانت حياة ميدان وخيام وخنادق ، لا يتوفر فيها شيء من راحة المسكن أو طيب المأكل ، أو طمأنينة المستقر .. ورغم الانزعاج الدائم من طائرات المحور وتوقع هجومه بين لحظة وأخرى .. ورغم كل هذا فقد أحس « على » بغبطة في الرحيل عن سيوة .

لقد أطربه أن يضع حداً لهذه الوحدة الخائفة ، والممل القتال ، وسره أن يعود مرة أخرى إلى بلوكة وجنوده وأسلحته .

وأحس بكثير من التسلية والعزاء بين رفاقه الضباط .. ومرت به الأيام والشهور .. ورقى لرتبة اليوزباشى .

وشغلته حياته الجديدة المليئة بالحركة والضجيج ، حياة دوى القنابل ، وأزيز الطائرات ، وقصف المدافع .. وملأت فراغه دوريات الاستكشاف التي كان يقوم بها بالتناوب ، مع بقية الضباط ، واحتلت ذهنه أنباء الحرب ، وأنباء الهجوم والدفاع والتقدم والانسحاب .. ولم يبق للطف النأى سوى لحظات قصار قبل الرقاد ، يدنو منه خلالها لهمس مناجياً ، أو يهتف معاتباً ، حتى يستغرق في سباته .

واستطاع الحصول على بضع إجازات قصار كل عدة شهور .. زار فيها أهله .. وأمضى بعض الوقت مع كريمة .. وساقته قدماء ذات مرة في حلقة الليل ، فطاف به كالشبح خارج أسوار القصر العالية ، وكأنه يرد للطف العاتب زيارته .

واستمرت المعركة في جبهة الصحراء الغربية في تلك الفترة بين الحلفاء والمحور ، متخذة سمات الأرجوحة تدفعها لطمة إلى أقصى الشرق .. وتعيدها لطمة إلى أقصى الغرب .. وقوات الطرفين المقاتلة ، تعدو إحداها في أعقاب الأخرى .. لا تكاد تصل إلى أقصى مطارديها ، حتى تكون مواصلاتها قد

طالت .. وقواعدها قد بعدت ، وأنفاسها قد تقطعت ، وتكون القوات الهاربة قد عادت إلى قواعدها ، وقصرت مواصلاتها وقربت مؤنها فلا تكاد تكرر على المهاجمة حتى تنكص على أعقابها ، وتعود المطاردة من جديد في اتجاه عكسى ، حتى تصل المطاردة إلى القواعد الأخرى ، فتدور الدائرة .

ولم تكن للأرض المحتلة قيمة .. بل كانت بفراغها ورمالها وصعوبتها .. تحتسب على المحتل ولا تحتسب له .. وكان اكتسابها يزيد القوات المهاجمة بعداً عن قواعدها ، ويتعذر تمويلها بالمؤن والذخائر والبترول .. فيحدد عدوها بالقدر الذى يمكن مدها بما تحتاج إليه في سيرها وقتالها .

وهكذا بدت قوات الطرفين ، وكأن كلا منهما قد شد إلى قاعدته بخيط من المطاط ، كلما زاد بعده عن قاعدته زادت سرعة ارتداده إليها .

واستمرت الذبذبات تتأرجح بين سيدى برانى وبنى غازى . دفع الذبذبة الأولى بالقوات الإيطالية الماريشال « جرازيانى » فاستولى على السلوم ، وسيدى برانى .. وردّ الثانية بقوات الحلفاء الجنرال « ويفل » فوصل بها إلى بنى غازى .. وما لبثت أن ارتدت مرة أخرى إلى الحدود تاركة جيشاً من جيوشها في طريق ، ثم كّر الجنرال « أوكنك » البريطانى فردّ الإيطاليين مرة أخرى إلى بنى غازى ، بعد أن فكّ الحصار حول طبرق .

ودفع الذبذبة الثالثة الماريشال « رومل » الألمانى .. وانطلق الحلفاء في ذعر ، وقد تجاوزوا في ارتدادهم قاعدتهم ، حتى وصلوا إلى العلمين ، بعد أن سلم جنود جنوب أفريقيا طبرق .

ووقف الذبذبة الأخيرة عند العلمين ، وانسحبت القوة الخفيفة ضمن سيل القوات المنسحبة ، عائدة إلى قواعدها في القاهرة .. تاركة مواقعها في جارة المركز التى احتلتها بعد القصابة .

وكانت الحالة السياسية في مصر قد تحرّجت .. وبات الإنجليز يحسون أن الحكم في مصر ، لم يعد بيده القوة التى تستطيع أن تملك زمام الموقف ، والقوة

التي تتمتع بثقة شعبية تستطيع أن تفرض بها سيطرتها على الشعب بحيث تؤمن للحلفاء ظهورهم ، وبحيث يحصلون على أقصى ما يحتاجونه من مساعدات عن كرم وسخاء ، وبلا خوف من دسائس خفية ، أو معارضة رسمية ، أو قلاقل شعبية .

وكان « على ماهر » قد استقال بعد أن رفض دخول مصر الحرب .. ولم يكن هناك من شك في أن ذلك كان أجدى على الحلفاء من الاشتراك في الحرب .. فقد سلمت قواعدهم ومواصلاتهم بسلامة مصر من اعتداءات المحور الجوية ، وكانت قوات مصر المسلحة — أو ما تبقى منها بعد أن استردت إنجلترا معظم أسلحتها من المدافع والدبابات لتستعين بها في معارك الصحراء — أجدى على الحلفاء من وقوفهم في مواقعهم الدفاعية في القتال ، وفي بقية المنشآت الحيوية .

وتولى الحكم بعد « على ماهر » « حسن صبرى » ولم يطل حكمه ، فقد وافته منيته في افتتاح البرلمان عام ١٩٤١ . وخلفه « حسين سرى » الذى استمر يحكم حتى شتاء ١٩٤٢ . حينما أشرف المحور على العلمين ، وقامت المظاهرات المعروفة تنادى « إلى الأمام يا رومل » . ولم يجد الإنجليز بداً من أن يفرضوا فى الحكم القوة التي تستطيع أن تفرض على الشعب تأييدهم .

وكانت وزارتا « صبرى وسرى » هما آخر جهود القصر فى إبعاد الوفد عن الحكم ، ولم تكن هناك وسيلة لإبعاده أكثر من ذلك بعد أن فرضه الإنجليزى بدباباتهم يوم « ٤ فبراير » المعروف .. ولم تجد محاولة إشراك بقية الأحزاب فى الحكم ، مع الوفد شيئاً ، فى صده عن الاستئثار بالحكم ...

واستطاعت الرقابة الصحفية التي كانت تفرضها الأحكام العرفية فى ذلك الوقت أن تستر الواقعة ، وتهدئ لها من التموه والتضليل ما هوّنها على الرأى العام ، حتى هتف للسفير البريطانى بطل الواقعة ، وحمله على الأكتاف ، ورحب بعودة الوفد ، لا سيما بعد أن طال غيبته عن الحكم وامحت من الأذهان مساوئه فى آخر مرة ولى فيها الحكم ، وزاد من الترحيب به ما بدا من عجز الحكومات

المتتالية عن حل مشكلات التموين والغذاء والكساء ، تلك المشكلات التي فرضتها قيود الحرب .

ولكن الرأي العام في الجيش لم يكن لديه نفس ذلك الاستعداد ، فقد أحس الضباط منها حرجاً أو غر صدورهم ، فقد كان اعتداء مسلحاً على « قائدهم الأعلى » وقفوا هم منه موقف المستسلم العاجز .. وفرضت دبابات الإنجليز على « الملك » والبلد ما لم يملكوا هم دفعه ، وهم أحق الناس بذلك ، لأنهم يملكون القوة التي يمكن لها أن تدفع القوة ، أو على الأقل تقاومها .

وكان « الملك » حبيباً إلى نفوس الضباط كرمز وكشخص ، إذ لم تكن مظاهره وأفعاله البادية وتعدّ تنم عن الشذوذ والعناد والشر ، التي نمت عنها أعماله فيما بعد .. بل كانت في جملتها العامة الظاهرة لا تبدى منه إلا ما يحبه إليهم .

وكان عزيز المصري قد استبعد من رئاسة هيئة أركان حرب الجيش ، بعد أن أعجزته طبيعته العجيبة وتفكيره المنفرد عن التعاون مع من حوله ، والاستمرار في مركزه وأداء واجبه .

وكاد « الزيدى » يخلفه ، لولا وشايات ودسائس جعلت القصر يفضل أن يضع على رأس الجيش أحد ياوران « الملك » لكي يضمن — كما كان يعتقد — أن يضع قبضته على الجيش ، مبتدئاً بذلك سياسة ضمان ولاء الجيش بوضع رجال « الملك » في رياسته المختلفة .

وهكذا تولى « إبراهيم عطا الله » رئاسة هيئة أركان حرب الجيش ، وبدأ الاندفاع الواضح المفتعل يجعل الجيش تحت جناح الولاء ، ولم تعد تميز رئيس هيئة أركان حرب الجيش قدرته على رئاسة الجيش وتدريبه وتسليحه وتنظيمه وإدارة وحداته ومناوراته بقدر ما كانت تميزه قدرته على الاحتفاظ بولاء الجيش « للملك » ، وإظهار هذا الولاء في كل فرصة وحين .

تلك كانت الحالة .. عندما عادت القوة الخفيفة إلى قواعدها بكوبرى القبة ،

وعاد معها « على » .. لأنه لم يكن هناك مفر من عودته ، إذ لم يكن لدى أحد الفرصة أو الوقت للتفكير فيه ، وفي المكان الذى يجب أن ينقل إليه حتى يبقى بعيداً عن القاهرة .

وكان « القائد » أول من تذكر موضوعه عندما لمح اسمه نوبتجياً في دفتر الأوامر .. وسأل الصاغ فهمى قائلاً :

— ما رأيك في مسألة على عبد الواحد ؟

وأدرك فهمى ما يرمى إليه القائد .. ولكنه تصنع عدم الفهم وتساءل قائلاً :

— أى مسألة ؟

— مسألة إبقائه دائماً خارج القاهرة ؟

— يا افندم .. هذه مسألة أظنها انتهت ، ولم يعد أحد يفكر فيها .. فمن غير المعقول أن يحكم على شخص بالبقاء خارج القاهرة طول العمر ، ثم إلى أين ننقله إذا كانت كل قواتنا قد انسحبت .. اللهم إلا إذا كنت تأمر بنقله إلى قوات الألمان في مرسى مطروح .

— أتمرح يا حضرة الصاغ ؟

وضحك فهمى وأجاب في رجاء :

— دعك منه .. لتنس المسألة كلية .. وأؤكد لك أنه لن يذكرها أحد .

— وإذا ذكروها فماذا نقول ؟

— سأتولى الرد أنا حينذاك .. إلى مسئول عن ذلك .

— أنت لست مسئولا .. إن المسئول هو أنا .

: كان « سليمان » يرقب المناقشة في صمت .. فتدخل قائلاً :

— أعتقد يا افندم .. أنه لن يذكر المسألة أحد .. لأنى أعرف الدافع إليها ..

وأعتقد أنه انتهى تماماً .. وأستطيع — بعد إذنك — أن أوضح المسألة كلها

« لعلنى » وأطلب منه أن يحذر من أن يعمل عملاً يجرها ثانية .

وصمت القائد برهة ، ثم قال منذراً :

— ٥٨٨ —

- قل له إن مصيره متوقف عليه وحده .. وإنه في هذه المرة سيكون النقل خارج السلاح .. لأنى لا أريد متاعب .
- وعاد « سليمان » إلى مكتبه ورفع سماعة التليفون قائلاً لعامل التحويلة :
- أعطنى اليوزباشى « على عبد الواحد » .
- وبعد فترة سمع صوت « على » يقول مرحباً :
- أهلاً سليمان .
- أهلاً على .. كيف حالك ؟!
- الحمد لله .. وحالك أنت ؟!
- ماشية .. لقد أوحشتنى وأريد أن أراك .
- أطلبتنى من أجل ذلك ؟
- ألا تكفى وحشتك لكى أطلبك ؟!
- قل ماذا تريد ودعك من اللف ؟!
- والله لا أريد أكثر من أن أراك .. أين تذهب الليلة ؟ .
- مرابط فى القشلاق .. لأنى ضابط عظيم .
- إذا سأتى إليك .. ألدبك ما يمنع من دعوتى للعشاء ؟
- أتكلم جاداً ؟
- أى والله .
- إذا ، سأنتظرك وأعمل حسابك فى العشاء ؟
- لا تنس أن توقد المدفأة .. فقد اشتقت إلى جلستها .. أتذكر جلستنا حولها فى أيام النوبتجية ؟!
- كانت أياماً لذيذة .
- وفى المساء ضمت الصديقين جلسة هادئة حول المدفأة فى بهو الميس ، وبدا البهو مغلق النوافذ مسدل الستائر مطلى الزجاج حتى لا ينفذ الضوء إلى الخارج ، فتبدو منه بارقة تهتك ستر الظلمات المعتمة التى تسود القاهرة ، تحجبها عن

الطائرات المغيرة بثوب حالك السواد .

وجرى الحديث بين الصاحبين يتناول أموراً شتى .

قال سليمان متسائلاً :

— أقمت اليوم بتجربة للدفاع الجوى السلبى ؟

— أجل .. ولو أننا لم نعد فى حاجة إلى تجربة .. فقد علمتنا بضع الغارات

الأخيرة المتتالية كيف نأوى إلى الخنادق بلا حاجة إلى تجربة .

— أظن الخنادق كلها حفرت ؟

— تقريباً .. عدا خنادق حديقة السوارى ، فما زال هناك خندق لم يتم

حفره ، وقد سألت اليوم عنه ، فأخبرونى أنهم ينتظرون حتى يخلع مستأجر

الحديقة بضعة أحواض خضار لم تنضج بعد .

— ما شاء الله !! .. إذاً فعلينا أن نضحى بأرواح العساكر من أجل بضعة

أحواض خضار .. كان يجب عليكم فسخ العقد مع هذا الرجل .. حتى يخلى

الحديقة .

— إن المسألة لا تحتاج إلى فسخ عقد .. غداً سأعطى أمراً لباشجاويز

الإدارة لكى يأخذ بضعة عساكر ويتموا حفر الخنادق .

— إتلاف الحديقة خسارة .. طالما تسليت فى نوبتجيتى بأكل الخیار

والمشمش من أشجارها .. أتعرف أن أسوأ ما فعلته بنا الغارات هو هذه

الخنادق ، التى بقرنا بها بطن الأرض ، وشوّهنا بها الحدائق والطرق .

— هذا خير من أن تبقر هى بطوننا بشظاياها وقنابلها .. أتذكر غارة السبت

الماضى ؟

— لقد كانت فظيعة ، لقد دمروا بها مطار هليوبوليس .

— وأعجب ما فيها أنها لم تصب شيئاً غير المطار .. إن البيوت المجاورة لم

يمسها سوء .

— لا شك أنها غارة ألمانية ؟

— ٥٩٠ —

— لقد كنت أتوقع توالى الغارات بعد ذلك .. ولكنهم كفوا عنها منذ ذلك

اليوم .

— يبدو أن حالتهم أمام العلمين ليست طيبة .

— لا شك أنهم يتأهبون لحشد قواهم للضربة التالية .

— لا أظن .. لا تستهن بهذا الشوط الذى قطعوه .. لقد تقطعت منه

أنفاسهم .. إن الحشد مع بُعد القاعدة ، وطول المواصلات ، أمر غير هين .

— كنت أتوقع أن يصلوا الإسكندرية بين يوم وليلة .

— لا أظن .. يحيل إلى أنهم قد بلغوا آخر الشوط .. وأن الحلفاء سيردّونهم

مرة أخرى .. لقد خبرت حرب الصحارى جيداً .. لم أضع هذه المدة التى

شردتمونى فيها هباء .

وألقى « سليمان » بقطعة خشب إلى المدفأة ، وبدت عليه سيماء التفكير ..

وسادت فترة صمت قطعها متسائلا ، وهو يحرق فى المدفأة :

— من الذى شرّدتك يا « على » ؟

— تسألنى أنا ؟ .. سل الإدارة .

— كان يخيل إلى أنك تعرف أكثر من الإدارة .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن إدارة السوارى لم تشرّدتك .. وأنت تعلم هذا جيداً .. لأنه ليس

بها أحد لا يحبك ويقدرك .. لقد صدرت الأوامر بإبعادك عن القاهرة .. وكان

المفروض أن تنقل إلى الحدود .. ليتولى قائده إبعادك .. ولكن الصاغ والقائد

رفضوا نقلك من السلاح .. ولم نجد حلاً للمسألة سوى أن تتولى قيادة دبابات

سيوة .. فالإدارة إذاً فعلت كل ما فى وسعها من أجلك .. وأوامر إبعادك

صدرت من جهات عليا ، لا تملك الإدارة مخالفتها .

— ماذا تقصد بجهات عليا ؟

— لا تتجاهل يا « على » .. أنت تعرف أن الأمير إسماعيل لا يستعصى عليه

— ٥٩١ —

إبعادك عن القاهرة . ألا تعتقد أنه هو السبب ؟

ودون أن يحول « على » بصره عن النيران أجاب في صوت هامس :

— ربما !

— على أية حال لقد مرّت المسألة بخير .. والقائد أبدى استعداداه لتناسي

أوامرهم بإبعادك .. وعدم إثارة المسألة .. بشرط ألا تفعل أنت ما يثيرها .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن تكف عن كل صله لك « بأنجي » .. وألا تحاول رؤيتها ، أو

الاتصال بها .. حتى لا تذكر الأمير بوجودك ، فيعود إلى طلب إبعادك .

— لقد انتهى كل ما بيننا يا « سليمان » قبل أن أسافر إلى سيوة .. ولم يعد

هناك أبداً ما يمكن أن يثيره .

وصمت « على » قليلاً ثم أردف قائلاً في سخرية مريرة :

— اللهم إلا إذا كان مجرد التفكير يسبب له قلقاً .. وعلى أية حال لن يمنعني

الإبعاد من هذا التفكير .

وأحس « سليمان » بعطف شديد على « على » وهو مطرق نحو المدفأة ، وقد

بدت مظاهر أسى تعتم وجهه ، وقال في رفق :

— اسمع يا « على » إن تفكيرك من حقلك وحدك ، وليس لأحد أن يتدخل

فيه .. لا الأمير ولا غير الأمير .. ولكنني مع ذلك أتساءل .. ماذا يدعوك إلى

التفكير فيها بعد كل هذا ؟ .. وماذا يمكن أن يكون مدى أملك في هذا التفكير ؟

وصمت « على » برهة .. وبدا كأنما لا ينوي الإجابة .. حتى همّ

« سليمان » بمعاودة السؤال ، ولكن « على » أجاب في صوت خفيض وكأنه

يحدث نفسه :

— لا أظن من السهل أن أشرح ما بنفسى .. ولكنني مع ذلك سأحاول ..

ليس هناك من يعرف مدى يأسى منها بقدر ما أعرفه أنا .. فأنا أوقن تماماً .. أنه

لا يمكن أن آمل منها في أى نوع من أنواع الصلات .. وصدقتني إذا قلت لك :إني ..

لا يهمنى كثيراً أن أراها ، أو أكلمها ، أو أسمع عنها .. لقد قطعت في نفسى كل رجاء منها كمخلوقة حية .. وكل رغبة فيها كشئ مادي .. ولكنى مع ذلك لم أستطع .. ولا أظننى سأستطيع أن أقتلع إحساسى بها ، كشئ مغروس فى أعماقى ، ممتزج بكيانى .. فهذا إحساس .. إن أفلحت فى إخماده اليوم أو غداً ، بكل وسائل التبغيض واليأس .. فليس أسهل من إيقاظه وتأججه بمنظر عابر ، أو نسمة سارية ، أو حلم من أحلام الدجى .. أو حتى بغير هذا ولا ذلك .. إن إحساسى بها كصلة روحية لا يمكن اجتثاثه ، فأنا فى اجتثاثه كمجتث الشجرة .. كلما قطعها .. لا يلبث أن يجدها نمت على مر الأيام ، دون أن يعرف كيف اشتدت ولا متى نمت .. إنها أشبه بالداء المزمن لا براء منه .. ولا علاج له .. وإن كنت أجدها داء خفياً ، بلا خطر ولا ضرر .. بل إنه أضحى ألزم إلتى من صحتى ، ومن حياتى .. أفهمت كيف أفكر فيها وأحس بها ؟! لقد باتت شيئاً كامناً فى نفسى ، لا زوال له ، ولا خلاص منه .

وأمسك « سليمان » المساك الحديدى « الماشة » يقلب النيران ، ولم يكن من قبل يؤمن بمثل هذا الشعور الذى حدثه عنه « على » .. شعور الإصرار على تملك ما لا سبيل إلى تملكه ، ولكنه أحس من نبرات « على » إيماناً قوياً راسخاً لا يتزعزع ولا يتزعزع .. ولم يكن هناك معنى لأن يحاول زحزحته أو زعزحته .. وقد طواه فى نفسه ، وضمه بين جوانحه .. ولم يعد منه ضرر ولا خطر .

وقال « سليمان » بعد فترة تأمل وتفكير :

— قد تكون على حق فى تفكيرك ومشاعرك ، وحتى لو لم تكن على حق .. فلا أظن هناك من يقدر على تغيير طريقة تفكيرك وتبديل كيفية إحساسك ، ما دمت تجد فيها نوعاً من السعادة أو العزاء .

ولكن كل ما أطلبه منك ، وأنصحك به ، هو ألا تجعل لتفكيرك ومشاعرك مضاعفات ، تغير مجرى حياتك .. أو تؤثر على طبيعتك أو عملك

— ٥٩٣ —

أو تصرفاتك .. لا تدعها تجعل منك إنساناً سلبياً حالماً شارداً .. استهلكها في باطنك ، حتى لا يبدو لها أثر على ظاهرك .. أفهمتنى ؟

وهز « على » رأسه وأجاب :

— أجل أفهمك جيداً ، وأسالك : ألا تجدني أفعل كما تقول ؟ لو لم أقل لك ما قلت .. أكنت تجدني ما ينم عنه ؟ إني أعمل .. وأتحرك ، وأكل ، وأشرب ، وأتحدث كغيري من بقية البشر .

— لست أقصد هذا .. فليس يكفي أن تعمل وتتحرك ، وتأكل وتشرب وتحدث ، وتبدو كغيرك من بقية البشر .. بل يجب أن تكون خيراً من بقية البشر .. لأن لديك الطاقة والقدرة على أن تكون كذلك . يجب أن تكون لك آمالك الكبار التي تناسب مع قدرتك .. والتي يمكن أن تستهلك في تنفيذها طاقتك وجهودك .. إني أعتقد أنك لست بال مخلوق العادي ، الذي يمكن أن يكتفى منه بمجرد العمل العادي ، بالأكل والشرب والتحدث والنوم والسير .. فيجب أن تخرج عن هذا النطاق الضيق الذي حددت فيه أملك ، وأغلقت عليه رجاءك .. يجب أن تخرج من سلبيتك التي تضاعفها قناعتك بالتفكير الشارد الحالم .. دع تفكيرك ينفذ إلى محيط أكبر وأوسع ، إلى محيط واقعي تستطيع أن تلمس به ما حولك من مهالك ، وبلايا تطبق علينا ، وأغلال نرسف فيها ، ونرزح تحت ثقلها .

— لست أفهم ما تريد .

— أيعجبك هذا الفقر والجوع والمرض ، الذي ينخر في أمتنا ؟ أيعجبك هذا الاعتداء الصارخ على سيادتنا وحریتنا ؟! أتعجبك هذه المذلة والهوان ؟! ماذا تبقى لنا من كرامة بعد أن وطئت نعالهم القدرة رمز سيادتنا ؟! وبعد أن أذلونا بدباباتهم وفرضوا علينا رغباتهم ؟!

— وماذا تريدني أن أفعل ؟! ماذا أملك أو يملك غيري لمنع هذا ؟!

— تملك كل شيء .. تملك الإيمان والعمل .. يجب أن نثار لكرامتنا .

يجب ...

— اسمع يا « سليمان » .. أنت تعرفني جيداً .. منذ أن كنا طلبة .. أنا
لا أعمل إلا في حدود واجبي .. ولا أحب أن أحيد عنه .. أنا ضابط .. وواجبي
هو أن أكون ضابطاً جيداً .. ويجب ألا تخرج جهودى عن هذا النطاق .. إن
آمالى كلها مركزة في الجيش ، وفي أن أكون ضابطاً ممتازاً .

— حتى هذا لا تفعله .. إنك تكاد تؤدى عملك .. لماذا لم تفكر مثلاً .. في
الدخول في كلية أركان حرب .. ألا يدخل هذا في حدود آمالك ؟! ألا يجب أن
تبذل فيه جهدك ؟

— لا يمكننا ذلك ، لأنه لم تمض علينا المدة الكافية ، وليس هناك ما يدعونا إلى
العجلة .

— بل مضت المدة الكافية ، وتستطيع أن تقدم طلب الالتحاق من الآن ..
وتركز كل جهودك في الاستعداد لامتحان الدخول .. عدأً سنقدم طلبنا ، ونبدأ
مذاكرتنا سوياً .. ما رأيك ؟ اتفقنا ؟

وبغير اكتراث .. أجاب « على » :
— كما تريد .

(٥٢)

هزيمة

انهلك « على » و « سليمان » فى الاستعداد للدخول فى كلية أركان حرب وفى نهاية العام نجحوا فى الامتحان ، وأمضيا العام الذى يليه فى الدراسة فى الكلية .. غارقين فى ملفات القوات المدرعة والمدفعية وواجبات الأركان حرب والمشروعات التكتيكية والإدارية .. وكان أكثر ما يشق على « على » فى الكلية هو دراسة علومها الإنجليزية .. فقد كانت هيئة التعليم مكونة من ضباط إنجليز من البعثة العسكرية .. يساعدهم بعض ضباط منتخبين من المصريين .. وكان عليه أن يمضى الليالى الطوال ، وهو منهك فى الدراسة والقراءة وإعداد المشروعات ، ووسط هذا الانهماك الشديد ، والجهد الشاق .. كان يخلّص اللحظات ليدنى الطيف النأى الذى بدا خجلاً لا يجسر على الاقتراب منه .. كأنما يخشى أن يضيع وقته .. كان يديه ليلتمس فى صدره بعض الراحة .. ويستجلب من مسة يده بعض الهدوء .. ومن تحسيسه شعره بعض الطمأنينة والسكينة .

وبين آونة وأخرى كان يدفعه إلى « كريمة » شعور مختلف بين رغبة فيها ، وحنين إليها ، وإشفاق .. وكانت زيارته فى أول الأمر متقطعة متباعدة ، حسبما تدفعه الرغبة ، ثم أخذت تتقارب وتنظم ، حتى اتخذت شكلاً رتيباً منتظماً ثابتاً .. وخصص لها أحد أيام الأسبوع .. يكاد لا يمنع عنها إلا سبب طارئ ، أو عذر قاهر .

وكان « حسين » قد نقل خلال هذا العام إلى بوليس القصر ، وزادات علاقاته بالطبقات العليا وتقربه منها .. وحاولت أمه بضع مرات أن تثير موضوع زواجه « بهية » فصدها برفق بدعوى أنه مضرب عن الزواج ، وأنه لا يريد أن

يحمل نفسه مسئولية زوجة وأولاد .

وكان الوفد في ذلك الوقت قد استبدّ بالحكم ، وبدت مظاهر الطغيان ، في كل مظهر من مظاهر تصرفات أقطابه ، وأولى الأمر فيه .. سواء كان ذلك في التصرفات الشخصية أو العامة .. دفعهم إلى هذا الاستبداد والطغيان شعورهم بالسيطرة التامة التي لا تحدّها مقاومة ، وإحساسهم بالثبات في مقاعد الحكم ثباتاً أبدياً ، لا تقدر على زحزحتهم عنه قوة في البلد ، بعد أن سندتهم فيه القوة الكبرى .. قوة الإنجليز بدباباتهم وسيطرتهم .. وبعد أن ضمنت لهم خلوداً ، جعلتهم يعملون لدينهم كأنهم يعيشون أبداً .

وهكذا أحست الأداة الحاكمة أنها مسيطرة بلا رادع ، متصرفة بلا محاسب .. وبات الحكم نية لكل من بيده سبب من أسبابه — ولو ضؤل — ، وأضحى استغلال نفوذ الحاكم وسيلة صريحة ، لا غبار عليها ولا حرج فيها ، للنفع الشخصي والكسب المادي ، وباتت مستباحة مستحيلة لكل من يمت إلى الحكم بصلة .

وبمضى الوقت ، أصبح استثناء ذوى القرى والحواشى والتوابع قاعدة من أبرز قواعد الحكم ، وأضحى تصاريح الاستيراد هبات ومنحاً ، تخلع من أصحاب السلطان وذويهم .. وبدت البلد كأنها صيد قناصه حاكموه ، ولم يجد الصف الثانى من الحكام من نواب وشيوخ ، بداً من أن يدلى بدلوه في الدلاء .. وكانت دلائهم .. قوت الشعب وثيابه وأكفانه .

وفى ذلك الحين اتخذ « الملك » الجانب الخير الطيب الأمين ، وتطلع إليه الشعب المغلوب على أمره ، المسلوقة حقوقه .. كقوة منقذة منصفة ، ولم تخيب سماته ومظاهره رجاء الشعب فيه ، بل أيدتها كل أعماله ، منذ جلسة الرغيف ، التي حضرها في مجلس وزراء « حسين سرى » .. حتى طوافه بالصعيد على صرعى الملاريا ، فى الوقت الذى تشاغل فيه أقطاب الوفد بالخطب ، والهاثفات المدوية فى الإذاعة .

وبدا تعلق الشعب بالملك على أشده في حادث القصاصين ، وفي احتشاده لاستقباله في عودته بعد أن بلّ من أصابه .. وبدت حوادث الاحتكاك بين الحكومة والقصر تزداد ، وبدت مظاهرها واضحة في التحدّي المتبادل ، وردّت الحكومة على تعطيل المراسيم بالحركات الصببانية المثيرة من هتافات إلى خطب إلى لافتات ، إلى اتخاذ رئيس الحكومة في حركاته ، وفي بيته ، سمات الملك ومظاهره .

وحدث في الوفد صدع جديد .. فصل عنه ركن قوى من أركانه ، وخرج « مكرم عبيد » ثائراً على الوفد وحكمه .. يدفع إلى ثورته مزيج من الأسباب .. بعضها ظاهر يرجع إلى فساد الحكم ، والبعض خفي يرجع إلى زلزلة سلطانه ، بوساطة القوة الأخرى التي نحتة عن مكانته ، وأمسكت بزمام الوفد ، وسيطرت على قيادته ، وهى قوة « زوجة رئيسه » .

ووقف « الملك » ووراءه المعارضة بما فيها من مكرم وكتابه الأسود .. ووقف وراءهم الشعب يتطلع إليهم ، آملاً أن يزيحوا عنه الكابوس الذى أطبق على رزقه وقوته وكسائه ، وبدا للملك أن يقدم على إقالة الوفد ، وهياً فعلاً الوزارة التى ستخلفه ، وجمع وزراءها فى قصره استعداداً لحلف اليمين عندما أمره الإنجليز بعدم التغيير .

وكان للملك فى ذلك الحين منزلة كبرى فى قلوب الضباط ، وكانوا يتطلعون إليه كما يتطلع بقية الشعب كمنقذ للبلد ورمز للسيادة ، وكانوا يعلقون عليه آمالاً كباراً ، وزاد من حبهّم له أنه كان يمثل الجانب الطيب المغلوب على أمره .. الذى تقف فى سبيله قوى الشر ، التى مثلها الوفد والإنجليز .

وعنى الملك — أو المدبرون لسياسته — بكسب قلوب الضباط بثتى الطرق والوسائل .. وتعود أن يذهب كل عام إلى نادى الضباط فى ٤ فبراير بذكرى اعتداء الإنجليز على القصر — ليجلس معهم بلا كلفة ويتحدث معهم حديث الأصدقاء .

ورآه « على » و « سليمان » فى النادى فى إحدى المرات .. كان يقهقه ويمزح .. ويلقى النكات الخارجة كواحد منهم .. وعندما غادر الصاحبان النادى ، قال سليمان فى حماس :

— إنى أحب هذا الرجل .. إنه يبدو مصرياً يحسّ بأحاسيسنا ، ويشعر بمشاعرنا .. ليس به من سمات أرسقراطية الملوك والأمراء شئ .. إنى أحس أنه أمل مصر .. ما رأيك أنت ؟ .. ألا تحس أن خلاصها سيكون على يديه ؟
وضحك « على » وأجاب قائلاً :

— والله أنت أدرى منى .. أدرى بمصر وأملها وخلاصها .. لأننى لأفهم فى هذه الأشياء .. لأننى لا أعرف ممن تريد مصر الخلاص .. ولا ماذا تأمل ؟
— بصفة عامة .. ما رأيك فيه ؟

— لا بأس .. إنه مخلوق مثلى ومثلك .. ولو وضعنا أمك أو أمى مكانه .. لما بدونا أقل منه .

— أيها المغرور !!

— لست مغروراً .. ولكنك أنت تندفع اندفاعاً شديداً ، وراء كل ما تتحمس له .

— ألا تعجبك فيه هذه الديمقراطية البسيطة غير المتكلفة ؟

— تعجبنى .. ولكن لا تعجبنى فقهته الشبيهة بقهقهة المجانين .. ولا تعجبنى طريقة حديثه .. المفروض أن يكون أكثر اتزاناً .. وأفضل حديثاً .
— إنه لا يتكلف معنا .

— والمفروض أن يكون مترناً فاضلاً .. بلا تكلف .

— على أية حال إنى أحبه .

— لأنك متحمس له .. إنك دائم التحمس .

— وأنت لا تتحمس أبداً ؟

— ليس فى حياتنا كلها ما يستحق التحمس .. دعها تسير .

— كيف تسير الوفد جاثم « على قلبها .. لطلولون » .. — كما يقول رئيسه — لم تعد لى أمنية إلا أن ينتصر « الملك » ويلقى بالوفد خارج الحكم . وانتصر « الملك » أخيراً ، وأقال الوفد إقالة مسببة بالعجز والتقصير والفساد ، وفي غمضة عين وجد الوفد نفسه ملقى على قارعة الطريق .. دون أن يستطيع سنده القوى أن يثبتته فى مقاعد الحكم .

وتولت مجموعة الأحزاب المؤتلفة الحكم برياسة أحمد ماهر ، وبدأت حكمها بمعركة على مقاعد النواب .. فقد أدرك رئيس كل حزب أن عدد نوابه هم الذين سيضمنون مستقبله فى الحكم .. وانتهت معركة الانتخابات بإيغار الصدور ، وضياح الثقة .

واستمر « أحمد ماهر » فى الحكم مع مجموعة الأحزاب المتعاونة حتى اغتياله فى البرلمان ، بعد أن قرر أن تدخل مصر الحرب مع الحلفاء ، حتى تكتسب عضوية هيئة الأمم المتحدة .

وتولى « النقراشى » الحكم .. واستمر فيه .. حتى خرج مكرم بحزبه . ثم تولى « صدقي » الحكم بحزبى الأحرار والسعديين ، وفشل فى الوصول إلى اتفاق مع الإنجليز .

وخلفه « النقراشى » مرة ثانية ، وعرض قضية مصر على مجلس الأمن ، مهاجماً الإنجليز ، دون أن يتوصل إلى شئ .. واستمر فى الحكم بعد ذلك ، حتى دخول حرب فلسطين .. وحل جماعة الإخوان بعد تعدد حوادثهم واغتيالهم .. ثم كان مصرعه بيد أحدهم فى وزارة الداخلية .

وخلال تلك الفترة .. تطور إحساس الشعب والجيش « للملك » تطوراً واضحاً .. بدأ منذ انتصار « الملك » على الوفد ، وطرده من الحكم .

لقد خلف هذا الانتصار آثاراً عدة .. فلم يعد « الملك » بعد ذلك يمثل الجانب الطيب الخير المظلوم المغلوب على أمره ، والذي يتمتع بحب شعب ذى ميل غريزى إلى المظلوم والمغلوب على أمره ، بل بدأ يمثل الجانب الأقوى ،

صاحب الأمر والنهى ، الذى أضحى بيده مصير الحكام ، والذى يستطيع — دون الشعب — رفعهم إلى مقاعد الحكم .. وخفضهم عنه .. بعد أن تمكن من طرد قوة الوفد الكبرى ، التى كانت تستمد قوتها من الشعب تارة ، ومن الإنجليز تارة أخرى .

وهكذا أخذ « الملك » يفقد عطف الشعب بإتخاذ الجانب الأقوى صاحب الجبروت والسلطان ، الذى سلب الشعب حقه المفروض فى وضع الحكام وعزلهم .

وزاد من غرور « الملك » وجبروته .. إحساس الحكام أنفسهم ، بأنه قد بات صاحب اليد العليا عليهم .. وأن مصيرهم معلق بيده أكثر مما هو معلق بشئ آخر .

وفتق الغرور والإحساس بالسيطرة التامة التى بعثها الزلقى ، والخضوع والخنوع من الحكام ما يباطن « الملك » من سوء متأصل ، وشذوذ كانت تحجبه ستر المظاهر ، والرغبة فى كسب المحبة والعطف والتأييد .. عندما كان يحس بأنه مغلوب على أمره .. لا يملك فى قبضته القوة الإيجابية التى يستطيع بها أن يفعل ما يريد .

وبفقد « الملك » كل ما كان يتمتع به من حب طبيعى ، وتأيد غير متكلف من الشعب والجيش .. بدأ العمل على استعادة هذا الشعور بطريق التصنع والافتعال ، وحشدت كل قوى الحكام والأتباع لكى تفرض حب « الملك » على الشعب فرضاً وتدفعه فى قلوبهم دفعاً .. وبات هدف الدولة الأول بكل ما فيها من مرافق ووسائل هو تمجيد « الملك » وتأليه ، وإحاطته بهالة زائفة من البطولة والقدسية ، وحجبه وراء ستر براق من الأكاذيب المضللة ، والدعايات الخداعة .. وأضحى مقياس نجاح الأعمال يقاس أولاً برضاء « الملك » عنه وإفادته منها .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه السياسة البلهاء الساذجة هو عكس ما توقع

أصحابها أن يجنوا منها ، فقد ضاقت النفوس بهذه النوبة المجنونة من التمجيد غير المعقول .. وبات خلع الحب ومنح الولاء التي تفيض بها خطب الحكام ، ومقالات الصحف وأنشيد الإذاعة ممجوجة مستثقلة . وأحس الناس كأنها فرض على أذهانهم وآذانهم .. لابد لهم من قبوله والتسليم به .

وأحس « الملك » بالكثير من الطمأنينة وراء هذه الحجب الزائفة من البطولة والقدسية ، وأوهم أنه قد ضمن رصيذاً ضخماً من الحب والولاء لا يتبدد على الزمن .. وانطلق على سجاياه الخيثة المجنونة وراء هذه الحجب متحرراً من قيوده كملك .. بل من قيوده كبشر ، ولم يجد ما يدعوه لأن يكلف نفسه مشقة أداء واجبه ، أو كسب محبة شعبه ما دام قد ضمنها له من حوله بطلائهم الزائف ، وتمويههم الخادع .. ولم يجد مبرراً لأن يجهد نفسه في عمل جاد ، ما داموا قد جعلوه — بلا جهد — العامل الأول ، والفلاح الأول .

وبدأت حلقة مفرغة من طغيان « الملك » واستخذاء الحكام ، فأخذ انتفاخ « الملك » يزيد من انكماش الحكام .. وانكماش الحكام يزيد من انتفاخ « الملك » .. كأنهما بالونتان تفرغ إحداهما هواءها في الأخرى ، حتى انتهى الأمر بأن أفرغت بالونة الحكم كلها في جوف « الملك » وأضحى القصر هو وحده صاحب النفوذ .

وفي ذلك الوقت ظهرت قوة شعبية جديدة بعد انكماش شعبية الوفد ، وهي جماعة الإخوان الذين استمدوا قوتهم من الدين ، وأفرغوها في السياسة . وعندما أثبتت لهم دعوتهم الدينية، ريشاً ومخالب، انقضوا بها على فريسة الحكم .. فلم يجد الحكام بدمناً تنف الريش ، وتقليم المخالب ، وواد البغاث المستنسر ، المنقض ، بعد أن أشاع في البلد جواً من الإرهاب .

وتطور الشعور في الجيش بمثل ما تطور في الشعب .. وأخذ الضيق والملل والسخرية والاشمئزاز يزداد في نفوس الضباط بازدياد سخافات الولاء ، وآلهم وأسخطهم أن يجدوا رياستهم قد شذت بهم بأسلحتهم وجنودهم في عربة الولاء ،

وأنتهم لم يعد لهم من عمل سوى الانسياق زرافات إلى القصر لإظهار ولائهم في مناسبة وغير مناسبة، وأن يقتصر واجبهم على الاحتفالات والمواكب والاستعراضات، وأن تستنفد جهود صياتهم وأشغالهم إلى إعداد مواكب الشعلة وأقواس النصر، وأن يكون النجاح في مثل هذه السخافات والتفاهات هو مقياس نجاحهم واستحقاقهم للثناء.

لقد كرهوا — كما كره الشعب — أن تستغفل عقولهم .. وأن يكونوا مجرد أداة لإثبات الولاء للذات العلية، ووسيلة لتثبيت رئيس أركان الحرب في مركزه، واكتسابه لرضاء القصر، وتثبيت رؤسائهم في رياستهم، واكتساب لرضاء رئيس هيئة أركان الحرب، أى وسيلة لسلسلة تثبيات واكتساب للرضاء.

وبانت جهود رياستهم المفتعلة لإظهار الولاء مثار تندرهم وسخريتهم، وأضحى تغيير شعار الجيش من « الله والوطن والملك » إلى « الله والملك والوطن » فكاهة الموسم.

واشتمت أول روائح التبرم والسخط عندما اعتقل بعض الضباط في ميس المشاة وحقق معهم بتهمة الشيوعية، ولم يكن هناك بد من كبش فداء يفتدى به « الملك » .. ويظهر أن السخط والتبرم لم يكن منه وأنه لا يتمتع إلا بالولاء والمحبة .. وكانت الضحية هي أقرب الناس إليه .. وقطعت اليد التي طالما اعتصرت جهود الجيش، لتقدمها قطرات ولاء في كأس « الملك » وتنحى « عطاالله » عن رئاسة الجيش.

وتولى « حيدر » وزارة الحربية بدل « عطية » في وزارة النقراشي، وأمسك بزمام الجيش .. ولكنه لم يكن أكثر فهماً للمشكلة .. وخيل إليه أن جنانية « عطاالله » كانت التقصير في جمع صكوك الولاء .. فاندفع في طريق الولاء اندفاعاً أشد وأقوى .. غلَّ يعوض ما فات سلفه .. ويحصل ما قد يكون قد قصر في تحصيله .. ووجد أن مجرد سوق الضباط للتنزية في ذكرى وفاة « الملك فؤاد » — كما كان يفعل سلفه — أمر لا يكفي لإظهار الولاء، فألبسهم كرافة سوداء في ذلك اليوم مبالغة في مظاهر الحزن، في الوقت الذي كان ارتداء

الكرافة السوداء على البذلة الكاكي يعتبر لبساً على وجه غير لائق يعرض الضباط للجزاء ، وكان الضباط لا يستطيعون ارتدائها حتى في يوم وفاة أبيه ، ومع ذلك فهو يؤمر بارتدائها حتى يقنع « الملك » بأن الضباط في حزن على أبيه الذي مضى على وفاته ما يربو على عشر سنين .

وأغرق الضباط في الترقيات .. وكان « حيدر » يستمد نفوذه في الوزارة من القصر .. ولم يكن هناك من يجسر على معارضة مطالبه .. واتخذت ترقيات الضباط مظهرًا يشعرهم الجميل ، فقد كانت تعمل احتفالات يسلم فيها « حيدر » علامة الرتبة للضباط بيده ، حتى يشعر بما فيها من منح .

وتسلم « علي » و « سليمان » علامة الصاغ من « حيدر » في صالة الجمار في الكلية الحربية .. وكان « علي » قد عين مدرساً بالكلية الحربية بعد تخرجه في كلية أركان الحرب ، أما « سليمان » فقد تقلب في بعض مناصب في ریاسات الجيش ، ثم عاد إلى السواری .

ولم تكن السنون قد غيرت من « علي » .. كان هو هو ، بنفس رزاقته وهدوئه .. لم يأبه كثيراً .. لما يخرج عن دائرة عمله .. كان يعتقد أنه ليس هناك ما يستحق منه الجهد سوى تلاميذه ودروسه .. أما ما يفعله « عطا الله » و « حيدر » .. وما أدت إليه المفاوضات ، أو ما فعلت هذه الوزارة أو تلك ، فلم يكن بغيره جهداً إلا من باب المعرفة والاطلاع .

لم يكن يضيق بسوق الضباط إلى القصر لإظهار الولاء ، لأنه لم يكن يذهب أبداً ، لإعتقاده أنه ليس هناك من يشعر بغيباه أو وجوده ، وأنه لن يفيد ولن يستفيد ، وفي المرات التي كان يذهب فيها ، عندما كانت إدارة الجيش تشدد في أوامرها بالذهاب ، وتأمر القواد بالتميم على ضباطهم بالاسم ، كان يجد في الذهاب متعة لقاء الزملاء القدامى ، الذين قرّتهم دواعي العمل ، ولم يعودوا يجتمعون إلا في مثل هذه المناسبات .

ولم يكن يضيق بالكرافة السوداء ، لأنه كان يلبس في ذلك اليوم « الوشيرة » أو قميصاً مفتوح الياقة ، ولم يكن يفعل هذا لأنه لا يريد أن يظهر

ولاءه ، بل لأنه لا يملك كرافقة سوداء .

ولم يكن يهتم كثيراً بالفائز في سباق شعارهم .. أهو الله أم الوطن أم الملك .. لأنه لم يكن يفكر كثيراً في الشعار ، ولا كان يعتقد أن للشعارات أية أهمية .. وكان واثقاً من أن الله أو الوطن لن يضرهم كثيراً أن يقدم رئيس أركان حرب « الملك » عليهما في لافتاته وأقواله .

ولكن « سليمان » لم يكن كذلك .. كانت حماسه « للملك » قد باتت سخطاً عليه .. وكانت ثورته على الاستعمار ، وكفره بالأحزاب ، قد زاد اشتعالاً وتأججاً .

وحاول « سليمان » — كما كان يحاول من قبل — أن ينقل إلى « علي » عدواه ، وأن يثير اهتمامه بالمسائل العامة ، ولكنه لم يلق منه سوى قلة الاكتراث الطبيعية والبرود العادى .

وأعلنت حرب فلسطين .. وتقابل « سليمان » مع « علي » في مكتبه بالكلية الحرية ، وبدا الحماس على « سليمان » .. وقال وهو يفرك يديه في غبطة ورضاء :

— أخيراً .. آن لنا أن نتقدم لإنقاذ فلسطين الجريحة .

ورفع « علي » بصره عن المذكرات التي كان يراجعها ، وبدت عليه الدهشة .. وأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ، وقال متسائلاً :

— نتقدم لإنقاذها بأى شيء ؟

— بقواتنا المسلحة .

— اسمع يا « سليمان » .. دع الآخرين يقولوا هذا .. ولكن لا تدعنا نضحك على أنفسنا .. أتعتقد أن جيشنا يستطيع الدخول في حرب بحالته الراهنة ؟!

— ولم لا ؟!

— لا تدع الحماس يدفعك إلى إنكار الواقع .. أنت في السواري .. وتعلم

جيداً مدى قدرة أسلحته وجنوده على القتال .. أنت تعرف أن السوارى أمضى مدة الحرب الأخيرة ، وقد قُرت جنوده لحراسة المرافق ، بلا دبابات ولا عربات .. كانوا مجرد دوريات مشاة .. وتعلم أن السوارى لم يعد يتدرب إلا على طوابير الاحتفالات ، وتعلم أن نصف دباباته معطل ، ومدافعها غير صالحة للضرب ، وليس هناك ما يكفى من السائقين والمدفعية . أتعتبر بعد ذلك أن لديك قوات مدرعة تستطيع أن تخوض بها معركة ؟! أعتبر أن كتائب المشاة التى لم يتدرب عساكرها على أكثر من طوابير السير ، يمكن أن نعلم عليهم فى احتلال موقع ، أو فى الدفاع عنه ؟! أعتقد أن أسلحة الجيش المعاونة .. كخدمة الجيش ، والصيانة والمهمات .. يمكن أن تقوم على تموين جيش وصيانتة فى ميدان قتال ؟! فُكر فى هذا وأجبنى ، كيف يمكن أن نزع بجيشنا بحالته الراهنة لإنقاذ فلسطين ؟! لقد ذهلت عندما سمعت خبر دخولنا الحرب .

— كل هذا سينتظم مع الوقت .. وكل جيوش العالم تبدأ معاركها ، وهى على مثل هذا الحال .. أنسيت حال الإنجليز فى بداية معارك الصحراء الغربية ؟ أنسيت حال الأمريكان عندما نزلوا أول الأمر فى شمال أفريقيا ؟

— لم أنس .. لقد كانت حالتهم سيئة فى أول الأمر ، ولكنها تحسنت ، لأن لديهم رصيذاً من الإمدادات والمؤن لا ينفد .. ولكن قل لى من أين سنأتى بالذخائر ؟ من أين سنأتى بالأسلحة ؟! أنت تعلم ان كل ما لدينا من ذخائر فى مخازن الجيش .. يمكن استهلاكه فى معركة أو معركتين .. وماذا سنفعل بعد ذلك ؟

وفكر « سليمان » برهة ، ثم أجاب :

— لابد أن يكون المسئولون قد دبروا ذلك .. لابد أنهم اعتمدوا ، عند إعلانهم الحرب ، على مصادر موثوقة تمدهم بكل ما يلزمنا من أسلحة وذخائر .. وأغلب ظنى أن إنجلترا قد ضمنت لهم كل ذلك .
— وإذا أخلت إنجلترا بضمناها ؟ أتثق أنت فى إنجلترا بعد كل ما قلته عنها فى

كل مناسبة. أتعوّدت إنجلترا أن تفي بوعودها؟
وبدا القلق على «سليمان»، ولكنه ما لبث أن طرده من نفسه، وقال في حماس:

— دعها لله.. إنه لابد ناصرنا.. إن لدينا في قلوبنا من الإيمان ما يكفى لتحطيم إسرائيل كلها. ثم إنها ليس لديها من القوات ما يمكنها مقاومتنا، ويجب علينا أن نخوض المعركة بأية وسيلة.

وهز «على» رأسه ولم يجب، فقد عرف أن المناقشة غير مجدية.. ولم يكن هو يقتنع كثيراً بأن الحماس والإيمان يمكن أن يحل في الهجوم أو الدفاع محل الأسلحة.. ولكنه كره أن يبدد إيمان «سليمان».. وأقع نفسه بأنه ربما كان لدى الجيش فعلاً أسلحة لا يعرفها، وأن الحالة ربما تكون أفضل مما يتصور.

وبدأت الحرب.. بداية استعراضية طيبة. وبدأ الجيش في التقدم على الخرائط في كوبرى القبة وقصر النيل.. وكانت القيادة تنقل القوات على الخرائط لكي تحتل مواقع لم تحتلها بعد في الميدان. وكانت القوات تضطر إلى التقدم مكرهة لكي تطابق مواقعها على الخريطة مواقعها على الأرض. أو لكيلا تجعل كلام القائد العام في كوبرى القبة «ينزل الأرض».

وانقضت المرحلة الاستعراضية الأولى.. وتناثرت القوات المصرية بحالتها التي وصفها «على» «لسليمان» في أراضى فلسطين.. بلا تدريب ولا أسلحة ولا ذخائر.. ولم يكن هناك من سبيل إلى إمدادها بالأسلحة والذخائر بعد الخطر الذى فرض عليها.. وانطلق سماسرة الأسلحة والذخائر يجمعونها من البقايا والمخلفات المبعثرة في الصحارى، ومن الأسواق السوداء في أوروبا، وكانت الحاجة ملحة عاجلة، وكان لابد من رفع القيود المالية المفروضة على وسائل الشراء. فقد كانت السرعة والضرورة تطغيان على الممارسة والتخير في الأسعار والأصناف، وتركل كل وسائل الشراء الحكومية ببطئها المأمون.. وكان الهدف الأول هو إعطاء القوات التى تكاد تهلك ظمأً إلى الأسلحة والذخائر ما يلزمها بأى ثمن وأية وسيلة، وفتح هذا الباب— باب تحطيم القيود المالية أمام

الحاجة الملحة — طريق العبث لأصحاب النفوذ الضعيفة .. واندفعوا يفترون من مال لا رقيب عليه ولا حسيب .. وأصبح معركة فلسطين وجهان : وجه يقطر دماً ومرارة وسخطاً ، ووجه يقطر مالا ورضاء ونعيماً .

وانتهت المعركة بالهزيمة كنتيجة حتمية لاندفاع طائش لا يستند على أسس . وبدأت وزارة « عبد الهادى » التى خلفت وزارة « النقراشى » أول أعمالها بالهدنة ، وثنت بقطع دابر جماعة الإخوان ، وتشتيت شملهم ، واندفع رئيس الوزارة إلى القضاء عليهم اندفاعاً شديداً ، وهو يعتقد مخلصاً بخطورتهم على البلد ، وبضرورة التخلص من برائتهم الإرهابية وسيطرتهم الرجعية المتعصبة ، يؤيد هذا الاعتقاد ويقويه ، إحساسه الشخصى الطبيعى بالضغينة لمقتلهم سلفه وصديقه ، وتهديدهم لحياته هو .

وأنتجت سياسة التنكيل بالإخوان والارتباط بالقصر ومجرد الوجود فى الحكم نتائجها فى إحساس عام بالنفور من وزارة « عبد الهادى » .

وأحس « الملك » ومن حوله بالبغضاء تشتت ، والكراهة يتفاقم . ولم تعد حجب الولاء المفتعل ، التى ينسجها حوله الحكام والأتباع ، قادرة على حجب مساوئ « الملك » عن الشعب ، أو تدمير الشعب من « الملك » ، ووجد أن استمرار الارتباط بمجموعة الأحزاب الحاكمة السائرة فى ركابه .. لا يفيد سوى مزيد من بغضاء ، وبداله أن يقدم بها كبش فداء للشعب .. وأن يستعيز عنها بقوة أخرى قد تكون — رغم نفوره منها — أقدر على منحه بعض التأييد الشعبى ، بعد أن استعادت شعبيتها بالبعد عن الحكم .

وهكذا ألقى « الملك » بضحية جديدة فداء له .. وفقد بتضحيتها آخر نصير كان يشد أزره ، ويمشى فى ركابه .

وأجريت الانتخابات .. ففاز الوفد ، وتقدم إلى الحكم على أساس جديد .. هو أن « الملك » — خصمه التقليدى السابق — قد أضحي بيده مصير الحكام .. وأن الشعب سنده الأول ، والإنجليز سنده الثانى .. لم يعودوا يملكان له ضراً

— ٦٠٨ —

ولا نفعاً .

وأنه ما دامت الأقليات تستقر في الحكم .. باسترضاء « الملك » .. فلن يكونوا هم أعجز منها على إرضائه ، والاستقرار بدلها في مقاعد الحكم .

(٥٣)

شائعات

انتهى انتداب « على » من الكلية الحربية ، وعاد إلى الخدمة في السوارى كقائد لإحدى كتائب العربات المدرعة ، وكان يحب السوارى .. ويحس بين جدرانه وإصطبلاته وجراحاته طمأنينة المستقر ، وسكينة الموطن .. ويشعر لكل من فيه من ضباط وجنود ، وخيول وعربات ، بحنين المرء إلى الأهل والخلان .

وقرب « على » — بحكم مركزه الجديد — من « سليمان » الذى كان يتولى قيادة إحدى كتائب الدبابات .. وكانت الآليات المدرعة قد احتلت الشكنات الواسعة وراء السوارى ، التى أخلاها الجيش الإنجليزى بعد جلأته عن القاهرة .

وكانت الصلة بين « على » و « كريمة » قد وطدها مرّ الايام .. وبدأ يشعر من وفائتها وقناعتها وتفانيها فى حبه .. وخشيتها عليه .. بالكثير من الثقة والطمأنينة والإحساس بالجميل . ولم يعد يعتبرها مجرد دمية يشبع بها رغبة ويقضى بها حاجة .. ولا عاد يداخله من صلته بها شعور بالخجل أو الحياء .. وبات يجد فيها مخلوقة لا تعدم جوانب الخير ، ونواحي الفضيلة ، بمعانيها الواسعة التى لا تقتصر على مجرد الاحتفاظ بالجسد نقياً طاهراً .. كان يجد بها برّاً بالمحتاج، وعظفاً على المسكين .. وكانت بهارقة وحنان، وميل إلى التضحية .. لم يكن « على » فيما مضى يتوقع مثل هذه الجوانب الطيبة فى مثل هذا النوع من النساء .

ولم يكن هناك شك فى أن مرّ الأيام الذى وطد صلته بكريمة ، قد أو هى تفكيره فى « أنجبى » ، رغم انعدام الشبه بين الصلتين ، ورغم أنه لم يحاول قط أن يقارن بينهما ، أو يحل إحداهما محل الأخرى .

لقد وهى تفكيره فى « أنجى » .. وإن لم ينقطع .. ولم يكن قد بقى بينه وبينها سوى صلة التفكير ومناجاة الطيف وعتابه ، وزاد الطيف من نأيه ، ولكنه لم يرحل ، وظلت الموعودة فى القلب .. وإن تراكت عليها أتربة الأيام التى تمر ، والبعد الذى يتزايد .

ومع كل هذا كانت باقية .. بقاء عزيز ناء تضمحل صورته ، ولا تمحى ذكره .

ولقيها خلال تلك الفترة مرتين : رآها مرة من بعيد فى إحدى حفلات الفروسية ، وانصرف قبل أن تراه ، ورآها مرة أخرى فى إحدى الحفلات فى فندق هليوبوليس .. والتقى بصراهما برهة ، ثم غاب كل منهما عن الآخر .. وأحس فى المرتين — رغم الزمن الذى مرّ ، والهجر الذى وقع — أنها ما زالت سارية فى دمه .. راسية فى أعماقه .

وتوفى أبوه بعد أن سرى الشلل إلى أطرافه حتى أقعده ، ودبت الشيخوخة ومرض السكر فى جسد أمه حتى أنهكها ، وما زال حلمها فى زواج ولديها يداعب رأسها .. وما زالت « بهية » قابضة بجوارها تنحو عليها حنو الابنة ، رافضة من تقدم إليها من « خطّاب » .. مفضلة أن تبقى بجوار خالتها .. وأن تنتظر .. وتنتظر علّ الله يحقق أملا ما زال يراود نفسها منذ الصبا .

وجلس « على ، وحسين ، وسليمان ، » فى ليلة الذكرى الأولى بعد أن انصرف المعزون .. ودخلت الأم عليهم متسائلة :

— أجهز لكم العشاء ؟

ونفض « سليمان » مستأذناً :

— سأعود أنا .. فقد قاربت الساعة الحادية عشرة .

وجذبه « على » محاولاً إعادته إلى المقعد :

— اجلس يا أخى .

وضمت الثلاثة مائدة صغيرة فى الشرفة المطلة على سكة الحديد .. وكان

الوقت أوائل أكتوبر ، وقد بدأت نسيمات الليل تبرد .. وقال « على » :
— لقد أوحشنا البرد .. وأوحشنا ركوب الخيل .. ما رأيك يا « سليمان »
في الركوب بعد الظهر ؟

— والطواير ؟

— بعد الطابور .

— لا أظننى أستطيع .. فلدى أعمال تشغلنى .

— أية أعمال هذه التى تشغلك ؟! إني لا أكاد أراك فى هذه الأيام ؟ .. ماذا

وراءك ؟

— أبداً .. أشغال مختلفة .

— أما زلت تعمل فى تحضير الأرواح ؟

— أجل .

وتساءل « حسين » :

— أى أرواح تحضرون ؟

— أرواح مختلفة .. بالأمس حضرنا مثلاً روح سعد زعلول . ومصطفى

كامل .

— يا أخى .. حتى فى الأرواح تشغل نفسك بالسياسة .. ألا تود أن تريح

نفسك ؟

وضحك « سليمان » ضحكة مريرة ساخرة وأجاب :

— ولماذا أريح أنا نفسى .. وليس هنالك فى البلد كلها إنسان يحس بالراحة ؟

إننا نسير من سىء إلى أسوأ .. ويعلم الله إلام يمكن أن ننتهى .

وضحك « حسين » وقال :

— لن ننتهى .. لقد كنا دائماً هكذا .. وسنظل كما كنا .. ماذا جدّ علينا ؟!

— لا يا « حسين » .. لم نكن أبداً هكذا .. لقد كان الشعب دائماً يجد فى

صفه قوة معارضة للطغیان والا سبّداد . كانت بالبلد ثلاث قوى .. الإنجليز ..

والقصر بأحزابه .. والوفد .. وعندما كان للشعب يواجه طغيان الإنجليز والقصر .. كان يجد في الوفد سنداً يشد أزره ويجأر بشكواه ، وعندما واجه طغيان الوفد والإنجليز ، كان يجد في القصر منقذه وملأذه .. أما الآن فأين يجد الملاذ بعد أن اثقلت عليه العصابة .. حتى القلة المعارضة قد طردت من مجلس الشيوخ . بعد أن فتقت عن فضائح الأسلحة ومخازى الحاشية ، وأضحى البلد الآن صيداً حائراً بين الجشع الملكي والطمع الوفدى .. وقد تعلم الوفد ألا يشين نفسه بالسرقات الصغرى .. واستغنى عنها بمضاربات القطن ، والصفقات الدسمة .. وبات آمناً مطمئناً بعد أن اتفق مع القصر على سياسة « شيلنى وأشيلك » .

ورد « حسين » بلهجة الواثق :

— القصر ليس له دخل فى شىء .. أنا أعرف جيداً ماذا يشغل الملك .. إلى أصبحه أحياناً فى بعض السهرات كحرس خاص .. وأعرف ماذا يفعل خلال الليل ، أى فى الساعات التى يكون فيها فى حالة يقظة .
— أنت على نياتك يا « حسين » . أنت لا تبصر إلا جانب العبث والقمار واللهو .. ولكنك لا تعرف أن « الملك » وحاشيته مشتركون فى كل صفقات الأسلحة الفاسدة ؟

وبهت « على » وقال مستكراً :

— غير معقول .. إن « الملك » قد يرتكب كل معصية إلا السرقة .. لأنه متختم بالمال .. غير معقول أن « الملك » يسرق .

— بل هذا هو ما حدث فعلاً .. إن العنصر الفعال فى قضية الأسلحة هو « الملك » ورجاله .. وإذا سرق « الملك » ورئيس الوزراء والوزراء .. فقد انهارت المثل .. ولم يصبح من حرج على أى إنسان فى الدولة أن يرتشى أو يسرق .. وأضحى البلد كله نهبة للأداة الحاكمة التى جعلت لتكون أمينة على أمواله .. لا يمكن أن يستمر الحال على هذا أبداً .. يستحيل أن يبقى زمام البلد فى

يد هذه الشرذمة الأفافة .. ويستحيل أن يستمر بها هذا الحكم الذى ليس به من الديمقراطية شئ سوى بضع مئات من النواب والشيوخ ليس لهم من عمل إلا المحافظة على أطيانهم ، وحمايتهم من الضرائب .. لا بد لهذا الحال من نهاية .. حرام أن يظل هذا الشعب يتمرغ فى الرغام ويتضوّر من الجوع والعوز .. لا ترعاه سوى عصابة عابثة لاهية ، تستحل كل نقطة من دمه .

ضحك « حسين » وقال ، وهو يدفع إلى « سليمان » بطبق الأرز :
 — كل .. كل .. من يومك وأنت تبكى على الشعب .. ماذا يزعجك إذا كان الشعب نفسه قانعاً راضياً .. إن هذا هو ما تعود ، وما سيقى عليه .
 ولم يتكلم « على » ، لأنه كان يفكر فيما قال « سليمان » ويشعر بمدى ما فيه من صحة .. لم يتلق الكلام فى أذن ويخرجه من الأذن الأخرى ، كما كان يفعل معه دائماً .. إنه رغم تأيئه بنفسه عن السياسة وتباعده عن الأحداث العامة ، يحس فى باطنه كثيراً من مرارة لذلك الفساد الشامل ، الذى عمّ البلاد وغمر الأداة الحاكمة ، وأحلّ لها العيث بمصالح الناس وأقواتهم ، بل بحياتهم .
 ولكنه لم يكن يملك أكثر من هذا الإحساس السلبي بالمرارة والضيق ، كلما قرأ أو سمع شيئاً عن الوقائع المخزية فى قضية الأسلحة أو فى مضاربات القطن أو فى غيرها من الفضائح الملكية والوزارية التى أخذت الألسن تلوّكها والصحف تتغامز بها .

وبعد فترة صمت رفع « على » كتفيه وقال فى يأس واستسلام :
 — لا فائدة .. « إذا كان رب البيت بالدفع ضارباً » .
 وأكمل « حسين » قوله ضاحكاً :
 — فشيمة أهل البيت كلهم .. النهب .
 وأردف « على » متمماً حديثه :
 — ماذا يمكن إذا كان « الملك » كما تقول ، هو أسّ السرقة والفساد ؟
 وأردف « سليمان » فى حماس وتأکید :
 (رد قلبى — ج ٢)

— أجل .. إنه السارق الأول .. والفاقد الأول .. والعايب الأول ..
والمقامر الأول .

وقال « حسين » متمماً :

— والحاكم الأول .. والمسيطر الأول .. ليس عليه إلا أن يرفع إصبعه لكى يخرج
أمامه الزعماء سجداً ، ويسبحوا بحمده .. ويخلعوا عليه أسماء الله الحسنى .

وتمم « على » فى أسف :

— تلك هى العلة .. ليس هناك من يستطيع مقاومته .. أو معارضته .

ورد « سليمان » قائلاً :

— بل أضحت هناك بعض المعارضة على صفحات الصحف ، وأظن
العريضة التى قدمت إليه من زعماء المعارضة .. دليلاً على وجود الوعى
المعارض .

وأجاب « حسين » :

— أهذه معارضات ؟! . إنها صرخات فى واد .. وليس هناك أسهل من
إسكاتها .. ما دام الحكام صاغرون ، حريصون على إرضائه بما يشاء من قوانين
تحميه ، وتضمن له السلامة .

وأردف « سليمان » :

— لا .. لا .. ليس الأمر بمثل هذه السهولة .. إن الشعب كله يغلى
بالغضب .

وضحك « حسين » قائلاً فى سخرية :

— لا تأبه كثيراً للشعب .. فليس أسهل من إسكاته بوضع عصى أو بوضع
طلقات .. ما دام الجيش فى قبضة « الملك » .. فلا تأبه كثيراً لغضب الشعب .

وأجاب « سليمان » فى ضيق :

— إن الجيش ليس فى قبضة « الملك » .. ولن يكون أبداً سوطاً فى يده يلهب
به ظهور الشعب .

وردّ « على » فى أسى :

— ولكنه كذلك يا « سليمان » .. ولن يغيّر قولك ولا حماسك من الأمر الواقع شيئاً .

— إذا كان الأمر كذلك .. فيجب ألا يكون كذلك .. إن الشعب كله ينظر إلى الجيش كمنقذه الأوحـد ، بعد أن تكالبت عليه كل عناصر الفساد ، واتحدت عليه كل قوى الشر .. لا بد من أن يكون هناك سند للشعب .. ويجب أن نكون نحن هذا السند .

واعتبر « على » حديث « سليمان » تنمة لأحاديث الحماس التى كان يطلقها من صدره ، ولم تكن أكثر من تفرّج للثورة المكبوتة بين جوانحه .. ولم يجد هناك مبرراً لمناقشته .. لأنه اعتبره نوعاً من الهذيان الحماسى ، لا يقصد به معناه الحقيقى .. ولكنه يلقى على سبيل التمنى المستعصى ، والرجاء المستحيل .

وانتهت الجلسة ، وغادر « سليمان » البيت .. وقبل أن يأوى الأخوان إلى فراشهما لم تنس الأم أن تنشر عليهما الغطاء ، وتحكم غلق النوافذ ، كأنهما لا زالا طفلين .. وتمتم لهما ببعض دعوات ، ختمتها بقولها التقليدى :

— ربنا يرزقكم بآنة الحلال ، ويجعل لواحد منكم نصيباً فى « بهية » .. ليتنى أفرح بزواجكما قبل أن أموت .

وعلقت الجملة الأخيرة فى ذهن « على » ، وهو يسحب الغطاء على رأسه ، ويبرز منه أنفه .

ووجد نفسه يفكر فى أمنية أمه الدائمة المستعصية .

لماذا لا يحاول الزواج ؟! . أو يحاول مجرد التفكير فيه ؟!

وأحسّ بالطيف النأى يلم به من بعيد فى خشية وحذر ، وأحسّ بالموعدة فى قلبه ترتجف وتهتز .

أيمكن أن تكون الموعدة أو طيفها أو ذكرها ، هى التى تصدّه عن مجرد التفكير فى الزواج ؟! أيمكن أن يكون قانعاً بصلتها الروحية التى لا تنفصم ..

مستغنياً بها عن غيرها من الصلات ، التي جرى بها العرف الواقعي ؟!
 أيمن أن تكون في نفسه بارقة من أمل خفي ، لم يزل يراوده وسط هذه
 الظلمات ، الجاثمة من اليأس ؟!
 من يدري !! ربما .

إن الشيء الذي يستطيع أن يجزم به هو أنه لم يحس حاجة إلى الزواج ، أو دافعاً
 إلى التفكير فيه لحظة ما .

ولكن ترى ما هو السبب ؟ أهى الموعودة وحدها ؟!

أهى حقاً التي أغتته عن الزواج ؟!

وقفزت إلى ذهنه صورة « كريمة » بجسدها اللين الدافئ ورغبتها الحارة
 الدائمة المشبعة ، وحبها المريح الطيع الوفي .

ألا يحتمل أن تكون هي الأخرى سبباً لعزوفه عن الزواج بعد أن هيأت له كل
 وسائل الاستمتاع الجسدي ؟

بل ألا يحتمل .. أن تكون أمه .. و « بهية » نفسها .. سبباً آخر معاوناً
 للأسباب السابقة .. في قناعتته بحالته ، وعدم إحساسه بالحاجة إلى الزواج بعد أن
 دبرتا له حياته ، وهياتا له ما يحتاجه من مسكن ومأكل ، وحياة منزلية مستقرة
 مستريحة ؟!

وقفزت إلى ذهنه .. صورة « بهية » .

عجباً له !! لماذا لم يحاول مرة واحدة أن يبصر فيها أكثر من أخت ؟! لماذا
 يستبعدا دائماً من نطاق تفكيره كأثنى ! لماذا لم يخطر له على بال قط .. أن
 يكون هو المعنى بقول أمه .. « ربنا يجعل لواحد منكم نصيباً في بهية » ؟!

أليس هو يمثل ذلك « الواحد » من الاثنين اللذين تقصدهما الأم في أميتها ؟

لِمَ يلصق الدعوة في تفكيره دائماً « بحسين » ؟

ألأنه مشغول الروح والجسد ؟! ولكن أيمن أن يكون أخوه أقل منه انشغالاً ؟!

أم لأن « بهية » نفسها .. قد وقفت نفسها على « حسين » ؟

أجل .. هذا هو السبب .
 إنه يوقن تماماً .. من أن « بهية » تحب « حسين » ، وهو ينظر إليها دائماً
 كأنها شيء من متعلقات « حسين » .. بل و « حسين » نفسه يحس بذلك
 ويؤمن به .. ولكنه يعتبرها متاعاً .. ليس به إليه حاجة .. ويعتقد أنه يثقل
 حركته ، ويقيد حريته .. وهو يأبى إلا الانطلاق خفيفاً متحرراً .
 وانتهى به التفكير إلى أن يرفع الغطاء عن رأسه ، ويقول « حسين » ببساطة
 كأنما كان يشاركه تفكيره ومناقشته لنفسه :

— « حسين » .. لماذا لا تتزوج « بهية » ؟
 ودعش « حسين » من سؤال أخيه المفاجيء ، ورفع الغطاء عن رأسه ..
 وحملق تجاهه في الظلمة .. ومضت برهة قبل أن يجيب « حسين » متسائلاً في
 سخرية :

— لماذا لا تتزوجها أنت ؟! إنك الأكبر ، والأحق بالزواج .
 — ولكنها تحبك أنت .
 — أيتحتم على كل إنسان أن يتزوج من يحبه ؟
 — ولم لا ؟!
 — إن « كريمة » تحبك .. لِمَ لا تتزوجها إذن ؟
 — « كريمة » شيء .. و « بهية » شيء آخر .. « كريمة » لا يهمها أن تكون
 زوجة .. إنها لا يرضيها أكثر مما هي فيه .. لا أظنها تفكر أبداً في الزواج ، لأنها لا
 تستغنى عن حياتها العامة ، ولا عن عملها على المسرح أو الشاشة .
 — من قال لك هذا ؟! أتعلم أنها قد فضت من حولها كل
 أصحابها وعشاقها — ومن ضمنهم أنا — وقطعت كل صلة بنا منذ عرفتك !!
 أتعلم أنها تتصرف دائماً كأنها امرأة متزوجة فاضلة .. وأن هذا أفقدها الكثير من
 الأرباح والأفلام !! كل هذا من أجلك .. ومن أجل وفائها الأحق لك .
 — لي أنا ؟

— طبعاً لك أنت . لقد أضحت بغياوتها امرأة فاضلة ، والمرأة الفاضلة في الأوساط الفنية تفقد الكثير من مواهبها .

— ولكنى لم أطلب منها هذا .. إني لم أسألها شيئاً .. وهى لم تحاول مرة أن تفرض على أى نوع من الارتباطات . إن أحدنا لا يقيد الآخر بأى شيء .. إنها تبدى منتهى الرضا عن علاقاتنا بحالتها الراهنة التى لا تزيد عن زيارات خفية لا يدري بها أحد .

— أنت على نياتك جداً يا « على » أنتظن حقاً أن علاقتك بها خفية لا يعرفها أحد .. إن الناس كلهم يعرفون ما بينكما ، لقد قويت إشاعة زواجكما ، حتى كدت أنا أن أصدقها ، ويدولى أن خير ما تفعل لكى تقضى على تلك الشائعات هو أن تنصرف عنها وتستبدل بها أخرى .. خذها نصيحة منى ، لا تطل علاقتك بهذا النوع أبداً .. فهو يجرك برغمك إلى التزامات وقيود لا قبل لك بها .. لا تلتصق بواحدة .. بل تنقل بينهن .

وبدأت المسألة تدور فى رأس « على » .. لقد كان دائماً يأخذها مأخذاً سهلاً ، مجرد علاقة ترضيه دون أن تكلفه ثمناً ، أو ترهقه عسراً .. وكانت هى كريمة معه بحيث لم تحاول أن تثقل عليه بطلب أو ب قيد .. واستطاعت بذلك أن تحتفظ بعلاقتها معه طوال هذه المدة ، دون أن تحمله من أجلها أقل تفكير أو حساب .

لم يطف بذهنه من قبل هذه اللحظة أن تتطور علاقتهما معاً إلى ارتباط بزواج .. لقد كانت توفر له فى الأوقات التى يقضيها معها أقصى أسباب الراحة والمتعة .. ولم يذكر قط أنه ضاق بها أو ملها .. ولكنه رغم ذلك لم يحاول أن يضعها موضع الزوجة .. فقد كانت الفكرة أبعد وأكثر استحالة من أن تدخل فى نطاق تفكيره .. بل لم يكن هناك قط ما يدعو إلى هذا التفكير من جانبها أو من جانبها .

ومع ذلك .. فيها هو أخوه يحدثه عن شائعات زواجه بها وينصحه أن يستبدل

بها أخرى ويدفع به إلى التفكير فيها بطريقة أكثر جدية وأشد عمقاً .
ولكن أيستطيع حقاً ، هو أن يستبدل بها أخرى بنفس السهولة التي يفعلها
أخوه ؟! أيستطيع هو التنقل كالنحلة من هذه إلى تلك ؟!
أيمكن أن يعتبر علاقته « بكريمة » .. مجرد علاقة شهوة عابرة ، تستطيع أية
امرأة أن تمنحه إياها ؟!
قطعاً لا .

إن « كريمة » تعتبر بالنسبة إليه أكثر من هذا .
قد يكون لا يحبها .. حبه للطيف النائي ، والموعودة الراقدة ، وقد تكون
المقارنة بينهما لا محل لها في قلبه أو في ذهنه .
ولكنه رغم ذلك يحبها ، ولا يستطيع أن ينكر أنها أقدر الناس على منحه الراحة
والثقة والطمأنينة ، وأنها تزيد كثيراً عن مجرد جسد يفرغ فيه رغبته ، وأنه يلمس
في قرارة نفسها عندما يبدأ كل منهما إلى صاحبه أشياء كثيرة طيبة ، راسية في
أعماقها قد لا يدركها عابر سبيل ، لا يلمس منها سوى السطح المعربد العابث .
وهو .. لو كان خلّى القلب .. مطلق سراح الروح .. أو لو كانت لديه
الجرأة على ركل آراء الناس وقطع ألسنتهم .. لما وجد أصلح منها بين نساء
الأرض ، لكي تكون زوجة له .

وبهذا التسلسل في المنطق ، والتطور في التفكير .. بدت له فكرة الزواج غ
مستبعدة ولا مستبشرة .. بل أكثر من هذا بدا له أن هجرها واستبدالها خوفاً ،
الشائعات ، هو الجبن المستبعد ، والخسة المستبشرة .
ولم يجد رداً على أخيه ، خيراً من أن يغمض عينيه ، ويضع غطاءه على رأسه .
ومنذ تلك الليلة لم يعد « علّي » يحاول أن يتكتم علاقته « بكريمة » . ولم يعد
يشعر بخرج ولا خجل من زيارته لها ، بل بات يحس بأن لها حقوقاً قبله ،
والتزامات عليه .

وفي تلك الفترة بدأ الوفد يحس أن القصر قد أخذ في التخلّي عنه . وأنه قد بات بلا سند ، كما أحس القصر أن الوفد بتراميه على أعتابه واندفاعه وراء أسلاب الحكم ومغانمه .. قد فقد شعبيته التي كان قد استرد بعضها في فترة إبعاده عن الحكم ، تلك الشعبية التي كان القصر يأمل في أن يستعين بها على تغطية مبادله ومخازيه .

وهكذا وجدت كل من القوتين الحاكمتين الناهبتين السالبتين نفسها وحيدة مزعزعة معلقة في الهواء ، وأخذت كل منهما تبحث عن سند ، بعد أن تبين لهما أن استناد كل منهما إلى الأخرى قد أودى بكليهما إلى أسفل سافلين .. وبعد أن حق عليهما المثل : « جبتك يا عبد المعين تعيننى ، لقيتك يا عبد المعين تنعان » . وهكذا وصل تعاون القصر والوفد — على الإثم والعدوان — إلى نهايته .. وأعطى كل منهما ظهره للآخر ، وبدأ يبحث عن سند يتشبث به .. أو قوة تشد أزره .. وكانت القوتان الباقيتان من القوى الأربع التي في البلد .. هما : الشعب والإنجليز .. وكان من البديهي أن يتجه كل منهما إلى القوة المضادة للقوة التي اتجه إليها الآخر ، في عام ١٩٤٢ .. عندما استند الوفد إلى الإنجليز .. اتجه القصر — بالطبيعة — إلى الشعب .. ولكن يبدو أن الاتجاه إلى الشعب في هذا الوقت ، وبعد أن فضحت كل مخازى القصر ، قد أضحي في حكم المستحيل ، ولم يكن هناك بد ، والأمر كذلك ، من الاتجاه إلى القوة الأخرى التي لم يكن في استئثارها شيء من التعذر والاستحالة .. وبدت مظاهر هذا الاتجاه فيما بعد في تعيين « حافظ عفيقى » صاحب الآراء الواقعية الصريحة والميول الجدية المستقيمة في الاتفاق مع الإنجليز رئيساً للديوان و « عبد الفتاح عمرو » مستشاراً للملك . ولم يجد الوفد .. سوى وجه الشعب .. ملجأً أخيراً .. فانحرف إليه .. انحرافاً مفاجئاً .. وتغيرت سياسته .. من تقبيل يد « الملك » .. إلى محاولة تقبيل يد الشعب .

ولم يكن استرضاء الشعب ، وكسب تأييده بالشىء الهين السريع ..

كاسترضاء القوتين الآخرين : الإنجليز و « الملك » . وكانت الحاجة إلى الاسترضاء ملحّة عاجلة .. لا يمكنها انتظار الثمرة الطبيعية الناضجة ، لأية مشروعات إصلاحية جديدة ، قائمة على صدق النية ، وحسن الاستعداد . ولذلك لم يكن هناك بد من خبطة سريعة عشواء .. وحركة بهلوانية ، مثيرة خلافة ، تبهّر الأنظار ، وتفرّغ الأفواه .

وكان إلغاء معاهدة ١٩٣٦ هو خير الحركات المسرحية الرائعة التي ألقى بها الوفد نفسه بين أحضان الشعب .

وهكذا قفز الوفد .. من أقدام « الملك » .. إلى رؤوس الشعب ، ووجد نفسه في خضم متلاطم ، لم يتأهب لخوضه ، وأحس بصيحاته تتضاءل بجوار صيحات الشعب ، وخطواته عن اللحاق به .. ووجد رؤوس الشعب الذي تعود أن يسرقها سوقاً سهلاً هيناً ، قد أضحى منها على صهوة جواد جامع منطلق في عنف ، إلى كفاح جدّى ؛ لم يخطر له ببال ، ولا أعد العدة له . ولم يكن هناك شك في أن الوفد نفسه .. كان من أشد الناس حيرة ومفاجأة ، بنتيجة ما فعل ، وبدا في حيرته وارتياحه كمطلق سراح مارد من قمقم . لم تعد له أمنية أكثر من أن يعود المارد إلى قمقمه .

ولكن إعادة المارد كانت أمنية مستحيلة .. ولم يجد الحكام المرتاعون بدأ من أن يعدوا وراء الشعب ، مهرولين في أعقابه .. حائرين في تصرفاتهم بين تدير الحاكم المسئول ، وحمق الثائر المندفع .. وبدأوا يصدرون أوامره من مقاعد الحكم ، بعقلية قواد المظاهرات .. وتوالت أوامرهم البلهاء لرجال البوليس أشباه العزل ، بأن يقاتلوا الإمبراطورية البريطانية لآخر طلقة .. ولآخر رجل .. ولآخر دقيقة في حكم الوفد .

(٥٤)

وراء سراب !

وقف « على » مع بقية الضباط مصطفين في ساحة عابدين داخل أسوار القصر ، وقد واجهوا الشرفة الرحبة المطلة على الساحة في انتظار خروج « الملك » لتقديم فروض الولاء والتهنئة بولادة ولي العهد من الملكة الجديدة .

ولم يستطع « على » أن يتخلف كعادته ، فقد كانت الأوامر مشددة بالتميم على الضباط ، لضمان حضورهم بأكبر قوة ، كمظهر من مظاهر الولاء المطمئن في هذه الظروف الحرجة القلقة ، التي علت الهتافات العلنية الصريحة ضد « الملك » ، واشتدت فيها حملات الصحف المتطرفة ، وأضحى « الملك » في حاجة إلى مزيد من الطمأنينة والثقة وإلى أن يتحسس سيفه المصلت على أعناق الشعب .. لكي يتأكد من وجوده بجواره ، ومن سيطرته على قبضته .

ولم يكن أسهل على رئاسة الجيش من أن تصف له الضباط بسذاجة في ساحة القصر .. موقنة أنها قد ضمنت بذلك الاصطفاف التأييد التام والولاء المطلق ..

ولم يعد عليها إلا أن تتلقى رضاء « الملك » ، وتستريح ناعمة البال في مقرها .

وبدا « الملك » في الشرفة .. بجسده الضخم المتنفخ ، أو كما قيل في الصحف وقتذاك .. أشرقت طلعتة ، وهلت أنواره . وصرخ القائد العام في الضباط « انتباه » ورفع يده بالتعظيم ، وبعد لحظة صاح الملك منادياً :

— حيدر !

وانطلق القائد العام يعدو ، حتى وصل إلى أسفل الشرفة ، وأردف « الملك » يصبح بصوته الضخم :

— ٦٢٣ —

— قل للضباط إنه ليس لدي ما أهديه إليهم في هذه المناسبة سوى .. ابني .
ولم يعرف ما إذا كان بأذى القائد العام ثقل في السمع ، أم أن الهدية نفسها لم
تكن مفهومة .. فقد وقف الرجل وقفة الحائر الوجل ، مما اضطر « الملك » أن
يكرر نطقه السامى ويؤكد « الهدية » .

وعاد القائد العام يكرر على الضباط ما قاله « الملك » .
ولم يكن « على » قد فهم معنى الهدية .. ولا أدرك مظاهرها ، أو النتائج
المنبئة عليها .. ويبدو أن بقية الضباط لم يكونوا يزيدون في ذكائهم عنه ، أو عن
القائد العام .. فقد أخذوا يتهامسون متسائلين .. وقال سليمان لعلّى في سخرية
وهما يسيران إلى موقف العربات :

— مبروك يا على .

— على أى شيء ؟

— على الهدية الملكية .. ألم يهد « الملك » ابنه إليك ؟

— إلتى أنا ؟

— طبعاً .. أأست ضابطاً في الجيش .. إن لك فيه قطعة .

— لم أفهم معنى الإهداء .

— إهداء معنوى .. ككل هداياه .. يعطى معنوياً .. ويتسلم مادياً .. يهدى
رتباً ونياشين ، ويقبض نقوداً .. ألا تذكر ما جمعه من هدايا الزواج الملكية ؟ لقد
أصرّ على أن تكون كلها ذهباً ، حتى يحولها إلى سبائك .

— لست أدري ما حاجته إلى كل هذا ؟

— إنه مرض .. لا يمكن أن يكون رجلاً سليماً .. لا بد أن يكون مجنوناً ..
تصوّر بلداً يحكمها مجنون .. مغرق في جمع المال والقمار والعبث مع
الراقصات ؟! غير معقول أبداً أن يستمر الأمر على هذا الحال ، أو كذا أنه ...
وقاطعه « على » :

— لا داعى لهذا الآن يا سليمان .. ليس هذا وقته .. الضباط كثيرون من

حولنا .

— الضباط كلهم يحسون ما نحس .. إن نفوسهم حائقة ثائرة .. ألم تقرأ منشورات الضباط الأحرار !؟

— قرأت بعضها .

— ماذا وجدت فيها ؟

— وجدت فيها ما يعبر عما بنفوسنا من إحساس بالسخط .. ولكن ماذا يمكن أن تفعل بضعة منشورات يصدرها بعض الضباط ؟

— بعض الضباط !! .. لقد أضحى الجيش كله ضباطاً أحراراً .. وسترى قدرتهم في السيطرة على انتخابات نادى الضباط .

— ومن أدراك أن لهم دخلاً في هذا !؟

— لأنى واحد منهم .

ونظر إليه « على » وقال في شىء من الدهشة :

— حقاً !! .. كان يجب أن أتوقع هذا .

— لقد فكرت بضع مرات أن أضمك إلينا .. ولكنى ترددت لأنى لم أجد فى تباعدك وانطوائك ، وعدم مبالاةك بالحالة التى وصلنا إليها .. ما يشجعنى على ذلك . ولكن ...

وضحك « على » وأجاب قائلاً :

— وحسناً فعلت .. فأنا أكره التدخل فيما لا يعينى .

— أيها الغيبي .. أتعبر إنقاذ البلد .. أمراً لا يعينك ؟

— لا أعتقد أن فيما تفعلون إنقاذاً للبلد .. أنت تعلم منذ أن كنا فى ثانوى أنى

أكره إضاعة الوقت فى المظاهرات والتدخل فى كل ما له صلة بالسياسة ..

ولا أظننى الآن أكثر استعداداً للاشتراك فيما لا جدوى وراءه ، ولا

— قاطعه « سليمان » فى يأس :

— انتهينا .. لا فائدة منك .. لقد كنت دائماً أتوقع ردك هذا .

— ٦٢٥ —

ووصلنا إلى العربية « البيك آب » وقال سليمان متسائلا :

— إلى أين ستذهب ؟

— إلى الدقي .

— وله ؟

و لم يجد « على » موجبا للإخفاء فقال ببساطة :

— سأزور كريمة .

و لم يد على سليمان الارتياح وقال ناصحا :

— ألا تنوى أن تضع حدا لعلاقتك بها ؟

— وله .

— لأنها توشك أن تلوث سمعتك .. إن لم تكن قد لوثتها فعلا .. إن السنة

السوء تشيع أنك قد تزوجت بها ؟

— وماذا في ذلك إذا كان قد حدث ؟! أنا لا أجد هناك حاجة لألسنة سوء كي

تعمل على تزويجي .. لأنى لا أجد به سوءا .

— ماذا تقول ؟! أتمزح ؟

— أبدا .. إني لا أجد في الزواج منها أى حرج أو عيب .. وأؤكد لك أنى لن

أتوانى عنه .. إذا ما أحسست أنها ترغب فى ذلك .

— لا بد أن تكون قد جنت . أنت تتزوج راقصة ؟ إنك ستهدم مستقبلك

وستطيح بسمعتك .. وأؤكد لك أنى سأكون أول من يقطع صلته بك ..

أتظننى أقبل أن تدخل بها بيتى وتجلسها مع زوجتى ؟!

— يا أخى لا ضرورة لأن أدخلها بيتك ، أو أجلسها مع زوجتك .. إني أنا

الذى سأزوجها ولست أنت .. وعلى أية حال دعنا من هذا ، فلا موجب لأن

نتخاصم على شىء لم يحدث .. هيا بنا .

واتجهت العربية إلى الدقي ، ووقفت أمام إحدى العمارات المطلة على النيل ..

وهبط « على » مودعا « سليمان » وحمله المصعد إلى شقة « كريمة » التى انتقلت

إليها أخيراً .

فتحت « كريمة » الباب واجتازته « على » إلى الداخل ، وكان الوقت قبيل الغروب .. وصقيع ينابير قد أخذ يلسع الأطراف وينفذ إلى العظام .
وأحس « على » من دفء المكان وسكنته بالكثير من الراحة والهدوء ، ولم تكن الشقة رحبة الأرجاء .. إذ كانت لا تزيد عن ثلاث حجرات : حجرة للنوم يصلها بالحمام ممر صغير ، وحجرتين يفصل بينهما باب زجاجى متسع وضع بهما الصالون والسفرة ، وصالة صغيرة بها مدفأة فى الحائط أحاط بها مقعدا « فوتيل » كبيران ، وعلقت فوقها لوحة زيتية مكبرة من صورة « لعلى » يمتطى جواده فى أحد طوابير الخيالة .. ولم تكن تلك الصورة هى الأثر الوحيد « لعلى » فى الدار .. إذ لم تخل حجرة من صورة له معلقة أو فى برواز على قاعدة ، وكان هناك دولا ب مخصص لأمتعته ، ورف رصت عليه بعناية بعض كتب ومجلات جلبها للقراءة فى المرات السابقة .

وتناولت « كريمة » الكاب الذى رفعه « على » عن رأسه ووضعتة على مشجب فى الممر القصير الكائن بجوار الباب ، ثم مدت ذراعها مرحة ، وقد بدت على وجهها أقصى أمارات الوله والحب ، وضمها « على » إليه فى رفق .. ولكن الضمة الرقيقة لم تطفئ غلتها .. فأحاطت صدره العريض بذراعيها وضمته إليها بكل ما لديها من شوق ولهفة .. ورفعت إليه شفيتها فى نهم .. فألصق بهما شفتيه بنفس الطريقة الهادئة المترفة المجاملة .. ثم مالبت حتى تخلص منها برفق متقدماً إلى الصالة ، ثم جلس مسترخياً على أحد المقاعد المريحة أمام المدفأة .

ووقفت « كريمة » ترقب ملامحه ، وقد علتها سمة تبهيم وشروء .. وبدت فى وقفها ممشوقة القد ، ملفوفة الجسد فى بلوزة من الصوف السماوى ، ذات الياقة المغلقة العالية ، التى تعودت دائماً أن تحيط بها عنقها ، وحزام عريض أسود لم يصرها .. وجيب كاروهات رمادى الأرضية ، أزرق الخطوط .
واقتربت منه ، وجلست نصف جلسة على حافة المقعد ، وأحاطت عنقه

— ٦٢٧ —

- بيسراها ، وأخذت تعث بشعره مترفقة بأنامل يمينها ، وقالت في حنو :
- تبدو مرهقاً مكدوداً .
- وأجابها وهو مستمر في استرخائه وشروده محمق في فراغ المدفأة الأسود :
- لم أسترح منذ الصباح .
- ولمه ؟
- أعمال وتشريفات .. لقد أضحي نصف وقتنا ضائعاً ، في رفع فروض الولاء للقصر .
- ولكنك لم تتعود أن تذهب إلى هناك ؟!
- لم يعد هناك مفر من الذهاب بعد هذا التدقيق والتأكد والتعيم .. لقد أمضينا ساعتين ، ونحن وقوف في ساحة القصر لتسلم الهدية .
- هدية ؟!! .. أية هدية ؟
- الهدية الملكية .. لقد أهدى إلينا ابنه .. لقد قال « سليمان » إنه يهدى معنويات ليقبض ذهباً .
- لقد خسر بذلك كثيراً .. إن الشعب بات يكرهه .
- طبعاً .. لقد خسر الشعب نقوده .. وفقد هو كل معنوياته .
- أسمعت عن مظاهرات الجامعة التي حطموا فيها صورة « الملك »؟ أترى تبلغه الهتافات المعادية التي ينادون بها ؟
- لا أظن . إن ألسنة المناققين تحوّلها إلى هتافات بحياته .
- على أية حال دعنا منه .. ليحيا .. أو ليسقط .. قم وأبدل ملابسك .
- سأعدّ لك حماماً ساخناً يزيل عنك متاعب اليوم ، ثم أعد لك الشاي بعد ذلك ، لقد صنعت لك قالب « الكريم كرامل » الذي تجبه ، وسأوقد لك المدفأة ، وأشوى لك « أبو فروة » ما رأيك ؟
- وأذابت حرارة حماسها جليد همومه ، وبددت رغبتها الأكيدة في الإمتاع والاستمتاع غيوم الضيق ، وسحب القلق التي أحاطت به .

وأحس بحاجته إلى كل ما أعدت له .. الحمام .. الشاي .. والكريمة .. وأنى فروة .. إن خير ما فيها هى أنها تعرف دائماً ما يحتاج إليه .

وقفزت من حافة المقعد .. وخفت إلى الحمام .
ولم تكن تستبقى في ليلة زيارته أحداً من الخدم .. كانت تكره أن يشاركها في خلوتها به مخلوق .. وكانت تحب أن تستأثر بخدمته .. وتجد في هذا الاستئثار متعة الامتلاك. إذ يدخلها إحساس ممتع بأنها زوجته .

وترك « على » مقعده ووقف وراء زجاج الشرفة المطلّة على النيل ، وانحسرت الستارة الأورجاندى الرقيقة عن المجرى العريض ينساب في أنساة ورفق ، وبدأت أشباح الدور في الجانب الآخر من الشاطئ ، وقد علاها شريط داكن معرّج من جبال المقطم تتوسطه القلعة ، تعالت فيها المآذن ، شاحبة في ظلّمة الغسق ، وظلال السحب الداكنة .

وتدافعت عليه بضغ مرثيات ذهنية .. دفعها إلى ذهنه منظر القلعة .. الذى جرّ وراءه ما جاوره من مقابر .. شيع إليها أباه .. وبدأ له أبوه في جهاده ومطامحه .. وفي شلله ، وفي وفاته .. ثم بدت له أمه .. وجرت أمه « بهية » .. وجرّت « بهية » « حسين » .. واتباع « حسين » نصيحته ، ثم نصيحة « سليمان » وتحذيره .

وأوقف شريط المرثيات المتتالية صوت « كريمة » وهى تنادى عليه :
— الحمام جاهز .

واستدار « على » ونفخ بأنفه كأنما يطرد ما خلّفته ذكرى النصائح ، والتحذيرات ، من ضيق وقلق ، واتجهت « كريمة » إلى حجرة السفارة في نشاط ، وهى تردف قائلة :

— سيكون الشاي معداً بمجرد خروجك من الحمام .
وعندما انتهى « على » من الحمام كانت المدفأة قد اشتعلت ، ومنضدة الشاي الصغيرة المتحركة قد صفت عليها أنوات الشاي ، ووضعت بين

المقعدين .

وجلس « على » مسترخياً في مقعده ، وتناول فنجان الشاي يرشفه في هدوء ، وأحس بأنه قد بات أكثر استعداداً لاستقبال نعم الحياة والاستمتاع بها . وكانت « كريمة » تعرف الجو الذي يرتاح له « على » . كانت تعرف أنه يكره العريضة والضجيج ، وقد عودت نفسها أن تحب ما يحب ، ولم تعد تشعر — كما كانت تشعر فيما مضى — بالحاجة الملحة إلى كؤوس الخمر ، لتبهيها لاستقبال المتع .. بل أضحي الشاي والمدفأة والجلسة الشاعرية الهادئة ، أقدر على إرهافها من كل عناصر الإرهاف المعريدة ، التي تعودتها فيما مضى .. وباتت توقن أن أدوات الإرهاف كلها سواء ، وأن قدرتها كائنة فيما يتوهم المرء فيها وما تعودده منها ، وأن أصل الإرهاف كامن في النفس وفي الرغبة ، أكثر مما هو كامن في العناصر المسببة له ، وقد يتساوى فعل كأس من الخمر مع فنجان من الشاي ، مع أريج عطر .. مع لا شيء .. في تهيئة نفوسنا .. مادامت بنا رغبة في الاستمتاع ولهفة عليه .

وكانت « كريمة » ما زالت متشاغلة بترتيب ملابس « على » وتجهيف الحمام ، وهتف بها « على » يدعوها إليه :

— ألا تنوين الحضور .. أم ستركينني أتناول الشاي وحدي ؟

— سآتي حالا .

وقبل أن تتخذ مجلسها بجواره ، قالت وهي تتجه إلى حجرة الصالون :

— لقد أعددت لك مفاجأة ستطربك .

— ما هي ؟!

— انتظر لحظة .

وأخرجت من أحد الأدراج أسطوانة وضعتها على البيك أب ثم أدارتها .

وسمع « على » الموسيقى التي تسبق قصيدة « جبل التوباد » .

وبدا الفرح على وجه « على » وسألها في دهشة :

— ٦٣٠ —

— متى أحضرتها !! وما الذى جعلك تفكرين فى إحضارها ؟
 — أعرف أنك تحب قصائد شوقي وعبد الوهاب .. وقد سمعتك آخر مرة
 تترنم بمطلع هذه القصيدة .. فصمت على أن أفاجئك بها .
 وبدأت القصيدة .. ونهضت « كريمة » فأطفأت النور ، ثم عادت إلى
 مكانها ، وتناولت فنجانها وترشفه فى صمت .
 ولم يكن هناك ما يمكن أن يرهف أحاسيس « على » أكثر من هذا الجو الذى
 أحاطه به « كريمة » .. الألسنة الحمر ، المترقصة فى جوف المدفأة .. والصوت
 الشادى العميق يهتف « وسقى الله صبانا ورعى » .
 وأحس « على » بالطيف النأى .. يدنو رويداً رويداً .. وكأن بينه وبين
 اللحن المترنم ، والجو الصامت الخاشع تقارباً وانسجاماً .. وبدأت ألسنة النيران
 المترقصة كأنها الشعر الذهبى تحركه النسائم ، وقد جسد له الحنين المفرط
 والشوق العائد ، الطيف الدانى المقرب ، حتى لكأنه يجلس بجواره ، وكأن
 الأنامل المطبقة على الفنجان أنامله ، والشفتين المرتشتين شفاته .
 وخيل إليه أن الطيف يهمس مع الصوت الشادى :

« وخططنا فى نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعسى »
 وظل مغرقاً بكل ما يملك من أحاسيس مرهفة فى شروده اللذيد ، وحلمه
 الممتع ، والطيف الجميل الجالس بجواره يسمع له ويهتف به ، حتى انتهى الشادى
 إلى قوله :

« كم يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعاً »
 وساد الصمت .. وتطلعت « كريمة » إلى الوجه المطرق بجوارها ..
 وقد بدت ملامحه فى ضوء المدفأة الباهت ، وبه شروود شديد ، وكأن
 الأنشودة قد حملت صاحبها بعيداً .. بعيداً .. إلى الساعة التى لم تنس ،
 والموضع الذى لم يهن ، والطيف الذى لا ينأى على بعد الشقة وطول الهجر ..
 وتذكرت الرسالة المحترقة التى قطعت بها خيوط الأمل ، وأقامت على رمادها سدً

القطيعة .. وتملكها الأسى وهى تحس نفسها على فرط قربها أشد نأياً من الطيف
النأى .. الذى لا تقف فى سبيلة حوائل ولا سدود .

وانطلقت منها تصعيدة حرى استدعت « على » من جولته الهائمة . ورفع
إليها عينيه ، فبدا له ما بوجهها من حزن وأسى ، وتملكه إحساس بالعطف
والندم .. وهو يجد كل ما ملكته من حب .. وما بذلته من جهد فى إدناؤه
وإرضائه .. لم يفلح إلا فى إهاجة الذكرى وإيقاظ الحنين .
ومدّ يده فتحسس يدها فى رفق ، كأنما يحاول الاعتذار عما فى باطنه ،
ورفعت هى يده فمستها بشفتيها فى تبتل وخضوع ، وهمست قائلة ، وما زال
الأسى يكسو ملامحها ، ويقطر من نبراتنا :

— أتذكر لقاءنا أول مرة ؟!

— أجل أذكره !

— لقد أحسست ليلتذاك .. أن مصيرى قد بات معلقاً بك .. وأنت منحتنى
بحديثك الحنون ، وباختيارك لى دون بقية الراقصات أملاً حلواً .. ما لبثت أن
أطفأت جذوته حينما قلت لى إننا أشبه بمسافرين فى قطارين متضادين لن يكون
نصيبيهما من اللقاء أكثر من لحظة خاطفة ، يذهب كل منهما بعدها إلى مصيره .
— وكانت إجابتك أن أحد الراكبين قد يبدل قطاره ، ويلحق بالآخر ؟
— ولقد حاولت فعلاً أن أبدل قطارى ، وألحق بك .. فعلت فى سبيل ذاك
أقصى ما أستطيع .. ولكن يبدو لى أن اللحاق متعذر .

— ألا يجلس كلانا ، جنباً إلى جنب ؟

— ومع ذلك أشعر أنك بعيد عنى بعد السراب .. لا سبيل لى اللحاق به ..
أو الإطباق عليه .. إن بيننا فاصلاً لا يمكن قطعه .. بقدر ما أقترّب بقدر
ما تبعد .. لا أنت تدنينى ولا أنت تنأى عنى .. لا يأس ولا أمل .. لا شيء أكثر

من ظامئ يعدو ، وسراب يتباعد .. وقطار يعدو في أعقاب آخر .. لا هو غائب عنه ولا هو لاحق به .

ولم يعرف « على » كيف يجيب .. كان يشعر أنها على حق في كل ما قالت .. وكان يكره أن يكون هذا هو كل نصيبها منه .

إنها لا شك .. تستحق أكثر ، ولكنه لا يملك أن يعطي هذا الشيء الذي تستحقه .. وإن كان يملك أن يعوّضها عنه رفقاً وحناناً ورداً للجميل .

وأحست « كريمة » من مسحة القلق التي كست وجهه .. ندماً على ما قالت ، وكرهت أن توجه إليه لوماً على ما ليس له فيه حيلة .. واستحقت نفسها أن تفسد ليلتها بعد طول ما انتظرت ، وبعد كل ما بذلت للاستمتاع بها .. بفلسفة فارغة لا فائدة منها ولا مبرر لها .

ومالبت أن تفضت عن نفسها شبح الضيق الجاثم .. وقالت متضاحكة ، وكأنما تستدرك ما قالت :

— ومع ذلك ، فأنا أشعر أني لم أكن في أية فترة من فترات حياتي بأسعد مما أنا الآن .. حتى ليبدو لي أحياناً أني أستمّد سعادتي من مجرد مطاردتك ، ومحاولة اللحاق بك .

— ليس هناك مطاردة يا « كريمة » .. إنني أسعى إليك ، لأنني أريدك .. ليس هناك من يوفر لي سبل الراحة والطمأنينة والسكينة سواك .. إنني أؤكد لك .. أني أشعر دائماً بحاجتي إليك .

— إن أكثر ما يسعدني أني أستطيع أن أقضى لك حاجتك ، أهيم لك كل ما تشتهي .

ونفضت « كريمة » متجهة: إلى البيك آب وأضاءت النور ، وقد صممت على أن تبعد ذلك الجو الداكن الذي أحاطت نفسيهما به ، وقالت وهي تضحك :

— سأسمعك رقصة السامبا التي وضعها عبد الوهاب .. إنني لا أتمالك نفسي

أبدأ من الرقص كلما سمعتها .
 ووضعت الأسطوانة ، وعلا صوت الموسيقى الراقصة ، وأخذت كريمة
 تتحرك في رشاقة وخفة على دقاتها .. وأمسكت بذراع « على » قائلة :
 — قم للرقص سوياً !

— إنى أفضل أن أستمتع برؤيتك وأنت ترقصينها وحدك .
 ولم يكن « على » مجاملاً في قوله .. فقد أطربته رقصتها فعلاً ، وهى تتحرك
 حوله فى خفة ورشاقة ، وتدق الأرض مع الموسيقى ، وتنشئ فى دلال ممتع .
 وانتهت الرقصة ، ووثبت بخفة إلى ساقيه ، وضمته إليها قائلة :
 — سأتى إليك بأبى فروة .. ما رأيك ؟

ثم وثبت بنفس الخفة متجهة إلى المطبخ ، وما لبثت أن أحضرت « أبو فروة »
 وجلست تتشغل بشوائه على نيران المدفأة .
 وبدأت عليها أقصى مظاهر السعادة ، وهى جالسة أمام المدفأة ترمقه بين آونه
 وأخرى .. بنظرات ملؤها الشغف والحب .. وأحست بالكثير من الاستقرار
 والقناعة اللذين يداخلان زوجة .. قد ضمها كنف زوجها وقالت وهى تعبر عما
 بها من هناء :

— هذه أسعد أوقات عمرى .. إنى أحس كأنى ألتقى بها تعويضاً عن كل ما
 لاقيته فى حياتى من جهاد وشقاء وحنك وبأس .. إنى أنتظر هذه الليلة كما ينتظر
 التلميذ إجازة الخميس والجمعة .. لقد ركزت فيها كل آمانى وآمالى .. ولم أعد
 أرجو من دهرى — مالا .. ولا شهرة .. ولا أى نوع من أنواع المتع — سوى أن
 أقبع بجوارك .. أحدثك وأستمتع إليك ، وأقضى حوائجك .. هذا كل ما
 أرجوه .. أترأه كثيراً على ؟

وأحس « على » أن هذه المخلوقة تستحق أن يمنحها كل ما ترجو . بل أكثر مما
 ترجو ، ووجد من السخف أن يقيد نفسه بآراء الغير ممن لا يحسون ما يحس ،

— ٦٣٤ —

أو يقتنعون مما يقتنع ، وملاءه من حديثها الحار المخلص شعور بالجرأة ، جعله
يقول ببساطة وبلا مقدمات :

— ليس هناك ما يكثر عليك يا كريمة .. لقد قلت لك إنى أشعر دائماً بحاجتى
إليك .. وأؤكد لك أنى على استعداد للزواج منك .. فى أى وقت .. غداً إذا
شئت .

ونظرت كريمة فى ذهول ، وأمسكت بيده فمسحت فيها وجهها كأنها كلب
أمين . وسحب « على » يده ، وقد أحس بسيل من الدمع يهطل عليها .

(٥٥)

سيف الملك

أخذت عربات الضباط تتابع إلى ميدان عابدين قبيل ظهر يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وتدفقت وفودهم إلى الصالة السفلى التى يفضى إليها باب التشريعات ، تلبية لدعوة الغداء الملكية احتفاء بمولد « ولى العهد » .

وكان سائق « على » يحاول جهده أن يشق طريقه بين جموع المتظاهرين المحتشدة فى شارع إبراهيم ، والتي أخذت تتدفق من الطرق الأخرى المفضية إلى ميدان عابدين ، وقد تعالت هتافات المعادية للاستعمار .

وكان بنفس « على » كثير من انقباض وقلق ، دفعهما إحساس عام بالأسى والفجعة ، شمل جميع المصريين ، عقب إذاعة الأنباء المروعة لمجزرة الإسماعيلية فى الليلة السابقة .. وإحساس خاص بالخشية من ذلك القرار الذى اتخذ بزواج « كريمة » واتفق معها على تنفيذه هذا اليوم .

أما فجيعة على شهداء الإسماعيلية ، فقد شابها خليط من مشاعر متباينة متعددة .

كان أقوى هذه المشاعر وأولها تسرباً فى نفسه هو الغضب الشديد والانفعال الشائر المتهور ، الذى يملؤه رغبة جامحة فى الثأر من الإنجليز ، لاعتدائهم الوحشى الغشوم على ضحايا أشباه عزل .

وبلى هذا إحساس بالسخط على حكومة حمقاء .. زجّت بالبلد فى معركة لا عدة لها فيها سوى خطب برّاقة تلهب المشاعر ، دون أن يكون لها سند من استعداد مادى ، أو خطط موضوعة .

ويختلط بهذا السخط .. إحساس بالخجل .. وهو يجد الشعب الأعزل ،

والبوليس شبه الأعزل يخوض المعارك ضد الإنجليز ، ويقدم أعناقه رخيصة سهلة لتجزّها أسلحتهم جزّ النعاج ، والجيش المسلح .. الذى يمتن المعارك ويحترف القتال ، والمفروض عليه أن يدافع عن العزل وأشباه العزل ضد القوات المعتدية .. رابض فى سكون .. يمارس استعراضاته ، ويقدم ولاءه إلى قائده الأعلى ، ويتلقى رضائه السامى .. ويستمتع بولائمه الشهية .

ويحيط بكل هذه المشاعر .. حيرة مضية .. وسؤال لا جواب له .
ما آخر كل هذا ؟! وما هو الحل لهذه المشكلة ؟ وكيف الخروج من هذه الورطة التى جعلت الأمة تدافع عن الجيش ؟
أينخوض الجيش المعركة ؟ وإذا خاضها .. فكمن من الزمن يستطيع مقاومة قوات الاحتلال ؟! أيام ؟ .. أم ساعات ؟ .. أم دقائق ؟ وما نتيجة هزيمته ؟ احتلال جديد فى قلب البلد ؟

أينخوض المعركة .. بضباطه وأفراده وأسلحته كمتطوعين فدائيين ؟! وهل يخدع الاحتلال بهذا !! ثم ماذا يصبح الجيش بعد ذلك .. أيسرّح .. أم يلغى .. ما دامت القوات غير النظامية ، هى التى تتولى الدفاع عن البلد ؟
وفى وسط هذه الدوامة من المشاعر ، والعربة تشق طريقها بين قسم عابدين ، وسينما رويال .. بلغت مسامع « على » هتافات جعلته يتفرض فى مقعده .
لم تكن هتافات معادية للإنجليز ، ولا معادية « للملك » ولا للوزارة .. بل كانت هتافات معادية للجيش .

لقد بدت لعلى كأنها ردة عنيف على سلسلة أفكاره .
واستمرت العربة تشق طريقها بين الأجساد المتدفقة ، والهتافات تدوى من حولها « إلى القتال يا جيش الحفلات » « إلى القتال يا جيش الخمر والقمار » .
وأحس « على » بالدماء تغلى حارة فى عروقه .. كأنما قد تلقى صفعه مفاجئة ، وتحفز فى مقعده ، كأنما ينوى أن يرد الصفعه ، وأحس يغبضاء شديدة لهذه الحشود الحمقاء التى توجه الإهانات والنهم الظالمة إلى الجيش .

كان « على » يحب الجيش ويؤمن به إيماناً قوياً راسخاً في دمه ، ومن أجل حبه للجيش .. أحس بكره شديد للشعب الذي تمثله هذه الجموع الصاخبة ، المهووسة .. وبكره أشد للحكومة التي ورّطت الجيش في هذا الوضع الذي لم يكن له فيه حيلة .. وأبدته عاجزاً مقصراً ، وهو لا يملك صد التهمة ، ولا الخروج من عزلته ، وأحس بكره « للملك » المغرق في لهوه وعبه وحمقه .. والذي شد الجيش إليه ، واتخذ منه درعاً ، يصد به سخط الشعب وكراهيته ، فجلب إليه السخط والكراهية ، وجعله سيفاً يجرّ به رقاب الشعب بدلا من أن يكون حصناً يقيه .

ومن أجل حبه للجيش .. أمسى يكره نفسه وبقية الضباط الذين لا يملكون — وهم أقوى عناصر الأمة — إلا أن يكونوا أداة سهلة طيعة في أيدي رؤساء خائنين .. يتقدمون بها مطأطئين إلى السدة العلية السامية ، وكأنها الكلب الأمين يتمسح في أعتابها .. وينبع على خصومها .

ومن أجل حبه للجيش .. أحس الكره للإنجليز الذين كانوا السبب الأساسي لكل ما حدث ، بإصرارهم على البقاء ، ومماطلتهم في الرحيل بلا فائدة مرجوة ، سوى المحافظة على هيبة قديمة موهوبة ، تجلب عليهم السخط والبغضاء .

وبهذا القلب المفعم بالكراهية ، والنفس الضائقة بالإهانة ، هبط « على » من عربته متجهاً إلى باب التشريفات ، الذي تكأكأ في شرفه الضباط ، وما زالت هتافات الجماهير ترن في أذنه ، وقد احتشدت في منتصف الميدان ، يمنعهما من الاقتراب صف طويل من جنود الحرس .

والتقى « بسليمان » .. وقد وقف وحيداً في أحد الأركان ، وبدا عليه تجهّم وشروء ، وحياء متسائلاً ، وهو يرى الضباط محتشدين حول دفتر التشريفات : — أهنأك ضرورة لأن أقيد اسمي ؟

— لا ضرورة لذلك ، فقد كتب الأركان حرب أسمائنا جميعاً ..
وساد بينهما صمت قلق ، وانحرف ذهن « على » من تفكيره العام في الشعب

والجيش و « الملك » والإنجليز ، وما يوشك أن يحل بالبلد من أحداث .. إلى تفكيره الخاص في نفسه و « كريمة » ، وما يوشك أن يقع بينهما من روابط تشدهما إلى الأبد .. وأحس بالحشية تملكه ، وهو يقرب وجه « سليمان » المتجهم ، وتذكر تحذيره له وإصراره على أن يقطع كل ما بينهما ، إذا هو أقدم على ارتكاب هذه الحماقة أو المعصية .. وتدافعت في ذهنه صور أخرى منذرة .. صورة أبيه ، وأمه ، وأخيه ، و « بهية » .. ثم .. الطيف النائي الحبيب .. العاتب في أنين .. الهامس في إشفاق وجزع .

وقطع عليه « سليمان » حبل تفكيره ، وهو يقول متسائلا في صوت خفيض :

— أرايت ما هو حادث في البلد ؟

وأجاب « على » في مرارة وضيق :

— أجل .. رأيت المظاهرات التي تهتف ضد الجيش .

— أهذا كل ما رأيت ؟ إن البلد كلها في حالة هياج شديد ، لقد خرج جنود بلوكات النظام يطالبون بالسلاح للثأر لزملائهم شهداء القنال .. وقد اتجهوا إلى الجامعة وانطلقوا مع الطلبة في سيول متدفقة نائرة .. وقد خطب فيهم أحد الوزراء بما زاد النار اشتعالا .. إنها أشبه بثورة . والبوليس يقف موقف المشاهد المشجع .

وبدت الدهشة على وجه « على » وقال ، وهو غير مصدق :

— عجيب ما تقول .. إني لم أبصر سوى مظاهرات سلمية .. أثارني منها هتافاتها العدائية ضد الجيش .

— هتافات فقط !! لقد اعتدوا على عربة أحد اللواعات وكادوا يحطمونها .

— هذه مسألة خطيرة .. إذ يجب أن تبقى للجيش هيئته ، فهو صمام الأمان في هذا البلد .. وهو الأداة الوحيدة التي يمكن أن تسيطر على الأمن .

— كيف يسيطر عليه ؟! أيمكن في هذا الوقت أن توجه قوة الجيش ضد

الشعب .. وهى أحق أن توجه ضد الإنجليز .. إن مكاننا كان يجب أن يكون فى القنال .

— كيف يتوجه الجيش ضدّ الإنجليز ؟ فى معركة رسمية ؟ أم فى حرب عصابات ؟! وماذا تكون نتيجتها على البلد ؟ إنها مشكلة معقدة لا يمكن حلها بمجرد إرسال الجيش للقنال . إن كل ما حدث الآن ، وما يمكن أن يحدث مستقبلا ، ناتج عن الارتجال فى دخول المعارك .. بلا أدنى استعداد .

— أجل إنها مشكلة معقدة فعلا ، ونحن مشرفون على أحداث خطيرة قد تودى بالبلد كلها .. ومع ذلك فيجب أن يكون لنا دور إيجابي فيها .. دور غير تقديم فروض الولاء ، والاستمتاع بالولائم .. غير معقول أبداً .. أن يشغل الجيش بالجلوس إلى الموائد الملكية .. فى الوقت الذى يغلى فيه الشعب ، ويرزح فيه البلد تحت وطأة البلايا والمصائب .

— أجل إنها مفارقة عجيبة .. كان يجب أن تلغى الوليمة ، بمجرد إذاعة نبأ أحداث الإسماعيلية .. فليس أقل من أن نشارك البلد حدادها .

وبدأت أفواج الضباط المحتشدة فى القاعة السفلى المشرفة على باب التشريفات ، تتحرك إلى الدور العلوى .

وكف الصاحبان عن مناقشتهما بعد أن اندمجا وسط الضباط . وأخذ « على » يرقب روعة البناء .. وفخامة النقوش ، وهو يسير ببطء فى الموكب المتحرك .. ودلف يمينا إلى الدرج الرخامى الفخم ذى الدرابزين المعدنى المؤكسد الذى يبدو بنقوشه تحفة رائعة .. وكانت تواجهه ثلاث مرايا كبيرة ، تشغل جدار البسطة العريضة التى يتفرع منها السلم إلى شعبتين : يمينا ويساراً .

واستمر « على » فى سيره البطيء وسط الركب حتى وصل إلى القاعة العليا ، ثم انحرف يمينا ماراً بالسوية الزجاجية الرحبة التى صفت فى وسطها ، وعلى أجنابها نباتات الظل المختلفة ، والتى تعالت فى وسطها أشجار اللتانيا .

وألقى « على » فى سيره نظرات خاطفة على نقوش الجدران وعلى مختلف

اللوحات الزيتية الرائعة .. وأحس كأنما قد علق من بصره إلى الجدران والسقف .. حتى وصل إلى حجرة المائدة الرحبة ، واتخذ مكانه بجوار سليمان على أحد المقاعد .

وكانت المناضد قد صفت متلاصقة بطول القاعة ، وكان « على » يواجه الشرفة المطلة على الحديقة ، وبدت له نوافذها ذات الزجاج الملون المنمق بالنقوش ، وأخذ يتطلع مبهوراً إلى الثريات الضخمة ، وتشاغل بقراءة الحكم والآيات المنقوشة على أعلى الجدران قرب السقف ، وعلق بصره بحكمة مواجهة له : « الملك العادل محفوظ بعون الله ، محروس بعنائه » ، وتساءل عن مدى مطابقة هذه الحكمة على صاحب القصر .

إن مجرد كتابتها .. هي وغيرها من الحكم .. المزركشة المنمقة .. وما يحيط بها من نقوش وزخارف .. وإفراط في الفخامة والأبهة .. يجعل الحكمة تبدو وكأنها مسخرية من صاحب القصر .

فالحكمة لم تكتب لتعظ .. ولا قصد منها الاستفادة بمدلولها .. ولكنها مجرد قطعة زخرفية تشترك هي وسواها في منح القصر مزيداً من فخامة وأبهة .. ولتثبت في الواقع نقيض مدلولها .. ولتجزم بأن صاحب القصر ملوك غير عادل ، وغير محفوظ بعون الله ولا محروس بعنائه .

هذا الإفراط المروّع في الفخامة والأبهة .. معقول أن يحاط به ملك شعب يعيش في بسطة ورخاء .. أو على الأقل يجد كفايته من العيش ، أما أن يحاط « ملك مصر » بهذا البذخ الجنوني .. في الوقت الذي لا يجد خمسة وسبعون في المائة من شعب مصر لقمة عيش ، ولا خرقة كساء .. فهو أمر عجيب ، لا يمكن أن يسدّل على شيء من العدل .. أو حتى العقل .

إن هناك فوارق بين الطبقات في كل الشعوب .. وللملك جلاله وأبهته .. ولعامة الشعب مستوى أدنى تقنع به وتستريح إليه .. والشعوب لا تخلو من بعض مظاهر الفقر والضعف والحاجة والمسغبة .. كل هذا شيء مسلم به ، ولكن

الشيء الذى لا يقبله العقل ، هو ذلك الإفراط الزائد فى أبهة الملك ، أبهة لا تتناسب قط مع الانحطاط الزائد فى مستوى الشعب .. هو تلك الهوة السحيقة البشعة بين فرد ، أو قلة تعتلى القمة .. وأغلبية تتمرغ فى السفح .

ودفع به التفكير فى الهوة والقمة والسفح .. إلى ذكر هوة قديمة بين أميرة صغيرة تعتلى القمة ، وابن بستانى يقف على السفح وتذكر جهوده فى تخطي الهوة .. وتذكر كيف أضحى ابن البستانى ضابطاً عظيماً يجلس إلى المائدة الملكية ، ومع ذلك لم تضق الهوة .. فما زالت الأميرة تجلس فى أعلى القمة ، وما زال هو قابلاً فى أسفل السفح .

وانطلقت من أنفه ضحكة مريرة خافتة . هذه الدنيا مليئة بالسخریات . إنه ما زال يحبها .. ليس يدرى لِمَ؟! قد يكون لمجرد حرمانه منها .. أو يكون ، لأنها متمتجة فعلاً بكيانه ، ومع ذلك يجد العمر يتسرب كما يتسرب الماء من بين أصابعه ، دون أن يبلغ منه ما يملّ به ظمأه أو يسدّ به رمقه ، وهو يهب نفسه طائعاً مختاراً لأخرى .. رفقاً بها وعطفاً عليها ، ومكافأة لها على حبها .

أقد هانت نفسه إلى هذا الحد .. حتى يجعلها مجرد هبة ، ومكافأة ؟ ولكن ماذا يمكن أن يصنع بها أكثر من هذا .. إذا كان توءمها ، قد نأت به التقاليد ، وقامت دونه السدود والعراقيل ، ماذا يفعل بها إذا كان مالکها قد زهد فيها ، وأعرض عنها ؟

ولكن أيدعوه هذا إلى التفریط فيها ، مكافأة على حب وردّ الجميل؟! والصلوات الروحية ، التى تتخطى التقاليد وتعبّر السدود!! والحب الدائم إلى الموت وما بعد الموت !

لماذا لا يذكر موثيقه وعهوده ، على الأقل أمام نفسه ؟ إنها ، مع كل ما فعلت من حجر وقطیعة ، لم تتزوج بعد .. أفيتزوج هو ؟ ولكن ماذا منعها من الزواج ؟. غير معقول أن تكون عهودها وموآثيقها .. غير معقول أن تكون بعد ما لفظته ، قد صدّت خطابها من أجله .

ولكن ماذا يدفعه إلى مثل هذا التفكير الأبله ؟!

أين هو ؟! وأين هي ؟!

لماذا يحاول أن يدفع إلى ذهنه بمثل هذه الأوهام الخادعة في هذا الوقت !! ألكى يتخذ منها ذريعة .. يفلت بها من المغامرة التي يوشك أن يقدم عليها ؟! ألكى يجد منها مبررات لجبنه .. وتهرب به ؟!

لا .. لا .. يجب أن يكون أشجع من هذا .. يجب أن يفى بوعده لكريمة .. دون أن يأبه لأحد .. لا روح أبيه ولا أمه ، ولا أخيه ، ولا سليمان ، ولا هذا الطيف الذى لا يفتأ يلح عليه ، ويحوم حوله ، ويشعل في ذهنه وقد الذكريات وجمرات الحنين .

وقطع تفكير « على » مهمة عرف منها أن « الملك » قد « شرف » ، ودفعه تشريف « الملك » إلى أن يخفض بصره الذى لم يزل محملاً في الحكمة التى دفعت إلى ذهنه كل هذه السلسلة من الأفكار التى بدأت « بالملك العادل » وانتهت إلى « كريمة » المظلومة .

وأعقبت مهمة وصول « الملك » جلبة الأكل .. وغطت طرقات الشوك والملاعق في الأطباق على كل ضجة أخرى ، وبدأ « على » يلقي على الصحاف المرصوفة أمامه نظرة فاحصة ، بعد أن شملها في أول الجلسة بنظرة عابرة .. ووضع « الفوطه » الأنيقة على حجره ، ثم مَدَّ ملعقته إلى طبق « المايونيز » الأنيق المزركش ، فغرف في طبقه كفايته .. والتقط بضع محشوات من طبق « الضلصة » وشريحتين من طبق « الديك الرومى » .. وانهمك في التهامها .

ومضى ما يقرب من ربع الساعة ، والجميع منهمكون في تناول الطعام الفاخر .. وبدأت الأيادى تمتد إلى صحاف « التورته » وأطباق الفاكهة .. ثم أخذت المقاعد تتزحزح إلى الخلف قليلا .. والأيادى تلقى في استرخاء على المناضد ، وبدأت الهمهمة تعلو في الجو مع دخان السجائر ، وتشاغل الذين لا يهتمون بتسليك أسنانهم ، ثم بدأ الخدم بملابسهم المزركشة يتسربون بين المناضد حاملين القهوة .

وأحس « على » في ركن القاعة البعيد حركة غير طبيعية ، ثم أخذ الضباط في الوقوف ، وسرت « المهسوسة » التي تأمر بالصمت والكف عن « المهمة » ووقف « على » مع بقية الضباط ، واستدار إلى ناحية الحركة فأبصر « الملك » وقد أحاط به كبار الضباط ، وقد بدا وجهه الضخم ، ورأسه الأصلع ومنظاره على عينيه ، وارتدى الحلة العسكرية الكاكية التي حشر فيها جسده السمين .. ولم يستطع « على » أن يمنع نفسه من المقارنة بين هذه الجثة الضخمة ، وبين الجسد الرشيق الذي ما زال يذكره ممتطياً حصانه في حفلة التتويج ، ولم يستطع أيضاً أن يمنع نفسه من المقارنة بين خلقه الآن وخلقته في ذلك الحين ، ولا بين ما كان يتمتع به من حب الشعب وما أضحي يلاقيه من سخطه وبغضائه .

وألقى « الملك » حديثاً لا يخلو من الملق ولا من مظاهر الإحساس ، بأن الضباط درعه الواقى وملجؤه الأمين .. فأمعن في الترحيب بهم ، وأنبأهم أنه فكر في إلغاء الحفل من أجل الحوادث المؤسفة ، ولكن معزتهم عنده جعلته يعدل عن إلغائها ، ونصحهم بالضبط والربط .. وذكرهم بالصلة القديمة بين أجداده والجيش .

ويبدو أن أحد كبار الضباط قد رقق استجداء « الملك » قلبه ، وأثار حميته .. فاندفع يصيح في حماس .. وكأنه يجيب مطلب « الملك » .. ويمنحه بغيته :
« الجيش سيف الملك » .

وانطلقت الصيحة وحيدة مختنقة .. دون أن يرن لها صدى .. أو يرددها يجيب .. وأحس لها « على » في أذنه وقع اللحن النشاز .. وبدت نواجذ « سليمان » وهي تضغط في غيظ وهمس « بعلّى » :
— أهذا وقته !؟

ورد « على » في حنق :

— إلى متى سنظل وقوفاً هكذا !؟

ونظر في ساعته فوجدها الثالثة إلا ربعاً .. وكان المفروض أن يلقى « كريمة »

فى الساعة الثالثة لمشاهدة أول عرض لفيلمها الأخير الذى ستختم به حياتها الفنية .. ثم يذهبان إلى الدار بعد ذلك ، لإتمام إجراءات الزواج .
وأخيراً غادر « الملك » القاعة إلى جناحه .. وبدأ سيل الضباط يتدفق إلى أسفل فى طريقهم إلى الانصراف ، وقرق الزحام بين « على » و « سليمان » .. واختفى « سليمان » برهة عن عين « على » ، ووقف « على » فى القاعة السفلى ينتظره حتى أقبل وسط زرافات الضباط ، وقد بدا عليه تهم شديد .
وتساءل فى لهفة :

— أنتظرك عربتك فى الخارج ؟

— أجل .

— إذا هيا بنا لتحملنى معك إلى القشلاق .

— ولكنى لن أذهب إلى القشلاق .

— كيف ؟! لقد صدرت الأوامر الآن بأن نعود جميعاً إلى الثكنات .. لأن

حالة الطوارئ قد أعلنت .

وبدت على وجه « على » علامات القلق والحيرة ، وقال فى ضيق وتردد :

— ولكنى على موعد هام .. ولا بد أن أذهب إليه .

— أى موعد فى هذه الساعة ؟

وصمت « على » برهة ، ثم قال فى شىء من الاستحياء :

— موعد مع « كريمة » للذهاب إلى سينما راديو .

ورفع « سليمان » حاجبيه فى دهشة ، وقال ساخراً :

— سينما راديو ؟! لقد احترقت سينما راديو .. واحترقت كل دور السينما ..

إن القاهرة تتأجج وسط اللهب .

— غير معقول .

— ما هو هذا غير المعقول ؟! لقد كنت أتوقع هذا ، وأنا فى طريقى إلى هنا ،

ولقد بلغت أبناء الحريق الآن للقصر . هيا بنا .

وبدا الانزعاج على وجه « على » وردة قائلاً :

— إذاً لا بد أن تمر على السينما لأرى كريمة وأعتذر إليها .

— تراها وتعتذر إليها ؟! أتظنها ما زالت تنتظرك هناك ؟ أتعتقد أنها جُنت حتى تترك بيتها وتخوض في هذه المظاهرات ، وتنتظرك أمام السينما وهي تحترق ؟! ثم كيف تذهب والطرفات كلها مغلقة في قلب البلد ؟! أتجسر على السير وسط المظاهرات بعربة الجيش !. لقد صدرت الأوامر بألا تسير العربات إلا ومعها جندي مسلح .. وسنعود من شارع فاروق ، لأن شارع إبراهيم كله يحترق .
وركب الاثنان العربة و « على » لم يقتنع بعد بما قاله سليمان .. وما زالت بنفسه رغبة في أن يذهب ليرى « كريمة » حتى لا يتركها تنتظره أمام السينما ، ولكن العربة لم تكد تغادر عابدين حتى بدت آثار الحرائق والتدمير ، واضطر السائق أن ينحرف إلى شارع حسن الأكبر ، متخذاً طريق باب الخلق إلى شارع فاروق إلى العباسية ، حتى وصلا إلى الشكنات .

ووجد « على » أن التعليمات قد صدرت إلى الآلاى بالاستعداد للتحرك بمجرد صدور الأوامر ، فأتجه إلى كتيبته وجمع ضباطه ، وأشرف معهم على شدة الكتيبة ، وإعداد العربات المدرعة والجنود .. وأجرى تجربة للجمع والاستعداد للتحرك .

وعندما اطمأن إلى إعداد كتيبته اتجه إلى مكتبه ، ليطلب « كريمة » في التليفون كي يطمئن عليها ويعتذر لها ويتفق معها على موعد آخر عندما يهدأ الموقف وتزول حالة الطوارئ .

وأدار القرص ، وتوالت دقات الجرس دون مجيب ، وأعاد طلب الرقم ثانية وثالثة دون أن يرد عليه أحد .

وأصابه القلق .. وخشى أن يكون قد أصابها مكروه من غوغاء الشوارع ، وزادت لهفته على الاطمئنان عليها .

وحاول السؤال عنها في الاستوديو فلم يجدها ، وخطر له أن تكون قد تناولت

(رد قلبي — ج ٢)

الغداء عند صديقتها « بثينة » التى تعودت أن تصاحبها فى كل غدوة وروحة ،
والتي كانت كثيراً ما تتناول غداءها عندها

وأجابته « بثينة » بأنها فعلاً تناولت الغداء عندها ، ثم غادرتها فى الساعة الثانية
لتبديل ملابسها ، ولتذهب للقاءه فى السينما .. وطلب منها « على » أن تحاول
البحث عنها ، وأن تخبرها بأنه اضطر للذهاب إلى الشكنات لإعلان حالة
الطوارئ ، وأنها يمكن أن تتصل به فى تليفون السوارى حيث سيظل هناك حتى
تصدر لهم الأوامر بالتحرك .

وغادر المكتب متجهاً إلى كتيبة سليمان وقد تملكه — رغم قلقه على كريمة —
إحساس خفى بالراحة تسرى فى أعماقه كأن اليد التى توشك أن تدفع به إلى
الهاوية قد خففت عنه قبضتها إلى حين .. أو كأن الجرف الذى وضع عليه حافة
قدمه قد تباعد قليلاً .

وخطر له أن يصارح « سليمان » بالأمر كله ، وأن يعترف له باعتزازه زواج
« كريمة » عله يخفف باعترافه بعض ما يشغل نفسه .. أو عله يجد منه موافقة تهون
عليه أمره .. أو عله إن لم يفز بهذا أو ذاك .. أن يجد فى ثورته عليه ما يصدده
ويردعه .

وقبل أن يبلغ مكتب سليمان أبصر به يخرج مندفعاً ، وقد بدت على سيمائه
الثورة ، ولم يكدر يراه حتى صاح قائلاً :

— هذا عبث .. إنهم سيضيعون البلد فى شربة ماء .

— ماذا حدث ؟

— المدينة كلها تحترق .. والأمور قد أصبحت بأيدي الدهماء .. لقد حدثنى
أخى من البيت .. وقال : إنه قادم فى التو من قلب البلد .. وأنه لم يعد هناك من
يأمن على روحه أو أهله أو ماله .. لقد انقلبت المظاهرات المطالبة بالكفاح ضد
الغاصب .. إلى عصابات للحرق والتدمير .

— تدمير دور اللهو ؟

— ٦٤٧ —

— أبدأ .. تدمير كل شيء .. لقد بدأت بتدمير دور اللهو .. ومحلات الأجانب .. ولكنها انتهت إلى عاصفة من الاعتداء الأحمق المجنون .. واندفع الغوعاء والسوقة يحطمون وينهبون ويسلبون .

— وأين البوليس ؟

— النصف مشترك في المظاهرات .. والنصف الآخر عاجز بلا حول ولا قوة أمام ثورة الدهماء .

— والحكومة ؟! والمسؤولون ؟! أين هم ؟! لماذا لا يخرجوننا ؟! ماذا ينتظرون ؟!

— ينتظرون خراب مالطة .. إلى أكاد أجن .. حتى ليبدو لي أن أخرج بكتيتي بدون أوامر ، فإني أخشى أن ننتظر حتى يأتي الإنجليز لاحتلال القاهرة وضمان الأمن بأنفسهم مادامنا عاجزين عنه .

وقبل أن يجيب « على » أقبل أركان حرب الآلاى مسرعاً وقال في عجلة :
— لقد صدرت الأوامر بأن يتحرك كلاهما بكتيته حالا ليلقى في حديقة الأزبكية .. تحت أوامر قائد قوات الأمن .

ولم تكد الساعة تقترب من الخامسة حتى كانت القوات المسلحة قد تحركت في طريقها إلى شوارع المدينة ، تمسك بزمام البلد الضائع في أيدي الدهماء .

(٥٦)

مذنبه تستغفر

الإنسان مجموعة من مركبات الخير والشر ، والسمو والضعف ، والأحداث التي يمر بها الإنسان هي التي تدفع هذه المركبات المتناقضة إلى الظهور ، وإلى أن يغلب أحدهما الآخر فيبدو في أجلى مظاهره وأوضح صوره . والشعوب — وهي مجموعة من آدميين — تمر بها موجات من الأحداث والظروف التي تظهر أجمل عناصرها أو تكشف أسوأ سوءاتها .

ولا شك أن التاريخ قد سجل للشعب المصري الأحداث التي دفعته إلى أن يظهر أكرم عناصره وأفضل مركباته .. وقفزت به إلى قمم المجد وذرى الإنسانية .

ولا شك أيضاً .. أن التاريخ سيسجل حريق القاهرة هو أحد الأحداث .. التي دفعت الشعب المصري إلى التهاوى في مدارك الشر والتدمير ، وأبرزت فيه عناصر السوء والأذى .

كان « على » يسير بعربته المدرعة وسط المدينة المختنقة المحترقة ، وقد بدت له كأنها تلفظ آخر أنفاسها في صورة هبات من اللهب الأحمر أو الدخان الأسود .. وبدت الحوانيت مبقورة الأبواب .. منهوشة الأحشاء . واختلطت صيحات الاستغاثة بتأوهات المصابين .. واندفع الناس في الطرقات مشدوهين مأخوذين .

وكانت طلائع التخريب والنهب قد أخذت تمتد إلى الضواحي .. وهي لا تجد ما يوقفها .. بعد أن انكششت أمامها قوات البوليس العاجزة أو المتعاجزة .. وبلغت ثورة الحقد والضغينة التي تغلى بها نفوس الدهماء أقصى حدتها ، وهم يقفون حائلا بين رجال المطافئ والدور المحترقة ، ويمنعوهم من مد يد العون

إلى الأنفس الملهوفة التى أحاطتها النيران ، وتناولت إليها ألسنة اللهب . ولم يكن من العسير على القوات المسلحة أن تسيطر على زمام الأمن ، فقد كان مجرد خروجها من ثكناتها ، واندفاعها فى الطرقات بدباباتها الهادرة ، ووجوهها المتجهمة المغطاة بالخوذ ، وأسلحتها المصوّبة .. كافياً لأن تحسر موجة التدمير والهياج ، وأن تدفع فيران الدهماء إلى جمحورها .

وعبر « على » ميدان المحطة ، وهو يصير ألسنة اللهب الأحمر تتعالى صوب السماء .. وقد أخذت الجموع تتفرق فى الميدان مذعورة ، وبدت هنا وهناك عربات محطة محترقة .

وانحدرت العربات المدرعة فى شارع إبراهيم .. وبدا فندق شبرد كتلة من اللهب والدخان ، يتعالى منها خليط من الفرقة ، وأصوات الاستغاثة والولولة . واجتاز « على » شارع فؤاد ، مخترقاً إحدى كتل الدهماء التى أوسعت الطرق للعربات .. مصفقة هاتفة للجيش .

وتملك « على » دهشة من التصفيق والهتاف .. وتذكر ما لقيه من إهانة منذ بضع ساعات ، وهو فى طريقه إلى القصر .. وأحس أن القوّة وحدها .. هى أشد الوسائل إقناعاً وأبعثها على التقدير والإعجاب .

وتلفت حوله مرّواً مما أصاب المتاجر من تخریب وتدمير ، وما أوسعها فيها الدهماء من نهب وسلب وحرق .. وأحس أن كل ما حدث ، لا بد وأن يكون له بواعث فى نفوس الدهماء أعمق من مجرد ثورة مفاجئة .. أو اندفاع طارئ .

ومرة أخرى وجد « على » ذهنه يذكر تلك الهوة السحيقة البشعة الكائنة فى هذا البلد بين طبقتين : أقلية متخمة تحتل القمة .. وأغلبية محرومة تتمرغ فى السفح .

إن هذه الهوة غير معقولة .. وبقاء الأمور فى هذا البلد بهذا الوضع .. شئ غير طبيعى ، واستمرار الهوة يكاد يكون أمراً مستحيلاً .. إلا بجهد دائم وضغط مستمر .. يسند الأقلية لبقائها فوق القمة ويمنعها من الانحدار ، أو يضغط الأغلبية لبقائها فى السفح ويمنعها من الصعود .

إن بقاء هذه الهوة .. ورضاء الأغلبية القابضة في السفح بوضعها .. أمر مفروض بالقوة .. فإذا وهنت هذه القوة .. وأحسست الأغلبية بثغرة ضعف .. اندفعت في سخطها ومرارتها ، لتتقضم ما تستطيع اقتضامه من الأقلية المستوية على القمة .

وأحس « على » أنه كفرد في الجيش ، يمثل أحد مركبات تلك القوة .. التي تفرض على الأغلبية الرضاء بالإكراه ، والتي تسخر للمحافظة على استمرار الهوة السحيقة البشعة .. بين أقلية في القمة ، وأغلبية في السفح .

ولم يجادل « على » نفسه .. في أن واجبه أن يحافظ على كيان هذا البلد .. وأن يمنح أهله الأمن والسكينة والطمأنينة . ولكنه ساءل نفسه : ألا يمكن أن تمنح هذه السكينة والأمن ، بطريقة أجدى وأعمق من هذه الطريقة المهددة الباطشة؟! ألا يمكن أن يكون الجيش أداة لبر العلة ، بدلا من أن يكون وسيلة لفرسها والرضاء بها والصبر عليها؟! ألا يمكن أن تتحول قوته من المحافظة على الهوة .. إلى تضييقها .. أو إزالتها ؟

وتذكر « سليمان » وإيمانه بالجيش كقوة إيجابية فعالة في إصلاح الأوضاع الخاطئة .. واقتناعه بضرورة أن تؤدي أقوى عناصر الأمة عملا إيجابيا فعلا لصالح هذه الأمة .. وأحس لأول مرة .. أنه يشارك « سليمان » بعض تفكيره .. ويؤيد بعض مبادئه .

وانتهى « على » من جولته بين أطلال المدينة الخربة .. التي بدت بعد أن تفرقت منها الدماء وخلفت طرقاتها إلا من دوريات الجنود .. بخوذتهم وبنادقهم ، كأن جيشاً من المغول والتتار قد أغار عليها .. وفكك بكل ما فيها .. ثم رحل عنها .. بعد أن أحرق أخضرها وذرى يابسها .

وعاد قبيل الثامنة إلى مقر الرئاسة في حديقة الأريكية .. ولم يكذب يهبط من عربته حتى أقبل عليه أحد الضباط ، وأنبأه أن إبراهيم تليفونجي السواري ، قد تحدث من القشلاق قائلا : أن إحدى السيدات قد طلبته بالبحاح ، فلما أخبرها

أنه لا يعرف مقره سألته إذا ما لقيه أن يطلب منه الاتصال بهذا الرقم في أقرب وقت .

وأمسك « على » بالورقة التي بها رقم التليفون .. ولم يشك في أن « كريمة » هي التي طلبته .. بعد أن اتصلت بها « بثينة » ، وأنبأتها بمحادثته .. ولكنه لم يكذب يقرأ الرقم المكتوب حتى بدت عليه الدهشة .

وأسرع إلى كشك التليفون ، وقد ملأته الوسائس .. ولم يكذب يدير الرقم ، وقبل أن يسأل عن المتحدث ، أجابه صوت في لهجة سريعة :

— مستشفى الجمعية الخيرية .

وأحس برجفة تسرى في بدنه ، وتردد برهة حتى يلتقط أنفاسه اللاهثة . ثم قال ، وهو يتالك :

— من فضلك أعطني الحجرة رقم ١٢ .

— معاك يا فندم .

وبعد لحظة سمع صوت « بثينة » نجيب :

— آلو ..

— أنا « على » يا « بثينة » .. ماذا حدث ؟!

وأجابته « بثينة » في صوت يخنقه البكاء :

— إن « كريمة » هنا .. وهي تريدك .

وأحس « على » بدوار في رأسه وغيام على عينيه ، وتساءل في جزع :

— ماذا بها ؟!

— لقد احترقت .

ولم تستطع « بثينة » أن تتم حديثها فقد خنقها البكاء .. وما لبثت حتى تمايلت وأردفت قائلة :

— أرجوك .. تعال بسرعة .. إنها لا تكاد تفيق حتى تطلبك .

ووضع « على » السماعة واندفع في غير وعى إلى إحدى العربات « البيك

— ٦٥٢ —

آب » ، وهتف بالضابط الذى سلمه الورقة قائلاً :

— قل للقائد إذا سأل علىّ أنى سأعود بعد ساعة .

— وإذا سأل إلى أين ذهبت ؟

— مسألة خاصة .

— ألا أقول له غير ذلك ؟

— قل له إن إحدى قريباتى قد أصيبت ، وأنى ذهبت لأراها فى مستشفى

الجمعية .

واندفعت العربى تحترق الشوارع المظلمة الخالية .. تعترضها بين آونة وأخرى صيحات الجنود ، وهم يعترضونها بينادقهم « قف .. من أنت ؟ » فلا يكادون يميزون فيها ضابطاً حتى يفسحوا لها الطريق .

ووصل « علىّ » المستشفى ، وهو يحس بعجز تام عن التفكير .. واندفع يصعد الدرجات حتى وقف أمام الحجرة رقم (١٢) ثم تردد برهة يلتقط أنفاسه ، ودفع الباب فى بطء .

وانفرجت فتحة الباب رويداً رويداً .. لتبدو له « كريمة » مسجاة على فراشها ، وقد غطت الأربطة البيض وجهها وجسدها ، ولم يبد منها غير جفون مسبلة وفم مطبق .

وأقبلت « بثينة » على أطراف أصابعها ، وهى تنشج بالبكاء .

وتساءل « علىّ » فى لهفة :

— ماذا حدث ؟

— لقد غادرتنى بعد الغداء لكى تلقاك فى السينما .. ولم أعرف ماذا حدث ..

حتى دق لى التليفون « زكى محمود » المصور ، بعد أن حادثتنى أنت ، وأنبأنى أنها كانت فى حجرة مدير السينما عندما هاجم المتظاهرون السينما وأحرقوها ، وأن عربة الإسعاف قد حملتها إلى قصر العبنى ، فأسرعت إليها وأحضرتها إلى هنا .

ونظر «على» إلى الجسد المسجى مشدوهاً جزعاً وتساءل هامساً :

— وكيف حالها ؟

— كما ترى .. لقد احترق كل جسدها .. وبذل الدكتور «سليمان» أقصى

ما يستطيع .. ربنا ينجيها .

وارتجف جفنا «كريمة» .. وانفرجا في بطء وتناقل ، ومضت برهة وعيناها

تحميلقان بلا وعى .. واقترب «على» منها في سكون .. ووقف ينظر في عينيها

الغاربتين .. وأحس بحزن يثقل عليه ويرسب في أعماقه .. وهمس بها في رفق :

— كريمة .

وكأنما بعث النداء فيها الحياة .. وردّ الروح .. فأهتز جفناها ، وتحركت

مقلتاها في محجريهما .. وبدأت فيهما النظرة الراجية المتوسلة التي طالما تطلعت بها

إليه ، وانفرجت شفاتها هامسة :

— على .

ثم صمتت لحظة وأردفت في لهجتها الخفيفة المهيضة :

— خشيت ألا تحضر .. وألا أراك قبل أن أذهب .

— لا تقولى هذا .. إنك بخير .

— أنا لست بخير .. وأنا أستحق كل ما حدث .. كان يجب أن أكتفى .. بما

وهبتنى من نفسك .. وأن أحمد الله على رفقتك .. ولكنى كنت شديدة

الطمع .. فأردت أن أستولى عليك بأكمالك .. وتقت إلى ما ليس لى فيه حق ..

إلى أن أكون زوجتك .. وظللت بك حتى دفعتك إلى ما أتوق .

— أنت لم تدفعينى إلى شئ .. لقد عرضت أنا عليك الزواج .

— بل أنا التى دفعتك إليه .. بلهفتى عليه .. ورغبتى فيه .. إنك لم تسألنى

الزواج إلا لترضى لهفتى ، وتردّ جميلى .. وأنت مخلوق مرهف رقيق .. تكره أن

تخيب أمل إنسان أو تردّ رجاءه .. لقد أذنبت فى حقلك .

— إنك لم تذبني أبداً .. ثم إنه ليس هذا وقت إثارة نفسك بهذه الأحاديث ..

يجب أن تهدئي وتستريحى .
 — بل يجب أن أتكلم .. إن راحتى فى الكلام .. لقد أذنبت فى حقلك كثيراً ..
 وكل عذرى فى ذنبى أفى أحببتك .. أحببتك بجنون .. منذ أن لقيتك أول مرة ،
 وأنت طالب فى المدرسة .. ولكن الحب ليس عذراً لكى نذنب فى حق من
 أحيينا .. إن حبنا لشيء لا يبرر خطايانا فى سبيل الحصول عليه ، وليس من حقنا
 أن نصر على الحصول على الشيء لمجرد أننا أحييناه .. كان يجب أن أحمل
 الحرمان .. كما احتملته أنت من قبل .. لقد أحببت أنت ، ولكنك روّضت
 نفسك على الحرمان ، وسلمت به .. أما أنا فقد أصررت على أخذك ، وعاونتنى
 الظروف على ذلك .. فقدت إلىّ بالرسالة التى كنت تضع أملك فيها ..
 فأحرقتها .

— الرسالة !! أية رسالة ؟

— رسالتها إليك .. التى منحتك بها مزيداً من أمل .. لقد أحرقتها . فقطعت
 خيط رجائك ، وبددت أملك .. وألقيت بنفسك إلىّ تلتمس العزاء ..
 فصممت على الاحتفاظ بك ، ويدوى أن الله قد أرسل إلىّ الجزء من جنس
 العمل .. لقد حرمنى منك كما حرمتك منها ، وأحرقنى كما أحرق الرسالة .
 — أنت أحرق الرسالة ؟! كيف أحرقتها ؟

— لم أحرقها عن قصد ، وإنما تركتها تحترق .. كنت أستطيع إنقاذها ،
 ولكن شيطان حبك المستقر فى باطنى شلّ يدي .. فلم تمتد إليها حتى أمت عليها
 النيران .. لقد كرهت أن تصل إليك كلماتها الملتببة .. فجعلت لهيها رماداً .
 — ولكن كيف وصلت إليك ؟! لقد قال لى « حسين » إنها لم ترّد .

— بل لقد ردّت بأحر وأخلص ما يردّ لإنسان . ردّت عليك بما ألهب الغيرة فى
 جوانحى ، وأطار قلبى شعاعاً .. لقد وجدت الرسالة فى جيب أخيك وأنا أخرج
 عظمة سجائره .. كان يقضى الليلة عندى ، وفى نيته أن يذهب إليك ليسلمك
 الرسالة فى الصباح ، وكنا نغمرورين ، وفضضت الرسالة .. وأنا لا أعلم ما بها ،

ولم أكد أنتهى من قراءتها حتى ملأتنى المرارة واليأس وألقيت الرسالة جانباً ، وبعد لحظة رأيت نيران السجارة ترعى فى ثناياها ، ووجدت سطورها تنقرض وكلماتها تتآكل ، ولم أحاول أن أمد يدى لإنقاذها .. فقد أحسست من لهيبها راحة كبرى ، وكأن النار التى صيرتها رماداً .. قد صهرت أغلالاً ثقيلة تشدنى إلى هوة اليأس ، وبدأ لى وقتئذ أننى قد قطعت الخيط الذى ينجذبك بعيداً عنى ، ولم يكذب ظنى ، ولم يطل انتظارى .. فقد عدت إلى ذات ليلة ، وأنت مغرق فى اليأس ، وأحسست وأنا أضمك بين ذراعى أن روحى قد ردت ، وعزمت على أن أحرص عليها ، فلا أدعها تفلت منى أبداً .. كانت رغبتى فىك وحبى لك أقوى من كل شئ .. أقوى من إحساسى بالذنب .. وكنت على استعداد لأضحى بكل ما أملك فى سبيل الاحتفاظ بك ، وكان يخيل إلى أنى أستطيع أن أهىء لك من السعادة ما يعوّضك عن السعادة المفقدة ، وأن أشدك إلى وأبدد يأسك .. ولكننى كنت لا أكاد أجذبك إلى ، حتى أجذك قد ازددت نأياً وتباعداً .. وأنى لأحس الآن ، رغم الليالى الطويلة التى قضيتها بين ذراعى .. أنى لم أمتلكك أبداً .. وأحس أن نعمة الحرمان خير من شقاء الامتلاك الكاذب .. لقد كنت أنانية .. حينما تركت الرسالة تحترق ، وكنت أكثر أنانية حينما دفعتك إلى طلب زواجى ، وأحس بأنى تلقيت جزائى ، وأشعر من هذا الجزاء .. براحة التفكير ، وكل ما أرجوه منك هو أن تمنحنى غفرانك ، وألا تشيعننى وأنا أفارقك بشعور السخط ، وأن تعتذر لى عن كل ما فعلت .. بشئ واحد هو أنى أحبك ، ولست أشك فى أن الحب هو أخف أسباب الذنب ، وأكثرها تبريراً لطلب الغفران .

وصمت « كريمة » .. وكانت تلقى حديثها بنبرات متقطعة منهذجة ، وصوت منك مجهد ، وقد تعلقت عيناها بعلى فى نظراتها الراجية المتوسلة المستغفرة .

وكان « على » يلتقط كلماتها مأخوذاً مشدوهاً .. وقد تلاطمت

أمواج الأحاسيس في نفسه ، حتى بدا كأنه يتخبط وسط أعاصير عاصفة ، لا يكاد يتبين منها مشاعره ، ولا يدرك أفكاره .

لقد ارتجفت الموعودة رجفة الحياة .. ونفضت عنها تلؤلؤ الثرى ، وأكوام الأنقاض والأطلال ، ودنا الطيف النائي المبعد المظلوم يعاتب في رفق ويشكو في حنان .

وأحس « على » بالمرارة تفيض في نفسه ، وهو يصير الفراغ الطويل العريض الذى خلفته فيه السنون الطويلة من الهجر والفراق والقطيعة .

وبدا له كأنما يسير وحده في صحراء مقفرة ، قد ضل طريقه فيها وأمعن في الضلال ، حتى لم يعد له إلى النجاة سبيل .. وتلفت حوله ، فلم يجد سوى الجسد المسجى أمامه ، وقد رقد يطلب الغوث في تلك القلاة الموحشة .

ونظر إلى العينين المتوسلتين الراجيتين .. ولم يحس لهما شيئاً من البغضاء أو الضغينة .. بل أحس لهما كثيراً من حنان وشفقة .. لقد صدقت صاحبتهما .. إن الحب هو أخف أسباب الذنب وأدعاها إلى الغفران .. إذا كانت قد أذنت لأنها أحبتة .. فذنبه هو أشد لأنه لم يحبها .. لأن الذى يحب خيراً من الذى لا يحب .

ومهما حدث من أمر .. فهى إذا كانت قد أذنت فإنها تعترف بذنبها .. وتطلب قطرات عفو ومغفرة .. أبيضل بها عليها ، وهى مشرقة على الهلاك ؟ أيشيعها بالبغضاء .. بعد أن أضاعت عمرها في حبه ؟

واقترب منها حتى لاصق فراشها وأعيتة الألفاظ .. ولم يعرف كيف يسوق إليها مغفرته وعفوه .. ولبت برهة مغرقاً في الصمت ، وهى تتطلع إليه بعينها الراجيتين المستغفرتين .

وفى ببطء انحنى عليها حتى لامست شفتاها شفتيه وهمس قائلاً :

— ثقى أنى لا أحمل لك في قلبى سوى أطيب المشاعر وأجمل الذكريات .
ورفع عنها وجهه وأبصر بدمعتين ضافيتين تنسابان على الأربطة البيض ،

وكانها تعبير عن أصدق آيات الشكر .

ووقف بجوار الفراش وقال :

— تشددى .. وكونى قوية كما عهدتك دائماً .. إني مضطر إلى العودة إلى مقر الرئاسة في الأزيكية .. وسأعود إليك في الصباح المبكر .. إن المدينة قد أضحت خرائب وأطلالا .. وكان يجب ألا تغامرى بالخروج وسط هذه الثورة العاصفة .

وكانت « بثينة » قد عادت بعد أن تركتهما برهة ، فقالت معلقة على قوله :
— لقد نصحتها ألا تنزل إلى البلد ، فقد كانت لدينا أنباء عن المظاهرات .. ولكنها أصرت على ألا تخلف الموعد وألا تدعك تنتظر .
وأجاب على :

— هذه مشيئة الله .. فليرعها الله ، ويكلأها بعنايته .
— ستشفى بإذن الله .. إن الله لن ينساها ، فهي لم تؤذ في حياتها أحداً ، ولم تفعل إلا كل خير .

ونظر « على » إلى « كريمة » وقال في رفق :
— تصبحين على خير يا « كريمة » .. شدى حيلك .. سينتهى كل شئ ..
سليمة بإذن الله .

وكررت « بثينة » قوله ، وهى ترفع يدها إلى السماء :
— سليمة يارب .. ارحمها يارب .
وغادر « على » الحجرة ، و « كريمة » ترمقه بنظراتها الصامتة التى بدت أكثر رضاء وسكينة .

وهبط « على » من المستشفى ، وسارت به العربة تخترق الشوارع الصامتة إلا من صيحات الجنود .. وقرعة النيران المتصاعدة من الأبنية المحترقة .. وكأنها أفران محمية يتأجج باطنها ، وكانت ألسنة اللهب ما زالت تتطاير ، ورائحة الحريق الخانق تملأ الجو .
(رد قلبي — ج ٢)

وأحس « على » بالأسى يملاً جوانحه .. وبميل شديد إلى البكاء .. وبدأت له حياته قطعة من الأطلال المحترقة ، سوداء قاتمة ، ما زال بباطنها وهج يستعير ليأتى على البقية الباقية منها . وبدأ يستعيد ما قالته « كريمة » عن رسالة « إنجي » المحترقة .. فزاد به الأسى وتضاعفت الوجعة .

لشدّ ما أنكرها وظلمها .. في تفكيره .. وأبعد عن ذهنه طيفها .. كان يقاوم ذكرها ، كما يقاوم الداء الفتاك .

وآلآن .. وبعد هذه السنين الطوال من البعد والقطيعة يحس بارقة أمل تلوح في الصهراء المجدبة ، والظلمات الحالكة .. ولكن ما الفائدة ؟! ما فائدة هذا التفكير ؟! لقد أعانته الزمن على السلوان .. فلماذا يحاول أن ينكأ الجرح ويدسى القرح ؟

وأخيراً وصل إلى مقر الرئاسة .. وأوى إلى مضجعه في إحدى الخيام .. وأغمض عينيه ، والصور تتزاحم متكأكة في مخيلته .. صورة « إنجي » تهتف به عاتبة .. وصورة « كريمة » مسجاة في أربطتها البيض ترنو راجية مستغفرة .. وتختلط الصورتان بصورة الجموع النائرة ، والدور المحترقة ، والأصوات المستغيثة .

وقبيل الفجر أغفى برهة .. ثم استيقظ فجأة على صوت ينادى على باب الخيمة :

— حضرة الصاغ .. حضرة الصاغ .

وهبّ من نومه متسائلاً في لهفة :

— من ؟

— أنا محمود ، عامل التحويلة .

— ماذا هناك يا محمود ؟

— التليفون عزيز حضرتك .

— من ... ؟

— ٦٥٩ —

— سيدة ألحت في أن أوقظك .
وأحس « على » بيد قاسية تعتصر شيئاً في باطنه .. وأصابه ما يشبه الغثيان ..
لقد خشي المكالمة .. بما وراءها .
وأسرع يرتدى البنطلون والكبود ، ووصل إلى التليفون ورفع السماعة
فأجابه صوت « بثينة » مختنقاً بالبكاء :
— « كريمة » .. خلاص .. يا « على » .

أكان يصدق نفسه .. وهو يعدّد — إلى جانب مساوئ الوفد — مناقب « الملك » .

أكان يخدع الشعب .. أم يخدع الملك .. أم يخدع نفسه ؟
أكان ماكراً كبيراً ، أم أحق أكبر ؟

أكان يرى أن بعض التطهير أجدى من عدمه ، وأن بعض الفساد خير من كله .. وأنه يمكن أن يصد مفساد القصر باللين والمكر .. أم أن تأثير الملك عليه .. وخضوعه لسلطانه .. قد جعله يستمرئ الفساد الملكى ويراها فوق مستوى التطهير ؟

أياً كان الذى يراه .. لقد بدا فى حكمه وكأنه يتعلق فى الفساد بيد ، ويضربه باليد الأخرى .. أو كقاطع غصن يجلس على طرفه ، كلما زادت ضرباته تزعزع موقعه .. حتى يقطعه فيبوى معه .

وهكذا هوى الهلالى .. بعد بضعة أشهر .. وبعد أن ضاقت به الحاشية .. وضاق به الفساد .. وكان سقوطه مفاجأة له .. وإن لم يكن مفاجأة للمنطق .. فليس من المعقول أن يتشبث الفساد بمن يعن فى محاربتة ، ولا أن يظل الجالس على طرف الغصن معلقاً فى الهواء ، وهو يعن فى ضرب الغصن .

وقيل إن الملك وحاشيته قد ارتشوا بمليون من الجنهيات من أحد رجال الأعمال فى سبيل إسقاطه ، وإحلال أحد موظفى رجل الأعمال محله .

وتولى « حسين سرى » الوزارة بوساطة رجال الحاشية .. وضمّ أحدهم فى وزارته .. ليتقى تدخلهم فيما بعد ، وكأنه يقول « وداوئى بالتي كانت هى الداء » .

وهزل الحكام ، وصاغت هيئة الحكم .. وبدت مصائر الشعب والحكومات كأنها دمية يلهو بها « الملك » فى فترات اليقظة القصيرة التى يحس بها بين ساعات نومه وساعات جلوسه إلى مائدة القمار .

وكان الاستبداد الملكى محتملاً عندما كان الملك يستبد بالأمة وأمورها ، وهو

في وعيه ، بواسطة وزراء مسؤولين وموظفين رسميين .. أما أن تهون البلد .. ويهون الشعب .. ويهون الوزراء والموظفون إلى هذا الحد .. إلى أن يستبد الملك بهم أجمعين ، وهو مغرق في ملذاته وشهواته بواسطة قلة لا تزيد في مجموعتها على خادم فراش ، أو سمير مائدة قمار ، أو زوج عشيقه ، أو قواد ، أو سائق عربية ، أو كهرى ، أو ما أشبه هذا .. فذلك ما لم يستطع احتماله أحد .. وما جعل أمور البلد تنحط إلى أسفل مهاوى الفساد والسوء وما عجل بانتيار كل مثل أعلى أو عمل طيب .

ولم ينج الجيش رغم سيطرة الملك على رعوسه وطأطأته له من أن يدس فيه بأصابعه غير المسئولة .. واستطاع أحد هذه الأصابع وهو « حسين سرى عامر » أن يحوز على أكبر قسط من بغضاء الضباط وكرهيتهم .. وبدأ الملك كأنما يعشق البغضاء ويبحث عن الكراهية .. فزاد من تقريره .. وتحدى الضباط به .

وزاد التحدى من تكتل الضباط .. وبدأت أول مظاهر التحدى في انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط ، عندما جمع الضباط الأحرار نفوذهم ، وأسقطوا مرشحى القصر ، وأنجحوا مرشحهم ، ورفضوا بالإجماع أن يكون للحدود الذى يرأسه « حسين سرى عامر » مندوب في مجلس الإدارة .

ولم يكن لمجلس إدارة النادى في حد ذاته أهمية ، ولكن أهميته وقبض كانت تنحصر في كونها أولى المعارك المكشوفة بين الضباط الأحرار والقصر ، وبدأ منها لأول مرة في تاريخ الجيش عجز القصر عن فرض إرادته على الضباط .

واستشاط الملك غضباً ، وأمر أعضاء المجلس المتخيين بواسطة الضباط بالاستقالة فرفضوا ، وزادت ثورته ، وأمر بغلق النادى .

وكان « على » خلال هذه الفترة .. يرقب الأحداث العامة في سكون وانطواء واستسلام عاجز يائس .. محاولاً جهده أن يجعل نفسه بمعزل عنها .

كان يشعر في أعماقه بمرارة خلفتها حادثة موت « كريمة » ، وكان لا يستطيع

أن يحو من ذهنه .. صورتها وهى مسجاة على فراشها ، وقد أخفتها الأربطة
البيض عدا عين تدمع ، وشفة ترتجف .

كان لا يستطيع أن يحو من أذنيه .. صوتها الخافت المتهدج وهى تقر بذنبها ،
وتطلب مغفرته .

لقد كان واثقاً أنه لم يحبها فى يوم ما .. وأن كل ما أحسه لها لم يزد عن رغبة أو
شفقة .

وكان واثقاً أيضاً .. أنها أذنبت فى حقه .. وأنها بددت هبة الأمل الحلو التى
كان يتعطش إليها .. وقطعت خيط الرجاء الذى كان يعلق به روحه .. وألقت به فى
هوة سحيقة من اليأس الخائق .. ودفعت به إلى بيداء عريضة موحشة ، لا يؤنس
وحدته فيها سوى ذكريات الهجر والقطيعة .

كان واثقاً بعد أن شيعها من كل هذا .. ومع ذلك لم يستشعر حقداً عليها ولا
ضعفية .. بل أحس من موتها الحزن الممض ، والأسى المرير .. وود لو استطاع أن
يضمد جراحها .. أو أن يمنحها قبل الرحيل مزيداً من العطف والرق والغفران .
كان موقناً من أن ذنبها — كما قالت — هو حباله ، وكان يشعر أنها بذلت كل
ما تستطيع لكى تؤنس وحدته ، وتزيل وحشته .. وتملأ فراغه .

ولم يستطع أن ينكر أنها نجحت إلى حد ما .. بدليل ازدياد إحساسه
بالوحشة ، والفراغ ، بعد رحيلها عنه .

أجل .. لقد زاد شعوره بالوحدة والفراغ زيادة مروعة ، ولم يكن هناك شك
فى أن رحيل « كريمة » كان بعض علته .. أما أصل العلة فهو عودة الحنين
المطوى .. وتدفق الشوق المكبوت إلى الحبية الموعودة والطيف النأى .

كان اعتراف « كريمة » بحرق الرسالة .. بمثابة شرر أشعل هشيم المشاعر التى
جففها طول الهجر .. وفرط اليأس .. وأضاء الظلمة المعتمة التى لفته .. فبداله
الفراغ الأجوف البارد الذى يعيش فيه .

لقد هدم الاعتراف فى لحظة .. سد القطيعة الذى شيده فى سنين .

كان يجلس الساعات الطوال فى شرفة الدار أو فى حديقة الميس ، شارد
الذهن ، يجتر فى شروء ذكراها .. يدنى طيفها .. وينصت إلى همساتها .
ودفعه الحنين إلى أن يخرج آثارها وهداياها التى أمعن فى إخفائها ، كى
يساعد نفسه على اليأس والنسيان .. وأعاد إلى معصمه ساعتها التى كانت تذكره
بها فى كل دقة .. وفى كل ثانية .

لم يعد يخشى ذكراها .. أو يخاف طيفها .
ولم يكن الشوق العائد ، والذكرى المتدفقة ، والحنين الجارف .. مظهرأ من
مظاهر الأمل .. أو بشيراً من بشائر الرجاء .. فقد كان يعرف .. أن السنين قد
أضاعت الأمل .. وأن طول القطيعة قد أطاح بالرجاء .. ويعرف أن شوقه لا
يتعدى الشوق إلى ذكرى بائدة ، والحنين لا يعدو أن يكون حنيناً إلى طيف أو هام
وأضغاث أحلام .

ولكنه لم يملك أن يكبح جماح نفسه المتعطشة للهفى .. المحرومة حتى من
الأوهام والأحلام .

لقد انتهى حبه كما بدأ .. حب تشيد قصوره على هامات السحب .. وتنسج
خيوطه من الذهن ، والعين مغمضة .. والروح هائمة .. والقلب مرهف
خفاق .

كان يهىء اللقاء ، ويتخطى السدود ، ويحطم القيود كما سبق أن حطمها فى
صباه .. عندما كان يرقد فى فراشه فى بيتهم المجاور لأسوار القصر ، ويشم
عبقها ، فى نسيم الليل يزهر البرتقال .

كان يجدد العهد .. ويعيد الود .. ويردد العتاب والمناجاة ، ويدبر الصلح ..
وينظم الحياة المشتركة والمستقبل المأمول .

فإذا ما صحا من أحلام يقظته ، وأفاق من غفوة أوهامه .. أحس بالفراغ
العريض المظلم الذى كانت تملأ « كريمة » بعض عرضه .. الوحدة المضنية التى
كانت تخفف بودها وحنانها بعض وحشتها .

وكان « على » يسائل نفسه لو لم تحرق الرسالة .. كيف كانت تصبح حياته؟! أتضحى حقاً كما يرسمها في أوهامه .. ويشيد قصورها في أحلام يقظته ..؟! أم تراها لن تزيد عما قال أخوه « حسين » عندما عاتبه .. ذات مرة .. على إخفائه أمر الرسالة ، وتستره على حرق « كريمة » إياها .
لقد رفع « حسين » رأسه وتساءل في دهشة .

— من أنباك بأمرها ؟

— « كريمة » .

— متى ؟

— ليلة وفاتها .

— لترى ضمورها؟!

وأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ، ثم أردف قائلاً :

— حمارة كبيرة .. أظنها قالتها وهي مسيلة العينين مرتجفة الصوت ، كأنها مذنبه تدل بعترافاتها أمام قسيس ليغفر الله لها ؟
— بل لأغفر أنا لها .

— وغفرت بالطبع ؟ .. فأنت كعهدي بك غفور رحيم .

— أتسخر يا حسين !

— طبعاً أسخر .. ما هذا الذي غفرته لها؟! أغفرت لها أكبر حسنة فعلتها في

حياتها ؟

— حسنة؟!

— أجل .. حسنة غير مقصودة .. لقد منحتك الراحة من أوهامك الكاذبة وأمانيك الحمقاء ، ولو لم تحرق هي الرسالة لمزقتها وأنا في طريقى إليك .. كان يجب أن يقطع ما بينكما بطريقة ما .. فأنت تعرف ماذا أصابك عندما حاولت اللقاء الأخير .. لقد ندمت على إعطائها الرسالة ، وتمتيت ألا تردّ ، وعندما ردّت هممت بتمزيق الرسالة لولا إحساسى بالضعف وبقيّة من أمل كاذب .. وقد أسرعت بالعودة إليك في نفس الليلة .. خشية أن تذهب عني الضعف فأمزقتها ..

فلما أحرقتها « كريمة » أدركت أن الله يحبك !

— أهذا تبرير لإرضاء ضميرك ؟

— ضميرى . أيها الأبله .. أنت تعرف أن ضميرى لا يغضب ، وإذا غضب فلا يهمنى إرضاءه .. إني لا أسمح له أبداً أن يدس أنفه فيما أعمل .. حتى لا يفسد حياتى .. إنما أقول لك ما أحس أنه حق .. أنت تعرف أنك شردت بإيحاء من أبيها ، وتعرف أنه لو استمرت العلاقات بينكما ، لتطور الأمر إلى أسوأ من هذا .
— إني لم أكن أطمع فى علاقة مادية .. كل ما كنت أرجوه ، وأقنع به .. هو إحساس كل منا بشعور الآخر .. هو استمرار الصلة الروحية .

— صلة روحية !!؟

— أجل .. إنها الصلة التى لا تستطيع أن تقف فى سبيلها فوارق ولا تقاليد .
— يا أخى لا تكن أحق ، ولا تتحدث كالصبية المراهقين .. ليست المشكلة فى الفوارق والتقاليد .. بل فى الطريقة التى تحاول بها تحطيمها .. إن هذه الفوارق التى أعجزتك إلا عن الصلة الروحية .. لم تمنعنى من أن أعقد عبرها صلات لا تمت إلى الروح بصلة ، ولم تحل بينى وبين الرقاد مع الكثرات من صاحبات السمو ، والاستمتاع بكل ما فيه من تهتك وفجور ، لم أجده فى أكثر العاهرات حنكة وتجربة .. ثم أين هى الفوارق والتقاليد .. إذا كانت صحبة « الملك » الحاكمة المسيطرة ، لم تعد تزيد على خادم أو سائق أو حلاق .. إنك بمفردك تعادل الأسرة المالكة بأكملها ، ولكنك مع ذلك تأبى إلا أن ترقد وراء سدود التقاليد والفوارق الموهومة ، تتطلع من ورائها إلى أميرتك الساحرة .. تتطلع ابن الجنائنى من كوخه إلى أسوار القصر العالية .. إنك تفكر بعقلية القرون الوسطى ، إنها ما زالت تنتظرك حبيسة فى أبراج القصر .. حتى تتخطى الأسوار ، وتحملها فوق جوادك ، وتصرع أباهاً وأخاه ، اللذين يقفان بنباههما ليحرساها من ابن الجنائنى .. أنت تقبع غريقاً فى وحدتك وأوهامك ، وهى تنطوى فى سجنها وعزلتها .. بلا زواج ، ولا ظهور فى مجتمع ولا حفلات ، كأنها راهبة فى دير ، ولو تهتك هى وفجرت أنت ، لأضحى كل منكما فى أحضان الآخرين يوم ليلة .

— فجور وتهتك ومبيت في الأحضان ؟! أهكذا كل ما تعرفه عن الحياة يأخى ؟! ألا تستطيع أن تدرك أن بها أشياء أعمق مما يمنحه هذا تسيطر على نفوسنا ، وتمنحنا من المتع أكثر كثيراً من الفجور والتهتك والمبيت في الأحضان .

— لا .. لا أعرف ، أو أعرف أن هذه الأشياء العميقة التي تتحدث عنها ستنتهي بنا حتماً إلى رقدة في فراش ، إلى الفجور والتهتك والمبيت في الأحضان .. إن هذا هو نهاية كل إحساس بين رجل وامرأة مهما عمق .. اللهم إلا إذا ظل إحساساً معلقاً لا يصل إلى نهاية ، كما يحدث في قصص العشق الكبرى التي تسمع عنها ، أو كما سيحدث في قصتك أنت ، وأميرتك الساحرة التي تنتظرك في أبراج قصرها .

وأطرق « على » وبدأ واجماً شارداً ، ومضت فترة صمت قطعها « حسين » بقوله وهو يهز رأسه في عجب :

— كنت أظن أن « كريمة » قد علمتك الواقعية .. وأخرجتك من أبراج أوهامك .. ومحت آثار « أنجي » .. ولكن يبدو لي أن آثارها كانت أعمق من أن تمحي .. وأنها كما تقول راسبة في أعماقك ، مختلطة بدمك .. ويحيل إلى أنك ستقضى عمرك قابلاً وراء الأسوار ، تتمتع بالحرمان .. حتى يهن العظم منك ومنها .

ثم صمت برهة وأردف ضاحكاً :

— أو تقفز إليها بجوادك .. وتنفذها من وراء القضبان ، وتفر بها بين نبال أخيها وأبيها .

ولم يجب « على » .. وشرّد ذهنه يتخيل الصورة الساخرة التي رسمها له هو على جواده وأمامه « أنجي » وقد تطاير شعرها الذهبي .. ومن ورائه تنهاوى النبال التي يطلقها الأمير وابنه .

ولم يشعر بسخرية من الصورة .. بل تمنى حدوثها .. وكره ألا يمنحه زمنه فرصتها ، وأن يتركه — كما قال أخوه — يقضى عمره قابلاً وراء الأسوار يتمتع

بالحرمان .

واقنع « على » بأن حرق الرسالة أو وصولها لم يكن ليغير في الأمر الواقع شيئاً .. وأن الحرمان واقع واقع .. وأن المشكلة — كما قال أخوه — ليست في الفوارق والسدود ، ولكنها في طريقة تخطينا لها .. وأحس أنه يفضل أن يبقى حيث هو يتمتع بالأوهام ويقبع وراء الأسوار .. من أن يتخطاها بطريقة « حسين » .

وهكذا قنع « على » بعزلته وأحلامه .. وروّض نفسه على الحرمان ، وكبت في نفسه كل شوق إلى رؤيتها ، وقتل كل محاولة للقائها .. حتى دفع بها القدر إليه على غير انتظار .

كان اللقاء في نادى الجزيرة وقد صحب « على » « سليمان » تلبية لدعوة أحد زملائهما لتناول الشاي .

وكان « على » يركب في عربة « سليمان » ، وقد سارت العربة في الطريق المجاور للنيل ، وتجاوزت مبنى الزهرية ، واندفعت في طريقها ، ثم انحرفت يسرة في الطريق المتسع الذى يحترق النادى .. وسمع « على » صوت « كلاكس » يعلو وراءهما طالباً صاحبه الإفساح لمروور عربته ، وحاولت العربة المرور فكادت تصطدم بعربتهما ، وأصر « سليمان » على ألا يفسح الطريق ، واستمر سائفاً عربته حتى وصل إلى مكان الوقوف ، والعربة الأخرى تلاحقه وتقف بجواره في عنف ، ونظر صاحباها إليه وصاح في حنق :

— تعلموا السواقة قبل أن تسوقوا .

والتفت « على » إلى صاحب الصوت فإذا به « علاء » وإذا بجواره سهيلة ، وقد بدت على شيء من السمنة عقب زواجها به .

وصاح « سليمان » في غيظ ، وقد ميز « علاء » :

— تعلم أنت السواقة .

وأجاب « علاء » في لهجته الوقحة :

— إني أعرف السواقة قبل أن يلبسوك هذه البدلة .. ليس الخطأ خطأكم إنه خطأ الذى عملكم ضباطاً ، وأعطاكم عربات .

وهبط « سليمان » من عربته فى حنق لتأديبه .. وهبط « على » لينزع المعركة .. ولم يكذب يتقدم تجاه العربى حتى أبصر « أنجى » فى المقعد الخلفى .. وقد بدا عليها الضيق مما فعله « علاء » .

وتسمر « على » برهة فى مكانه وكأن قوة قاهرة تمنعه من الحركة .. وبداله أن يندفع إليها ليضمها بين ذراعيه ، ويتحسس شعرها الذهبى المعقود على قمة رأسها ، ويتلمس أنفها الدقيق وشفتيها الفاغرتين فى دهشة .

ولكن صبيحة « علاء » الساخرة أعادته إلى وعيه .. فقد صاح به « علاء » عندما أبصره يهبط من العربى .

— أهو أنت .. أما زلت ضابطاً ؟

وتوقف « سليمان » عن الاندفاع عندما أبصر « أنجى » .. وأبصر « على » ينظر إليها مشدوهاً .

وأجاب « على » فى هدوء :

— أجل .. ما زلت ضابطاً .

— أما زلت تحرسون الكبارى ، والمخلات التجارية .. وتسيرون فى الموالد والزف !! لماذا لا تحاربون ، بدلا من التسكع فى الطرقات ؟! إن المفروض فى جيوش الأمم أن تحرس حدودها .. لا أن تزاخم أهلها فى شوارعهم .. اذهبوا وحاربوا الأعداء .. أمامكم اليهود والإنجليز .. اعملوا عملاً مفيداً .

وأحس « على » بالدماء تتصاعد إلى وجهه ، وبداله أن معركة توشك أن تحدث .. وتخيّل حرج « أنجى » وضيقتها .. ولم يجد بداً من أن يكبت غضبه .. ويكبح جماح ثورته .

وضحك « سليمان » ضحكة قصيرة مريّة وسحب « على » من ذراعه ، وهو يقول فى سخرية :

— أعدلونا كثيرون .. غير الإنجليز واليهود .. وسنحاربهم جميعاً إن شاء الله .. ونعمل للبلد عملاً مفيداً .

وهبطت « أنجي » ، وقد تعلق بصرها بعلى ، ثم سارت هى وأخوها وسهيلة إلى مبنى النادى ، وصعدوا بضع درجات وصلوا منها إلى الشرفة القائمة على مدخله ، واتجهوا إلى التراس القائم أمام حمام السباحة ، وجلسوا على منضدة قريبة من الحوض .

ووقف « سليمان » يتلفت حوله باحثاً عن صديقه اليوزباشى خيرى ، صاحب الدعوة .. فوجده يجلس على منضدة نائية فى أحد الأركان فاتجه إليه يتبعه « على » .

وجلس « على » ، وهو يحس بفورة رأسه .. وقد تملكه خليط من مشاعر الحنين والشوق التى أثارها « أنجي » .. ومشاعر الغضب التى أثارها « علاء » بسخريته وإهانته .. وأحاسيس الحيرة التى أثارها جملة « سليمان » الساخرة وضحكته المريرة .

وتمنى « على » فى قرارة نفسه ، لو صدق قول « سليمان » ، وعمل الجيش فعلاً .. شيئاً مفيداً نافعاً .. فقد أحس أن الجيش صار سخرية البلد الذى يجلس على فوهة بركان من الفساد والانحلال ، وتنتظر خلاصها على يديه ، وهو صامت لا يفعل شيئاً .. وكان كل من يلقاه يسأله : إلى متى سيظل الجيش ساكناً لا يتحرك .. والبلد يحتضر ؟! حتى آمن فى قرارة نفسه .. بأن الجيش هو القوة الفعالة التى يجب أن تفعل شيئاً .. والتى يجب أن تتحول من سيف يحمى الفساد إلى سيف يتره .. ولكنه لم يكن يدرى كيف يمكن أن يحدث هذا .. ولا كيف ينتقل السيف من يد « الملك » إلى عنقه .

لم يكن هو يدرى كيف يمكن أن يحدث هذا .. ولكنه خيل إليه أن « سليمان » يعرف .. وإن لم يحاول أن يحدثه عنه منذ أن خذله وضاق به .
وأحضر الجرسون الشاي ، وأخذ الثلاثة يتناولونه و « على » يسترق النظر

إلى « أنجي » .. وقد بدا له جانب وجهها ، وهى تنظر شاردة إلى مياه الحمام الزرقاء .

وحملته المياه الزرقاء .. إلى مياه « المعمورة » .. وتذكر لطفة الموج .
وقبل أن يسترسل فى شروده الممتع ، أقبل أحد أصدقاء « خيرى » وحياهم ،
واتخذ مقعداً على مائدتهم ، وعرفهما به « خيرى » على أنه « محمد عثمان »
الصحفى .

وبدا « عثمان » حديثه متسائلاً فى لهجة تنم عن الخطورة :

— أعرفتم أن « حسين سرى » استقال ؟

وبدت الدهشة على وجوههم ، وقال « سليمان » :

— غير معقول .. إنها قد أضحت مهزلة .

وتساءل « على » :

— ولماذا استقال ؟

— لأنه طلب تعيين محمد نجيب وزيراً للحرية فرفض « الملك » وأمر بتعيين

« حسين سرى عامر » .

وصاح الثلاثة فى نفس واحد مذهولين :

— حسين سرى عامر .. وزيراً للحرية !!

ومضت برهة صمت ، وهز « على » رأسه وقال فى أسف وسخط :

— إن هذا منتهى الحق .. إنها إهانة مصوبة لمشاعر الضباط .. وتحدأبله ..

يريد أن ينال من كرامتهم .. غير معقول أن يسكتوا على هذا .. لا بد أن يفعلوا

شيئاً !

(٥٨)

فجر جديد

غادر سليمان و « على » نادى الجزيرة ، وسارت بهما العربية متجهة إلى الثكنات ، حيث كان « على » ضابطاً عظيماً للطوارئ .. واستغرق « سليمان » في شروود شديد ، وتفكير عميق .. وسادت بينهما فترة صمت لم يلبث « سليمان » أن قطعها فجأة متسائلاً :

— ماذا دفعك إلى القول بأن الضباط لن يسكتوا على ما حدث ، وأنهم لا بد أن يفعلوا شيئاً ؟

ودهش « على » من سؤال « سليمان » المفاجئ ، ومضت فترة قبل أن يجيب في لهجة حائرة مترددة :

— لأنى .. لأنى أحسست أن دمي يغلي في عروقي ، وأنا أسمع عن هذا التحدى السافر لنا .. والاستخفاف الصريح لمشاعرنا ، والاستهتار العاثر برغباتنا .
— عجباً !

— ما هو هذا العجب ؟

— أن يغلي دمك في عروقتك لمثل هذه الأشياء .. لم أتخيل أبداً أنه يمكن أن تشاركنا في مشاعر الثورة ، وإحساسات الغليان .

— ولماذا ؟

— لأنك تأبى دائماً الاشتراك في المشاعر العامة ... أنسيت أنك كنت تقول دائماً .. إنه يكفي أن تفعل واجبك كضابط .. لكي تقرر نفسك ، ويهدأ ضميرك ، وأنه يجب على كل إنسان أن يعمل في حدود واجبه .. وأن التشاغل بالسياسة العامة مظاهرات صبيانية ؟

(رد قلبي — ج ٢)

— أجل .. لقد قلت هذا .. ولكن إذا كانت الأمور قد اضطربت من حولنا ، واختلفت المقاييس ، واستشرى الفساد ، ولم يعد هناك من يعرف حدود واجباته ، وأشرفنا كلنا على الهلاك .. فأظن أن الخروج عن حدود الواجبات لإنقاذ البلد ، لا يعتبر مظهرة صيانية .

— أتقول هذا من قلبك ؟

— وهل عودتك الثرثرة والسفسطة ؟

— أليس ما بك فورة غضب ؟

— وهبه كذلك .. ماذا يجر كنا في حياتنا غير الانفعالات والفورات .

— أفهم من ذلك أنك على استعداد ، لأن تشارك في فعل هذا الشيء الذى لا بد أن يفعل ؟

وصمت « على » برهة ، ونظر إلى « سليمان » نظرة فاحصة ، وتساءل في شيء من العتاب :

— أتستدرجنى يا « سليمان » ؟! لماذا لا تصرح لى بما فى ذهنك مباشرة بدل هذا اللف ؟

— أجبني أولاً .. أنت على استعداد للاشتراك فى هذا الشيء الذى تحس أنه يجب عمله ؟

وأجاب « على » بلا تردد :

— طبعاً على استعداد .. ما دمت أفهمه .. وأعرف إمكانياته وحدوده .. ووسائله وأهدافه .

— ستعرف كل هذا بالطبع .

— أهو شيء مدبر جيداً ؟

— تمام التدبير .. لقد أعددتنا لكل شيء عدته .. ووضعنا الخطة المحكمة .. وقد أصبحت كل قوات الجيش فى أيدي ضباطنا ، تستطيع أن تحررها وقتما تشاء .. وكان التصميم على أن نقوم بحركتنا فى نوفمبر ، ولكن يبدو أن الأمور

تتعجلنا .. فقد بات من الخطورة أن نتنظر أكثر من هذا .. لو تولى « حسين سرى عامر » الوزارة فسيفتك بنا .. يجب أن نأخذهم قبل أن يأخذونا .

— وما هو المفروض عليّ أن أعمله ؟

أن تكون بكتيتك جاهزاً لتأدية ما يطلب منك في حينه .

— ألا يجب الاستعانة ببعض ضباط البلوكات ؟

— سنستعين بهم جميعاً .. فكل ضباط كتيتك من الأحرار .. وهم يعرفون واجباتهم جيداً .

— ضباط كتيتي أنا من الأحرار؟! وكان المفروض أن تخرج الكتية بدوني ..

— ألا نخجل من هذا يا « سليمان » ؟

— أنا الذي أخجل .. أم أنت ؟ طالما حاولت أن أضمك إلينا ، فسخرت

منى . واتهمتنى بالعبث .

— لم أكن أظن أعمالكم تتعدى بضعة المنشورات التي تهاجمون فيها الفساد .

— والآن ؟

— يبدو لي أنكم مقدمون فعلاً على عمل جدّى .. ولكنى أخشى ألا تكونوا

قد حشدتم له الإمكانيات اللازمة .

— لا تخش شيئاً .. دعها لله .

وكانت العربّة قد عبرت باب السواري ، وسارت في طريقها إلى الآلاى

الخامس .. وسأل « على » « سليمان » وهو يغادر العربّة :

— إلى أين ؟

— لدينا اجتماع في بيت « جمال » ... لا بد أن نتخذ فيه قراراً حاسماً ..

سأنبئهم بأنك انضمت إلينا ، وسأمر عليك بعد الاجتماع .

وفي تلك الساعة كان حشد من العربات ، قد تكأكأ على بيت « الهلالى »

على شاطئ البحر في الاسكندرية قرب « المندرة » وكان الصحفيون يدبون

حول البيت كاتمل يتنسمون الأخبار ، بعد أن شاع خبر تكليف « الهلالى »

بتشكيل الوزارة .

وكان « الهلالى » قد قبل الوزارة كرهة اعتبار لاستقالته السابقة .. وبعد أن اشترط على القصر عدة شروط ، وعد بتنفيذها ، وكان أهمها إقالة « حسين سرى عامر » وتعيين « نجيب » قائداً عاماً للقوات المسلحة (وهو ما كان قد طالب به قبل استقالته) وإجراء الانتخابات وإلغاء الأحكام العرفية فى الوقت الذى يراه مناسباً ، وحسب إرادة الوزارة لا حسب إرادة القصر .

وتم تشكيل وزارة « الهلالى » الثانية فى اليوم التالى دون تدخل من القصر فى أول الأمر ، وتناول الوزراء غداءهم فى بيت « الهلالى » وجلسوا ينتظرون عودته من القصر بالمراسيم حتى يذهبوا لحلف اليمين ، وقيل الثانية ظهراً عاد « الهلالى » وقد بدت عليه مظاهر القلق ، وقال لهم إن « المراغى » كان قد أنبأه أنه مرهق بوزارتى الداخلية والحربية ، وأنه قد سأله أن يعفيه من إحداها ، ولذلك كانت النية متجهة إلى تعيين وزير للحربية فى المستقبل القريب ، ولكن « الملك » رأى أن تنتهى من المسألة الآن ، وأن يعهد بوزارة الحربية إلى « إسماعيل شيرين » .

وبدا الوجوم على الوزراء .. وأحسوا بالمأزق الذى تورطت فيه الوزارة ، وهى وشبكة التشكيل ، ووجدوا أن أول الشروط التى قبل على أساسها تشكيل الوزارة — وهو عدم تدخل القصر فى شئون الوزارة — قد ضرب به عرض الحائط ، بل بات مجرد ذكره محل سخرية .. بعد أن فرض « الملك » زوج شقيقته وزيراً للحربية .

وطُلب وزير المواصلات « طراف : على » أن يكون تعيين « إسماعيل شيرين » مصحوباً فى نفس الوقت بإقالة « حسين سرى عامر » حتى يحدث بعض التوازن ، ويحمل شيئاً من الترضية للرأى العام فى الجيش .

واعترض « الهلالى » بأن إخراج « حسين سرى عامر » فى نفس الوقت الذى يعلن فيه تشكيل الوزارة غير مستطاع ، وأكد أنه سيخرجه فى أول اجتماع لمجلس الوزراء .

وأقسم الوزراء اليمين ، وفي المساء أذيعت مراسيم التشكيل .
وفي الوقت الذى تمخضت فيه أضواء الإسكندرية عن آخر وليد ظهر في
سلسلة الوزارات المتتالية التى أنجبها تهتك « الملك » السياسى وعبه بالحكم كانت
ظلمات القاهرة تتمخض عن وليد طالما هفت إليه قلوب المصريين ، وتنسمت
من مولده نسائم الخلاص وبشائر التحرر من رق الفساد والانحلال .

كان « على » قد التقى بـ « جمال » (الرأس المدير للثورة) مع « حسين »
و « خالد » و « ثروت » وبقية الضباط الذين سيقودون حركة الفرسان فى منزل
أحدهم فى ثكنات العباسية .

وكان ذهن « على » مشوشاً مضطرباً ، وكانت المسألة كلها فى نظره لا تزيد
على مغامرة حمقاء ستنتهى بهم إلى السجون أو المشانق ، وإن كان الإقدام عليها أمراً
لا بد منه ، وفداء لا مناص من تقديمه .

ولكنه لم يكد يجلس إلى الفتى الأسمر العريض المنكبين المجعد الشعر ، ويستمع
إليه ، ويحس بحرارة إيمانه ، وشدة ثقته .. حتى أحس أن النصر مضمون والفوز
أكيد .

كان يعرف « جمال » من قبل .. يعرفه كرجل رزين مثد ، ولم يكن يتصور
فيه كل هذه القوة من العزيمة والإيمان والاندفاع .
وكان يرقبه صامتاً مشدوهاً .. وكأنه بطارية تستمد شحنتها من مولد قوى ،
حتى انتهى « جمال » من حديثه .

وكان آخر ما سمعه منه ما قاله لزميلهم « ثروت » ، وهو يضغط فى عزم على
نواجهه : « اضرب بشدة .. نحن نعمل لمصر ، فلا مجال للعواطف » .
وغادرهم الدينامو المتحرك ، العريض المنكبين ، الفارع القامة ، بقميصه
وينطلقونه ، ورأسه المجعد العارى ، لينقل تعليماته إلى الكتيبة الثالثة عشرة التى
كانت ستقوم بالدور الأساسى للمشاة .

كانت الكتيبة قادمة من العريش فى طريقها إلى السودان ، وقد استقرت برهة

في القاهرة لتأهب للسفر ، وتمنح أفرادها الإجازات اللازمة .. وكانت أبعد الكتائب عن الشبهات لافتقارها إلى الذخائر والعربات وتطّرف موقعها في أقصى ثكنات العباسية ، وكان ملخص خطتها أن تقوم إحدى سراياها بتطويق « قشلاق العباسية » من ناحية بوابة المؤسسة ، وتحتل سرية أخرى محطة الإذاعة ، وتحتل الثالثة رياسة الجيش والرابعة رياسة الحدود .
ووزعت الأوامر التفصيلية على الضباط ، وعرف كل ضابط في كل سلاح واجبه .

وجلس « على » وزملاؤه ينتظرون في بيت صاحبهم في الثكنات ، وأخذ الوقت يمر بطيئاً متاقلاً .. وكل منهم يحاول أن يجتذب زملاءه من شرودهم ويقطع هذا الصمت البغيض بكلمة أو بضحكة تنطلق عالية جوفاء ، ولا تلبث أن تخفت كالشرر المنطفئ ، ويعود كل منهم إلى أفكاره البعيدة .
ورغم الأحداث الخطيرة ، فقد انطلق « على » بذهنه يفتش عن الطيف النائي ، ويوقظ الراقدة — لا الموعودة — في القلب ، وتذكر آخر لقاء لها .. وأخذ يستعيد لنفسه جلستها ونظرتها .. كيف وجدته ، وكيف أحست له .
أتراها تذكره في رقدتها ، كما يذكرها في يقظته ؟
أذكره في أمنها ، كما يذكرها في مخاطرته ؟
أيخطر ببالها ما هو مقدم عليه ؟

لو نجحت هذه الثورة التي يوشك أن يخوض غمارها ، ماذا تراها قائلة ؟
أتراها ستضيق بها من أجل أسرتها ، أم ستسعد بها من أجله .. ومن أجل مصر ؟

إنه يعرف تفكيرها ، ويعرف عقليتها .. إنها لاشك سترحب بها .
سترحب بها على الأقل ، لأنها ستضيق هذه الهوة الواسعة التي بينهما أو تطيح بها .. فلن تكون هناك إمارة ، أو نبيل ، أو سمو ، أو عظمة .
أحقاً سيحدث هذا ؟! أيمن أن يطأطيء أبوها رأسه ، ويجدع أخوها أنفه ؟

ولكن ما هذه السخافات التي يفكر فيها ؟ أمن أجل هذا اشترك في الثورة ؟
 أمن أجل هذا يريق هو وإخوانه دماءهم ويقدمون أعناقهم ؟
 أم من أجل الملايين المستعبدة الذليلة ؟
 أجل .. من أجل هذا تقدم الأعناق .
 وتذكر أمه .. ماذا تراها قائلة .. لو عرفت بما هو مقدم عليه ؟!
 أما كان خيراً له لو رآها الليلة .. وودّعها .. وتلقى إحدى دعواتها !
 لا .. لا .. ليس هناك ما يدعو لكل هذا .
 وأطلق أحدهم نكتة لم يسمعها « على » ولكنه لم يملك إلا المساهمة في الضحك عليها .

ونظر آخر في ساعته وقال :

— الساعة الحادية عشرة إلا خمسة .. هيا بنا .

وتحركت العربية في سكون الليل وظلمته الجاثمة ، التي لا تبددها إلا مصابيح متناثرة في طرق الثكنات تلوح هنا وهناك حمراء مرتجفة .. وأخذت تقترب من السور الشائك القائم على الحدود الخلفية لثكنات الفرسان ، ومن إحدى الفتحات نفذت العربية ، وكل من بها واجم شارد ، واحتمل الفشل يستبد بأذهانهم كلما قربت الساعة الحاسمة .

وكان كلّ ما حولهم يبعث الشك .. ويثير الريبة .. هذه عربية تطاردهم .. وهذه أصوات تقترب منهم .. وهذه آذان تنصت إليهم .

وعندما وصلت العربية إلى الثكنات انقطع النور ، وساد المكان ظلمة بغیضة موحشة ملأت نفوس الثوار قلقاً وتشاؤماً ، ولكن ضخامة العمل وفرط الإيمان ، كان أقوى من التشاؤم .. وسرعان ما أوقدت الشموع ، وألقيت الأوامر ، وسرت بين الكتائب حركة دائبة ، جعلت الثكنات المظلمة كخلية النحل .

وفي ذلك الوقت كان أول أنباء الحركة قد أخذ يتسرّب إلى رئاسة الجيش ،

فقد كان أحد ضباط المدفعية يغادر بيته متجهاً إلى الشكنات قبيل العاشرة للقيام بما عهد إليه .. فسألته والدته عن سرّ خروجه في هذه الساعة .. فلم يستطع حماسه أن يمنعه من أن ينبئها أنها ستسمع غداً عما فعله ، وستعرف الدور الذي لعبه في تاريخ مصر .. وتوجست السيدة خيفة من قوله ، ولم تشك في أنه قادم على مغامرة قد تودى به .. فأنبأت أخاه الأكبر ، وهو أحد ضباط الطيران القدامى ، فحجزه في البيت وأسرع بإبلاغ الضابط النوبتجي في قصر القبة .. وانتقلت أنباء الحركة إلى رئيس هيئة أركان حرب .

ويبدو أن إذاعة أنباء الحركة قد انطبق عليها المثل « ربّ ضارة نافعة » .. أو أن الله كان يشد أزر الرجال الأوفياء .. الذين قدموا أعناقهم في سهولة ويسر .. فحوّل كل عناصر الشر لتكون خيراً في جانبهم .. فقد نتج عن هذه الإذاعة أن تجتمع كل رؤساء الجيش ليقدموا أنفسهم صيداً سهلاً ، وغنيمة باردة لأيدي الثوار .

كان رئيس هيئة أركان حرب الجيش يعتقد أن حركة الضباط ستوجه ضد قصر عابدين .. فاتجه بعربته هو ومدير مكتبه .. ورئيس الإمداد والتموين إلى مقر البوليس الحربي في المحطة ، حيث كان يمكنه الحصول على قوة عاجلة ، دون إثارة الشكوك .. وسأل الضابط النوبتجي عن عدد القوة التي يستطيع تجهيزها في التوّ ، فأجاب الضابط بأنه يمكنه أن يحرك أربعين جندياً .. فأمره بأن يتبعه بهم إلى قصر عابدين ، وأن يعد بقية القوة للحاق بهم .

ووصلت القوة إلى ميدان عابدين محملة في عرباتها .. يتقدمها راكبو الموتوسيكلات ، فأمر بإطفاء أنوار الميدان ، والكف عن إحداث أي ضجة لعدم إثارة الشكوك .. وأخفيت القوة في مبنى الحرس المشاة الكائن عن يمين القصر ، وأرسلت دوريات لحراسة المداخل المؤدية إلى الميدان .. وتحركت الموتوسيكلات في دوريات سيارة إلى ميدان العتبة والأزهار .

وكان رئيس هيئة أركان حرب يبدو مرحاً متالكا لأعصابه ، وفي اعتقاده أن

المسألة لا تعدو مجرد « تهويشة » وأن كل شيء على ما يرام .. وأن أقصى ما يمكن توقعه هو تجمهر بعض الضباط حول عابدين تجمهراً لا يتعذر فضه ، واستقر رئيس هيئة أركان حرب في مكتب ضابط نوبتجي البوليس عن يمين مدخل التشريفات .. وانهمك في الحديث بالتليفون .. واتصل به « أحمد كامل » قائد بوليس القصور للاستفسار عن حقيقة الموقف ، فطمأنه بأنه لا يوجد أى اضطراب ، وأن الحالة هادئة ، وأنه واثق من عدم حدوث أى شيء نتيجة اتصاله بالقواد ، وأمره بإياهم بالذهاب إلى أماكن قياداتهم .

وتوجه « حسين فريد » بعد ذلك إلى قصر عابدين للمرور على أسلحة الجيش ، حتى يطمئن على هدوء الحالة بنفسه .

ووصل إلى سلاح الفرسان قبيل منتصف الليل .. وفي صحبته قائد القوات المدرعة .

وفي ذلك الوقت كان القلق قد بدأ يسرى في نفس « على » وزملائه عندما اتصلت بهم رئاسة قسم القاهرة ، وسألت عن قوة الطوارئ ، وعن المدة التي يمكن أن تكون جاهزة لخلاها للتحرك .

وبدا السؤال من رئاسة القسم في هذا الوقت مثيراً للقلق والخاوف . ولكن البكباشي « حسين » الذي كان يتولى رئاسة قوات الفرسان أجاب في ثبات وبساطة أن الوقت اللازم لتحريك القوة هو ساعة . ثم أمر « تروب » من الدبابات بالتحرك إلى بوابة الشكنات القائمة عند تقاطع كوبرى القبة ، لكي يكون مستعداً للحركة في أية لحظة .

وفي هذا الوقت وصل رئيس هيئة أركان حرب وقائد القوات المدرعة إلى بوابة السوارى .. وأدهشهم وقوف الدبابات على أتم استعداد للحركة .. وأحسا بخطورة الموقف ، وسأل « حسين فريد » ضابط « التروب » عن سبب وقوفه في مكانه .. فأجابه بأنه من قوة الطوارئ وأنه في حالة استعداد .. فسأله عن أمره بذلك .. فأجابه بأنه قائد الكتيبة .

وطلب « حسين فريد » من الضابط النزول فرفض الضابط وبدأ له بوضوح أن الموقف يوشك أن يفلت ، فأسرع إلى مكتبه لإحضار القواد لإخماد الحركة .. واتجه حشمت قائد القوات المدرعة إلى داخل الثكنات للسيطرة على الموقف ، ولكنه لم يكد يقترب من ثكنات الخيالة . حتى أحاطت به ثلة من الجنود ، وأسرع أحدهم لإنشاء قيادة الحركة .

وأذهل الضباط نبأ وصول الأمير الـ « حشمت » .. ولم يعد لديهم شك في أن حركتهم قد كشفت . وأن مصير البلد ومصائرهم قد باتت معلقة في خيوط اللحظات الدقيقة الحاسمة التي تمر بهم .. وفي قدرتهم على التصرف والتمالك والحزم والإقدام خلال هذه الهنات العصبية .

وأحس « على » بدقة الموقف ، وهو يرى وصول قائد القوات المدرعة في هذه اللحظة الحرجة التي يتأهب فيها للتحرك بين آونة وأخرى .. وأحس برجفة ، وهو يتخيل ما يمكن أن يحدث لو استطاع القائد أن يتزعزع منهم زمام الموقف ، ويسيطر على القوات ويخضعها تحت أوامره .

لم يكن ذلك بالأمر المستبعد .. وهو القائد الفعلي للقوات ، المفروض أن تتلقى منه أوامرها .. لا سيما أن أغلب الجنود لم تكن لديهم في أول الأمر فكرة عن أسباب تحركهم .. كل ما كانوا يعرفونه ، هو أن القوات في حالة طوارئ وأنها تستعد للتحرك للمحافظة على الأمن .

وزاد من إحساس « على » برهبة الموقف وحرجه ما طبع عليه من خلق عسكري .. غرس في نفسه طاعة الرؤساء واحترامهم .. مما جعله يسأل نفسه .. كيف يمكن أن يواجه قائده — الذي تعود طاعته واحترامه — مواجهة خصم خارج على الطاعة ، ناثراً على النظام .

وكان « حسين » أول من تمالك نفسه ، وقال للضباط في حزم :
— إن مجيء « حشمت » إلى الثكنات في صالحهم .. فقد كان مفروضاً أن يقبض عليه في بيته .. أما وقد جاء بقدميه .. فقد ألقى بنفسه في الفخ .. ولا شك

أنه سيمنحهم باعتقاله طمأنينة كبرى .

وقفز « حسين » « وثروت » إلى إحدى عربات الجيب .. ولم يكاد يصلان إلى « حشمت » حتى صاح « بحسين » أمراً يباه بصرف الجنود . وأجابه « حسين » في هدوء .. بأن لا داعى للمقاومة ، وأنه قد أتى لتأمينه من الجنود ، وطلب منه العودة معهم في هدوء .

ووجد القائد نفسه ، وقد وقف بين ضباطه الأصاغر ، وقد صوّبوا إليه أحد مدافع الأستن ، وبدأ أنه لم يستطع أن يقنع نفسه بجدية العمل الذى هم مقدمون عليه ، وأراد أن يستعمل تأثيره الطبيعى عليهم فأخذ يحذرهم من عواقب هذه الأعمال الصيانية ، وقال لهم إنهم يلعبون بالنار ، ولا يقدرون مسئولية مثل هذا العمل الذى هم مقدمون عليه .

وأجاب « حسين » في هدوء وثقة بأنهم يعرفون بالضبط ما يعملون ، وأنهم يعرضون أنفسهم للخطر .. ولكنهم يشعرون أن أرواحهم تهون كثيراً إذا ما قيست بالهدف الذى تبذل من أجله ، وهو إنقاذ البلد من حالة الانحطاط والفساد والضعفة التى وصلت إليها .

وعاد « حشمت » يضرب على وتر العاطفة الحساس .. فأنبأهم أنه قائدهم الذى علمهم ، وهم أحداث صغار .. وأنه ينصحهم كوالد لهم . وبنفس الهدوء والاحترام أجابه « حسين » بأنه لو كان أبوه مكانه لما تصرف معه بغير هذا .

ولم يجد القائد بداً من التسليم ، وحاول أن يركب عربته فأمره « حسين » بأن يركب معهم العربة الجيب .. ولكن العربة عطلت .. فاضطر إلى السير إلى ثكنات القوات المدرعة سيراً على الأقدام .

وكان القبض على قائد القوات المدرعة أول خطوات الحركة الإيجابية ، وأحس « على » بعده أنهم قد دفعوا بأيديهم إلى النار ، وزجوا بأنفسهم إلى أتون المعركة .. وطغى حماسه للمعركة على كل إحساس بالقلق أو الرهبة .. وأخذت

« ترويات » كتيته تتحرك لا حتلال أماكنها المعينة لها ، الواحدة تلو الأخرى .. وعندما انتهى من تحريك كتيته كان عليه أن يرافق « سليمان » إلى ثكنات العباسية .. للعمل مع الكتيبة الثالثة عشرة .

وكان ضباط الكتيبة قد تجمعوا عند « الميس » في ثكنات العباسية .. ولم تكن تبدو عليهم سمات المقدمين على أمر جلال .. كان البعض منهمكاً في لعب الطاولة ، والبعض يتناولون الساندوتش والكوكاكولا ، والبعض الآخر قد التفوا حول الراديو .. يسمعون إذاعة مراسيم تشكيل الوزارة .

وأقبل « على » « سليمان » على ضباط الكتيبة فأنبأهم بالقبض على قائد المدرعات ، وبخروج القوات المدرعة لا حتلال أماكنها فملأهم طمأنينة وثيقة ، وأزالا الوسائس التي دفعها إلى نفوسهم نبأ اكتشاف الحركة .

وبدأ الضباط يغادرون « الميس » لإعداد جنودهم للتحرك ، وفي هذا الوقت وصلت بعض عربات محملة بالذخيرة من مركز تدريب اللواء السابع .. وصرف البنزين للحمالات المدرعة ، ونبه على سائقها بعدم إدارتها حتى لا تحدث ضجيجاً يثير الشكوك .

وبعد فترة وصل « قول » من عربات خدمة الجيش لنقل الجنود ، وبذلك أضحت الكتيبة جاهزة للتحرك بذخيرتها وعرباتها .

وتحركت السرية الأولى ، ومعها جماعة حمالات مدرعة وتحرك معها « سليمان » ليقودها إلى « تروب » العربات المدرعة (الهمبرا) الذي كان ينتظرها عند مدخل الثكنات في شارع الخليفة المأمون .. وتحركت بعد ذلك السرية التي كان عليها ضرب نطاق غربي الثكنات عند باب المؤسسة .. وكان على السريتين الثانيةين أن تتحركا مع الدبابات للإذاعة والحدود في الساعة الرابعة والخامسة صباحاً .

وتحرك قائد الكتيبة لمعرفة تطور الموقف في إحدى عربات الجيب ، وبجواره « زكريا » وفي الخلف جلس « حماد » و « على » وقد أمسك كل منهما بمدفع أستن .

وأخذت العربة تقطع الطريق الرئيسى للثكنات ، وقد خيمت من حولها الظلمة وساد السكون إلا من صوت ما كينة العربة ، وصوت إطارات العجل تطوى الأسفلت .

وبدت من حولهم أشباح أشجار الكافور .. سوداء داكنة تطبق على أبنية الثكنات المنخفضة ، كأنها عبء يجثم عليها .. وأرخی « على » قبضته على مقبض المدفع الذى لم يفارق يده لحظة واحدة .. وترك أصابعه تسترخى عليه .. وإن لم تتركه .

كان يحسّ منه قوة وثيقة .. وكان يذكر كلما شدّ عليه يده كلمات « جمال » ، وهو يضغط على نواجذه ، ويقول فى حزم : « اضرب بشدة .. نحن نعمل لمصر .. فلا مجال للعواطف » .

كان يعرف أن هذا المقبض .. هو الذى سيضع حداً للعواطف الرقيقة غير المطلوبة فى هذا الوقت العصيب .. وكان يؤكد أن هذه القطعة الصلبة الباردة من الحديد ، لن توقف طلقاتها الحارة شفقة ، أو عطفاً .. فقد كان مصير الحركة .. أو مصير مصر .. فوق كل شفقة .. وفوق كل عطف .

وكان يشعر بتوقد فى الذهن ، وتوتر فى الأعصاب .. ولم تكن أذناه لتكف عن سماع حركة جنازير الدبابات .

وهبت عليه ريح الليل الرطبة والعربة تنهب بهم الأرض فلفحت وجهه ، واندفعت إلى خياشيمه .. وأحس بلحظة استرخاء ترك خلالها قبضته تستريح على مقبض المدفع .

وفجأة طرق أذنيه صوت طلقات سريعة ، فشدد قبضته على مدفعه ، وأطفأ « شوقى » قائد الكتيبة نور العربة التى كان يقودها .

وبلغت مسامعهم فى نفس الوقت نفخات البورى تنبعث فى جوف الليلة بنوبة « كبسة » فأنجھوا بعربتهم إلى مركز تدريب اللواء السابع .. فلقبهم زميلهم « عبيد » حيث أنبأهم بخطورة الموقف ، لأن قائد اللواء السابع قد وصل إلى

مركز قيادته ومعه بعض ضباط اللواء ، وأنه يقوم بتجهيز اللواء للقضاء على الحركة .

ولم يجدوا بداً من العودة إلى البوابة الرئيسية في ميدان العباسية ، حيث كان مفروضاً أن تحتلها إحدى قواتهم ، ولكنهم ما كادوا يقتربون منها ، حتى وجدوا أن قوات البوليس الحربي قد احتلتها .

وأسقط في أيديهم بعد أن سدّ الطريق أمامهم ، ولم تكن هناك فرصة للرجوع ، بعد أن باتوا على قيد خطوات من القوة .. وأضحت العودة تعرّضهم للشكوك ولإطلاق النيران على ظهورهم .

وأحس « علي » « عفّ » بضرورة القتال تتصاعد إلى رأسه ، وزاد من تشديد يده على المقبض ورفع سبابته فوضعه على التتك .

واستمرت العربّة تتقدم حتى وصلت إلى حافة البوابة ، فإذا بقائد البوليس الحربي يقف بجوار دورية البوليس ويقترب منهم .

وزاد وجود قائد البوليس الحربي من قلقهم ، وملأ صدورهم بالوساوس ، وصاح به « زكريا » متسائلاً :

— ما الذي أتى بك إلى هنا يا حسن ؟

وكانت دهشة قائد البوليس أشدّ من دهشتهم ، فقد رفع كتفيه ، وقال مشدوهاً :

— أنا لا أدرى شيئاً .. إني في حالة ذهول .. إن إدارة الجيش محاصرة ويضرب عليها نار .. وقد طلبوا مني تخليصها بأية وسيلة .

وأرّخى « علي » قبضته ، ورفع أصبعه عن زناد المدفع .. لم تكن في لهجة قائد البوليس الحربي ما ينمّ عن العداء ، وكان مفروضاً عليه بحكم منصبه أن يقاوم كل خارج على النظام أو اعتداء على السلطات ، وأن يقضى على أية محاولة لإثارة القلاقل .. وبدا عليه أنه لم يكن يعرف طبيعة الحركة ولا الدافع إليها ، ولا الغرض منها .. كل ما يعرفه أن رئاسة الجيش محاصرة وتضرب عليها نيران ،

— ٦٨٧ —

وأن رؤساء المحاصرين يطلبون منه تخليصها .
 ووجد « على » نفسه يتمم في مودة وإخلاص :
 — إذا كان المطلوب منك أن تخلص إدارة الجيش .. فالمطلوب منا أن نخلص
 مصر ، وأظن خلاص مصر خيراً وأجدى .
 ومضت فترة صمت قصيرة .. بدا خلالها كأن قائد البوليس يقارن بين واجبه
 في خلاص إدارة الجيش وواجبه في خلاص مصر .
 ووجد قائد الكتيبة أن الوقت يمر ، فقال يستحثه :
 — اركب معنا .
 وأحسن « على » بالراحة ، وهو يرى صاحبهم قد آمن بواجبه في خلاص
 مصر ، وقفز على سلم العربة .
 واندفعت العربة بسرعة البرق دون أن يحاول أحد من البوليس الحرجى
 اعتراضها ، وهم يرون قائدهم يتسلق سلمها .
 ووصلت العربة إلى باب الفرسان ، وكان « ثروت » يقف أمامه ، ولم يكذب
 يرى قائد البوليس حتى ضمه إليه في حماس هاتفاً :
 — برفو « حسن » .. هكذا الرجال .
 وتذكر « حسن » في هذه اللحظة أن في أعقابها القوة التي استنجد بها لتخليص
 إدارة الجيش .. وكانت تبلغ ثلثمائة جندي مسلحين بالمدافع الآلية والبرتات ..
 وخشى من وصولهم حدوث مجزرة باشتباكهم مع الجنود التي تحاصر إدارة
 الجيش ، فأنبأ بأمرهم « زكريا » .
 فسأله « زكريا » :
 — ماهى الأوامر الأولى التي صدرت إليك ؟
 — الانتظار في عابدين .
 — إذا ، خير ما تفعل هو أن تأخذهم وتذهب بهم إلى عابدين .. نحن لن
 نقرب هناك .. إن مسألة عابدين لا تعدو أن تكون خدعة .

وعاد قائد البوليس ليحوّل قواته إلى عابدين ليجد « كمال » قد احتل مدخل العباسية بمدافع ١٧ رطلا ، وليخبر « عاكف » عندما اتصل به من الإسكندرية ليطمئن على المدافع ١٧ رطلا بأنها موالية للحركة .

وكانت مسألة اللواء السابع .. ومحاولة قائدته إعدادة للمقاومة لم تحل بعد .. وكانت رغم انضمام قائد البوليس الحرى وعدم تدخل قواته ما زالت تشغل الأذهان .

وتحرك « تروب » من العربات المدرعة لمحاصرة اللواء .. ولكنه لم يكد يصل إلى مقره ، حتى وجد أن قائدته قد غادر مقره ليستطلع الحالة فوق في الأسر ، ولم يكد ضباط اللواء يرون « التروب » المدرع ، حتى خرجوا إليه بجنودهم لمعاونة الحركة .

وبدا على أن قوة فوق قوتهم تدبر أمرهم .. وأن معونة من الله تذلل له الوعر ، وتسهل الصعب .. وتحركت بهم العربية متجهة إلى رئاسة الجيش .. حيث وجدها « على » قد أحيطت بالعربات المدرعة والجنود المشاة .

كان قواد الجيش قد تجمعوا هناك لوضع خطة إحباط الحركة .. وكان قائد كتيبة المدافع الماكينة قد اقتبجم الرئاسة بإحدى سراياه للقبض عليهم .. وإخماد حركة المقاومة في منبتها .

وعبرت العربية شريط الترام ، ونفذت من الباب الحديدى القصير الذى أحاط به الجنود ، وكانت أصوات الطلقات تدوى حادة تشق سكون الليل ، وإحدى عربات المستشفى تغادر المبنى حاملة جنديين جرحيين .

وأعقب الطلقات صمت مخيم .. وبدا الليل فى أواخره ، وكأنه يمر آخر أذياه ويلفظ آخر أنفاسه .. أمام هجمات فجر جديد .. لم تبد بشائره بعد من وراء الأفق .

وضاق « على » بلحظات الصمت الثقيلة التى خيمت عليهم وشدد قبضته على المدفع فى يمينه ، وبدا له أن يهدى توتره بضغطة على الزناد يفرغ بها بضعة طلقات تزيل ذلك السكون البغيض .

وفجأة ظهر في مدخل البناء موكب عجيب ، وبدا رئيس هيئة أركان حرب بقامته المشدودة ، وملاحه الصارمة .. وقد أحاط به الجنود بأسلحتهم وعلى رأسهم قائدهم « صديق » الأسمر العملاق .

وهبط « حسين فريد » السلم الرخامي العريض ، وأخذ « على » يرقبه في إعجاب ، وقد سار بخطواته العسكرية الشديدة الثابتة ، وكأنه يسير في طابور استعراض .. وعندما بلغ الباب الخارجى وقف له الثوار صفاً واحداً .. ورفعوا أيديهم بالتحية العسكرية ، ورفع هو يده يرد لهم التحية في قوة .. وتفرّس في وجوههم واحداً بعد واحد .. « جمال » .. « عبد الحكيم » « كمال » « حسن إبراهيم » « زكريا » « شوقي » « حماد » ثم « على » .

وهبطت يده بعد التحية إلى جانبه .. وقال في نبراته الصارمة :
— طيب .. متشكر أوى .

واستمر الموكب في سيره إلى معتقل الكلية الحربية .
وكما تتلاحق أضواء الفجر ، تلاحقت أضواء الحركة . وكما تتساقط قلاع الظلام .. أمام سهام الأنوار .. تساقطت قلاع الظلم والفساد والاستبداد .. أمام أسلحة الأحرار .

وتوالت الأحداث في سرعة البرق ، واستقر « نجيب » — القائد العام الجديد — في مقر قيادته .. وتدفقت قوات الجيش تسيطر على مرافق البلد .. وتمسك بزمامه .. دون أن تزهق روح ، أو يراق دم .

وهب المصريون من سباتهم صباح ٢٣ يولييه ، مشدوهين مبهوتين ، وقد أحسوا أن كابوساً انزاح عن كواهلهم .. وأن أنفاسهم تخرج سهلة من صدورهم .. لتستنشق نسمات أنقى وأصفى .

وفي الساعة السابعة .. حمل إليهم الراديو صوت البشير مؤذناً بفجر جديد .. هاتفاً بأول بيانات الثورة إلى الشعب المصرى :

« اجتازت مصر فترة عصية في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم .. إلخ » .

(رد قلبى — ج ٢)

(٥٩)

يد مرتجفة

اتصل « الهلالى » من بيته فى الإسكندرية بـ « نجيب » فى مقر القيادة بالقاهرة قبيل إذاعة البيان الأول للثورة ، وحاول إقناعه بالعدول عن إلقاء البيان ، فطلب « نجيب » مهلة للتشاور مع زملائه ، والرد عليه بعد خمس دقائق . ولم يتلق « الهلالى » من « نجيب » ردًا سوى إذاعة البيان .. فعقد مجلس الوزراء فى الساعة الثامنة ، وعرض الأمر عليه ، فقرر إيفاد « المراغى » للتفاوض مع الثوار ، ولكنه فشل فى مجرد لقائهم ، وأبدى « الهلالى » للوزراء استعداداه لأن يطير إلى الضباط لتلبية مطالبهم ، وطلب من « شيرين » الاتصال « بالملك » ليأخذ منه تفويضاً يقبل مطالب الجيش .

واتصل شيرين « بالملك » وعرض عليه مطلب الهلالى ، فرفض « الملك » فهدده شيرين بأن الحالة سيئة جداً ، وأن العرش فى خطر ، وأخيراً قبل الملك أن يتكلم « الهلالى » عن مجلس الوزراء ، ويعد بمحاولة إقناع الملك بالمطالب .

واتصل زعلوك بنجيب ، فأنبأه نجيب ، أنه مع احترامه الشديد لشخص الهلالى ، إلا أنه يريد وزارة دستورية ، فسأله زعلوك عما يقصده بوزارة دستورية ، فأنبأه أن وزارة الهلالى بها وزيران غير مرغوب فيهما فسأله زعلوك : — الذى عندك واحد منهم (يقصد المراغى) ؟

— نعم .. والثانى عندكم (يقصد شيرين) .

واتصل الهلالى بالمراغى عقب هذه المحادثة . وأنباء بعدم جدوى مقابلته لنجيب ، لأن الوزارة كلها غير مطلوبة .. وذهب إلى السراى وقدم استقالته ، ثم كلف « على ماهر » بتشكيل الوزارة .

وفي اليوم التالي وافق « الملك » على مطالب الجيش ، وأعلن نجيب أن الجيش سيظل مشرفاً على المرافق العامة حتى تحقق الحركة ما تهدف إليه .
ولم يكن « على » قد غادر الثكنات خلال هذين اليومين سوى بضع دقائق ذهب خلالها إلى أمه ليطمئنها على نفسه .

وفي اليوم الثالث للحركة ، وهو يوم ٢٥ يولييه ، وصل « على » بعرباته المدرعة إلى الإسكندرية عبر الطريق الصحراوي ، ووصل سليمان بدباباته التي نقلت بوساطة عربات السكة الحديد بعد أن تقرر خلع الملك .

وقبل الظهر استقل القائد العام طائرة حربية من مطار مصر الجديدة الحرنى إلى الإسكندرية ، وقام بتفقد القوات التي بدأت في الوصول إليها منذ الصباح ، ثم قابل رئيس الوزراء محمداً موعداً آخر للقاءه في نفس اليوم ، وفي نيته أن يفاجئه في ذلك اللقاء بالإنذار الذى يطلب فيه الثوار خلع الملك .

وكان رأى قد استقر على خلع « الملك » في ذلك اليوم . ولكن الاستعداد لم يكن قد تم .. كان الجنود في حاجة إلى الراحة ، والمدركات في حاجة إلى التكوين .. وكانت كثرة مخاضى فاروق في قصر التين والمتنزه وأركانه الأخرى ، واحتمال مقاومته تحتم أن تكون خطة الحصار محكمة والاستعداد تاماً .

وتقرر تأجيل الخلع إلى صباح اليوم التالى السبت ٢٦ يوليو ، وخشى ضباط القيادة أن يثير اعتذار القائد العام عن لقاء رئيس الوزراء في الموعد الذى كان مفروضاً أن يتم فيه تقديم الإنذار شكوك الرئيس ، ولم يكن هناك بد من إرسال أحدهم . وهو « أنور » ليزيل شكوكه ويبدد مخاوفه ، ويقنعه أن الجيش لا يضمّر شراً بعد أن أجيب مطالبه .

وفي تلك الليلة نشأت مشكلة البتّ في مصير « فاروق » بعد عزله .. أنطلق سراجه؟! أم نحكم عليه بالنفى .. أو الإعدام؟ وانقسمت الآراء .. وطار جمال سالم إلى القاهرة في تلك الليلة ليعرف رأى بقية أعضاء القيادة الياقين هناك لإمساك زمام الأمور في القاهرة .. وأخيراً استقر رأى على نفيه ، فقد كرهوا أن

تلوّث دماء بياض الثورة التى نجحت دون أن تريق نقطة واحدة .
واستيقظ أهل الإسكندرية فى صبيحة يوم ٢٦ يوليو وضجيج جنازير
الدبابات يقرع مسامعهم ، وأزيز الطائرات يطن فى آذانهم ، ونسائم البحر تحمل
فى خلالها رائحة رهبة وخطر ، ونفوسهم يداخلها إحساس يحدث جلل يوشك
على الوقوع .

وأغلقت الدبابات المتحركة لحصار المنتزه طريق الكورنيش ، وبدأت المدفعية
والدبابات والعربات المدرعة فى نطاق متسع حول الساحة الخارجية لرأس التين ،
والمشاة فى نطاق أضيق داخل الحديقة .

وفى إحدى العربات المدرعة المحيطة بالقصر وقف « على » يرقب البناء
الشاخ .. الذى بدا فى صمته موحشاً خرباً .. ومن حوله وقف الشعب زرافات
تهمهم مأخوذة مشدوهة حائرة كأنها لا تصدق ما ترى .. ولم تلبث الحيرة أن
تمخضت عن هتافات تحية للجنود وصيحات سخط على أصحاب القصر .

وكان « على » يقف خارج القصر متحفزاً للهجوم .. وفى داخل القصر ..
وعلى أتم استعداد للدفاع .. كان يقف أخوه « حسين » .
لقد أوقف القدر كلا منهما فى جانب من المعركة .
ولم يكن كل منهما واثقاً من وجود أخيه فى مواجهته . ولكنه كان يحس
بوجوده .

كان « حسين » أحد ضباط الحرس الخاص للملك .. وكان قبيل حدوث
الحركة يتوقع السفر مع الملك إلى رأس الحكمة ، وفى ليلة الحركة كان يقوم
بدوره فى النوبتجية ، وكان يجلس منذ الساعة السابعة مساءً فى مقر الحرس
المخصوص فى سراى المنتزه فى انتظار خروج « الملك » لقضاء سهرته المعتادة
حول مائدة القمار ، فى نادى السيارات ، أو فى الاسكاريه .

ومرت الساعة تلو الساعة .. و « حسين » يتشاءب فى ملل حتى بلغت الثانية
عشرة دون أن يخرج الملك .. وأخيراً نهض هو وزملاؤه لخلع ملابسهم استعداداً

للنوم .

وفي الثانية عشرة والنصف دق التليفون ، وتحدث قائد البوليس الملكى ، وسألهم عما إذا كانت لديهم ملابس رسمية ، ثم طلب منهم الخروج إلى البوابة والانتظار فيها دون أن يوضح لهم السبب .

وانتظر حسين هو وزملاؤه على باب القصر حتى الفجر عندما بدأت تتواتر لديهم الأنباء بخروج الجيش واستيلائه على مقاليد الحكم .
وفي الصباح وصلت إلى القصر عربات محملة بالجنود والضباط لتعزيز الحراسة في السراى .

ومرّ اليوم التالى دون أن تبدو بوادر خطورة ، وأحس الملك بعد تغيير الوزارة أن أهداف الضباط لا تتعدى مطالبهم التى وافق عليها .

وسرت في نفسه طمأنينة نسبية ، حتى هبت ريح الخطر مرة أخرى ليلة الجمعة عندما أبلغ نياً تحرك القوات المسلحة إلى الإسكندرية .

ولم يكن قصر المنتزه بمحاذقه الشاسعة ومداخله المكشوفة بالملجأ الأمين .. ولم يكن هناك بدّ من الرحيل إلى رأس التين .. وفي الهزيع الأخير من الليل والإسكندرية مغرقة في سباتها والشوارع خالية ساكنة ، انطلقت إحدى العربات في سرعة جنونية تنقل الأسرة الملكية من المنتزه إلى رأس التين ، وكأنها فأريفر من جحر إلى جحر .

وعندما وصل ضباط القيادة إلى الإسكندرية يوم الجمعة . زادت وساو

الملك وقال لعلى ماهر :

— الجماعة دول لما جم اسكندرية مشى كان حقهم يعجوا ولو يمضوا بس في

الدفت .

فأجابه على ماهر :

— هم حايقابلوني بكره الساعة التاسعة .

وأوجس الملك خيفة وبدا له أن الضباط ما زالت لهم مطالب أخرى وسأل

« على ماهر » .

— علشان إيه . أنا نفذت لهم كل حاجة عايزنها . هم لسه لهم مطالب تانيه ؟
وكان آخر ما يخطر على بال الملك .. أن تكون هذه المطالب الثانية .. هى
عزله هو .

واستيقظ حسين فى صبيحة اليوم التالى على صوت الدبابات تحاصر القصر ..
والمدافع تصوّب فوهاتها إلى أسواره وجدرانه .. والجنود المشاة يجوسون خلال
حدائقه .

وسرت فى القصر موجة دهش وذعر .. ولم يستطع أحد أن يدرك الغرض من
هذا الحصار .. وخمن بعض الضباط أن يكون مجيء الجيش للقبض على « حلمى
حسين » و « بوللى » اللذين كانا يجتبان فى ثكنات الحرس .. ولكن « مقلد »
أحد ضباط الياوران هز رأسه وقال فى ثقة : « مش معقول .. دى مش حكاية
« حلمى حسين » و « بوللى » ، دول جاين له هو بالذات » .

وأيقن ضباط الحرس أن المسألة فعلا لا يمكن أن تقتصر على « حلمى حسين »
و « بوللى » ، وأن الحاشية كلها لا تستحق كل هذا الضجيج .. وأن الهدف لا بد
وأن يكون أكبر ، وأن ريع الثورة توشك أن تقتلع الرأس الأكبر .

وأحسن الضباط أن من واجبه أن يكونوا ملاصقين للملك فى مخنته الكبرى ،
فأتجه حسين وزملاؤه إلى الحرمك حيث كان الملك يقف فى الصالة المستديرة ،
وقد ارتدى بدلة البحرية وبدا الضيق فى ملامحه ، والاضطراب فى خطواته
السريعة القلقة .

وكان جنود المشاة المحاصرون للقصر قد تسرّبوا إلى طريق الحرمك وبدأ
الاشتباك بينهم وبين جنود الحرس الهجانة ، ودوّت الطلقات سريعة الحادة ، فبدأ
الجزع على « الملك » وأمر بإيقاف الضرب طالبا من الضباط عدم المقاومة حتى
لا تحدث إصابات .

وأُسرع أحد الضباط لإبلاغ أوامر « الملك » إلى قائد حرس المشاة .. وما

لبث الهدوء أن استتبّ مرة أخرى .

وهز « الملك » رأسه في أسف ، وهو يزفر في ضيق :

— أظنّ أن هذا درس يجب أن نستفيد منه .. ليست هناك حراسة كافية ،
بدليل أنهم وصلوا إلى الحرم لك .. وإن شاء الله لا يتكرر هذا مستقبلاً .

ووصل « على ماهر » الذى أرسل « الملك » فى استدعائه لكى يستوضح منه
جلية الأمر ، وأقبل يستحث الخطى حائراً مشدوهاً ، فصاح به الملك :

— إيه الحكاية؟! إيه اللي جاب الجيش ؟

— أنا كان مش عارف .. لأنى لغاية امبارح بالليل كنت مع نجيح ، وأخذت
منه وعد إنه ما يقربش على السراية .

— طيب روح شوف الحكاية إيه ؟

وغادر « على ماهر » القصر .. ليرى « الحكاية إيه » .. وعندما عاد فى المرة
التالية .. كان قد عرف الحكاية .. وتسلم الإنذار الذى وجهه الجيش إلى الملك
يطلب منه التنازل عن العرش .

وسمع « الملك » لأول مرة .. ما كان يجول فى خاطر كل مصرى .. ولا يجسر
أن يرتفع به صوت .. سمع « الملك » .. الحق الذى وضعه حيث يجب أن
يكون : عابثاً ماجناً .. أخرق أحق .. بدل الباطل الذى كان يرتفع به إلى
مستوى الرسل والأنبياء .. سمع « الملك » بوضوح .. صوت الشعب يصيح بـ
فى قوة وعنف :

« إيه نظراً لما لاقتة البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة . عمت جميع
المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعيثكم بالدستور ، وامتهانكم لإرادة الشعب ،
حتى أصبح كل فرد من أفرادها لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته .. ولقد
ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك ، حتى أصبح
الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والتراء الفاحش والإسراف

على حساب الشعب الجائع الفقير » .

سمع الملك أوصافه وأعماله بوضوح وصدق .. وعرف أن هذه الأوصاف والأعمال تحتم عليه التنازل عن العرش في موعد أقصاه الثانية عشرة ظهراً .. ومغادرة البلاد في موعد أقصاه السادسة مساء .

وصمت صوت الإنذار .. ليخلف سكوناً مطبقاً ، ووجوماً شديداً . وغادر « على ماهر » المكان ومعهم قائد البوليس .. ولم يكن الضباط قد عرفوا جلية الأمر بعد .. كانوا يعرفون من ملامح رئيس الوزراء المتهجمة وسيماء الواجهة أن شيئاً خطيراً قد حدث ، ولكنهم لم يدركوا تفاصيله بعد .

ووقف « كامل » قائد البوليس ينتهم في شروء أن الأمر قد انتهى وأن « الملك » لم يعد بعد ملكاً .

و لم يستطع حسين أن يصدق أذنيه .

لم يصدق .. أن كل هذا السلطان يمكن أن يزول في غمضة عين .. وأن هذا الجاه العريض والأبهة التي لا حدود لها .. والملك الذى كان دوامه فوق مستوى الشك والريب قد حلت نهايته بمثل هذه السرعة .

ووقف « حسين » يدور يبصره في أنحاء القاعة الرحبة المستديرة . وقد أقيمت اللوحات الرائعة على حوائطها وإلى المنضدة الرخامية السوداء والمقاعد المصفوفة .. ثم شردت عيناه إلى ما وراء النوافذ المواجهة ، حيث بدا الفراغ العريض الأزرق خليطاً من الماء والسماء .. وتملكه إحساس شديد بضالة الإنسان وتفاهته .. وغروره وعجزه .

واسترعى « حسين » من شروءه وقع أقدام مقبلة من الطرقة العريضة المفضية إلى القاعة ، وبدا الملك في حلته البيضاء عارى الرأس ، وقد وضع منظاره الأسود على عينيه ، وأمسك منديلاً في إحدى يديه يجفف به عرقه ، ثم توقف في مدخل الطرقة ، واتكأ بذراعه على الباب .

وكان يبدو في وقفته كطير ذبيح سرقه السكين ، يحاول التماسك كأن لم يصبه

شيء .

وأحس الضباط من هيكلة النهار المتناسك ، بالمرارة تفعم نفوسهم ، ولم يستطع قائد الحرس أن يوقف دمه الهائل .
واقرب الضباط من « الملك » الواقف الجاثي ، وهمس قائد الحرس ، وهو .
يكبح جماح دموعه :

— كل هذا فعلته بك القلة المخادعة المجرمة التي كانت تحيط بك .. والتي كنت تبعدها لتقربها .. أنا قائد حرسك ، كنت أشعر ببعد الهوة بيني وبينك .. كنت أبعد الناس عنك .. لم تحدثني مرة واحدة .. أنا الذي كان يملأ نفسي الإخلاص لك .. كنت أشعر أني غريب عن قصرك .. دخيل عليه .
ورفع « الملك » المندبل يخفف جبينه ، وأطرق ، مسلماً بما سمع ، ولكنه ما لبث أن هزه في يأس وأجاب :

— لا فائد الآن .. لقد انتهى الأمر .. إني أحس الآن مدى وفائكم لي .. ولكم وددت أن آخذكم معي جميعاً .. ولكنني لن أستطيع أن آخذ سوى ستة منكم .

ثم التفت إلى قائد الحرس وأردف قائلاً :
— يا أحمد .. شوفهم لي .

وعاد « الملك » إلى الطريقة وما لبث أن اختفى بجسده الضخم ، وقد بدا في سيره كأنه يحاول أن يرفع عن نفسه أثقالاً تشده إلى الأرض .
ووقف قائد البوليس يسأل عن الضباط غير المتزوجين ، الذين يمكنهم أن يصبحوا « الملك » قائلاً : إن رئيس الوزراء على علم برحيل هؤلاء الضباط ، وأنهم سيعتبرون في مهمة رسمية .

ولم يتردد « حسين » في أن يكون ضمن الستة المصاحبين للملك .. دفعته إلى ذلك طبيعته المغامرة المندفعة وإحساسه بالوفاء للملك المهيض والعطف عليه .
وفي تلك اللحظة استدعى قائد البوليس إلى خارج القصر ، وما لبث أن عاد

ومعه « سليمان حافظ » وكيل مجلس الدولة ، وقد حمل في يده مظروفاً وضع به الوثيقة أعدها لتنازل الملك عن عرشه .

وجلس الرجل في كثير من الوجل ، قد تملكته رهبة الموقف على أحد المقاعد الكبيرة الملاصقة للحائط .. وغاب قائد البوليس داخل الطرقة التي اختفى فيها « الملك » منذ برهة .. وبعد لحظات أقبل في خطاه السريعة قائلاً :

— سيأتى الملك لمقابلتك .

وبعد لحظة أردف يقول في لهجة رجاء :

— إن للملك أمنية يود لو استطعتم تحقيقها .. فقد اعتقل الجيش « بوللى » و « حلمى حسين » عند محاولتهما الخروج من القصر هذا الصباح .. ولبوللى معزة خاصة عند الملك فهو يلازمه منذ طفولته ، ويسره في هذه الظروف لو أمكن لكم التوسط للسماح له بمصاحبته اليوم والرحيل إلى غير رجعة .

— إنى أعد أن أبذل كل جهدى فى هذا الشأن .

— ولا شك أن جميلكم سيكون مضاعفاً إذا أمكن أيضاً السماح لحلمى حسين بمرافقته .. أما إذا لم يكن ذلك ممكناً فيكفى الإفراج عن بوللى فقط .

— سأحاول أن أفعل كل ما أستطيع .

وساد السكون .. وأخذت الدقائق تمر بطيئة ثقيلة .. وحسين ينظر إلى الكهل الأشيب ذى الوجه المجعد والعينين التى أحاطت بهما هالة من السواد ، وقد انكمش على مقعده فى خشية وتواضع ، وكأنه لم يأت لإطاحة « الملك » عن عرشه ، وكأن الورقة يمينته لم تكن السيف البتار الذى سيستأصل فساداً تشعبت جذوره وتوطدت دعائمه .

ومرة أخرى سمعت خطوات « الملك » تقترب فى الطرقة ، وكانت هذه المرة خطوات سريعة متوترة ، ولم يلبث حتى بدا بهيكله الضخم ، وقد جمدت ملامحه .. وبدا من خلالها الجهد الذى يبذله للسيطرة على أعصابه وتمالك قواه .. وإن نمت سعلاته القصيرة المتتالية على فرط توتره وانفعاله .

واتجه الملك إلى المنضدة الرخامية المستديرة التى توسطت القاعة ، ومد يده مصافحاً المعجوز الذى هروى إليه ، والذى أخرج وثيقة التنازل من غلافها ، وقدمها إليه فى إجلال واحترام .

وتسأل « الملك » وهو يتسلم حكم الإعدام على عرشه :

— أهى محكمة الوضع من الناحية القانونية ؟

— أجل .

وألقى عليها نظرة خاطفة ، ثم عاد يتسأل :

— ما هى أسباب النزول عن العرش ؟

— لقد استلهمناها من مقدمة الدستور .

ورفع الملك الوثيقة ، وأخذ فى قراءتها ، ثم أخرج من جيبه قلماً وعاود قراءتها متمهلاً .. وكأنه يفحص كل كلمة .

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان .

لما كنا نطلب الخير دائماً لأمتنا ، ونبغى سعادتها ورفقها ، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ، ونزولاً على إرادة الشعب ...

وهنا توقف برهة ورفع بصره عن الوثيقة ، وسأل الرجل المائل أمامه كالجلاد :

— ألا يمكن إضافة كلمة « وإرادتنا » بعد عبارة « ونزولاً على إراد

الشعب » ؟

— لقد صغنا نزولكم عن العرش فى صورة أمر ملكى .

— أتقصد أن الأمر الملكى ينطوى على هذا المعنى ؟

— أجل .

— إذا فليس هناك ما يمنع من إضافة هذه الكلمة ؟

— إننا لم نصل يا مولاي إلى هذه الصيغة المعروضة على جلالتك إلا بشق

الأنفس .

ورفع « الملك » حاجبيه ، وتساءل في دهشة واهتمام :

— إذا فقد كانوا يريدون منى أن أوقع على ورقة أخرى ؟

ومضت فترة وجوم ، لم يلبث أن قطعها قائلاً :

— أيمكن أن تحدثني عما كان بها ؟

— إني لم أطلع عليها يا مولاي .

— أتمسك عن ذكر ما بها حتى لا تجرح شعورى ؟ إني أعذك ألا أتأثر بما

أسمع !

— أقسم بشرفي أنى لم أطلع عليها .

ووضع الملك طرف القلم على أسفل الوثيقة ، وبدت يده ترتجف وتهتز وأوثق

قبضته على القلم حتى لا تخونه أعصابه .

كان قلمه هذه المرة يعبث بمصيره هو .. لا بمصائر الغير .. كان يعرف أنه بهذه

الدوائر المتتالية التى يخطها .. فى أسفل الوثيقة .. قد طأطأ هامته ، وخفض

جناحه ، وكسر شوكته ، وأذل عزه ، وأضاع سلطانه .. وأنه قد أضحى

كغيره من عباد الله .. لا يمشى فى الأرض مرحاً .. ولا يخرق الأرض ولا يبلغ

الجبال طولاً .

ورغم قبضته الموثقة على القلم .. لم يستطع أن يمنع عنه رجفة كرجفة

الموت .. وبدت الإمضاء التى كانت مستهترة مستخفة فى تقرير مصائر الغير ..

دليلة مرتجفة فى تقرير مصير نفسه هو .

ونظر إلى الإمضاء وأحس أنها فضحت انبهاره وتخطيمه ، ورفع رأسه ببطء فى

مدلة واستحياء ، ليجد وجه الجلال العجوز جامداً صامتاً ، وكأنه النسر على قمة

الشجرة ينتظر الفريسة حتى تلفظ آخر أنفاسها .

وازدرد « الملك » ريقه ، وتمتم فى خجل :

— لعلك تلتمس لى العذر فى أن التوقيع لم يكن كما أود ، ولذا سأوقع مرة

أخرى .

وارتفع سن القلم إلى أعلى الوثيقة ، فأعاد الإمضاء .
وتناول العجوز سلاحه .. وبدا له أن الذى أجهز عليه يستحق منه بضع
كلمات رثاء يشيعه بها إلى لحدّه ، فأخذ يردد حديثاً عن قضاء الله وحكمته ،
ووجوب الرضاء به .

وهز « الملك » رأسه فى استسلام .. لم يكن يملك سواه .
واقترب قائد البوليس فكرر على مسامع الملك ما سبق أن تحدث به عن بوللى
وحلمى حسين فأيد الملك أقواله وألح فى طلبه ، فكرر الرجل وعده فى أن يبذل
كل جهده .. وسأله قبل أن ينصرف عن أية رغبة أخرى فتحدث عن رغبته فى أن
تبقى أمواله فى مصر حتى تتول إلى أولاده أو توزع عليهم من الآن .
وانصرف الرجل فى هدوء وخشية ورهبة .. بعد أن سحب العرش من أسفل
الملك ، وقذف بالتاج من فوق رأسه .

ووقف الملك حائراً مشدوهاً .. بلا عرش ولا ملك ولا تاج .. وسار
بخطوات متثاقلة حتى استقر على مقعد بجوار منضدة صغيرة عليها تلفون ..
وأخذ يضرب يده بجبينه كأنه غير مصدق لكل ما حدث .

ولم يكن هو وحده الذى لا يصدق حقيقة ما حدث ، كان الضباط الذين
التفوا حوله ، زائغى الأبصار ، فاغرى الأفواه ، يضربون كفاً بكف .. وكان
حسين يستبعد أن تتم المسألة يمثل هذه السرعة .. كان يتخيل أن انهباء هذا الملك
الشامخ والسلطان الجبار .. يحتاج إلى أكثر من ورقة فى يد عجوز هباب وجل
منكمش يحتاج إلى ضجيج وعنف وصخب وأحداث خطيرة جليلة .

ومع ذلك .. فهو يجد المسألة قد تمت .. والنهاية قد حلت لا ريب فيها ولا
شك .. وأن الرجل المنهار أمامه على المقعد يضرب يده بجبينه فى ذهول .. والذى
كان منذ برهة تطاطب له الرعوس .. وتدل النفوس .. قد طأطأ رأسه .. وذلى
نفسه .. وأن « الملك » الذى كان منذ لحظات طاغية جباراً .. لم يعد بعد
ملكاً ، ولا طاغية ، ولا جباراً .

(٦٠)

غروب ..

نظر « حسين » إلى ساعته فإذا بالعقارب تسير ، والوقت يمر .. وفي تلك اللحظة أحس أن سير العقارب يغير أوضاعاً ويبدل أموراً .. وأن الوقت الذي يمر .. لم يعد يمر في تراخ وهدوء وسكينة كما كان يمر من قبل ، وأن الدقائق التي يقطعها الوقت ، باتت تحتسب من حياة هذا البلد ، ومن حياته في هذا البلد .. وأنه عندما يدور العقرب بضع دورات لم يكن يحس بها فيما مضى .. ستصبح مصر شيئاً آخر غير ما كانته مصر ، وسيضحى هو إلى خارج مصر إلى غير رجعة .

أجل ! هذه حقيقة .. لا لبس فيها ، ولا غموض .. حقيقة مرّة .. لم يحاول أن يفكر فيها من قبل ، عندما ساقه الاندفاع وحب المغامرة والإحساس بالوفاء إلى أن يقبل الرحيل مع « الملك » لحراسته .

وتوالت على ذهنه صور سريعة خاطفة لحياته .. بدأت بماضيه القريب .. الحافل المزدحم .. المليء بحياة الاستهتار المكشوف ، واللهو المفضوح .. في مستوى أرستقراطي وطبقة رفيعة .. وتذكر صحبته « للملك » في نوبات حراسته حيث كان يصل الليل بالنهار ، و « الملك » لا يتزحزح عن مائدة اللعب ، وصحاف الشطائر تتوالى عليه ليلتهمها في نهم واحداً بعد واحد ، وتذكر جو المؤامرات والدسائس والفتن والفساد والانحلال .. وبداله كأنما كان يحيا في ضباب ، أو يدور في دوامة ، وسط مستنقع قدر .

وتتابعت الصور في ذهنه .. فحملته من ماضيه إلى جو هنا وأنتقى .. وأحس — بعد طول الجهد واللهث — الحنين إلى البيت الهادئ ، والصدر

الحنون ، والنفس الصافية ، والقلب الوافي .. وتذكر « أمه » و « بية » وبدأت له كالمجأ الدافئ في يوم قر .. دفعته أمواج المطامح والمتع بعيداً عنه .. ولم يحس بحاجته إليه إلا بعد أن أضناه الجهد وأضرّ به الضلال .

وألحت على ذهنه صورة « بية » .. في حبها الصامت له ، الحب العميق القوي المثابر ، الذي لا يحدّ من تدفقه ، إنكار أو إهمال ، أو هجر أو بعد ، وأحس لأول مرة بلهفة عليها ، وهو الذي لم يطف ذكرها برأسه مرة واحدة .. وبدأت له في تلك اللحظة .. كأنها جزء منه ، لم يفكر فيه ولم يشعر بوجوده إلا وهو يوشك أن يفقده .

وتذكر وفاءها العجيب .. ورفضها لكل من تقدم لزواجها .. رفضاً باتاً بلا بحث ولا تفكير ولا مناقشة .. وحياتها في الدار كراهية ونهبت نفسها لخدمتهم جميعاً .

وتذكر رغبة « أمه » في زواجه بها ، واستنكاره هو لهذه الرغبة ، وتطلع « بية » إليه كرجاء دائم لا يأس منه .. وأمل مشرق لا مغرب له .. رغم قطعه لكل رجاء .. وإطفائه لكل أمل .

وتذكر تكالبها على خدمته ، وفهمها لكل مطالبه وقضاءها لكل حوائجه ، وإحساسها الواثق بأنها شيء تابع له ، أرادات الأقدار أم لم ترد ، وشاءت الظروف أم لم تشأ .

واستمرت الصور في تتابعها على ذهنه ، فدفعت إليه أخاه « على » .. أو نصفه الآخر .. النصف المثالي القويم .

وكان قد عرف في اليوم التالي للثورة .. أنه قد اشترك بكتيبته المدرعة ضمن قوات الفرسان .. وبهت في أول الأمر .. فقد كان يعرف عن أخيه كرهه للمغامرة .. وميله الشديد إلى التزام حدود واجبه ، وتقديسه للنظم المفرضة عليه كرجل عسكري .

ولكن دهشته لم تلبث أن زادت عندما علم أن الجيش كله قد اشترك في

الثورة .. وأن « على » بلا شك يعتبر في قرارة نفسه أنه بات يعمل في حدود واجبه الحقيقي .. وأنه باشتراكه في عمليات الثورة .. إنما ينفذ الأوامر المضبوطة الحقة .. التي تهدف إلى صالح البلد .. وأن الأداة المسيطرة الآن على الجيش .. والتي تصدر إليه الأوامر .. أحق بالطاعة من حاشية السوء .. والجهل .. والفساد .. التي كانت تسيطر على الجيش .

وعلم « حسين » قبيل الظهر من أحد زملائه أن « على » يشترك مع القوات المحاصرة للقصور .. وأنه لا تفصله عنه سوى بضعة دقائق .

وأحس الشوق إلى أخيه .. والرغبة في أن يتزود منه بلقاء أخير قبل الرحيل ، وبداله اللقاء سهلاً ميسوراً .. فهو لا بد أن يجهز نفسه للسفر .. وما زال أمامهم بضعة ساعات يستطيع خلالها أن يخرج ليعد حاجياته ، ويلقى « على » .

وكان « الملك » ما زال مطرقاً وقد قبع على مقعد بجوار التليفون ، وكان ينادى « أحمد كامل » قائد البوليس بين آونة وأخرى .

واقترب « حسين » من « كامل » .. وقال في صوت منخفض متسائلاً :

— ما هي الملابس خلال السفر .. أسنرتدى البوشير ؟

وأجابه « كامل » في ضيق .. فقد كان في ذهنه من المشاغل ما يغنيه عن

التفكير في ملابس ضباط الحرس :

— تفاهم مع « أبى النصر » .

واتجه « حسين » إلى « أبى النصر » قائد الحرس قائلاً :

— إني أريد الخروج لإحضار ملابس .

وأحس « الملك » بصوت « حسين » يقطع الصمت الجاثم .. والسكون

الخيم ، فتساءل قائلاً :

— ماذا تريد ؟

وارتبك « حسين » وأجاب :

— إني أتساءل .. هل أستطيع الخروج لإحضار ملابسى ؟

وأجاب « الملك » فى دهشة :

— أية ملابس هذه التى ستخرج لإحضارها ؟ .. البس أى شئ .. البس قفطان .. البس جلباب .. البس ما تريد . ألن نستطيع أن نحضر لك بدلة .. يكفى التضحيات التى بذلتوها .

وأحس « الملك » بجفاف فى حلقه فصاح :
— ماء .

ثم أخذ يرتشف الكوب رشفة رشفة ، وعيناه زائغان ، ومالبث أن صاح فى عصبية ظاهرة :

— هات لهم ماء .

والتف الضباط حوله فى شبه دائرة ، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ، وبدأ عليهم ذهول شديد .

ووقف بينهم « حسين » .. شارد الذهن .. وقد اختلط تفكيره واضطرب ذهنه .. وهو يحس تعذر الخروج أو استحالة لقاء أخيه .. ويجد الخيط الأخير بينه وبين أحب الناس إليه قد قطع .. ويحس أن وطنه يوشك أن يلفظه إلى مصير غامض ومقر مجهول .

وحل موعد الغداء .. وجلس « حسين » مع بقية الضباط يلوكون لقمات من الفاصوليا الجافة ، وبضع شرائح من اللحم المحمر .. وقد سادهم الوجوم ، وأطبق عليهم الصمت إلا من بضع كلمات دهشة وعجب .

ودنت ساعة الرحيل ، وانهمك الخدم فى حمل الحقائب إلى اللش الواقف بجوار الشمندورة .. وأقبلت الأميرة « فوزية » وزوجها لوداع « الملك » .. وقد شحب وجههما ، وبدأ الذعر فى ملامحهما .

وجلس « حسين » فى ركن بعيد يرقب عقارب الساعة فى صمت ، ومن حوله زملاؤه الخمسة يكتبون لنوهم رسائل وداع .. دون أن يحاول هو أن يخط حرفاً .. فقد أحسّ بذهنه يتلبد .. وانتابته حالة من اليأس ، جعلته لا يأبه لكل

ما حوله .

والتفت إليه أحد الزملاء متسائلاً :

— لماذا لا تكتب ؟

— وماذا أكتب ؟

— ألا تريد أن تكتب كلمة وداع لأخيك ؟

— وما فائدة كلمات الوداع ؟

— إذن اكتب كلمة تطمئن بها والدتك .

وأمسك « حسين » القلم وأخذ يكتب :

أخى « على » .

لست أدرى ماذا أكتب إليك .. فالكلمات تعتبر تفاهة وعبثاً ، إذا ما قيسَتْ بضخامة الأحداث التي تمر من حولى .. والمشاعر التي تصطبغ في باطنى .. والأفكار التي تحتشد في ذهنى .

إنك تقف الآن في عربتك المدرعة ومن حولك جنودك وزملائك ، ومن حولكم الشعب كله .. وقفة المنتصرين على الاستبداد .. المحطمين للطغيان . وفي داخل القصر الذى تحيطون به ، ووراء الحدران العالية التي تصوّبون إليها مدافعكم .. يقبع الطغيان .

وكم أود لو وقعت الجدر بين القوتين .. قوتكم وقوة الطغيان .. حتى يتضح الفارق العجيب بين القوتين .

إنى لأنساءل في حيرة .. كيف تسنى لهذا الفرد العاجز وثلثة الهزيمة ، أن تسيطر على كل هذه القوى الهائلة من الشعب والجيش التي تزار في الخارج ؟! كيف تسنى لها أن تجثم عليها ، وتطبق على أنفاسها .. وتسوقها سوق غرائب الإبل .

إن الاستبداد وهم تخلقه القوى المنساقاة بلا تفكير .

وليس في هذا العالم قوة فرد مستبد .. تعادل مجموعة القوى المستبد بها

أبداً .. إنما الطغيان خدعة يفرضها الفرد على الجموع ، ويلبسها الجموع للفرد .. بعد الاقتناع بها والخوف منها .

إن قوى الطغيان والاستبداد .. مستمدة من وهم الحكم ، وهو لا يزيد في حقيقته على صيحة راعي الإبل .. أو هشة صاحب الغنم .. كل قدرتها كائنة في خوف الإبل منها .. وانقياد الغنم لها .

لست أدري لِمَ أكتب إليك هذا في هذه اللحظات الحرجة والوقت الضيق .. قد يكون الدافع إلى ذلك أحساسى العميق بمدى ضالة الفرد في حد ذاته وفي محيط نفسه .. لقد رأيت المستبد .. يفقد استبداده في لحظات .. وهو .. هو .. لم يتغير في تكوينه شيء .. لم ينقص من قوى جسده ولا خفت قوى عقله .. لم يتر منه عضو .. ولا نزع منه ظفر .. في دقيقة كان مرهوباً .. مروعاً .. وفي الدقيقة التالية كان ذليلاً .. مرتجفاً .. لماذا !!؟

لأن القوى المنساقفة .. قد كشفت الخدعة .. وبددت الوهم .. ووجدت أن قوى المستبد من قوتها .. فاستردتها .. وتركته عاجزاً ضعيفاً بلا حول ولا قوة . إن العقارب تسير .. لست أدري سر هذه السرعة التي تسير بها .. وإن لحظاتي على أرضنا هذه قد باتت معدودة .

إني حائر فيما أقول لك .. فالكلمات — كما حدثتك في أول الرسالة — تعتبر عبثاً إذا ما قيست بمشهد مشاعرى .

أتسخر منى كثيراً .. إذا ما قلت لك إني أحس بحنين شديد .. إلى بيتنا .. البيت الذى ولدنا فيه .. إلى جلسة الطبلية .. والحصيرة .. والفراس المشترك .. إلى الطين الأسود .. والحلبة الخضراء .. والماء العكر ؟

أتسخر منى كثيراً .. إذا ما قلت لك .. إني .. إني .. أحب « بهية » ؟
أجل يا « على » .. ما أحسست بها في حياتي كما أحس الآن ، وأنا أو شك أن أرحل إلى غير رجعة .

إنها كانت تنتظرني دائماً .. بلا أمل في شيء .. وأغلب ظنى أنها ستظل

تتظرنى .. كما تعودت أن تنتظر .. قل لها إن انتظارها هذه المرة .. لن يكون بلا أمل .. لأنى إذا عدت فسأعود لها .
أرها رسالتى .. وقبل لى أسمى .
إنى أحبكم جميعاً . المخلص

حسين

وأطبق حسين الرسالة .. ثم وضعها فى الظرف وسلمها لزميله .. ليضعها ضمن الرسائل التى كتبها الضباط الستة إلى ذويهم .
وكانت الساعة قد اقتربت من الخامسة والنصف ، فأمر قائد الحرس بإعداد قره قول شرف يصطف من القصر إلى الميناء لتوديع « الملك » .
وكان رئيس الوزراء قد خيره بين السفر بالطائرة أو البحر ، فاختار البحر وتقرر السفر بالمحروسة ، واستدعى قائدها « جلال علوبة » إلى القصر .
وأخذت الحوادث تتلاحق ، والكل يتحركون فى صمت كأنهم أشباح ، وفى الساعة السادسة إلا عشر دقائق هبطت الملكة والملك الصغير والأميرت الثلاث ، وعزفت موسيقى الحرس السلام الملكى .
وانخذ الجميع أما كتبهم فى اللنش ، ووقف الضباط وبقية الموظفين بجواره ، وبعد خمس دقائق هبط الملك ، وتحرك وسط الحاشية المودعة والحرس المصطف ، كأنه راحل فى إحدى رحلاته الملكية .. ما زالت تحف به مظاهر الأبهة والملك .. وفى خطواته الثبات الأخير للطير الذبيح ، وعزفت الموسيقى بالسلام فرد التحية ، وتسلم العلم من ضابط العلم .. ثم اتجه إلى اللنش ، وقبل أن يأخذ مكانه فيه ، ودع رئيس الوزراء والسفير الأمريكى ، وحيا الضباط والمواطنين .

وتحرك اللنش يشق طريقة فى المياه الزرقاء الهادئة .. وبدت جموع الشعب محتشدة على الميناء .. ورفع « الملك » الكاب محيياً البحارة وطلبة البحرية .
وفجأة بدت إحدى المراكب الصغيرة ، وبها مصوّر ممسك بآلته فصاح « الملك » فى انفعال :

— خذوها منه .

وأمسك بالمصوّر وألقى بآلته إلى البحر ، وأعدم بذلك كل أثر لرحيل « الملك » .

ووصل الركب إلى المحروسة .. وصعد « الملك » وأسرته وتبعه « حسين » وبقية الضباط ، ودوت طلقة تحية من إحدى المراكب فأصابت « الملك » رجفة كشفت عن انهاره الداخلي ، كأنما كان لا يصدق أن ينجو بجلده ، أو كأنه كان يتوقع ضربة قاضية تنزل به في أية لحظة .

وبعد برهة اقتربت إحدى المراكب من السفينة ، وقد حملت ضباط الثورة الذين أنوالوداع « الملك » ، ودارت حول المركب دورة ، وحياه ركابها ، فلم يرد التحية لأنه لم يرههم حتى لفتت « الملكة » نظره ، وكانت تبدو رابطة الجأش .

وصعد « نجيب » و « جمال » إلى المركب وحيوا « الملك » ووقف الخصمان يواجه أحدهما الآخر ، وكانت قوة الأحداث وسرعة تطورها أشد من أن تترك لكل منهم فرصة التفكير في روعة اللحظة الحاسمة التي يقفون فيها .. كان كل من يرى الآخر من خلال ضباب الأحداث الكبرى التي أدت إلى هذا الموقف والأحداث الكبرى التي سترتب عليه .

كان « الملك » ينظر إلى هؤلاء الذين ركلوه عن العرش في لمح البصر .. من هم ؟ كيف تبدو سماتهم ؟ .. وأين كانوا من رعيته الخاضعة ؟ .. وشعبه المطيع ؟ .. لماذا لم يبطش بهم قبل أن يبطشوا به ؟ ! وبدأ أنه يحاول جهده أن يكون ملكا في ساعاته الأخيرة ، وأن يحتفظ بوقفة الذبيحة على أقدامها حتى آخر لحظة ، وألا يخز أمام قصاييه .

(رد قلبي — ج ٢)

ونظر إليه الضباط نظرهم إلى ثور يترنح ، وهو ما زال يقف على أربع .. ولم تبدو عليهم رغبة في إطالة اللقاء .. وانتهى الوداع الشكلي في لحظات ، بعد أن حاول « الملك » أن يلقي خلاله بآخر أوامره « الملكية » فأمر « جمال » بنزع عصاه ، وأجابه « جمال » بنظرة أفهمته أنه لم يعد ملكا ، وذكر الذبيحة بالسكين التي سرقها .

وغادر الضباط المركب ، بعد أن ودعهم « الملك » بأطيب تمنياته التي لم يكن لها في قلبه ما يبررها ، والتي بدت كآخر مظهر يخلع به على رحيله سمات الروعة الملكية ، ويكسب به وداعه أمارات السمو .

وفي السابعة إلا ربعا تحركت المركب بعد أن تم تمويلها ، وأخذت تنساب في بطء على الموج الأزرق الراجراج ، وكانت الشمس قد أخذت تنهاوى في الأفق الغربى ، وبدت السفينة في انزلاقها نحو الأفق كأنها شمس أخرى آفلة إلى غير عودة ، غاربة إلى غير شروق .

ووقف ركاب السفينة يرقبون المدينة تتباعد ، والذبول الحمر التي خلفتها الشمس الغاربة تقرضها أنياب الليل السود فتتحسر عن المدينة .. لتخلف دورها الشاهقة أشباحاً باهتة مضمحلة .. ورويداً رويداً .. أطبقت الظلمات على الأشباح الرمادية القائمة في الأفق ، كأنها شواهد القبور .. دفنت تحتها قوى الطغيان ومظاهر السلطان والجبروت .

ووقف الملك متكئاً بذراعه على حافة السور .. وقد تعلق بصره بالظلمة المطبقة ، التي بدت من خلالها أضواء مرتجفة تتراقص في الأفق الحالك .. ملوحة بآخر آثار ملكه .. وما لبثت الأضواء المرتجفة أن ابتلعته الظلمات ، كأنما قد عصفت بها الهبة الأخيرة من العاصفة ، التي اقتلعت عرشه وأطاحت بتاجه .

وخيمت على عينيه سحابة دمع لم يقو تجلده على تبديدها ، ومد يده يتحسس رأس « الملكة » الواقعة بجواره ، كأنما يحاول أن يجد شيئاً تبقى له من ملكه الزائل .. وبعد برهة التفت إلى الضباط قائلاً :

— استريحوا فإني لأحتاج في المركب إلى حراسة .

واندفعت السفينة تشق طريقها بين الظلمات .. وأوى الركاب إلى حجراتهم ، بعد أن غربت عن أبصارهم آخر نارية في أرض الوطن . وجلس « حسين » على حافة الفراش الصغير يريح جسده المكثود ، واضعاً مرفقيه على ركبتيه .. مسنداً رأسه على كفيه ضاغطاً جبينه بأصابعه كأنما يحاول أن يسكن ذلك الصداع .. الذى يكاد يحطم رأسه .

وأحس ، وقد خلا إلى نفسه لأول مرة .. في هذا اليوم الصاخب الحافل رغبة في البكاء ، وكانت عبراته كقطرات المطر التى تتلفه عليها الأرض لتغسل شوائبها بعد هبوب عاصف وإعصار مترب .. ولم يحاول أن يكبح جماح دمه وتتركه ينساب فى صمت بين أصابعه .. ليغسل همومه .. ويفك ضيقه .

وفعلت نوبة البكاء فعلها .. وأحس بعد ذلك بشيء من السكينة والراحة .. وما لبث أن نفّض عنه دموعه كما نفّض همومه .. وتحامل على نفسه مستدعياً طبيعته المغامرة .. وروحه المستهتر .. وكان أول ما فعل أن نهض إلى المرأة وأخذ فى حلاقة ذقنه .. واغتسل ، ونسق ملابسه قدر الاستطاعة ثم خرج إلى ظهر السفينة .

وفى الساعة التاسعة غادر « الملك » ححرته ، وقد ارتدى ما يشبه العباءة البيضاء كست كل جسده .. واتجه إلى الضباط ووقف بينهم متكئاً على السور وشرّد بصره فى ظلمات الأفق التى اختلط فيها سواد البحر بسواد السماء .. ولبث أن أطلق زفرة حارة ، وقال وكأنما يحدث نفسه :

— بعد كل الى حصل ده ... أنا حاسس أنى أخطأت فى حاجة واحدة . وهو أنى لم أكن أتوقع أن الى حصل النهارده بالذات حايحصل .. لأنى امبارح قلت لعلى ما ه. إن الجماعة دول ما دام جم اسكندرية حقهم ييجوا ولو يمضوا فى الدتر . فقال لى إنهم جاين بكره الساعة ٩ ، فجئت فى غنى إن لهم مضالبي ثانية .. والواحد نفذ لهم كل حاجه عايزينها .. لكن مجاش فى غنى أبداً إن الى

حصل حايحصل .

وسادت فترة صمت ، ولم يعرف أحد من الضباط بماذا يعلق على قوله .. وما لبث « الملك » أن عاود حديثه قائلاً :

— الراجل « كافرى » ده . راجل كويس جداً . أنا مذيت له مدته مع الحكومة الأمريكية ، ومن ستين كنت شاعر إن اليوم ده مسيره ييجى .. وقلت له كده ، فقال لى إن دى حاجه مش معقول تحصل .. فقلت له دا شعبي وأنا عارفه كويس ، فرد علىّ بأنه مهما حصل فهو مستعد لأى خدمة فى أى وقت . فقلت له إني أنا مدخرك للوقت المناسب .. ولما جالى النهارده قلت له .. إن ده هو الوقت المناسب .

وهبت نسمة ملأ بها صدره العريض .. ورفع يده فضم عباءته وأردف قائلاً :

— الى يعمل خير ما يبروحش .. إحنا أكرمنا عائلة سافوى ، وأعتقد إن احنا لما حانوصل إيطاليا حايستقبلونا كويس . أنا مش عارف دلوقت إحنا حانعيش فين ، ولكن أما نوصل يجلها ربنا .. وإذا احتجت لأى حاجه حابقى أبعت أى حد فيكم .

وتلفت إليهم وألقى عليهم نظرة فاحصة ، وقال فى شبه رجاء .

— أنا محتاج لكم كلكم .. وحانعمل نظام للحراسة تتكلم عنه بعدين .. لكن أهم حاجه عايز اقولها لكم دلوقت إن فيه جماعه « جانجستر » ما عند همش مانع إنهم يخطفوا ابنى .. دول أهم حاجه لازم ناخذ بالتنا منهم .. وعلى العموم حتتكلم فى الموضوع ده بعدين .

وقال أحد الضباط :

— إحنا مستعدين لكل حاجه . مولانا ما يحملش هم أبداً .

وأجاب « الملك » فى صوت خافت :

— أنا عارف .

ثم استسدار مرة أخرى ليوواجه ظلمات البحر ، وليشرد ببصره قائلاً في استسلام :

— أنا بقالى أربعتاشر سنه تعبان من المَلِك .. وعاوز استريح .. مش عايز ارجع دلوقت .

وبدا من قوله أن السكين ما زالت تسرقه .. وأن الذبيحة ما زالت تقف مترنحة على أقدامها ، وأن كل ما يشعر به هو أنه ملك في إجازة .. أوفى حالة استجمام من أعباء المَلِك .. وأنه سيعود بعد أن يستجم ويستريح .

وأخيراً عاد « الملك » إلى جناحه ، وتفرق الضباط في مضاجعهم ، ومضت فترة طويلة و « حسين » راقد في فراشه مغمض العينين دون أن يقرب النوم جفنيه .. وصور الماضى ما زالت تتوالى في إلحاح على ذهنه .. وكانت أشدها إلحاحاً صورة « بهية » .

وأشرقت شمس يوم جديد ، والسفينة تمخر عباب اليم ، والساعات تمر ثقيلة بطيئة . وجلس الضباط يقطعون الوقت بلعب الطاولة .. والأميرات الصغيرات يتسلين بمشاهدتهم ضاحكات فرحات لا يبدو عليهن أى إحساس بالوقت .. وكأنهن في رحلة قصيرة للنزهة .

وكان « الملك » يروح ويغدو بينطلونه الرمادى ، وصدره العارى .. وقد ذهب عنه علام القلق وسيماء الشرود .. وعاد مرة أخرى ملكاً في سفينته الخاصة .. وبين حراسه المخلصين .. وبداله كل ما حوله لم يتغير قيد أنملة عن أيام المَلِك والسلطان .. كل شخص يراه .. وكل كلمة يسمعها .. تؤكد له أنه لم يزل مولانا .. جلالة الملك المعظم .

حتى أخذت السفينة تقترب من الساحل الإيطالى ، ووصلت إشارة مفاجئة من القاهرة .. تأمر بأن لا يهبط من السفينة سوى « الملك » وأسرتة ، وأن يعود معها كل المصريين الذين بها .

وهنا خرت الذبيحة .. وأدرك « الملك » أنه لم يعد ملكاً ، بعد أن أحس أن

كلّ صلة بملكه قد قطعت .. وأنه قد لفظ منها لفظ النواة .. وأنه سيهبط من السفينة طريداً وحيداً .

ووصلت السفينة إلى « كبرى » في فجر يوم الثلاثاء وسط زوبعة عاصفة ومطر منهمر .. ووقفت بها حتى الضحى .. حيث كان يرسو يخت « الملك » الخاص « فيض البحار » مع قائده « حمدى » .. ثم تحرّكت إلى « نابولى » فوصلتها في الظهر ، وقادتها إلى الميناء المراكب الصغيرة .. حيث شوهد نطق من البوليس الإيطالى يربط في الميناء .

وبعد فترة قصيرة وصل القنصل ، وتلاه السفير المصرى « عبد العزيز بدر » وزوجته ، ومندوب وزارة الخارجية الإيطالية ، وبدا الاستقبال فاتراً ، لم يحقق آمال « الملك » الأخير ومطامحه في أن يرد الإيطاليون جميله على آل سافوى ، وأحس « الملك » بخذلان شديد .. وهو يجد نفسه لأول مرة مجرداً من الحاشية ، أعزل من الأتباع ، خلواً من كل أبهة وسلطان ، لا تحيط به غير وجوه شاحبة واجمة .

ووقف عارى الرأس مرتدياً بدلته البنية ونظاراته السوداء .. وأخذ الخدم ينقلون الأمتعة .. وبينها صناديق الويسكى الأربعون التى أشيع أنها صناديق ذهب .

وهبطت « الملكة » و « الأميرات » بينهن « بترو » الحلاق و « كافاتشى » سائس الكلاب .. و « جارو » التوفكشى .. وأربعة خدام من الأرناؤوط ، وخمس كلفاوات .. ولم يهبط من المركب مصرى واحد .

وهبط « الملك » بخطى ثقيلة متباطئة .. كأن هناك ما أنقض ظهره .. وأحس ، وهو ينزع قدميه من سلم المحروسة .. أنه ينتزعها عن آخر قطعة من مصر .. مملكته التى مشى فى أرضها مرحاً .. والتى خرق فيها الأرض .. وبلغ الجبال طولاً .. وكان يحاول جهده أن يتمالك ويتناسك .. وأن يسترد دموعه الصامتة وراء منظاره الأسود .. ولكن لم تكد أقدامه تبلغ آخر الدرج ، حتى

— ٧١٥ —

انهارت مقاومته .. وانطلق نشيجه لأول مرة عالياً مسموعاً . وأخذ جسده
الضخم يهتز من البكاء .
وأحس الجميع أن الذبيحة قد تهاوت .. وأنها تلفظ آخر أنفاسها ..
فاغرورقت الأعين ونشجت الصدور .. وبكت « الملكة » .. وبكت
« الأميرات » .. وبكى الضباط .. وبكى الخدم .. ولم يعد هناك من لا يجهد
بالبكاء .. حتى الحراس الإيطاليون .

(٦١)

لا شماعة

غادرت المحروسة « نابولى » فى اليوم التالى ، بعد أن أخذت حاجتها من الوقود ، ووصلت إلى الإسكندرية ظهر يوم السبت .

وعاد « حسين » إلى بيته بعد غيبة لم تطل سوى أسبوع ظنّها فى رحيله غيبة أبدية .. وبنفسه إحساس غريق أوشك على الهلاك ، وطال به عصف الموج ، وأفعم قلبه اليأس .. ثم وجد نفسه فجأة ، وقد قذفت به موحة إلى شاطئ النجاة ، ومرفأ السكينة والأمان .

عاد مرهقاً مكدوداً .. ليجد الراحة والطمأنينة التى افتقدتها فى الدوامة التى كان يعيش فيها خلال السنوات الأخيرة ، وسط غيوم الفساد والانحلال .

وأحسن ، وهو يضم « بهية » إلى صدره ، ويمسح عبراتها الهامية بشفتيه .. بسكينة المستقر بعد طول لهث وضلالة وهيام .. وهتف بها ، وهو يقبل عينيها ضاحكاً :

— لم أعرف قيمتك إلا وأنا أمام الحوض فى المركب ، وقد كوّمت ملابسى .. وانهمكت فى الدّعك ، والقرض والشطف ، والعصر .. حتى « بقبت » أصابعى .

— أكنّت تغسل ملابسك بيديك ؟

— طبعاً .. لم يكن لدينا سوى غيار واحد .. وكان علينا إما أن نختل القذارة والعرق .. وإما أن نغسل غيارنا بأيدينا .. على أية حال .. لقد ذكرتك فى كل شطفة ، وفى كل عصرة .

— وأنا ذكرتك فى كل حركة وهمسة ونومة ويقظة .. لم يداخلى اليأس من

عودتك قط .. كنت أتخيلك وراء كل طرفة بالباب .. لقد ملأنتي رسالتك بالأمل الجميل ، ووجدت في قولك أنك تحبني .. عزاء عن كل شيء .

وحقق « حسين » أمنية أمه الخالدة .. وأضحى الماجن العاثر رب بيت مثالياً .. وزوجاً نموذجياً .. بعد أن ألتحم مجوناً وأهلك عبثاً .. واستقر في البيت ينعم بمتعة الاستقرار ونعمة السكينة ، وانتقلت الأسرة إلى أحد بيوت مصر الجديدة .. وجرت الحياة بأفرادها الأربعة هادئة ناعمة .. دون أن يطرأ على مجراها تغيير يذكر .

واستقر « علي » في إحدى حجرات الدار وحيداً .. تشيعه في كل غدوة وروحة دعوات أمه بأن يرزقه الله بابنة الحلال ، وهو يتلقى الدعوة بلا تفكير في معناها .. كما يتلقى التحية والسلام .

وفي عمله ، تسلّم قيادة أحد الآليات المدرعة .. وعاود الانهماك في حياته العسكرية بروح الإخلاص ، والأمانة والتركيز التي تعود أن يباشر بها عمله .. وأضحت قيادة الآلي المدرّع هي جُلّ مطامعه وأفضل أمانيه .

واندفع « سليمان » إلى خضمّ السياسة .. وكان لا يفتأ يزور « علي » بين آونة وأخرى يتبادلان الآراء ، ويسر كل منهما إلى صاحبه بما في نفسه .

وسارت الثورة في طريقها .. وبدأت تحقق أول أهدافها ، وهو إزالة الهوة الكبرى .. بين القلة المتربعة على أعلى القمة ، والكثرة الملقاة في أسفل القاع .

وصدر قانون « تحديد الملكية » ليقلم الرعوس المتعالية .. المتطاوله إلى السماء .. ويقرب بينهما وبين عبيد الله .. الذين يشقون على الأرض .. وليفتت كتل الإقطاعيات ، ويقرب بين أدنى الممتلكات وأقصاها .. ويقضي على الملوك الصغار ، بعد أن طوّح بعرش كبيرهم .

وأحس قوّاد الثورة بثقل العبء الملقى على عاتقهم .. وأن عملية الثورة نفسها بما فيها من خلع الملك .. لم تكن في حد ذاتها هدفاً .. بل كانت وسيلة لأهداف أضخم .. وأنها لم تكن خاتمة الشوط .. بل بدايته .

وبدت لهم ، وهم يقفون على حافة المسئولية .. وضخامة الطوفان الذى يشرفون عليه ، وأحسوا له فى أول الأمر رهبة ، وأوجسوا منه خيفة .. إذ لم يخطر ببالهم أن دورهم سيتعدى دور الطليعة الفدائية التى تقتحم الأسوار ، وتمهد الطريق .

وبدت لهم قيادة السفينة فى خضمه شيئاً لا قبل لهم به وودوا لو سلموها للربابنة القدامى .. يوجهونها توجيهاً سديداً بأسلوب جديد مستقيم ، لا يلويه فساد ولا انحلال .. إلى الهدف الأكبر .. إلى بناء وطن حر قوى ، ينعم أبناؤه بحياة كريمة نظيفة ، لا ظلم فيها ولا عوز ولا مرض ولا جهل .

وصدر « قانون تنظيم الأحزاب » .. ولكن القانون لم يستطع تغيير العقلية أو الأسلوب .. فلم يكن هناك بدّ من إلغائها ، بعد أن تبين أن سوس الفساد نخر عظامها ، وجراثيم الشهوات ، والمطامع والأنانية والصراع على مغامات الحكم ، قد تأصلت فى كيائها .

وأصاب الثوار خذلان شديد .. وهم يجدون الطريق الذى اقتحموا السور إليه وأزالوا منه العقبة الكبرى ، ما زال مليئاً بالأشواك والألغام .. وأن الجموع التى تخيلوها ستسلم المقود ، وتندفع إلى الهدف المنشود .. قد تراحت فلول مسعورة ناجحة ناهشة .

وبدأت عملية رفع الألغام ، ونزع الأشواك .. وإزالة العقبات والصخور ، وملأت الثقة نفوس الثوار للقيام بدورهم الجديد فى قيادة السفينة وسط الطوفان ، وأحسوا — بعد أن تضاعف الربابنة من حولهم .. وتساقطوا كأوراق الخريف — أنهم أقدر الناس على السير بالركب .. وأن الذى اقتحم السور وأزال الطاغية ، لا يملك إلا الاندفاع أمام الصفوف وقيادتها ، حتى يبلغ هدفه ، ويحقق أمله .

واستمرت الثورة فى سيرها بالركب .. تزيل الأشواك والألغام وتضع أسس البناء .

وأوشك عام أن يمر من عمر الثورة و « سليمان » منطلق في ميدان السياسة غريق في خضمها .. و « على » منطوف في وحدته . وب نفسه إحساس عابر صحراء مجدبة .. بلا هدف يلوح أو حتى سراب يغري ، وقد أغلق جسوانحه على مشاعره ، وبات صدره والموعودة في داخله ، وكأنه صندوق الموقى .
وبين آونة وأخرى تصيبه رجفة حنين .. أشبه برجفة المورور .. ولا يلبث أن يتحامل على نفسه .. ويطرد عنه الطيف الدانى المقترّب ، وهو يحس منه مرارة ولوعة .

وكلما أصابته رجفة الحنين وهزة الشوق .. عاد يسائل نفسه .. ترى لو بلغت الرسالة التى أحرقتها « كريمة » ، أكان قد انتهى بحبه إلى مثل هذا المصير اليأس ؟! ولكن ماذا كان يمكن أن تحتويه الرسالة ؟! لقد سأها مزيداً من أمل .. أتراها قد وهبت فيها هذا الأمل الذى يطلبه ؟! أم تراها لم تحملها سوى عزاء عن القطيعة واليأس ؟. وهبها وهبت هذا المزيد من الأمل .. تراه ماذا كان صانعاً به ، إزاء سدود الفوارق ، وقيود التقاليد .

ثم لا يلبث أن يذكر قول أخيه .. « ليست المشكلة فى الفوارق والتقاليد .. بل فى الطريقة التى نحاول بها أن نتخطاها . إنك تأبى إلا أن ترقد وراء سدود التقاليد والفوارق الموهومة .. تتطلع من ورائها إلى أميرتك الساحرة . تطلع ابن الجنائى من كوخه إلى أسوار القصور العالية .. إنك تفكر بعقلية القرون الوسطى ، وكذلك هى .. إنها ما زالت تنتظر حبيسة فى أبراج القصر .. حتى تتخطى الأسوار وتحملها فوق جوادك .. وتصرع أباهاً وأخاه .. اللذين يقفان بنباهما ليحرساها من ابن الجنائى » .

أجل .. إن المشكلة — كما قال أخوه — هى مشكلة الطريقة التى يحاول بها تحطى الفوارق .. وليست مشكلة الفوارق نفسها .

وأين هى الفوارق .. وقد أخذت تنهوى وتنهار أمام معول الثورة ؟! لقد حطمت الثورة الرأس الأكبر .. فانخفضت بعدها الرعوس المتعالية ، وذلت

النفوس المتجبرة المتكبرة .. ومع ذلك فما زال هو حيث كان .. وما زالت هي حيث كانت .

لقد أطاح قانون تحديد الملكية بمعظم أملاك أيها .. ولم يبق له إلا العزبة المحيطة بالقصر .. وفجعت الثورة الرجل في أراضيه التي كان يطبق عليها بأسنانه .. والتي كان يخشى عليها من نهب الفلاحين .. وأطاحت بسلطانه الذي كان يفرضه على من حوله من العبيد .

وأحس الأمير بإمارته توشك على الزوال .. وأبصر بشمسها تميل نحو الغروب ، وأصابه حزنه على فقد أملاكه وفجيئته على زوال سلطانه بذبحه صدرية ، كادت تودى به .. وتركته طريح الفراش لا يستطيع حراكا .

ومع ذلك ، ومع كل ما حدث من تحطيم للفوارق .. فما زال « علي » يحس بوجود الهوة ، وقيام السدود .. وما زال يقبع — كما قال أخوه — وراء الأسوار ، يتطلع في يأس إلى الأميرة الساحرة ، الحبيسة في برجها .

إنه يشعر بأن يأسه منها ، باق ، بقاء حبه لها .. كل منهما دائم أبدي ، لقد رسبت في أعماقه ، ومعها هذا اليأس ، ولم يعد أمامه إلا أن يسلم باستحالتيه : استحالة انتزاعها من نفسه ، كإحساس ، واستحالة الحصول عليها ، ككائن حي .

وفي ليلة من ليالي يوليو جلس « علي » في شرفة داره وبجواره « سليمان » . وأحس « علي » بنفس صاحبه ضيقاً وقلقاً وتبرماً .. وأدهشه أن يستمر « سليمان » في إحساسه بالتبرم ، بعد أن تغيرت كل الأوضاع التي كان يتبرم بها فيما مضى .. وبعد أن هيأت الثورة له أن يفعل مع زملائه كل ما كان يرنو إليه . وهز « سليمان » رأسه هزات خفيفة ، وبدا كأنما يود أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يخرج عن صمته .. وتساءل « علي » قائلاً :

— ماذا بك ؟

— قرف .

— مم ؟

— من كل شيء .

— لم يخطر لي ببال أن يصيبك القرف ، وقد تحققت جل آمالك ، والباقي في طريقه إلى التحقيق .. بعد أن وضعت الأسس لتحقيقه .

— ومع كل ذلك .. يبدو لي أننا قد فرنا من أجل ما فعلناه بأكبر قسط من السخط والغضب .. لقد فعلنا ما لم يقو أحد على فعله خلال كل القرون الماضية .. لقد خلصنا مصر من كابوس ، كان يجثم على أنفاسها ويمنعها من الحراك .. ثم أمسكنا بيدها واتجهنا بها إلى الاتجاه القويم ، الذي تمليه علينا ضمائرنا .. إن أهدافنا صريحة واضحة لا يختلف عليها اثنان ، ونحن نسير في سبيلها بكل ما نملك من قوة وعزم وإخلاص ، ومع ذلك أحس أننا استرنا عداوة الناس .. وأن الأمر بات يحتاج إلى جهد خاص .. لا كستاب محبهم وتأيدهم .. كأن الغرض الذي حققناه غير كاف لذلك .

ومد « على » ساقيه في استرخاء ، وأسندهما على حافة الشرفة ، ثم مال بجسده إلى الخلف في جلسة مريحة وأجاب في هدوء :

— إنك يا « سليمان » قليل الصبر ، سريع التأثر ، إن إثارتكم لسخط البعض وغضب البعض أمر غير مستغرب ، فليس هناك عمل أياً كان نوعه .. يمكن أن يسبب الرضاء المطلق لجميع الناس .. لأن الناس بطبيعتهم مختلفو الطباع والأهواء والمشارب ، متباينو المطالب والأغراض . فأعمال الخير لن تلقى من الأشرار رضاء ، وأعمال الشر لن تلقى من الأخيار رضاء ، وأنتم قد أتيتم في أعقاب فساد مطبق ، وانحلال متأصل ، وقد ضاعت المثل العليا ، والمقاييس الطيبة .. وأضحى العبث والاستهتار والرشوة والأنانية ، وكل أنواع السيئات .. عملاً طبعياً لا يعث على احتقار أو استنكار .. وإعادة المثل العليا والمقاييس الطيبة ، وتطهير البلد من خلق السوء الذي تأصل فيها ، وإعادة منها انحرافها إلى الطريق السوي ، يحتاج إلى شدة وضغط وعنف ، والشدة بطبيعتها

مكروهة ، والضغط والعنف بغضاضان إلى النفس ، ولا سيما النفس التي تعودت
الانحلال ، ولذلك ليس هناك وجه لضيقك بذلك السخط والغضب ، فهو
سخط طبيعي ، وغضب متوقع .

— أكنت تتوقعه أنت ؟

— بالطبع .. ماذا كنت تتوقع أنت ؟! أكنت تتوقع أن يحب كبار الملاك
الثورة ، وقد نزعنا أراضهم ، ومزقت أوصالهم ؟! إن من الطبيعي جداً أن
يكرهوها .. بل من الطبيعي ألا تحصل من حب الفلاحين — وهم الجهة
المضادة — على قدر يوازي كره كبار الملاك .. بل وأكثر من هذا ، من الطبيعي
أن يكرهها الفلاحون الذين لم يحصلوا على شيء من الأراضي المنتزعة .. لأنها لن
تكفي إلا النزر اليسير منهم .. ومع ذلك فلم يكن هناك بد من فرص هذا
القانون ، لإزالة الهوة البغيضة الشاسعة بين فرد يملك عشرات الألوف من
الأقدنة ، وآخر لا يملك شيئاً ، ولتحقيق نوع نسبي من المساواة .

وكان من الطبيعي أيضاً أن يكره رجال الأحزاب الثورة ، بعد أن سلبتهم
مقاعد الحكم التي كانوا يتبادلونها كأنها حكر عليهم .. ومن الطبيعي أيضاً أن
تنال من الكره أكثر من هذا وذاك .

وصمت « سليمان » وبدأ عليه الشرود .. ثم كأنما يحدث نفسه :

— عجباً !! كنت أظن بعد ما قمنا به أننا سنوضع موضع الأبطال المعبودين .

وضحك « علي » وأجاب :

— كان يمكن أن يحدث هذا لو انتهى دوركم عند عملية الثورة ذاتها .. إن
دوركم فيها قد وضعكم فعلاً في مصاف الأبطال المعبودين .. ولكن الدور الذي
تلا هذا ، والذي حملتم فيه المسؤولية على عاتقكم ، وواصلتم السير بالركب ..
وداومت على الكفاح .. في سبيل تحقيق أهدافكم .. هذا الدور الجديد ..
لا يمكن أن يضعكم في الإطار البراق .. إطار البطولة والفدائية الذي يستحوذ على
الحب السريع .. والتقدير الخاطف .. ولا يجب أن يكون هذا مطعمكم

أو أمنيته .. ولا يجب أيضاً أن تغيروا من أهدافكم في سبيل الحصول عليه .. لا يحسن أن تتطلعوا إلى تقدير سريع ، لأن طبيعة عملكم لا تبيىء لكم هذا التقدير .. إنكم تخطمون أطلالا خربة . لتشيّدوا بناء ضخماً .. لا بد له من أسس متينة .. والباني لا يمكن أن يستحوذ على التقدير بالأسس المخفأة في باطن الأرض .. ولا يمكن أن يتعجل الجدران قبل الأساس ، لمجرد إحساسه بالحاجة إلى التقدير .. إن كل ما هو مطلوب منكم .. هو العمل الصالح .. والصبر على التقدير .. إنه لا بد آت .. وعندما يأتي سيكون أرسخ وأثبت على الزمن والتاريخ .

— قد تكون على حق ، ولكن لا بد من عمل حساب للرأى العام .. لا بد من إرضائه إرضاء مؤقتاً .

— لا داعى لهذا مطلقاً .. إنكم تملكون القوة لفرض الرضاء عليه .. وإذا أرضيتموه اليوم بالقوة .. فسترضوه غداً بنتائج أعمالكم الصالحة .. ولكن إيّاكم أن تدعوا إرضاءه بحولكم أو يشغلكم عن العمل الصالح نفسه .. إن البلد يمر بطفرة النشوء والارتفاع .. فيجب أن تتعدوا به عن التدليل المفسد ، والإرضاء المقتعل .

— ولكن هذا سيكون استداداً ما ، ونحن قد أقمنا تورتنا على المطالبة بالحرريات والحياة الدستورية .

— لقد أخذتم على عاتقكم المسئولية كاملة .. فقوموا بها بالطريقة التى تضمن لكم أفضل النتائج .. لا تتأرححوا بين هذه الطريقة أو تلك .. ولا يهكم مدى ما يروق لأعين الناس بقدر ما يهكم ضمانها لنتائج أعمالكم ، فنتيجة العمل هى التى يجب أن تفرض طريقة ادائه .. وعندما كانت الطريقة فيما مضى طيبة فى ظاهرها والعمل فاسداً انتهت بتقويض النظام كنه .. وإذا كانت الطريقة الطيبة قد هدمها عملها الفاسد ، فلن يستعصى هدم الطريقة الأخرى إذا فسد عملها .. المهم يا « سليمان » هو العمل فقط .

ونتم « سليمان » قائلاً :

— أجل ..! معك حق .. إن المهم هو العمل .. وغداً سنقوم بعمل اعتقد أنه خطوة كبرى نحو أهدافنا الطيبة .
— وما هو ؟

وصمت سليمان برهة ثم أجاب :

— إعلان الجمهورية ، وإنهاء حكم أسرة محمد علي وإلغاء ألقاب الإمارة .

ورفع « على » حاجبيه في دهشة ، وتساءل قائلاً :

— أقدر تقرر هذا فعلاً ؟

— أجل ! سنحمل المسؤولية صريحة كاملة على أكتافنا وسنسمى الأشياء بأسمائها .. ولن يكون في مصر بعد الآن ملوك .. ولا أمراء .

وساد الصمت ، وعلقت بذهن « على » الفقرة الأخيرة من قول « سليمان » ، وأحس بها تمس شيئاً كامناً في أعماقه .

« لن يكون في مصر بعد الآن ملوك ولا أمراء ؟ » .

وبدا له كأن سداً آخر من سدود الفوارق قد انهار ، وأن البقية الباقية من الترفع والتعالى ، الذي ما زال لقب الإمارة الوهمي ينفخها في أصحاب السمو ، قد تهاوت .

ولكن ماله هو ، ولزوال الفوارق أو بقائها ، إن السدود قد أقامها يأسه ، وشيدها عجزه ، وسواء أزيلت الفوارق أم بقيت ، وسواء أضحي صاحب القصر أميراً ، أم حقيراً ، فهو لن يجسر على اقتحامه ، ولن يقوى على تخطي أسواره ، بل سيظل قابلاً يتطلع — كما قال أخوه — إلى أميرته الساحرة الحبيسة في أبراج القصر ، التي تنتظره حتى يتخطى إليها الأسوار ، ويصرع أباه وأخاه ، ويحطم قضبان السجن ، ويفرّ بها فوق جواده .

وتطلع إليه « سليمان » تطلع من ينتظر رداً أو تعليقاً .. وطال شرود « على » حتى اضطر « سليمان » أن يقطع صمته متسائلاً :

— ما رأيك ؟

واضطرب « على » وهو يرى ذهنه قد تعلق بأفقه ما فى الموضوع ، وأنه لم يعنه من كل الأحداث الخطيرة التى توشك أن تقع ، والتى ستبدل نظام الحكم فى مصر .. إلا إلغاء ألقاب الأمانة .. وزوال هالة السمو التى كانت تحيط بالأمرء — أو على وجه التحديد — بالأمير إسماعيل .. السد الأكبر ، والحائل الأعظم ، بينه وبين .. أمنية العمر .

وأجاب « على » كأنما قد أيقظه سؤال « سليمان » من سنة نوم :
— رأى !! رأى .. إنها عمل حاسم ، وخطوة موفقة ، كان يجب أن تتخذ من قبل .

— كل شىء مرهون بوقته .. الحمد لله الذى وفقنا إليها ، وهىأ لنا أن نقضى على آخر أسرة أجنبية تحكم مصر .
— أجل ! لقد أضحى مصيرنا بأيدينا ، وسيحكم مصر أبناؤها ، إن مجرد التفكير فى هذا يملأ النفس أملاً .

وافترق الصاحبان ، واستلقى « على » فى مضجعه تلك الليلة .. وقد تكأ كأ على ذهنه حشد من الذكريات .. أثارت كامن الحنين ، وأيقظت هاجع الشوق .. وعندما استغرق فى النوم لم تخل أحلامه لحظة من أميرة ساحرة ، وأسوار وقضبان ، وصراع ، ونضال ، وجواد منطلق ، وشعر أصفر متطاير ، وفم حلو ، وأسنان منضدة .. وضمة لذيذة .
ومنحته الأحلام الكريمة فى ضجعته ، ما استعصى على القدر أن يمنحه إياه فى يقظته .

وفى اليوم التالى أعلنت الجمهورية .. واستقرت الثورة فى نضالها من أجل هدم الأنقاض الخربة .. ووضع الأسس لوطن جديد ، وطيد الأركان ، متين البنيان .

واستمر « على » فى طريقه المحدود .. وحياته الجامدة المنطوية .. وحينه المتقطع ويأسه المستمر .

ومضى الصيف الثانى للثورة وحل الخريف ، وأخذت زهور الكريزانتيم فى التفتح .. حاملة فى تفتحها ذكريات بعيدة شاحبة .. للسوبة وحديقة القصر ، والفراشة الطائرة والترولى المندفع .

وذهب « على » لزيارة معرض الكريزانتيم الذى أقيم فى سراى الزراعة بالمعرض .. ساقته قدماه فى سكون كما ساقته من قبل للطواف حول أسوار القصر ، والتسلل إلى السوبة ، واستراق الخطى إلى شجرة الفيكس الضخمة . ومر بالمعرض مروراً عابراً .. يختطف النظر إلى مجموعات القراولة الضخمة المختلف ألوانها .. حتى وصل إلى ركن ضم مجموعة كبيرة علفت عليها لافتة كتب بها فى الجهة العارضة « حدائق السيد إسماعيل »

وتوقف « على » أمام مجموعة الزهور .. وأحس لها بألفة وحنين .. وبدأ له أنها تتطلع إليه بعين المعرفة والود .. وأنها تكاد تهمس به أنه أوحشها وأن غيبتها قد طالت .

هذه الزهور ليست غريبة عنه .. إنها بقايا أبيه .. لقد كان أبوه يقول عنها إنها ذريته الأخرى ، وإن حبها يجرى فى دمه كحب أبنائه .. وإن لها عليه حق الأبناء فى الرعاية والتربية .

إنه يكاد يبصره يحنو عليها بالرشاشة ، حنو المروض على الرضيع ، وهو يذكره فى نفس هذا المكان منذ عشرات السنين .. يطوف بينها بجلبابه الفضفاض وعمامته الصفراء .. يتحسسها بفخر وإعجاب ، كما يتحسس رأسه ورأس أخيه .

وخيل إليه ، وهو يرمقها فى شرود ، أن طيفاً يقف بجواره .. يكاد يسمع حفيف أنفاسه .. ويحس بعينه تشاركه التطلع إلى الزهور .. وذنه يشاركه اجترار الذكرى .

ورسم الطيف بعين الوهم ، رقيق الملامح ، دقيق التقاطيع ، حزين السمات ، شارد النظرات .. كما أبصره آخر مرة ، ولم يحاول التطلع إليه ، خشية أن يجفل

أو يتطأير .. واستمر في نظراته الشاردة ، وفي إحساسه الممتع .. حتى أيقظه من حلمه صوت خشن يهتف به :

— سيدى « على » بك !

وتطلع إلى صاحب الصوت ، فإذا به محمود الجنائنى ، أحد صبيان أبيه ، وقد مدّ يده يصافحه في شوق وحرارة .

ورّد « على » تحيته متسائلاً :

— كيف حالك يا محمود ؟ وكيف حال الجميع ؟

— بخير يا سيدى ، لماذا لا تحضر لزيارتنا ؟ إننا نذكركم في كل لحظة .

— ونحن أيضاً نذكركم دائماً .. لقد أتيت إلى هنا ، لأرى زهوركم .

— وما رأيك فيها ؟

— مذهشة .

— إنها خير ما في العرض كله ، ومع ذلك لم تصل إلى حالها أيام والدكم رحمة الله عليه .. لقد كان معلمنا كلنا .. إن أفندينا ما زال يذكره كلما ضاق بنا ، ويقول لنا إنه رجل لا يعوّض .

— وكيف حال أفندينا ؟

— كما هو .. أظنك سمعت عن الذبحة التي أصابته .. إنه الآن أفضل كثيراً ..

إنه يتجول في الحديقة ، وقد ارتفع صوته كما كان قبل مرضه ، وعاد إلى إمارته وصباحه .

وأخفى الرجل صوته ، وتلفت حوله في حذر ، ثم أردف قائلاً :

— لقد كنا نظن أن الثورة ستكسر أنوفهم ، وتعلمهم التواضع .. ولكنهم

ما زالوا كما هم ، ولا سيما أفندينا الصغير ، لم يعد يحتمل أحداً ، إنه مجنون . لقد

تركته زوجته ، لأنها لم تستطع احتمال جنونه ، ولم يعد له عمل سوى الإمارة

والعجرفة ، والتسلل بضرربنا ، لقد كاد يقتل « عبد الحميد السائس » ضرباً لأن

حصانه قد جرح .

— وما ذنب « عبد الحميد » ؟

— لأنه لم يربطه جيداً فأفلت من الأسطبل واصطدم في حافة الباب . لقد ضربه حتى كسر عظمة كتفه .. إنهم ما زالوا يحتاجون إلى تربية .. لا بد أن تؤدبهم أكثر من هذا .. ليس فيهم طيب عدا السيدة الصغيرة ، لا يكاد يحس بها مخلوق .

— وكيف حالها ؟

— كانت هنا بالأمس تشاهد المعرض .. ليتك حضرت بالأمس حتى تراها . ومسّ قول الرجل العابر شغاف قلب « على » .. « ليته حضر بالأمس ؟ » .. أجل ليته .. لو كان يعرف لما غادر المعرض منذ افتتاحه . ولكن لماذا كل هذا الإحساس بالخيبة ؟ ماذا تراه يجنى من نظرة عابرة ، ولقاء خاطف ؟

لا داعي لهذا التمني .. فراخة اليأتن تنخر وأبقى ..

ومد « على » يده فصافح الرجل وغادر المعرض ، وهو يحاول أن ينفذ عن نفسه إحساساً بالخيبة والخذلان .

وفي صباح اليوم التالي ، وهو في طريقه إلى الثكنات ، لمخ في صحف الصباح عنواناً بالخط العريض « مصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد علي » .

وأمسك بإحدى الصحف ، ليقرأ في التفاصيل أن مجلس قيادة الثورة أصدر قراراً بمصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد علي .. ورد أموال « أحمد عرابي » لورثته .. وأن المصادرة قامت لرد أموال الشعب — التي سلبتها لأسرة المالكة — بعد أن حاول أفراد الأسرة تهريبها إلى الخارج .

وبدا « لعلی » كأن قرار المصادرة كان رداً على رجاء « محمود الجنائني » الذي همس به بالأمس :

« إنهم ما زالوا يحتاجون إلى تربية .. لا بد أن تؤدبهم أكثر من هذا » .

ووصل « على » إلى مكتبه ، وقد أمسك بالصحيفة مطوية في يده .. وقد راود نفسه إحساس بالأسى .. وبدأ عليه التجهم والشرود .
لقد قوّض قرار المصادرة آخر سدود الفوارق .. وهدم آخر أحجاره .. لم يعد هناك فارق قط بينه وبين أفراد الأسرة المالكة . لا لقب ، ولا مال ، ولا إمارة ، ولا جاه ، ولا سلطان ، ولا شيء أبداً .. لقد أضحي « ابن الجنائى » القابع وراء الأسوار .. تماماً كصاحب القصر المحلق فوق الأبراج .. لقد زالت الأسوار ، ودكت الأبراج ، وأضحوا جميعاً سواسية على ظاهر الأرض .. لقد انبسط الجبل .. فلم تعد به قمة ولا سفح .

ومع ذلك فهو يحسّ بأسى ممض

ما ذنب « أنجى » فى كل هذا ؟ إنها لم تختل بإمارة .. ولم تعتر بجاه .. ولن يضيرها أن تسحب منها الإمارة ، أو يضيع الجاه .. فلماذا يحكم عليها بكل هذا الإذلال ؟

ولكن أتراها تجد فى هذا إذلالاً .. أم تسلم به كحق من حقوق الثورة والشعب ؟ ليت يستطيع أن يراها ويتحدث إليها !! ليت يستطيع أن يحمل عنها آلامها ؟ ليت يستطيع أن يضمها إليه .. ويصدّ عنها كل ضيق وأسى .
لماذا لا يقدم على هذا .. وقد زالت السدود ، وطأ طأت الرعوس المتعالية ؟
لماذا لا يتقدم إليها .. وقد أضحي هو الأعلى يداً ؟

ولكن أيمكن أن يسلم أبوها وأخوها بهذا ؟ أتراهم يرونه حقاً قد ساواهم أو علا عليهم .. أم ما زالوا لا يرون فيه سوى ابن الجنائى .. الذى اهتموه بالجنون لأنه تقدم لخطبتها ؟

ودق جرس التليفون ورفع « على » السماعة ، فسمع صوت عامل التليفون يقول له :

— أركان حرب الفرسان مع سيادتكم .

ثم سمع صوت أركان حرب الفرسان يقول له :

(رد قلبى — جـ ٢)

— ٧٣٠ —

— صباح الخير يا « على » .. لقد تعينت عضواً في لجان مصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على .. والمطلوب أن تقدم نفسك غداً في قصر عابدين لرئيس اللجان .

وبهت « على » .. وتساءل في دهشة :

— أنا ؟ .. عضو في لجنة جرد ؟ .. لماذا ؟ .. إني لا أستطيع أن أترك الآلاى لحظة واحدة .. وأنتم تعرفون هذا .. لماذا تعينوننى .. وأنا .. وقاطعه الأركان حرب في هدوء :

— اسمع يا « على » لا داعى لهذا الضجيج ، نحن لم نعينك .. لقد جاء تعيينك بأوامر القيادة .. فإذا كنت لا تريد الذهاب فاتصل بهم .. حتى يعينوا غيرك .. السلام عليكم .

. وأجاب « على » وهو يضع السماعة مشدوهاً :

— عليكم السلام .

ومضت لحظة ، وهو حائر في هذا التعيين .. حتى برق في ذهنه خاطر ما لبث أن رفع السماعة على أثره ، وقال لعامل التليفون :

— أعطني الصاغ سليمان في القيادة .

وبعد برهة أجابه صوت « سليمان » :

— آلو .. مين ؟

— أنا « على » .

— صباح الخير يا « على » .. كيف حالك .. لقد كنت أود أن أزورك منذ

يومين .. ولكن حدث ..

وقاطعه « على » في ضيق :

— اسمع يا « سليمان » دعنا الآن مما حدث .. وأخبرنى من الذى عيننى

عضواً في لجنة مصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على ؟

وأجاب « سليمان » ببساطة :

— ٧٣١ —

— أنا

— أنت ! ولماذا ؟

— لأنه قد خطر لي أن هذا يسرّك .

— يسرّني ؟! ولماذا خطر لك هذا ؟

— حتى تتولى أنت مصادرة أموال وممتلكات أسرة مخصوصة .

وزادت حدّة « عليّ » ، وهو يتساءل في غضب :

— ومن الذى أنبأك أنى أريد أن أتولى مصادرة أموال هذه الأسرة

المخصوصة ؟ .. أعهدت فنى من قبل .. الرغبة في الشماتة والإذلال ؟

— هدىء من حدثك ولا تكن غيباً .. ليست المسألة رغبة في الشماتة أو

الإذلال ، إنها على النقيض من هذا ، إنها رغبة في تجنب الإذلال والشماتة .. إلى

أريد أن أقيّم إياها .. والمسألة تحتاج إلى كياسة وذوق وحكمة وتصرف ، وقد

بدا لي أنك أقدر الناس على ذلك ، وأشهدهم حرصاً على تجنب الإذلال ، على

الأقل بالنسبة لصاحبك .. أم ترى أن أمرها لم يعد يعينك ، وأنت تريد أن تتخلى

عنها في أول فرصة سنحت لك لمساعدتها ؟

وصمت « عليّ » صمت الواجم الحائر .

وعاد « سليمان » يسأل :

— لماذا لا تجيب ؟

ولم يجد « على » القدرة على الإجابة .. أترى حقاً أن أمرها لم يعد يعنيه

وأنة يريد التخلي عنها ؟! أليس هو أخق الناس وأقدرهم على تخفيف الصدم

عنها ؟

وأردف « سليمان » يتمم تساؤله .

— أترى أن أغيّرك ؟

وأجاب « على » في قول مقتضب :

— لا .. إلى ساذب .

ووضع السماعه ببطء ، وهو يشعر أن عبثاً جديداً قد وضع على كاهله .

(٦٢)

دمار .. !!

فى صباح يوم من أيام نوفمبر ذات الشتاء المبكر .. لم تقو شمس الهزيلة على مطاردة أفواج الضباب المتشاقلة على المزارع .. الجائمة فى الطرقات .. كان « على » يجلس فى عربة جيب تنهب الطريق إلى قصر الأمير إسماعيل ، تتبعها إحدى عربات المحطة تحمل بقية أعضاء لجنة المصادر ، وبصحبتهم رجال البوليس المشرفون على تنفيذ عملية المصادر .

وكسا التجهيم سيما « على » وهو يحدّق من زجاج العربة محاولا اختراق حجب الضباب .. وأخذت تتواتر عليه أشجار الطريق قد لفتها الأنجرة البيض فبدت كالأشباح .. وتصاعد إليه صوت احتكاك العجل بأرض الطريق كالفتحيح ، وبين آونة وأخرى يقرع السائق « الكلاكس » لينذر بعض المارة بدواهم أو ليتجاوز إحدى عربات الخضر .

كان « على » يشعر بثقل المهمة الملقة على عاتقه .. وكان لا يفتأ يسائل نفسه .. ماذا حدا به إلى الرضوخ للأوامر وقبول القيام بها ؟

من بين كل مخلوقات الأرض .. لماذا يدفعه القدر .. وهو دون غيره .. ليجرد الأمير العاتى من أمواله وينزع عنه أراضي وقصوره وعرباته وخيوله ويتركه صفر اليدين من كل مال وأبهة وسلطان ؟

أهى سخرية من سخریات القدر .. أن يذيقه مرارة الحرمان والطرْد .. بعد أن أذاقهم إياها عندما حاول أبوه خطبة « أنجى » ؟

ولكن ما شأنه هو .. بسخرية القدر وعثه . لماذا يكون مخلب قط فى يد القدر الساخرة العابثة ؟

ألكى تكون السخرية على أتمها ، والعبث على أشده ؟ ..
ألكى يكون المطرود طارداً .. والمحروم حارماً .. وتبدو المسألة كأنها
مسرحية مبهوكة رائعة ؟

كيف يمكن أن يلقي الأمير !! وكيف يقول للجبار المتأله ، إنه قد أتى ليأخذ
كل ماله ، ويتركه كواحد من عبيده .. عليه أن يكدح في سبيل حياته ، ويشقى
في سبيل لقمته ؟

كيف يمكن أن يجرؤ على ذلك ، وهو الذى كان يخشى مجرد رؤيته ؟
وهى .. كيف ستلقاه ؟! وماذا ستظن به ؟ .. وكيف يلقاها هو ؟ وماذا
يقول لها ؟ .. أيقول إنه .. بعد طول غيبة .. وفرط حنين .. قد أتى ليجردها من
أموالها .. وينزع عنها مجوهراتها ؟

أيمكن أن يحدث هذا ؟! أيجسر هو عليه ؟
أكان يخاطر بباله ، وهو يستدعى طيفها الذى لم يفارقه طوال السنين
الماضية .. أن يقف منها مثل هذا الموقف البغيض ؟
لماذا زج بنفسه في هذا المأزق الكريه ؟
لماذا .. لماذا .. لماذا ؟

وبدا له أن يوقف العربية ، ثم يعود إلى حيث أتى .. ويطلب إعفاءه من لجنة
المصادرة .

أجل .. إن هذا هو ما يجب أن يفعله .
ومع ذلك لم يأمر بإيقاف العربية .. ولا عاد إلى حيث أتى .. بل استمرت
العربية تنطلق في الطريق بين موجات الضباب ، واستمر ذهنه مغمناً في شروده .
لأنه عاد من حيث أتى .. وطلب تغييره من اللجنة .. فلن يغير ذلك من الأمر
الواقع شيئاً .. لن يمنع من حدوث المصادرة بكل مظاهرها المزعجة .. وإذا لم يقم
هو بإجرائها فسيقوم بها غيره .. مما لا تعنى « أنجى » لديه شيئاً ، ولا تدفعه
عاطفة خاصة إلى الحرص على مشاعرها والرفق بأحاسيسها .

أيمكن أن يحرص عليها إنسان كما يحرص عليها هو ؟
 ألا يعتبر انسحابه أنانية منه ؟! ألا يعتبر تسليمًا بما قال سليمان : « إن أمرها لم يعد يعنيه ، وإنه قد تخلى عنها في أول — بل وآخر — فرصة تسنح لأن يقدم لها شيئاً » .. لا .. لا .. لا بد أن يذهب ، ويواجه الموقف بكل ما فيه من متاعب .
 ومرة أخرى رجحت كفه استمراره في مهمته .

وظل ذهنه متأرجحاً بين الذهاب أو الانسحاب ، والعربة مستمرة في طريقها .. لا تتوقف ، ولا تنكص على عقبيها .. فقد كان التأرجح لا يخرج عن نطاق التفكير ، ولا يتعداه إلى حيز التنفيذ .. إذ كان ذهابه في الواقع مؤكداً .. ولم تكن عوامل النكوص — مهما بلغت من الشدة — تستطيع أن تمنعه ، لسبب واحد ، هو رغبته الجارفة في رؤية « أنجي » .

كان إحساسه بأنه سيرهاها هو القوة الخفية التي تدفعه إلى الذهاب ، والتي تتضاءل أمامها كل خشية ورهبة وقلق وضيق .

ألا تستحق مجرد رؤيتها .. حتى ولو لم يستطع أن يفعل من أجلها شيئاً ، وأن يتحمل من أجلها المتاعب والمشاق ؟

وأخذت العربة تقترب من العربة ، وبدا لعينه من خلال الضباب شبح الجامع القائم بجوار دارهم القديمة ، وملأه إحساس بخين يخالطه الحزن ، وتذكر أحلامه في مضجعه وراء النافذة والنسمة تحمل إليه عبير أزهار البرتقال كأنها هبة من أنفاس الحبيبة .

وبلغت العربة القصر ، وتطلع « على » من وراء الزجاج إلى أسواره العالية .. فبدت له ضخامتها وعلوها كأنها سد حائل منيع ، ولم يدر أى دافع دفعه إلى تذكر قول أخيه :

« إنك تأبى إلا أن تقف وراء سدود التقاليد والفوارق المهمومة .. تتطلع من ورائها إلى أميرتك الساحرة .. تطلع ابن الجنائين من كوخه إلى أسوار القصر العالية .. إنك تفكر بعقلية القرون الوسطى .. وكذلك هي .. إنها ما زالت

تنتظرك حبيسة في أبراج القصر .. حتى تخطي الأسوار وتحملها فوق جوادك .. وتصرع أباه وأخاه .. اللذين يقفان بنباهما ليحرساها من ابن الجنائني .

وانطلقت من شفتيه ضحكة خافتة ملؤها المرارة والسخرية .
إلى أى حد قد تحقق قول أخيه ؟ .. وإلى أى مدى تبدو مقارنته الساحرة قريبة من الواقع ؟

إنه يقف وراء أسوار القصر فعلا .. يتطلع إليها تطلعه إلى سد منيع وهو — مهما كانت مهمته ومهما كانت الظروف التي تحيط به — لا يستطيع أن ينزع من نفسه إحساس الطفولة .. إحساس « ابن الجنائني » يتطلع من كوخه إلى أسوار القصر العالية حيث تقبع أميرة أحلامه الساحرة .
ولكن أين الأميرة الآن ؟ وكيف أضحت ؟!

أتراها ما زالت تنتظره — كما توهم أخوه — حبيسة في أبراج القصر حتى يتخطي الأسوار ويحملها فوق جواده ويصرع أباه وأخاه ؟
أما انتظارها إياه .. فهو مالا يجسر على أن يطمع فيه .. ولكن استطاع أن يرجوه منها فيما مضى .. فأغلب الظن أن اليأس وطول الانتظار قد أضاعا منها إحساس المنتظر .. وأن الزمن قد بدّل لطفة الانتظار إلى استسلام العجز وسكينة اليأس .

أما تخطيه الأسوار .. فلم يعد بالأمر العسير .. ولا بات يحتاج إلى مشقة .. فهو يحكم مركزه ، والمهمة التي أتى من أجلها والسلطة المخولة له .. يستطيع بسهولة أن يتخطي الأسوار مهما ضخمت أو تعالت .
أما صرع أبيها وأخيها فلم يعد يتطلب جهداً .. فأغلب الظن أن أحداث الثورة قد هدت كيانهما ، وأن قرار المصادرة قد أجهز على البقية الباقية منهما .
بقيت عملية الإنقاذ فوق الجواد .

تلك هي السخرية الكبرى .. إن الأميرة الساحرة .. حبيسة بين أبراج

— ٧٣٦ —

القصر .. سترى فارسها قد أقبل عليها أخيراً .. لا لينقذها فوق جواد .. ولكن لينزع عنها أموالها في عربة « جيب » .

أهناك أشد من هذا سخرية ؟

أيمكن أن تتحقق أحلامه التي كان يتمنى وقوعها .. بمثل هذه الطريقة الماجنة الساخرة ؟

أكان يخطر ببال أخيه أن يتحول خياله الساخر إلى هذا الواقع الأشد سخرية والأكثر مرارة ؟

ومع ذلك فهو لا يملك إلا أن يسير فيه ، ويتحمل كل ما به من سخرية ومرارة .. من أجلها .. ومن أجل أن يخفف عنها وقع الصدمة .. ويجتنبها ما استطاع من الضيق والألم .. ومن أجل .. قلبه الراجى المتوسل .. المتلهف على لقاء .. الظامئ إلى نظرة .

ووقفت العربة أمام الباب الرئيسى للقصر .. وبدا الباب الضخم مغلقاً لا يقف به حراس .. ولا يسمع به صوت ولا حركة .. والسكون المطبق حوله .. يوحى بالوحشة ويبعث على الرهبة .

وتلفت « على » حوله .. عله يجد أحد الحراس .. أو العمال .. أو الفلاحين .. وتطلع إلى الناحية الأخرى من الطريق حيث التربة والحقول فلم يد له مخلوق .. وكشف الضباب عن حافة المزارع الملاصقة للتربة .. فوجدها مفرقة بالمياه .. كأنها مستنقع لا يبدو به عود أخضر .

واتجه « على » بعرفته إلى مكاتب الدائرة .. ولم تكن تبعد كثيراً عن الباب الرئيسى ، وتوقف أمام بابها الخشبي ... وهبط من العربة .. وهبط وراءه بقية أعضاء اللجنة ورجال البوليس .

وتقدم ضابط البوليس ومعه أحد رجاله ليدفع الباب ويمهد الطريق لعل ، ولكن « على » سبقه قائلًا في أدب :

— أرجوك .. دعنى أتقدم .. إني أعرف الطريق منذ طفولتى وأعرف

موظفى الدائرة جيداً .. وأظن ذلك سيسهل المهمة .
ولم يكد « على » يعبر الباب حتى راعته المياة التى أغرقت الفناء ، وتدققت داخل المكاتب نفسها ، ووقع بصره على جثة كلب تراكم عليه الطين وغمرته المياة ، ثم أبصر أحد الخفراء يجرح حماراً نافقاً محاولاً إبعاده عن المكاتب .
وتقدم « على » مشدوهاً ، وأخذ يخوض وسط الوحل وقد ملأت نفسه الوحشة ، ونفذت إلى أعماقه ريح خراب ، كأنه يسير وسط أجداث أو خرائب وأطلال .

ولم يكد الخفير يراه حتى أقبل عليه مهرولا ، وقد بدا عليه الفزع وهو يراه فى حلتة الرسمية ، ووراءه ثلة من الرجال .
وتساءل « على » وهو يتقدم نحو حجرة وضعت ببابها لافتة زرقاء باهتة كتب عليها « الناظر » .

— أين حضرة الناظر ؟

— إبراهيم أفندى ؟ ..!! إنه يجلس فى السلامك مع خليل افندى وعبد القوى افندى .. بعد أن أغرقت المياة مكتبه .. تفضلوا .. نقول له من ؟
وقبل أن يجيب « على » بدا إبراهيم افندى بجسده المهدم وكتفيه المهتلين وظهره المحنى فى شرفة « السلامك » العالية على اليسار أمام المكاتب .. وألقى على ثلة الرجال الواقفين وسط الفناء الحرب ، المغرقين فى الوحل ، نظرة جامدة لا تنم عن دهشة ، كأنما كان يتوقع حضورهم بين آونة وأخرى .
وتقدم « على » ووراءه أعضاء اللجنة ورجال البوليس ، متجهين إلى سلم الشرفة ، ووقف أمام إبراهيم افندى ، وقد بدا وراءه الرجلان الآخران هياكل متداعية ، تؤيد بمخايل التهدم البادية عليهم كل مظاهر الفناء والوحشة والخراب المحيطة الخيمة على المكان .

ومد « على » يده يصافح الرجل فى حرارة .. وهو يصبر فى تجاعيد وجهه .. وجه أبيه .. ويحس فى راحته .. خطاب التوصية الذى حمله إلى باشكاتب

المدرسة الحربية .. فكان له الفضل الأول في القبول .

ذكر كفاح أبيه .. وماعوجه المراق .. وذكر سعيه بخطاب التوصية كأنه يحمل توصية بالدخول إلى الجنة .. وذكر أمانيه الحائلة وآماله السرايية الموهومة .. وهو يشدّ على يد الرجل في ترحاب وشوق .

ولم يميزه إبراهيم أفندى ، ولم يبادلّه حرارة التحية ومظاهر الشوق ، فقد كان من العسير عليه — وعلى الهيكليين المتساندين خلفه — أن يبصروا فيه ذلك الصبّ الصامت المطرق ، الذي كان يسعى وراء أبيه .. ملء نفسه الخشية من أن يرى الناس رقعة بنظلوله .

ولم يجد « على » بدأً من أن يعرف الرجل بنفسه .. وهو يحس ببرود التجاهل .. ووجوم الإنكار .. فقال بقدر ما استطاع من بشاشة وبقدر ما تركت في نفسه وحشة المكان وثقل المهمة من قدرة على اللين والترفق :

— كيف حالك يا إبراهيم أفندى .. أنا على عبد الواحد .. ألا تذكرني ؟

ولم يبد على ملامح الرجل الجامدة وعينيّه الخائيتين ، مادّل على أنه يذكر شيئاً . وأردف « على » يزيد من تذكير الرجل به قائلاً ببساطة :

— أنا « على عبد الواحد » .. ابن الرئيس عبد الواحد .

وانفرجت شفقا الرجل وارتفع حاجباه الأسيان ، واهتزت ملامح وجهه ، مضت برهة قبل أن يهتف في صوت خافت مشدوه :

— ابن الرئيس عبد الواحد .. أنت .. أنت ؟

وهتف « خليل أفندى » من ورائه في صوت يقطعه السعال :

— ما شاء الله .. ابن الرئيس عبد الواحد .. إني أذكرك وأنت طفل تصحب أباك .. ما أسرع ما مرّ الزمن .

وكان إبراهيم أفندى ما زال يتمتم مشدوهاً :

— أنت ؟! ابن الرئيس عبد الواحد ؟!

ثم انطلقت من فمه ضحكة قصيرة ساخرة خافتة وأردف قائلاً :

— ٧٣٩ —

— سبحان الله !

ثم رفع رأسه إلى السماء .. وتتم في قول يكاد لا يسمع :

— سبحانك ياربى .. كم لك من حكم .. يدك فوق كل يد .. لقد طرد أفندينا الرجل ، وعاد ابنه ليطردهم جميعاً .. من كان يصدق هذا ؟!

وكره « على » تعليق الرجل .. وكره الموقف الذى يوشك أن يزج به فيه .. مظهر الشماتة والانتقام .. ولم يجد بداً من مقاطعة الرجل ، واستدعائه من مناجاته مع السماء .. فقال في لهجة مترفقة :

— أظن أنه قد بلغكم إبراهيم أفندى قرار مصادرة أموال أسرة محمد على ؟
— أجل بلغنا .

— لقد كلفت من قبل الحكومة بتولى عملية المصادرة .. وإنى أحسن أن المهمة دقيقة .. شاقة ، وكل ما أرجوه أن أتمها بأدنى مضايقة .. وأقل إزعاج ، وأظنك و « خليل أفندى » تستطيعان معاونتنا على ذلك ؟

وازدرد « إبراهيم أفندى » ريقه وهز رأسه فى حيرة ، ثم رفع كتفيه فى استسلام ، ومضت فترة صمت ، قبل أن يجيب فى تردد :

— يبدو أن المسألة لن تكون فيها أى مضايقة أو إزعاج ، ولن تحتاج إلى مساعدة أحد لأنك لن تجد ما تصادره .

وبدت الدهشة على « على » وتساءل :

— كيف ؟ .. وأين الأراضى والمحاصيل ؟ .. والخيول .. والعربات ؟
والمجوهرات ؟

— الأراضى قد أغرقت بمحاصيلها ، والدواب كلها قد سممت ، والعربات قد أحرقت .

— ومن فعل كل هذا ؟

— أفندينا الصغير . البرنس علاء .

— وأين البرنس إسماعيل ؟

— لقد سافر مساء أمس .. طار إلى استامبول .

وأحس « على » بتوالى المفاجآت .. وخشى أن تفقده كثرتها قدرته على الثبات والتصرف ، وبات يتوقع المفاجأة التالية ، وأحس من وشك وقوعها بخيبة أمل مريرة .

أترى القدر قد خذله ، وحرمه من نظرة معزية ، ولقاء أخير ؟! أترأه قد دفع به إلى هنا .. ليريق حنينه على قصر مهجور ، وأرض غرق ودواب نافقة .. وأمير مجنون ؟

أهذا كل ما تبقى له وراء الأسوار العالية ، بعد أن تخطاها ؟
أقد رحلت أميرته الساحرة .. وبخل عليه القدر حتى بالواقع الساخر الأليم الذى رضى به ؟

وتعلقت عينا « على » بالشفتين المغضبتين اللتين تنساب منهما الحقائق المفاجئة المريرة وتوقع أن تنطقا بخاتمة مرارتها ، وتعلنا عن رحيل « أنجى » .
ولكن الرجل لم ينطق بكلمة ، وبدا من صمته أنه قد انتهى مما عنده ، وأن على « على » أن يقول شيئاً .. ينهى به المسألة .

وكان ذهن « على » قد خلا إلا من « أنجى » .. لم يكن يفكر فى لجنة المصادرة ، ولا فى الأرض المغرقة والدواب المسمومة والعربات المحترقة ، كان كل ما يفكر فيه .. هو مصير « أنجى » .. أرحلت مع أبيها .. أم بقيت فى القصر مع أخيها المدمر المجنون ؟

وانطلق السؤال الذى يطنّ فى رأسه .. وفتح « على » شفتيه لايوضح كيف ينوى أن يتصرف فى المصادرة .. بل ليسأل إبراهيم أفندى فى قلق ودهشة :
— والأميرة « أنجى » .. أسافرت معه ؟

— لا . لقد رفضت السفر ، وأصرت على البقاء فى القصر .
وأحس « على » بهزة فى كيانه .. وغمرته موجة فرح عاتية .. جعلته حائراً مشدوهاً .. لا يعرف كيف يتصرف ولا ماذا يفعل .. وبدا له أن يقفز إلى

العربة ، ويندفع إليها ، ليضمهما بين ذراعيه ويفر بها .
كانت تلك هي أقصى أمانيه ، ولكن الوجوه المحيطة به ، والأعين المترقبة التي
تتطلع إليه .. جذبتة من علياء أمانيه إلى أرض واقعه .. وذكره الدوسيه الذي
يحملة « عبد القادر أفندى » مندوب الجمارك ، والحقيبة التي يحملها « حسان
أفندى » مندوب الدمغة والموازين بأن هناك لجنة مصادرة ، وأن هناك عملا يجب
أن يؤدي غير اختطاف « أنجي » والفرار بها .

وكان عليه أن يتالك زمام نفسه ويبت في الأمر الذي أتى من أجله .. ونظر إلى
« إبراهيم أفندى » وقد وقف في عجز واستسلام ، وسأله قائلاً :

— أوافق أنت من كل ما قلت من حرق وإغراق وتسميم ؟
— بل واثق من أن كل شيء قد دمر .. وأنه لم يبق هناك ما يستحق المصادرة .
— والمجوهرات والأموال ؟

— لا بد أن تكون قد هربت .. فلا أظن الذي يقتل الحيوانات حتى لا تنتفعوا
بها .. يمكن أن يبقى مجوهراته وأمواله لتسليمها إليكم لقمة سائغة .. وعلى أية
حال .. القصر أمامكم .. ادخلوا وأدوا واجبيكم .. إن الأمير « علاء » والأميرة
« أنجي » في الداخل ، تستطيعون أن تسألوهما عن كل شيء .. أما أنا فلم يعد لي
« لا في الطور ولا في الطحين » .

وتقدم ضابط البوليس ، وقال لعل في صوت خفيض :
— يجب أن نقتحم القصر .. إن المسألة كما يبدو لي ستحتاج إلى عنف ..
فالبرنس « علاء » إنسان مجنون .. ولا يستبعد عليه شيء .. وإني أفضل أن
أطلب من النقطة قوة ، لكي نستعين بها إذا احتاج الأمر .
ونظر « على » إليه في دهشة وأجاب :

— لِم كل هذا ؟! إن المسألة لا تستحق .. وأنا لا أحب العنف .. لقد فعل
البرنس علاء ما يريد .. وأتلف كل ما يملك .. فليس هناك ما يرر استعماله
للعنف .. ثم إنه فرد .. ولا أظنه يحتاج إلى قوة مسلحة لردّه إلى عقله .

— ٧٤٢ —

ونظر « على » إلى « إبراهيم أفندي » وبقية أعضاء اللجنة .. وبدأ عليه التردد
ثم أردف قائلاً :

— على أية حال .. إني أفضّل أن أسبقكم وحدي .. لأمهد للمسألة ..
ولأرى ما يمكن عمله دون إثارة شعور .. أو جرح إحساس .. إني أعتقد أني
أستطيع أن انهي الأمر بمنتهى البساطة .

(٦٣)

معركة ...

جلس « على » فى العربى الجيب أمام عجلة القيادة بعد أن أنزل السائق ..
واندفع بها وحده يغوص بين الأوحال والمياه التى أغرقت الأرضى وغمرت
الأحواض والطرق .

ولم يتبين حقيقة الشعور الذى دفعه إلى التسلل من بين أعضاء اللجنة
والتخلص من السائق ، والاندفاع وحده إلى القصر .. إلا وهو منطلق بالعربى ،
مخلفاً وراءه كل إحساس بالمسئوليات والعمل .

كان يملؤه شعور خليط من الرهبة والنشوة يدفعه إلى الإقدام على مغامرة طامنا
راودت أحلامه .. منذ رقدة صباه وراء النافذة .. وكان يتملكه ، وهو يندفع
بالعربى ، إحساس الفارس على جواده يعدو لينقذ أميرته الساحرة من وراء
الأسوار .. وكان يحس بمتعة عجيبة من الشعور العجيب الطارئ الذى سيطر
عليه .

ومرّ بالشجرة الضخمة ثم انحرف إلى مدخل القصر .. وقبل أن يبلغه أوقف
العربى تحت إحدى الأشجار المجاورة له ، ثم هبط منها متجهاً إلى السلم الرخامى
العريض .

وصعد بضع درجات ، ثم توقف أمام الباب الحديدى الضخم .. ولم يكن
الباب مغلقاً .. وتلفت حوله فلم يجد مخلوقاً .. ووجد الصمت يخيم على القصر ،
والوحشة تجثم حوله .

ومد يده فذق الجرس ، وبعد برهة خرج إليه خادم نوبى ، ألقى عليه نظرة
فاحصة ، ثم سأله عن يريد .

وأجاب على :

— أريد أحداً من أصحاب القصر .

— لقد سافر أفندينا الكبير .. ولا يوجد غير أفندينا الصغير .

— أريد أن أقابله .

— أقول له مَنْ ؟

— رئيس لجنة المصادرة .

واستعاد الخادم الجملة عدة مرات حتى حفظها ، ثم أفسح له الطريق ، وقاده إلى مقعد في مدخل البهو قائلاً :

— تفضل بانتظاره حتى أبلغه .

وصعد الخادم ، وبعد برهة سمع « على » صوت « علاء » يصرخ في حدة :

— لا أريد أن أقابل أحداً .. إن كل شيء أمامهم .. إذا وجدوا ما يستحق الأخذ ، فليأخذوه .

ومضت لحظة قبل أن يعلو صوت آخر ، جعل قلب « على » يكاد يثب من بين جوانحه ، وسمع صوت « أنجى » يتساءل مستفسراً :

— ما الأمر يا « محمود » ؟

وأجاب الخادم :

— بالصالون ضابط يقول إنه « رئيس لجنة المصادرة » يريد أن يلقي أحداً من أصحاب القصر .

ومضت لحظة أخرى ، ثم سمع « على » صوت « أنجى » يقول :

— قدّم له القهوة .. وسأهبط إليه أنا .

وأحس « على » بأن مشاعره قد أرهفت ، حتى باتت أحد من الشعرة ، وبأن قلبه قد توالى دقاته في عنف ، وأن أنفاسه قد تلاحت في شدة .. وخيل

إليه أن اللحظة الحاسمة التي يتوقف عليها مصيره ، توشك أن تخل .

وأرهف سمعه .. وصوّب بصره إلى انحناء السلم التي ستبدو منها عند

نزولها ، وأطبق يده على حافة المقعد ، وقد توترت أعصابه .
وسمع دقات أقدامها على الدرج .. درجة .. درجة .. حتى وصلت إلى
الانحناء .. ثم بدت له .. حدود جسدها ورأسها في الضوء الباهت الذى ألقته
من ورائها النافذة الزجاجية المزخرفة عند بسطة السلم .
واستمرت فى الهبوط .. وأخذت ملاحظتها تتضح شيئاً فشيئاً .. شعرها الذهبى
المعقوص وراء رأسها .. وملاحظتها الدقيقة .. وجسدها المتناسق .. ولم يكن
يبدو عليها أنها قد ميّزته بعد .. كانت لا ترى فيه سوى شبح الضابط الذى أتى
لمصادرة أموالهم يقبع فى المقعد .. وكان فى نيّتها أن تعتذر إليه ، وتنبى مهمته فى
يسر ، وتجنّب حرق أخيها .

وعندما وصلت إلى الدرجتين الأخيرتين ، نهض « على » للقاءها .. وفى تلك
اللحظة فقط ، استطاعت أن تميز من يكون ، وصاحت وهى مشدوهة
مأخوذة :

— « على » !!؟

وكان أول ما فعلته هى أن شدّت قبضتها على درابزين السلم خشية أن
تتهوى .. وتوقفت لحظة .. معقودة اللسان ، زائغة البصر ، تحس أن الأرض
تكاد تميد بها . وتتايل تحت أقدامها .

وبدا عليها إعياء شديد ، وأحست بأطرافها تبرد ، والغثيان الذى يصيبها عند
الانفعال .. يشتد بها .. وتمنت لو استطاعت أن تتهوى على أقرب مقعد .
وأحسّ « على » بما أصابها .. واندفع يقدم إليها يده حتى تستند إليها .
وهتفت « أنجى » فى مرارة ، وهى تعاود هبوطها محاولة جهدها أن تتالك
وتتأسك ، دون أن تستند إلى يده :

— أقد جئت أخيراً .. لتصادر أموالنا ؟

وأحسّ « على » كأنما قد وجهت إليه طعنة أدمت قلبه .. وملأ الأسى نفسه ،
وهو يلمس ما فى قول « أنجى » من مرارة ، وأحس بأن ما خشيه قد وقع .. وأن

صدمة « أنجى » بلقائه فى هذا الموقف المرير .. قد غلبت كل إحساس آخر ..
وأنها لم تجد ما يرر حضوره سوى رغبته فى التشفى والشماتة .
وأحسن « على » بياس شديد .. وعجز عن تفسير موقفه وإيضاح حسن
نواياه .

إنه يستطيع أن يقنعها بما فى قلبه .. ولكن ليس بكلمات خاطفة فى لحظات
قصار ، وإنما بإحساسه الصادق فى لقاء طويل .. وفى غير هذا الموقف
العصيب .. الذى يقفانه .. وقد بدا كل منهما كأنه خصم للآخر .

ولم يسعفه ذهنه الصاخب إلا بأن يقول :

— أنا آسف يا « أنجى » . إني ...

وقاطعته « أنجى » فى لهجة عصبية مقتضبة :

— لا داعى للأسف .. إنك تؤدى واجبك .. إن القصر أملك افعل كل ما
تريد .. ليس هناك شئ مخبأ ، وسأحضر لك علبة مجوهراتى ... وهى كل ما فى
القصر من أموال .. غير الأثاث .. عن إذلك .

واستدارت صاعدة الدرج .. دون أن تترك له فرصة الرد أو الشرح .

وأحسن « على » بندم شديد .. إن الخطأ خطؤه .. إن أنانيته هى التى دفعته
إلى محاولة اقتناص فرصة لقاء .

لأجل أن يتمتع نفسه برؤيتها ولقائها .. زج بنفسه فى هذا المأزق الحرج ،
وأوقف نفسه موقف الشامت المتشفى .

ماذا كان يمكن أن يتوقع خيراً من هذا ؟! لماذا يأتى هو دون غيره .. لنزع
أملكهم ومصادرة أموالهم ؟

إن القدر .. يأتى أن يرفع عنه النحاس .

كان يجب ألا يندع عن يأسه الدائم المقيم بهذه البارقة السراية الطارئة .. كان
يجب أن يقنع بأوهامه وأحلامه .. بدل أن يقدم على هذه المغامرة التى لم تورثه
سوى الندم والحسرة .

وبعد لحظة هبطت « أنجي » ومعها صندوق مجوهراتها ، وقد حاولت أن تخفى إعياءها وانهايارها وخذلانها بمظاهر التجلد والثبات .
ومدت يدها بالصندوق ، ولم يعرف هو ماذا يصنع به ، لقد كان عليه أن يستدعى بقية أعضاء اللجنة لمباشرة مهمتهم في حصر الممتلكات وفحصها وإثباتها في محاضرها ، وأخذ الإقرارات اللازمة عن الممتلكات المستعملة والتحفظ في أحراز على الأشياء المصادرة .

كان عليه — لكي يؤدي واجبه كرئيس للجنة المصادرة — أن يفعل كل هذا . ولكنه كان يفزع من أن ينتهى الأمر إلى مثل هذا الواقع البغيض ، وأن يكرههما القدر على وداع قد خلا إلا من مظاهر الخصومة والبغضاء .. وأن يجرمه من متعة آخر لقاء ، وأن يفرض عليه ما حاول أن يتجنبه ويتقيه ، وأن يؤخذ ظلماً بآخر ما يمكن أن يقدم عليه .

وأحس أنه يجب أن يمنح الفرصة والوقت لكي يوضح الأمر ، فأعاد إليها الصندوق قائلاً في رفق :

— أرجوك يا « أنجي » . إني لم أقصد قط

ولكنها قاطعته قائلة في مرارة دون أن تمد يدها لأخذ الصندوق :

— أرجوك يا « على » .. لا ضرورة للتوضيح .

وحاول « على » أن يكبت ألمه ، وقال في هدوء وهو يمد يده بالصندوق :

— ولكنك تستطيعين الاحتفاظ بما تريدين من المجوهرات التي ...

وعادت « أنجي » تقاطعه في لهجتها الجافة :

— لا داعي للعواطف .. أدّ واجبك .

وأحس « على » بالدم يتصاعد إلى وجهه ، وببوار الغضب تغلي :

صدره . وقال في حق :

— إن هذا هو واجبي .. إن الأوامر لدينا أن نترك لكم الحلي التي تحتاجونها

لاستعمالكم الشخصي .. ولكن ما دمت تأيّن أن تحتفظي بشيء منها .. فأنت

وشأنك .

وصمت برهة وهو يحاول أن يسكت نوبة الغضب التي أثارها « أنجي »
بظلمها له وإصرارها على ترك الاستماع إليه . وأخيراً قال في لهجة يائسة :
— لقد حاولت أن أفهمك .. ولكنك لا تودّين أن تسمعي . ولا تريدين
حتى أن تمنحيني فرصة الكلام .

وأحسّت « أنجي » بما يعتمل في نفسه من ألم وضيق ويأس ، وهو يستدير
متجهاً إلى الباب قائلاً :

— عن إذنك .. سأدعو بقية أعضاء اللجنة من مكاتب الدائرة حتى يباشروا
أعمالهم .

وقبل أن يبلغ الباب هتفت « أنجي » فجأة ، كأنما قد تذكرت شيئاً هاماً :
— على .

وأدار « على » وجهه ناظراً إليها في دهشة ، فأردفت قائلة في لهجة حزينة
متوسلة :

— من فضلك .. لقد كدت أنسى .. هناك شيء في الصندوق ، أريد أن
ترده لي .

ومد « على » يده بالصندوق قائلاً :

— لقد قلت لك إنك تستطيعين الاحتفاظ بما تشائين ، وليس هذا تفضلاً
منى ، لأن هذه هي التعليمات التي تلقيناها .

وأمسكت « أنجي » بالصندوق ، وفتحته بيد مرتجفة ، وهي تقول في اعتذار
ذليل :

— إنه شيء بسيط .. لن ينفعهم كثيراً .. ولكنه عزيز لدي .. وأخذت
تبحث بين قطع الحلوى وهي تتمتم :

— إنى لا أستطيع الاستغناء عنه .. ويمكننى أن أعرضهم عن ثمنه إذا أصرّوا
على أخذه .

و لم يطل بها البحث حتى أخرجت بأناملها سلسلة دقيقة ، قد تدلى منها قلب ومفتاح .

ونظر « على » إلى « أنجي » مشدوهاً . وهى تضم القلب إلى صدرها فى حرص شديد ، وتمس قائلة :

— الحمد لله .. لقد رد إليّ .. كدت أفقده .

وسرت رجفة فى جسد « على » .. وأحس بجلاميد اليأس والحزن والأسى والألم تتفتت وتذوب .. كأنما قد صهرتها أشعة سرت إليها من القلب المردود .. ونظر إلى وجه « أنجي » .. وقد بدت عليه سيما اللوعة وهى تهمس به قائلة :

— أشكرك .. يمكنك أن تذهب لمواصلة عملك ، وتأدية واجبك .

وهمس « على » فى صوت يذوب رقة وعطفاً ، وقد نسى كل ما مر به :

— أنت واجبى الأول . إني لم آت هنا إلا لأجلك .. لأجل أن أراك .. وأقبك كل سوء .. وأدفع عنك كل شر .. كانت فرصتى للوحيدة لكى أراك .. فغامرت بانتهازها .. رغم ما خشيته من تعريض نفسى للمظان والشبهات .. كان لى أمل فى أن تغلب ثقتك فى .. سوء ظنك بموقفى .. وكنت أرجو أن أفسر لك سبب قبولى المحيى ، ولكنك خيبت أملى ورفضت حتى أن تستمعى إليّ .

وأجابت « أنجي » وهى ترفع إليه عينين ملوئهما الأسف :

— كانت مفاجأة رؤيتك أشد من أن تحتمل . لقد هزت كيانى هزاً . كدت أن أسقط مغشياً علىّ .. كنت آخر من أتوقع . فلما أبصرتك بعد طول فرقة .. ونحن على هذه الحالة من الركوع والضعفة والمذلة .. ظننت بك سوءاً وخلتلك قد أتيت للتشفى .

— أتشفى فيك أنت ؟! أتشفى فى نفسى ؟

— أما زلت نفسك .. بعد كل هذا الزمن الذى مضى ؟

— إن الزمن الذى يغير كل شىء ، لم يغيرك فى نفسى . لقد كنت أثبت على الزمن .. من الزمن نفسه .. لم يستطع شىء قط أن ينزعك من أعماقى .. كم

— ٧٥٠ —

حاولت وأدك في قلبي .. ولكن كانت توقظك في قلبي أول هزة حنين ورجفة شوق .. إني على فرط يأسى منك .. كنت أعتبرك أملى الدائم وأمنيتى الخالدة .. أبعد هذا كله تسيئين بى الظن ؟

وقبل أن نجيب « أنجى » ارتفع صوت علاء يصيح في حدة :
— محمود .

وسمع صوت الخادم يجيب عليه :
— أفندم .

— ألم ينته بعد هولاء الفجر من مهمتهم :
— لا .

— عجباً ! ماذا يقيمهم ؟ إنهم لن يجدوا ما يأخذونه . لقد أقسمت على هذا .
وساد الصمت ، فهمست أنجى لعلى :
— أظن يجب عليك أن تذهب لمواصلة عملك .

— وماذا تبقى لنا من عمل بعد أن دمر علاء كل شيء .. إن كل ما سنقوم به لن يعدو إجراءات شكلية .. سنأخذ منكما إقرارات عن القصر الذى ترغبون فى الإقامة فيه ، والعربة التى تودون استعمالها .
وصمت برهة ثم أردف متسائلاً :
— أين ستقيمين أنت ؟

— أنا !؟ لست أدرى .. كل شيء يتساوى فى نظرى .. إني أحس إحساس الضالة الهائمة التى حكم عليها بأن تظل فى هيامها حتى تموت .
وصمت « على » برهة ، وأطرق ، وبدأت عليه سيما التفكير العميق ، ومد يده يبعث بالقلب الذى تدلى من السلسلة التى أمسكت بها « أنجى » وقال وهو ما زال مطرقاً :
— وددت لو أسألك سؤالاً .. أخشى أن تسيء الظن به ؟
— لن أسئ الظن بك أبداً .

— لقد اتهم أبوك .. أبى بالجنون .. عندما حاول أن يخطبك لى منه . ترى لو حاولت أن أكرر السؤال فى هذه الظروف .. أنظنين لى جنوناً ؟ وفاجأ السؤال « أنجى » .. وأحسست برغبة جارفة فى البكاء ، وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى ، حتى توقف نوبة البكاء .. ولم تستطع من فرط المفاجأة أن تبين حقيقة مشاعرها .. كان ما بها خليطاً من دهشة ونشوة وحزن ويأس ، ومشاعر أخرى لا تستطيع تسميتها ولا تحديدها .

ولم تجب .. ورفع « على » بصره إلى عينيها المغرورقتين وهمس فى شبه اعتذار :

— أرجو ألا أكون قد ألتك .. لى لا أنتهز فرصة ركوعكم كما سميتها . لأنى لا أراك أبداً إلا على هام السحب .. ولا أراى إلا راکعاً أمامك أبد الدهر .. مهما كنت أنت ، ومهما كنت أنا . لى أحبك . أحبك منذ أن كنت صيماً أرتدى البنطلون « المرقع » . منذ ذلك الحين حتى الآن ، وأملى فىك لم يتقطع لحظة واحدة . ولكن كانت تمنعنى عنك سدود هائلة من اليأس ، أحس فى هذه اللحظة أنها قد زالت ، وأنى أستطيع أن أخطأها إليك .. ذلك هو ما دفعنى إلى سؤالى هذا . فإذا كنت قد أسأت إليك فاغفر لى إساءتى .

وترقرقت فى عين « انجى » دمعتان ما لبثتا أن تحدرتا على خديها وأجابته فى صوت يخنقه البكاء :

— كيف تسمى لى ؟ .. أتسمى لى بأحب ما سمعت .. لقد رددت لى قلبى مرتين .. مرة حين رددت لى الحلية .. ومرة حين همست لى بسؤالك .. لقد أحسست من مجرد سماعه بأنى لم أعد ضالة ولا هائمة .. وبأن هناك مرفأً يلوح لى .. يمكن أن أقصده وأستقر عليه .. لقد سألتنى الآن ، « أبى ستقيم ؟ » ولو كانت لى الشجاعة لهفت مما جال فى نفسى ، وقلت لك « حيث تقيم أنت » .

وخيل لى « على » وهو يسمع حديثها أنه واهم .. وأن كل ما مر به لا يعدو

— ٧٥٢ —

أن يكون أضغاث أحلام ، ووجد نفسه يهتف في نشوة :

— اتقولين حقاً ؟

— أجل !

— إذاً هيا بنا !

— إلى أين ؟

— إلى حيث نقيم سوياً .

— الآن ؟!

— ولم لا ؟

— وعملك ؟

— يمكن تأجيله .

— وعلاء ؟

— دعيه في خرائبه ومذايحه .

— وأنى ؟

— لا تأبى لمخلوق .. كفى ما أضعنا من عمرنا .. لنهدم اليوم كل ما حال بيننا

من سدود .

— إذاً . انتظر حتى أحضر ...

— لا تحضري شيئاً .. هيا بنا الآن .. يجب ألا نضيع لحظة واحدة .. إني

أخشى الزمن .. وأخشى أن يراجع نفسه فيسلبنا ما أعطى .. هيا بنا .

وأمسك بيدها وشدها إليه في فرحة جنونية ، واندفع إلى الباب .. وقد

أغمض عينيه عن كل ما حوله من واقع ، ولم يعد يبصر سوى أمنية العمر ، وقد

باتت ملء يده .

وتجاوز الشرفة هابطاً الدرج ، متجهاً إلى العربة الجيب ، وملء نفسه

إحساس الفارس الهارب بأمرته الساحرة .

ولم يكذب يقترب من العربة حتى فوجئ بدوى رصاصة استقرت في زجاج

العربية فهشمته .

وفزع « على » وصرخت « أنجى » . وتلفت ليرى مصدر الطلقة فإذا
بقهقهة « علاء » تعلق من الشرفة العليا وقد وقف ممسكاً بمسدسه وصاح ساخراً
وهو يشير إلى « أنجى » :

— أهذه ضمن الممتلكات المصادرة يا حضرة الضابط ؟

وعقدت الدهشة لسان « على » فلم يجز جواباً .

وعاد علاء يصيح :

— لو كنت أعلم بما تنوى أن تفعله لسممتها كبقية الدواب ، ولكنى كنت
أظن أن لها عقلاً يميزها عن الدواب .. دعها تعود .. فلقد أقسمت ألا تأخذوا منا
قشة واحدة .

وحاول « على » جهده أن يتمالك نفسه ويستعيد رباطة جأشه ، وصاح به في

عزم وإصرار :

— بل سنأخذ كل شيء .. سنأخذ الأرض الطيبة الباقية .. التى لم يستطع
أجدادك ، ولم تستطع أنت أن تغير منها شيئاً .. وسنأخذ الروح الجميلة الخالدة
التي لم ينل من جمالها وطهارتها .. كل ما أحاط بها . من سوء وحقد وشر ..
سنأخذ أجمل وأبقى ما لديك .

وصاح « علاء » في غيظ وحقد وتهديد :

— دعها تعود .

ورد « على » في عناد :

— لن تعود .

ودوت رصاصة ثانية .. استعاض بها « علاء » عن إجابته واستقرت
الرصاصة في قدم « أنجى » فندت عنها صرخة حادة وسقطت في الوحل ممسكة
قدمها التي أخذت تنزف منها الدماء ، وجن « على » وانحنى على « أنجى »
يفحص قدمها .

وأتت صيحة علاء مرة أخرى حادة منذرة :

— دعها واذهب .

وهم « على » يحمل « أنجى » ليضعها داخل السيارة ويتعد بها عن مرمى الرصاص .. ولكن لم يكد يمد إليها بديه حتى دوت رصاصة ثالثة استقرت في جذعه ، وقد انحنى على « أنجى » ، فصرخ في ألم وخرّ في الوحل .

وأعقبت الرصاصة صيحة « علاء » ساخرة شامته :

— قلت لك دعها .. وإلا قضيت عليكما .

وأحس « على » بعجزة عن حماية « أنجى » ، وخشى على حياتها أن يضيعها ذلك الأحمق المجنون ، الذى يلهو بالطلقات ، وهمس بها في يأس أليم :

— عودى إليه يا « أنجى » .

وأجابت « أنجى » هامسة في إيمان عميق :

— بل سأبقى إلى جوارك .. إني أحبك ، وأحب هذه الأرض ، وأحب مصر كلها .. وخير لى أن أموت معك على هذه الأرض .. من أن أحيامعه في أبراج القصر .

واستمد « على » من قولها الخالص شجاعة وقوة وإيمان ، وسألها أن تزحف في دروة العربة .. وأخذ يجبر جسده ، ويزحف يبطء حتى استتر في جانب العربة بجوارها ، ثم أطبق يده على مسدسه الذى وضعه في قايش البنطلون أسفل السترة .

ومضت لحظة سكون كان « علاء » يرقب خلالها ماذا ينويان فعله .. ولم يكد يصير يد « على » تسحب مسدسه حتى أطلق عليه الرصاصة الرابعة ، ومست الرصاصة كتف « على » ومر بأذنه فحيحها .. ثم سمعها تطرق سطح التى غمرت الأرض ، وتطاير الرشاش ، واستدارت الدوائر ، ثم غاصت الرصاصة في باطن الوحل ، وبدت الأرض وقد أغرقها المياه واختلطت خيوط الدم الأحمر بمياهها السوداء .

وعلا صوت « علاء » ساخراً ، وصاح بعلى :

— ما رأيك في رهان يا حضرة الضابط .. رهان على أرواحنا .. الفائز منا يأخذ روح الآخر ؟

وأحس « على » وهو يخوض المعركة مع المجنون كأنه في كابوس مزعج أو دوامة مخيفة .. وكانت الحوادث تتلاحق مفاجئة بسرعة البرق ، دون أن تترك له لحظة تفكير .

ولم يكن أمامه إلا أن يطلق طلقة بطلقة .. فإما أن يردى المجنون ، أو يرديه المجنون صريعاً .

واستتر « علاء » وراء حافة الشرفة ، وأطلق رصاصة أخرى ، وكانت « أنجي » قد التصقت بعلى .. وأحست بقلبيها ينزع وراء كل طلقة واستقرت رصاصة « علاء » في إطار العربة .

— وأسند « على » مسدسه على حافة العربة ، وهو يحس بيده ترتجف وجسده يتداعى ، وأطلق رصاصته الأولى فأصاب حجر الشرفة .. وعلت قهقهة « علاء » ساخراً :

— غشيم .. يجب أن يعيدوك إلى المدرسة لتعلم الرماية ، لو قدر لك أن تنجو من هذه الطلقة .. انظر .. وتعلم أصول التنشين .. هذه الطلقة ستستقر في ولم يتم جملة .. فقد انطلقت رصاصة « على » الثانية لتستقر في رأسه .. وتتمت الكلمة على لسانه .

وأحس « على » بعد ذلك بقواه تخور .. وجسده ينهار ، وبالمرئيات تختلط أمام عينيه .. ومضت فترة دون أن يسمع فيها طلقات « علاء » .

وأحس بالأسى والمرارة وهو يشعر أنه قد اضطر لإصابته . وسقط المسدس من يد « على » .. وسقطت يده إلى جانبه ، ثم تهاوى جسده إلى الأرض المغرقة بجوار العربة .

وانحنى عليه « أنجي » وقد أحست بقلبيها يتمزق ، وهتفت به في صوت يخنقه البكاء :

— على .. هيا يا على .. سأساعدك على ركوب العربية ، وسأسوق أنا ونخرج من هنا . سنفرّ وحدنا لنعيش سوياً . هيا يا « على » .
وأمسكت بكتفيه نحاول مساعدته على النهوض ، وقد أغرقهما الوحل وغمرتهما المياه .

وهمس بها على :

— لا أستطيع النهوض .

وأغمض عينيه .. وبدأ على وجهه الألم .. وانحدرت الدموع من عيني « أنجي » فسقطت على وجهه وهتفت به :

— لماذا يا على ؟ ماذا بك يا حبيبي ؟

وأجاب « على » وهو يحاول أن يتنسم :

— لا شيء يا أنجي .. لا شيء يا حبيبي .. مجرد ثقب في البنتلون .. أتذكرين يا أنجي جلستى أمام الترولى .. إني خجلت من النهوض به أمامك . وأخشى أن تصغى لى به رقعة .. عدينى أن تهاينى بنظولنا جديداً .. وأؤكد لك أنى لن أرفضه .. إنى أحبك يا أنجي .. لقد حلمت بك طول حياتى .. وسأحلم بك الآن عندما أغمض عيني .. لم تستطع سدود الفوارق أن تنزعك من نفسى فيما مضى ، ولن تستطيع سدود الموت أن تنزعك منى الآن .. لقد كنت ملكى .. وستظلين ملكى دائماً .

— إنى ملكك يا حبيبي .. لن تقوم بيننا سدود الآن .. ولا حتى سدود

الموت .. أجبني يا « على » .. لا تغمض عينيك ، ولا تطبق شفثيك .. إلا أستطيع أن أحدثك ولو بضع لحظات !! أبعد طول حرمان منك وبعد عنك .. تغمض عنى عينيك ولا تحيبنى بغير الصمت ؟! أجبني يا « على » .. قل إنك « تحبني » .

وخيم السكون وساد الصمت .. إلا من أنات موجعة وصرخات حييسة ، وبدأ المكان موحشاً خرباً .. زاداته الأنات وحشة فوق وحشة ، وخراباً على خراب

(٦٤)

الخاتمة

أقبل رجال البوليس على صوت الطلقات ، مندفعين في ذهول من مكاتب الدائرة إلى مدخل القصر ، فوجدوا « علياً » فاقد الوعي ، راقداً في الأوحال بجوار العربة ، وقد انحنى عليه « أنجى » تمنّ أنيناً موجعاً .. وقد روعها الفرع ، وأخذ الدم ينزف من قدمها .

وأنبأتهم « أنجى » في نبرات متقطعة ، وصوت مرتجف بما حدث .. فطلب الضابط عربة الإسعاف .. وصعد إلى الشرفة العليا ليجد « علاء » قد فارق الحياة .

وحضرت عربة الإسعاف فحملت « على » و « أنجى » إلى المستشفى .
ورقد « على » فاقد الوعي وقد ألحّ عليه الداء وصرعته الحمى .. وأحس بنفسه يخوض وسط أكداس ثقيلة من الضباب المعتم .. محاولاً أن يتخطى أسواراً عالية .. لا حدود لها ولا نهاية .. وقد تلاحقت أنفاسه وتداغت قواه .
ولم يكد يصل إلى نهاية السور حتى تدفقت عليه موجة طاغية هوت به إلى أسفل القاع .

واستمر يتأرجح في هذيان الحمى بين القمة والقاع ، كلما وصل إلى القمة لطمته الموجة فردّته إلى القاع ، ولا يكاد يصيبه اليأس في نضاله المرير حتى يحس بيد قد امتدت إليه وسط الظلمات المعتمة لتدفعه إلى أعلى ، ولتعيد إليه قواه وتشدّ أزره .

ووسط الضباب والأمواج .. يتطلع إليه بين آونة وأخرى وجه « كريمة » وقد أحاطت به الأربطة البيض .. فلم يد منه سوى عين تستعطف وشفة ترجو .

ويختفى وجه « كريمة » ليحل محله وجه « أنجي » يرمقه في حنين ويهتف به « ماذا بك يا « على » ؟! ماذا بك يا حبيبي ؟ » .

وأبليت « أنجي » من جرح قدمها ، وتولت تمريضه والسهر عليه .. ومَرَّت بها الليالي الطويلة ، وهي ترنو إليه في صراعه بين الحياة والموت .. وقد أحست بروحها تخوض معه المعركة .. وتناضل الموت من أجله .

وكلما هتفت باسمه أحس باليد التي تعينه في الظلمات قد اشتدت ، وبقدرته على المقاومة قد زادت .

وفي ذات ليلة أحسّ بالضباب قد أخذ ينقشع رويداً رويداً .. وبالأمواج الهادرة تنحسر .. وبداله كأن حبلاً دقيقاً قد امتد ليرفعه إلى أعلى السفع .. ولم يصعب عليه التسلق .. فقد وجد الحبل يجذبه بخفة حتى وصل إلى أعلى السفع .. وأشرف فيه على ربوة خضراء أحس منها سكوناً جميلاً .. وأمسك بالحبل الدقيق ، فإذا بنهايته قلب ومفتاح .

وفتح عينيه ليجد وجه « أنجي » يطل عليه في وإلهة وهفة ، وقد بداله من عينها شعاع غمره بفيض من الحب والحنان .

وتطلع إلى وجهها في سكون واستسلام ، كما كان يتطلع إلى الربوة الخضراء الساكنة الآمنة .. وأبصر في عنقها السلسلة الدقيقة ، وقد تدلى منها القلب والمفتاح .

وعلت شفثيه ابتسامة رقيقة وهتف بها :

— « أنجي .

— نعم يا « على » .

— أكنتِ بجوارى دائماً ؟

— أجل .

— وستظلين بجوارى ؟

— دائماً .. دائماً .

— ٧٥٩ —

وغاضت الابتسامة من شفثيه .. وبدا شارد الفكر ، تائه النظرات .
وتحسست « أنجى » رأسه وتساءلت باسمه :

— فيم تفكر ؟

— فى صحور آمالنا التى تتحطم عليها مراكب أعمارنا .. فى الحياة التى
لا تحقق أحلامنا إلا بعد أن تعتصر دماغنا .. عندما أفكر فى رقدتى وراء النافذة فى
صباى .. ورقدتى الآن .. أحس براحة ممتعة ، وسكينة لذيدة ، وأنا أجذك
بجوارى أستطيع أن أمس يدك ، وأسمع حديثك .. لقد فعلت من أجل هذا
الكثير .. ولكنى أجد أنه يستحق كل ما فعلت من أجله .

وانحنى « أنجى » فمست شفثيه فى رفق .. وعندما رفعت شفثها ظل القلب
المدلى من السلسلة مستقراً على صدره .. ومدّ « على » يده فأمسك بالقلب فى
رفق ووضعته على شفثيه وهمس قائلاً :

— هذا القلب له على فضل الحياة .. وفضل البعث .. لقد رددته إليك .

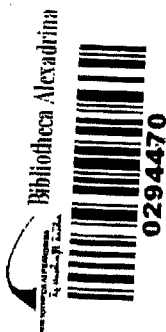
فردّك إلى !

فهرس الجزء الثاني

| صفحة | صفحة |
|-----------------------------|-----------------------------|
| ٥٨٢ ٥١ — في الأعماق | ٣٩١ ٣٦ — مغامرة |
| ٥٩٥ ٥٢ — هزيمة | ٤٠٢ ٣٧ — لطمة موجة |
| ٦٠٩ ٥٣ — شائعات | ٤١٦ ٣٨ — قلبان في قلب |
| ٦٢٢ ٥٤ — وراء سراب | ٤٢٩ ٣٩ — قطيعة |
| ٦٣٥ ٥٥ — سيف الملك | ٤٤٢ ٤٠ — وأكثر ! |
| ٦٤٨ ٥٦ — مذنبه تستغفر | ٤٥٤ ٤١ — رحيل وعودة |
| ٦٦٠ ٥٧ — وراء الأسوار | ٤٦٧ ٤٢ — مجرد هذيان |
| ٦٧٣ ٥٨ — فجر جديد | ٤٧٩ ٤٣ — مجنون خطر |
| ٦٩٠ ٥٩ — يد مرتجفة | ٤٩٠ ٤٤ — أكثر من عطف |
| ٧٠٢ ٦٠ — غروب ! | ٥٠٥ ٤٥ — يأس متبادل |
| ٧١٦ ٦١ — لا شماتة | ٥١٩ ٤٦ — مزيد من أمل |
| ٧٣٢ ٦٢ — دمار ! | ٥٣٥ ٤٧ — رماد |
| ٧٤٣ ٦٣ — معركة | ٥٤٧ ٤٨ — انطلاق |
| ٧٥٧ ٦٤ — الخاتمة | ٥٥٩ ٤٩ — وعيد |
| | ٥٧١ ٥٠ — منفي ! |

تمت

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صديقي - النجيلة



الثلث ٨٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه